الحرف والصناعات التقليدية
بين الثبات والتغير

تأليف

دكتورة اعتماد علام
أستاذ علم الاجتماع المساعد
بجامعتي عين شمس و قطر

الطبعة الأولى

١٩٩١

مكتبة الأنجلو المصرية

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية - ١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة - ج. م. ع.

الحرف والصناعات التقليدية
بين الثبات والتغير



محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مقدمة

إن الاهتمام بدراسة الصناعات التقليدية كنمط من أنشطة القطاع غير الرسمي ، قد بدأ في أوائل الستينيات مع بداية المعالجة العلمية لقضايا التنمية خاصة في دول العالم الثالث . وخلال السنوات القليلة الماضية نال موضوع الصناعات التقليدية اهتماماً كبيراً من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية في الدول الصناعية المتقدمة ، ودليل ذلك ما يحظى به تراث العلوم الاجتماعية الغربي من مداخل نظرية حديثة تهتم بدراسة القطاع غيرالرسمي من حيث الخصائص الحرفية ونوعية العمالة والأجور . والدراسة الحالية التي نحن بصددها تعرض لبعض تلك المداخل بصورة موجزة كما تحاول أن تختبر إحدى الفرضيات الهامة منها والتى تربط بين الهجرة للمدينة والاشتغال بأنشطة متنوعة داخل القطاع غير الرسمي في المدينة . ولعل السبب في اختيار تلك الفرضية يرجع إلى أن اتجاهات التحضر في جمهورية مصر العربية تشير إلى نمو المدن الكبيرة مثل القاهرة ، وأن هذا النمو المتزايد خلال النصف الثاني من القرن العشرين يواكبه زيادة كبيرة في هجرة سكان الريف إلى المدن الكبرى خاصة مدينة القاهرة ويستقرون بها بحثاً عن العمل.

وخلال العقدين الماضيين ، اتسع مجال اهتمام علماء الغرب بالصناعات التقليدية حيث تتخطى الدراسات الميدانية مجالات الوصف والمسوح الاجتماعية ، لتغطى مجالات جديدة أكثر عمقاً كدراسة الخصائص الحرفية ونوعية حياة الحرفيين . ويعتبر هذا المجال إضافة جديدة إلى مجالات الاهتمام الأخرى التي تشد انتباه علماء الاجتماع بعد أن ظلت الحرف والصناعات التقليدية ولسنوات طويلة بعيدة عن بؤرة اهتمامهم . وفي هذا الصدد ، نجد أن علماء الاجتماع في الدول الغربية ، يولون اهتماماً كبيراً بالاسهامات النظرية السابقة التي تتناول الخصائص الحرفية . ومن أهم تلك الاسهامات ، نموذج خصائص الحرفية عند س. رايت ميلز. والذي يعتبر بما يتضمنه من ست خصائص، نموذجاً مثالياً للحرفية يصلح كأداة تحليلية في الدراسات الميدانية .

بيد أن الدراسات السوسيولوجية العربية لاتزال - على حد علمي - تنحصر في أفلاك الوصف والمسوح الاجتماعية . وذلك رغم أهمية دور القطاع غير الرسمي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدول النامية عامة ولجمهورية مصر العربية على وجه الخصوص . ومن ثم كان من الضروري أن تتنوع مجالات الاهتمام في دراسة أنشطة هذا القطاع بحيث تتخطى مجالات الوصف والمسوح إلى مجالات أكثر تعمقاً حتى يمكن التوصل لاستخلاصات إمبيريقية تتصف بالشمولية حول تلك الأنشطة بما يفيد السياسات التنموية القومية ، كما يخدم أهداف البحث العلمي في العلوم الاجتماعية .

ومن ثم تحاول الدراسة الحالية ، ملء جزء من الفراغ الملموس في مجال الأبحاث السوسيولوجية يتعلق بالخصائص الحرفية للصناعات التقليدية انطلاقاً من نموذج الحرفية عند س. رايت ميلز ، وذلك انطلاقاً من فرضية مفادها أن التحولات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي يشهدها المجتمع المصري فترة ما بعد منتصف السبعينيات تسفرعن مؤشرات قوية لها بصمات واضحة على الصناعات التقليدية . حيث باتت خصائص الحرفية تتصف بالتأرجح بين الثبات والتغير . كما أنه توجد مؤشرات قوية نحو اندثار بعض تلك الخصائص مما يهدد نشاطات الصناعات التقليدية بالتدهور والاندثار .

ونود قبل أن نستهل حديثنا حول محتويات المؤلف الذي بين أيدينا ، أن نؤكد النقاط الأساسية التالية :

١ - أن البحث الراهن وهو بصدد دراسة خصائص الحرفية بين الثبات والتغير ينطلق من نموذج ميلز دون الأخذ بالمقولات الست جميعها بل يقتصر في تحليله على خمس مقولات بينما يرجأ المقولة السادسة والأخيرة لدراسة مستقبلية .

٢ - أن ما نؤكد هنا هو أن البحث الراهن لم يكن هدفه اقتصادياً يتعلق بأهمية الحرف والصناعات التقليدة للاقتصاد القومي ، بل يعتبر الهدف أكاديمياً .

٣ - أن البحث الراهن لم يقدم معالجة موسوعية لكل ما يتصل بالحرف والصناعات التقليدية ، بل يهتم بدراسة خصائص الحرفية فضلاً عن أخلاقيات العمل الحرفي وما

يعتريها من تغير، قياساً على الأخلاقيات التى كانت سائدة في نظام الطوائف الحرفية . وذلك من خلال دراسة امبيريقية لعينة محدودة من الحرف والصناعات التقليدية بالقاهرة القديمة . وقد بدأت الدراسة الاستطلاعية خلال خريف عام ١٩٨٧ . وتم جمع البيانات الكيفية خلال خمسة أشهر (أول يناير حتى نهاية مايو من عام ١٩٨٩) .

وقد جاء هذا المؤلف في ثمانية فصول ، يختص الفصل الأول بموضوع البحث وإطاره التصوري ، ويتعلق الفصل الثاني بالتاريخ الاجتماعي للنظام الحرفي ، ويناقش الفصل الثالث الدور الاجتماعي الاقتصادي للطوائف الحرفية في مصر بين النشأة والاندثار : رؤية نقدية ، ويتطرق الفصل الرابع إلى الثقافة الحرفية بين الثبات والتغير ، ويعرض الفصل الخامس منهجية البحث ، أما فيما يتعلق بنتائج البحث الميداني عن الحرف والصناعات التقليدية في كل من حارة اليهود والمغربلين فيشملهما الفصلان السادس والسابع على التوالي ، ويتضمن الفصل الثامن تحليلاً ومناقشة لنتائج البحث .

ولا يسعنى إلا أن أتقدم بعميق الشكر إلى الأستاذ الدكتور محمود فهمي الكردي على تفضله بالتعقيب وإبداء بعض الأراء البنّاءة التي لاشك أثرت هذا البحث وذلك من خلال (سيمنار) قسم الاجتماع في جامعة قطر خلال خريف ١٩٩١ . كماأتوجه بالشكر للأساتذة الزملاء بقسم الاجتماع جامعة قطر على ما أبدوه من أفكار وأراء من خلال مناقشة البحث الراهن في (سيمنار) القسم .

ولا يفوتنى أيضاً أن أشكر كل من ساهم ولو بقدر يسير في إخراج هذا المؤلف على هذا النحو ، وأخص بالشكر كلاً من الأستاذ أبو بكر على عبد العليم لتفضله بالمراجعة اللغوية للبحث وكذلك الأستاذ سامى كماله لما قام به من جهد مشكور في نسخ المؤلف .

أيضاً فإننى أتقدم بالشكر إلى السادة الاخباريين وأرباب الحرف والكثيرين من المقيمين في حارة اليهود والمغربلين على كل ما قدموه من عون مخلص واستقبال طيب واستعداد متجدد لمساعدتى خلال الدراسة الميدانية .

أرجو أن أكون قد وفقت من خلال هذه الدراسة في تقديم أفكار وأراء تفيد الدارسين والمهتمين بالقطاع غير الرسمي . كما آمل أن أكون بهذا الجهد قد أسهمت في تزويد المكتبة العربية بدراسة تفتح المجال لمزيد من الدراسات المستقبلية في هذا الحقل .

والله أسأل أن أكون قد هُديت إلى جادة الصواب في إصدار هذا المؤلف العلمي المتواضع .

اعتماد محمد علام

الدوحة في نوفمبر ١٩٩١

الفصل الأول

موضوع البحث وإطاره التصوري

أولاً : الحاجة إلى الدراسة
ثانياً : الهدف العام للبحث
ثالثاً : المفهومات الأساسية
رابعاً : التعريف الإجرائي للحرف والصناعات التقليدية
خامساً : المداخل النظرية لدراسة الحرف والصناعات الصغيرة
سادساً : النمط المثالي للحرفية عند س. رايت ميلز كإطار تصورى للدراسة

الفصل الأول
موضوع البحث وإطاره التصوري

المقدمـــة

إن المتفحص لواقع الحرف والصناعات التقليدية بين الماضي والحاضر من خلال القضايا الاجتماعية التي تثيرها إسهامات العلماء المهتمين بالدور الاقتصادي الاجتماعي لتلك الحرف ، قد يجد بين يديه ثلاثة ملامح أساسية تجسد البنية الحرفية وما تتصف به من ديناميات : (١) من المنظور التنظيمي ، تتأسس الحرف والصناعات التقليدية على جهود فردية غير منظمة ، كما تضم سوقاً داخلياً للعمالة الحرفية غير المؤهلة تأهيلاً علمياً ؛ (٢) من المنظور الاجتماعي ، غالبا ما يسود نمط العلاقات الأولية البنية الاجتماعية ومجال أداء العمل الحرفي ؛ (٣) من المنظور التقني ، لا تنهض العملية الإنتاجية وعلاقات العمل والإدارة في الحرف والصناعات التقليدية على أسس من الإدارة العلمية ، كما يكون الفرد الحرفي هو الوحدة المهنية الأساسية للبنية الحرفية . ومن ثم يكون للمهارة اليدوية الهيمنة شبه الكاملة في أداء العمل الحرفي ، بينما تمثل الأدوات ذات المستوى التقني البسيط عاملاً ثانوياً إلى جانب تلك المهارة . ومجمل القول أن المستوى التقني البسيط الذي تتصف به الحرف التقليدية يستمد استمرارايته وقوته من نبع الثقافة المتوارثة والتي تعبر عن الواقع الاجتماعي المتمثل في حاجة المجتمع لممارسات تلك الحرف خلال مراحل تاريخية متعاقبة .

ومن خلال الإسهامات المبكرة التى يذكرها علماء التنظيم وعلماء الاجتماع المهني حول الحرف وتوقعاتهم باتجاه هذه الحرف للانقراض أمام تنامي الوعي الاجتماعي العالمي للأخذ بالنمط الحديث للتصنيع ، يقدم لنا تراث علم الاجتماع ثبتاً من الخصائص العامة التي تصف النظام الحرفي.من جهة أخرى،لو حاولنا استقراء المفهومات والاستراتيجيات التي تنتهجها دول العالم بغية تنمية الصناعات الصغيرة ، لوجدنا تباينات واضحة بين تلك المفهومات من حيث الكم والكيف . كما نجد اختلافات مماثلة في الأساليب التي تنتهجها دول العالم فيما بينها لادماج الأنشطة الحرفية ضمن الأنشطة الاقتصادية

القومية .ولقد أثارت تلك الاختلافات بين المفهومات التطبيقية للصناعات الصغيرة ، العديد من القضايا من أهمها ما يتعلق بالخصائص والملامح الأساسية للحرف والصناعات التقليدية، وحجم ونوعية العمالة ومستويات المهارة .

ومن أهم الإسهامات النظرية الرائدة عند علماء الاجتماع الخصائص المثالية للحرفية عند س. رايت ميلز [١] C. Wright Mills . وأيضاً مداخل دراسة القطاع غير الرسمي Informal Sector عند علماء الاقتصاد . ورغم الجهد العلمي الكبير والاهتمام المتزايد بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بالتصنيع ومشكلاته وثقافته ، فإن دراسة الحرف لم تحظ بهذا القدر الكبير من الاهتمام إلا في الستينيات حينما بدأ الاهتمام العالمي بقضايا التنمية خاصة في دول العالم الثالث . وفي الوقت الراهن أخذ هذا الاهتمام بالحرف والصناعات الصغيرة يتزايد عالمياً وبشكل ملحوظ . ولقد أقامت الهيئات الدولية تنظيمات عالمية تعنى بتنمية الحرف الصناعية . ومن ثم لم يعد الاهتمام بتلك الصناعات مقتصراً على دول العالم النامي فقط بل يتسع نطاقه أيضاً ليشمل دول العالم المتقدم صناعيا .

أولاً : الحاجة إلى الدراسة

كما أسلفنا يمكن القول أن قضية تنمية الصناعات الصغيرة قد باتت تسترعى اهتمامات المحافل الدولية والمخططين والباحثين منذ الستينيات . ومن ثم فإن بداية السبعينيات قد شهدت جهوداً وإسهامات علمية مكثفة حول هذه القضية . ورغم كثرة الدراسات الميدانية التي أجريت على الصناعات الصغيرة فإن الغالب الأعم منها كانت دراسات وصفية أو مسوحاً اجتماعية بينما قل عدد الدراسات التي تهتم بخصائص الحرف كما اقتصر إجراء تلك الدراسات على البلدان الغربية . ومن ثم تفتقد المكتبة العربية لدراسات ميدانية مماثلة تهتم بالخصائص الحرفية وتخرج من حيز الوصف والمسوح الاجتماعية .

---

(1) C. W. Mills, White collar, oxford university press, New York, 1951, p. 220.

من جهة أخرى ، رغم القلة النسبية لعدد الدراسات الميدانية التي تهتم بخصائص الحرف ، فإن نتائجها جاءت متناقضة عندما حاولت عقد المقارنات بين خصائص النمط المثالي عند ميلز كأداة تحليلية وما تتصف به الصناعات الصغيرة قيد البحث من خصائص حرفية . ولذلك عندما نتفحص تراث العلوم الاجتماعية ، نجد أن الزعم القائل بتدهور خصائص الحرفية وعدم أمتثالها للنمط المثالي المقترح عند ميلز (١٩٥١)، لايحوز قبول كل الباحثين .وانطلاقاً مما أسفرت عنه نتائج الدراسات الميدانية في عدد من الدول الغربية ، نجد أن الآراء حول هذه القضية ، تنقسم إلى قسمين : الأول يرى انحراف الخصائص الحرفية للصناعات الصغيرة بأشكالها المختلفة عن النمط المثالي. بينما يرى الفريق الثاني من العلماء اتصاف تلك الصناعات بمعظم خصائص النمط المثالي.

وانطلاقاً من تلك المناقشة ومن التباين في وجهات النظر السابقة وتأسيسا عليها تنهض فكرة هذه الدراسة .

ثانياً : الهدف العام للدراسة

تهدف الدراسة الحالية إلى محاولة دراسة عينة من الحرف والصناعات التقليدية من منظور خصائصها البنائية وإلى أي حدّ تتصف تلك الصناعات بالثبات والتغير . وينبثق من الهدف العام أهداف فرعية هي :

١ - دراسة مظاهر الثبات والتغير في الخصائص البنائية للصناعات التقليدية ومحاولة تفسير ذلك في ضوء علاقة تلك الصناعات بالمجتمع الكبير .

٢ - دراسة وتفسير الفروق النوعية بين الصناعات التقليدية المتجاورة أيكولوجيا من حيث أنشطة السوق وأنماط التوزيع وأيضاً الشرائح الاجتماعية للمستهلكين .

٣ - التعرف على طبيعة النشاط الحرفي كمهنة أساسية من خلال رؤية العمال الحرفيين له واعتباره مستقبلاً مهنياً لهم .

٤ - دراسة مظاهر تمسك الحرفيين في الصناعات التقليدية بأخلاقيات الحرف التي كانت تمارس في ظل نظام الطوائف الحرفية .

ثالثاً : المفهومات الأساسية

النظام الحرفي

لبيان مفهوم النظام الحرفي Craft System في تراث العلوم الاجتماعية ، يقتضينا الأمر أن نتناول بالمناقشة بعض المفهومات الأساسية المرتبطة بهذا المفهوم والتي تتعلق بالحرفة Craft ، والحرفية Craftmanship

(١) مفهوم الحرفة

إن مفهوم الحرفة شأنه شأن العديد من المفهومات التي لا نجد لها تحديداً يتصف بالعمومية في العلوم الاجتماعية .ففي الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية (١٩٦٨)، يضم مفهوم الحرفة :(١) كل أنواع الأنشطة التي تستخدم الوسائل اليدوية في الانتاج وفي تطوير هيئة الماديات ؛ (٢) كل الأشكال الاجتماعية التي تندرج ضمن الإطار التصوري لهذا المفهوم .

وعند علماء الطبقة الاجتماعية ، نجد أن مفهوم الحرفة من منظور الدور ، يأتي مرادفا لمفهوم الطائفة Guild . ومن ثم يتيح هذا المفهوم إمكانية تطبيقه على التنظيمات المهنية . كما أن هذا المفهوم قد يُسهم في فهم التباين النسبي بين المكانة الاجتماعية للحرفيين والتباين الذي تحدثه الفروق الثقافية والطبقية ، بل وداخل الحرفة ذاتها [٢].

وفي التراث الانجلوسكسوني ، فإن مفهوم الحرفة يقصد به المقدرة والمهارة والبراعة في أداء العمل ومن ثم يشتمل هذا المفهوم على مفهوم الفن Art نظراً لأن

(2) Daniel J. Crowley, "Crafts" in International Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 3, 1968, pp. 430 - 432.

الأخير يعتمد بشكل أساسي على الإحساس بالتعبير الذي يفضى إلى تحقيق الجمال والإحساس بالبهجة والسرور (٣).

وعند العلامة بن خلدون ، نجد أن هناك تقارباً واضحاً بين الحرفة والصناعات ويتضح ذلك من خلال ما يذكره حول الصنائع فيقول :

« اعلم أن الصناعة هى ملكة فى أمر عملي فكري وبكونه عملياً هو جسمانى محسوس والأحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل . لأن المباشرة فى الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة ، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته وعلى نسبه الأصل تكون الملكة ،ونقل المعاينة أوعب ، وأتم من نقل الخبرة والعلم ....على قدر وجودة التعليم وملكة المتعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته » (٤)

ثم يستطرد فيقول :

« ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب . والبسيط هو الذي يختص بالضروريات ، والمركب هو الذي يكون للكماليات . والمتقدم منها فى التعليم هو البسيط لبساطته أولاً ولأنه مختص بالضروري .... وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري ، وإلى ما يختص بالأفكار التى هى خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة . ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة وأمثالها ومن الثانى الوراقة .... والغناء والشعر وتعلم العلم .... ومن أمثلة الثالث الجندية » (٥).

وعندما تناول بن خلدون اتصاف الصنائع بمستويات اجتماعية مختلفة ، فإنه يناقش تلك الصنائع الأصيلة التي اكتسبت شهرتها مع تطور العمران البشري . حيث

(3) Ibid. p. 432.

(٤) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، تحقيق حجر عاصى ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٦، ص ٢٥٤.

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

تقوم تلك الصنائع على المهارة المكتسبة لطول فترة الاشتغال بها ، وأيضاً يربط ابن خلدون بين المكانة الرفيعة للحرفة ومخالطة الملوك إذ يقول :

«اعلم أن الصنائع ...تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها . فأما الضروري فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة . وأما الشريفة بالموضع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب» (٦) .

ويختص بن خلدون النساء بحرفة التوليد ويذكر ذلك في وصفها بقوله :

«وهي صناعة يُعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من المرفق في اخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصله بعد الخروج على ما نذكر وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة » (٧) .

ومن منظور حرية ممارسة العمل ، نجد أن الحرفة كنظام من نظم العمل التي تعاقبت عبر التاريخ الإنساني ، تتيح للفرد ملكية قراره وحرية اختياره لما سيقوم به من عمل أو نشاط وفقاً لميوله وقدراته وهواياته . فقد يكون الفرد صاحب حرفة أو أن يعمل أجيراً أو أن يؤدى أنشطة حرفية يرمى من ورائها تغطية احتياجات أسرته كمتطلب أساسي وحيوي .

نخلص من المناقشة السابقة أن الحرفة كمفهوم ، يمكن أن تعرف بأنها الصناعة التي تستخدم المهارة اليدوية في إنتاج سلع حرفية ذات جودة عالية ولا تخضع لمقاييس مقننة أو أسس مدروسة . وتتصف الحرف بالتناثر جغرافياً حيث تمارس أنشطتها المتنوعة في مختلف الأرجاء والأنحاء وإن ارتبطت بالحضر منذ نشأتها . وتستخدم الحرف في عملية إنتاج خامات أولية مثل الخشب والمعادن والطين الطفلي ، النسيج وغير ذلك من خامات .بمعنى أنها تتعامل بشكل مباشر مع البيئة المحلية في أغلب الأحيان. كذلك

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٥٨.
(٧) المرجع السابق ، ص ٢٦٣.

فإن الحرف تضم العمالة بنوعيها ذكوراً وإناثاً وذلك على النقيض من نظام الطوائف Guild System الذي كان مقصوراً على العمالة الذكرية فقط .

ويمكن تصنيف الحرف تبعاً لنوع النشاط إلى : (١) الحرف الصناعية ؛ (٢)الحرف المرحلية (الوسيطة) ؛ (٣) الحرف الخدمية ؛ (٤) حرف المناجم ؛(٥) حرف النقل والمواصلات ؛ (٦) حرف البناء ؛ و(٧) الحرف التجارية[٨] .

وحول مفهوم الحرفة وما يتصف به من خصائص نوعية تميزها عن تنظيمات العمل داخل القطاع الصناعي الرسمي ، يقدم س. رايت ميلز (١٩٥١) نموذجاً يتضمن ست خصائص أساسية للحرفية . فيذكر أن الحرفيين على إطلاقهم يعتمدون على مهاراتهم الإبداعية في تحديد المعايير والمواصفات الفنية للمنتج الحرفي . كما يختلف الحرفيون عمن سواهم في القطاع المنظم بأن الحرفي يستمد من حرفته خاصية إخضاع كل ما يتعلق بمراحل الإنتاج الحرفي إلى حالته النفسية . كذلك فإن عملية الممارسة اليومية والدائمة للحرفة تعطى معنى للعمل وتنمي المهارات المكتسبة كما تعطي للحرفي إحساسا بالاعتزاز بما يؤديه من عمل أو ينتجه من سلعة دقيقة الصنع وإن ذلك المنتج يرجع أولاً إلى ما يتصف به الحرفي من مهارة يدوية إبداعية خاصة . وقد يلحظ الحرفي أثر إبداعه فيم أنتج من سلع فى أعين المستهلكين والعملاء مما يجعله يستشعر الاعتزاز وتفوقه وتحكمه الكامل في عمليات الأداء الحرفي[٩] .

(٢) مفهوم الحرفية

يرجع الاهتمام بدراسة خصائص العمل الحرفي أو ما يسمى بالحرفية إلى الإسهامات الرائدة من جانب بعض المفكرين من أمثال راسكين Ruskin وتولستوي Tolstey وبيرجسون Bergson وأيضاً سوريل Sorel . ولقد استلهمت تلك الإسهامات أفكارها عندما حاولت أن تتناول بالنقد والمقارنة ظروف العمال قبل الثورة

(8) S.V. Sharma et al., Small Entrerpreneurial Development in Some Asian Countries : A Comparative Study, Light and Life Publishers, New Delhi, 1979, p. 12, 13.

(9) C. Wright Mills, op.cit.

الصناعية وبعدها ، وأيضاً من خلال تصور القدر الهائل من المعاناة الاجتماعية والاقتصادية والظروف القاسية التي عاشتها الطبقة العاملة إبان المراحل الأولى للثورة الصناعية في إنجلترا . ولقد كان واضحاً أمام هؤلاء الكتّاب والمفكرين كيف أن العمال في ظل نسق المصنع Factory System الحديث قد افتقدوا الكثير من استقلاليتهم وإبداعهم في العمل فضلاً عن افتقارهم للسيطرة والتحكم في أوقات عملهم مع تدن واضح في جودة ما يؤدونه من أعمال . ومن ثم انطلقت الإسهامات جاهدة تحاول وضع تصورات لما كان يتصف به العامل الحرفي من خصائص قبل الثورة الصناعية ثم كيف صار يفتقد الكثير من خلال اشتغاله داخل نسق المصنع الحديث (١٠) .

لقد أسهم عدد من علماء الاجتماع بجهود كبيرة في إثراء مفهوم الحرفية ، مثل چورچ ميد George Mead ، وليم موريس William Morris، وهنري دي ما Henri De Man ، كارل ماركس Karl Marx ، وبول بوجيه Paul Bouget . فقد استطاع هؤلاء أن يضعوا أيديهم على بعض الخصائص التي تتصف بها الحرف اليدوية . ولقد استفاد من تلك الإسهامات س. رايت ميلز في وضع إطار تصوري ضمنه خصائص ست للحرفية تهدف في مجملها - كما سبق الإشارة إلى ذلك - إلى تحقيق الإشباع الذاتي والرضا عن العمل اليدوي عند الحرفيين . هذا ويعتقد ميلز أن هذا النموذج يصلح كأداة أساسية لأي نظرية عامة مستقبلية تهتم بالحرفية والنظام الحرفي (١١) .

ومنذ مطلع الستينيات وحدوث تحولات واضحة في النظام الحرفي من حيث مستويات المهارة والتقنية ومجالات النشاط خاصة في الدول الرأسمالية مثل الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا ، فقد اتخذت الإسهامات العلمية والدراسات الميدانية هذا التحول مجالاً للدراسة والتحليل وأيضاً مقارنة الاستخلاصات العملية المتعلقة بالخصائص الست للحرفية التقليدية عند ميلز . وكان من جراء هذا الجهد العلمي الضخم

(10) K. Inkson "The Craft Ideal and Integration of Work: A Study of Potters", Human Relations 40 No. 3, 1987, p. 164.

(11) C. Wright Mills, op. cit. p. 220.

أن تمخضت تلك المقارنات عن خصائص إضافية وتباينات في تلك الخصائص أشار إليها بعض علماء الاجتماع مثل ريتشارد هال Richard Hall (١٩٧٥) ، ونتائج بعض الدراسات الميدانية مثل دراسات هاملتون Hamilton . ونوجز فيما يلي بعض تلك التباينات .

١- حديثاً يتصف التدريب الحرفي للصبية في أداء الأعمال الماهرة بثلاثة أشكال هي : (أ) التدريب المباشر في الورشة أو موقع العمل ، ويعتبر هذا الشكل مشابها للنمط التقليدي ؛ (ب) التدريب من خلال دورات فنية لتأهيل الصبية على كيفية ممارسة الدور الحرفي ؛ (جـ) التدريب من خلال نظم التعليم الفني السائدة في المجتمع مثل المدارس الفنية الصناعية بتخصصاتها المختلفة .

٢ - نظراً لاختلاف أساليب التنشئة الاجتماعية قديماً وحديثاً ، لم تعد خاصية التوارث المهني لحرفة الأب أو الجد سائدة في الحرف الحديثة(١٢) بل حدث تحول واضح في الحراك الاجتماعي Social Mobility لفئة الحرفيين حيث نجد هدف الأباء إلحاق الأبناء بالتعليم الجامعي طمعاً في تحقيق مكانة اجتماعية أفضل .

٣ - تتألف عمالة الحرف الحديثة من عمال مهرة وأغلبهم شبه مهرة .

٤ - لا تتصف الحرف الحديثة بما كانت تتصف به الحرف التقليدية من فروق عرقية .

٥ - انخفاض درجة الاستقلالية الذاتية نسبياً إذا ما قورنت بالحرف التقليدية وقت ازدهارها . وذلك نظراً لاعتماد الحرف الحديثة خاصة الخدمية منها على أنظمة الدولة الإنتاجية والإدارية وعلى التجار الممولين للآلات والمواد الخام .

---

(12) Richard Hall, Occupations and The Social Structure, Prentice Hall Inc. New Jersey, 1975, p. 199.

مفهوم النظام الحرفي وملامحه

قد يبدو يسيراً على المتخصصين أن يتفقوا فيما بينهم على تعريف محدد وشامل للنظام الحرفي طالما أمكن تحديد مفهومي «الحرفة» و «الحرفية» . إلا أن ذلك يعتبر محض افتراض لا يجد في تراث العلوم الاجتماعية ما يدعّمه أو يسانده ، وذلك نظراً لأن التراث يضم كماً هائلاً من المفهومات المترادفة للنظام الحرفي يصعب معه الحصر أو المناقشة في مؤلف واحد . حيث توجد مسميات وصيغ ومصطلحات للنظام الحرفي قد تتفق في بعض الجوانب حول بعض النقاط بينما تختلف وتتناقض فيما بينها حول نقاط أخرى عديدة . ولا يقتصر التناقض عند دراسة النظام الحرفي بين المداخل والإسهامات العلمية ، بل نجد تناقضات أخرى مماثلة بين المفهومات التطبيقية لهذا النظام من دولة إلى أخرى . فمثلاً عند علماء الاقتصاد نجد مفهومات عديدة للنظام الحرفي وإن اجتمعت غالبيتها على مصطلح «القطاع غير الرسمي» أو «القطاع الشعبي» ، من جهة أخرى نجد علماء الإدارة والتخطيط يستخدمون مفهومات أخرى منها القطاع «غير المنظم» أو «قطاع الصناعات الصغيرة» .

ومن المنظور السوسيولوجي ، يعرف بلونر Blauner (١٩٦٤) النظام الحرفي بأنه نظام يضم أنساقاً إنتاجية تستلزم توافر مستويات عالية من المهارة التقليدية اليدوية من أجل أن يحقق اتساقاً عالياً بين المادة الفيزيقية والأدوات المستخدمة في الإنتاج[١٣]. ويصف بلونر العمل الحرفي بأنه نوع العمل الذي يكفل للقائم به حرية اختيار الأساليب التقنية ، والأدوات المستخدمة في الإنتاج ، وكذلك أسلوب أداء العمليات الإنتاجية وما تتصف به من تتابع وتسلسل[١٤] . ويصف تالكوت بارسونز T. Parsons النسق الحرفي من خلال مناقشاته لمفهوم معنى العمل Meaning of Work ، بأنه نظام يتصف باحتكار أنماط نوعية من العمل . كما يقوم هذا النظام على

(13) K. Azumi and J. Hage, Organizational Systems: A Text - Reader in The Sociology of Organization, D.H. Health and Co., London, 1972, p. 358.

(14) M.L. Silver, "The Structure of Craft Work : The Construction Industry" in Phyllis L. Stwart and M. Cantor (Eds.), Varieties of Work, Sage Publications, London, 1982, p. 236.

علاقة ارتباطية وثيقة بين العامل الحرفي وحرفته وحيث يلعب الاتجاه التوارثي Ascriptive Orientation دوراً أساسياً في توطيد أركان تلك العلاقة (١٥) .

كذلك من خلال دراسة الإدارة البيروقراطية للصناعات الحرفية Bureaucratic Organization of the Industrial Crafts مثل حرفة صناعة البناء ، نجد أن الاتجاهات الحديثة عند عدد من علماء اجتماع العمل تضفى بعض الخصائص النوعية لمفهوم النظام الحرفي . ومن بين هؤلاء العلماء ريتشارد هال R. Hall (١٩٧٥) ، شتنكومب Stinchombe (١٩٥٩) ، كابلو T. Caplow (١٩٦٤) ، بيمر Beimer (١٩٥٩) .

ومن خلالإسهامات ريتشارد هال (١٩٧٥) حول معنى العمل ، فإنه يرى أن عملية الإنتاج داخل التنظيم البيروقراطي لحرفة البناء ، تتسم بخاصية التحكم المهني والتي تميزها عن بقية نشاطات العمل اليدوي الأخرى . ويرى هال أن تلك الخاصية تحدد شكل(الهيراركية) داخل بنية المهن الحرفية من حيث التقارب أو التباعد بين المستويات المهنية التخصصية والمستويات الإدارية . كما أنها تحدد أيضاً مدى التقارب أو التباعد بين المستويات المهنية التخصصية داخل تنظيم حرفة البناء وبقية تنظيمات الحرف اليدوية الأخرى (١٦).

ويقدم شتينكومب تصوراً جديداً لخصائص النظام الحرفي من خلال انتهاجه لأسلوب المقارنة بين التنظيمات المركبة Complex Organizations التي تتصف بها تنظيمات العمل كبيرة الحجم والتنظيم البيروقراطي لحرفة صناعة البناء . ويرى شتينكومب أن ممارسات أنشطة العمل بينما تعتمد في التنظيمات المركبة على التخطيط السابق من قبل الإدارة فإنها تخضع في صناعة البناء لسيطرة وتحكم العامل الماهر في جميع خصائص العملية الإنتاجية ، وذلك من منطلق ما تمليه خصائص الحرفية

(15) Nels Anderson, Dimensions of Work: The Sociology of Work Culture, David Mckay Company INC., New Work, 1964, p. 3.

(16) M.L. Silver, "The Structure of Craft Work" op. cit., p. 236.

على النظام الحرفي[١٧] . أيضاً يرى شتينكومب أن نمط الإدارة في صناعة البناء Construction Industry ، يعتمد على قوى عاملة يدوية ذات تنشئة حرفية عالية تؤهلها لاكتساب خاصية الجدارة المهنية بشكل متميز . ومن ثم تنطلق دراسة شتينكومب حول مفهوم النظام الحرفي من تصور أنه نظام تتوافر فيه خصائص نوعية قد تجعله من المنظور الوظيفي مماثلاً للنسق البيروقراطي الحديث[١٨] .

أيضاً من خلال المقارنة بين التنظيمات المهنية المختلفة ، تضفى إسهامات كابلو Caplow حول التنظيمات المهنية في صناعة حرفة البناء أبعاداً جديدة لمفهوم النظام الحرفي وخصائصه وذلك انطلاقاً من نتائج دراسة كلارك Clark الميدانية لتلك الصناعة. فيرى كابلو أن التنظيم البيروقراطي لحرفة صناعة البناء يتسم بالخصائص الهامة التالية : (١) لا يضع التنظيم البيروقراطي حداً أقصى لسن العامل يحول دون ممارسته للعمل الحرفي ، فحرية ممارسة العمل مكفولة مدى الحياة طالما لدى الحرفي القدرة البدنية والذهنية لأداء العمل الحرفي؛ (٢) تتضمن بنية الحرفة كل الآليات التي تقف حجر عثرة أمام التغير التقني الذي من شأنه أن يحد من قيمة المهارة الحرفية اليدوية ؛ (٣) تقل انتمائية الحرفي في صناعة البناء عن مثيلتها لدى المهني المتخصص Professioal[١٩].

ومن خلال مناقشة هارولد ولنسكي H. Wilnsky حول المهارة الحرفية وسلوك الحرفيين ، فإنه يحدد مفهوم النظام الحرفي من خلال عدة سمات ؛ فيشير هذا النظام إلى تنظيم عمل تقني واجتماعي يتصف بتوفير المزيد من الحريات في العمل وحسن

---

(17) Ibid.

(18) Arthur L. Stinchcombe, "Bureaucratic and Craft, Administration of Production: A Comparative Study", Administrative Science Quarterly 4, September, 1959, pp. 168 - 170

(19) Theodore Caplow, The Sociology of Work, McGraw - Hill Book Company, New York, 1954, p. 107.

التصرف في طرق الإنتاج وفرص التفاعل المستمر بين قرناء العمل ، وهذا من شأنه أن يحقق ارتباطية عالية بينهم وتكاملية في العمل ذات تأثير واضح على مختلف نشاطات الحياة اليومية العامة . كما تحدد أنماط الارتباط بالمجتمع المحلي وتدعم من الروابط القائمة بين جماعة العمل والمجتمع الكبير [٢٠].

كذلك من إسهامات بعض علماء الاجتماع أمثال بيرن حول الطوائف الحرفية وخصائصها النوعية ، يمكن أن نستخلص أيضاً بعض خصائص النظام الحرفي . فيرى بيرن أن هذا النظام يحقق الاستقلال الذاتي للفرد ، كما أن هذا النظام لا يعتبر مصدراً فعالاً لحدوث التغير في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، ويضرب لذلك مثالاً بالطوائف الحرفية في حرصها للإبقاء على الوضع الاقتصادي الاجتماعي دون تغيير يُذكر. وأن العامل الحرفي يمثل الوحدة المهنية Occupational unit للنظام الحرفي نظراً لأن الإنتاج الحرفي يعتمد بشكل أساسي وفي مجمله على مهارة هذا العامل ، بينما تعتبر الأدوات المستخدمة في الإنتاج وسيلة مساعدة تعين العامل على الأداء الحرفي . وتأسيساً على خاصية تسيد المهارة الحرفية وتدنى دور الأدوات والآلات في الإنتاج الحرفي يتولد الشعور القوي بالانتمائية العالية لدى العامل تجاه هذا النظام الحرفي . ومن ثم يصبح النظام الحرفي أكثر اتصافاً بالمعنى الاجتماعي للعمل أكثر من المعنى الاقتصادي . وهذا يفسر بوضوح الارتباط القوي بين العامل الحرفي وحرفته بحيث باتت تستغرق منه كل الجهد والوقت دون أن يشعر بالتعب Fatigue أو الملل [٢١].

(20) George Strauss, "Is There a Blue - Collar Revolt against work" in James O'Toole (Ed.), Work and The Quality of Life: Resource papers for work in America The MIT Press, London, 1974, p. 50.

(21) E.A. Krause, The Sociolgoy of Occupations, Little Brown and Company, Boston, 1971, p. 17, 18.,
Melvin Kranzberg and Joseph Gies, "The Industrial Revolution : Birth of the Factory" in Lauri Perman (Ed.) Work in Modern Society: A Sociology Reader, Kendall/Hunt Publishing Company, Iowa, 1986, p. 41.

انظر أيضاً .

جورج فريدمان ، بيازنافيل وجان رينيه تريانتون ، رسالة سوسيولوجيا العمل الجزء الأول، ترجمة بولاند عمانوئيل، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٥، ص ٤٥٠.

وعند علماء علم النفس الاجتماعي ومن خلال إسهاماتهم حول ديناميات الجماعة، نجد أن مفهوم النظام الحرفي يتصف بخصائص هامة هي الاندماجية والانتمائية التنظيمية . فالبنية الحرفية تتصف بالتفاعل المتبادل التقليدي والنمطي بين الأدوات والأفكار والتنفيذ والإشراف ، وفي الوقت ذاته لا تشتمل على أي تمييز شكلي بين أعضائها . ومن ثم فإن العلاقة بين أعضاء الجماعة الحرفية تشير إلى قدرة النظام الحرفي على التماسك .ومما يجدر التنويه إليه فيما يختص بقدرة النظام الحرفي على التماسك نجد أن إميل دوركايم من خلال مناقشاته حول سلطان الجماعة وقدرتها على تحقيق التماسك بين أعضائها أشار إلى ما يذكره علماء النفس الاجتماعيين أن الاندماجية الزائدة في العمل والارتباط القوي من جانب الحرفي تعكسان مدى صلابة النظام الحرفي وقدرته العالية على التماسك [٢٢] .

من خلال المفهومات السابقة للحرف والنظام الحرفي عند علماء الاجتماع فضلاً عن بعض الخصائص النوعية التي ناقشها علماء علم اجتماع العمل يمكن أن نلخص فيما يلي أهم ملامح النظام الحرفي على النحو التالي :

١ - تتصف عملية تقسيم العمل داخل النظام الحرفي بالطابع الشمولي الوظيفي والدينامي .

٢ - تنخفض درجة التمييز الشكلي داخل أعضاء الجماعة الحرفية وذلك من حيث الملبس والمظهر العام . ولكن يبقى التمييز بين الحرفي ومساعديه (الصبي أو العامل الأجير) على أساس تباين الوضع المهني المستمد أساساً من الممارسة الطويلة للعمل الحرفي .

٣ - تتسيد المهارة اليدوية الحرفية مجال الإنتاج الحرفي مع انحسار دور الأدوات الحرفية كعامل ثانوي مساعد لتلك المهارة .

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص ١٦٢.

٤ - الانتمائية العالية والارتباط القوي من جانب أعضاء النظام الحرفي واعتبار هذا النظام جزءاً أساسياً من البيئة المحلية التي يتعايش معها . كما يتصف تنظيم العمل الحرفي بالعلاقات الشخصية المرنة التي تحقق تغلب إحساس العامل بالمحلية Local على إحساسه بالعالمية Cosmoplolitan على حد تعبير روبرت ميرتون Robert Merton .

٥ - كانت الحرف في الماضي تتصف بمعايير التفرقة العرقية والأساس الديني في ممارستها وتوارثها عبر الأجيال .

٦ - تعتمد «الهيراركية» داخل البنية الحرفية على فترة التدريب وعلى مستوى المهارة اليدوية المكتسبة خلال ممارسة العمل الحرفي . ولا تعتبر إحداها بديلة للأخرى . بل إن الأولوية تعطى للمهارة اليدوية في الأهمية داخل البنية الحرفية . ولا تكون فترة التدريب محددة المدة أو تخضع للوائح مكتوبة أو قوانين سافرة ، وقد تزيد أو تنقص وفقاً لقدرات الصبي واستعداده لتعلم فنون الحرفة .

٧ - الاستقلالية الكاملة للحرفي في تنظيم عمله بنفسه وتحمله للمسئولية الفنية والأخلاقية للسلعة الحرفية .

٨ - اتصاف النظام الحرفي بنمط تقليدي من المهارة الحرفية ذات أصول راسخة في تعاملها المباشر مع البيئة الاجتماعية بمواردها المختلفة دون حاجة إلى وسيط بينها فالمادة الخام يتلقاها الحرفي مباشرة من البيئة على هيئتها الطبيعية مشوهة وغير منتظمة .

٩ - ندرة حدوث دوران العمل حيث إن تغير الحرفة لم يكن شائعاً أو معتاداً في النظام الحرفي . ومن ثم كانت الحرفة مؤشراً قوياً لثبات الوضع الاجتماعي للحرفيين [٢٣] .

---

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٢٩١، ٣٠٠، ٤٥٠، ٤٥٥، ٤٨٧، ٤٩١؛
أنظر ايضاً ؛

David M. Goss, "Social Harmony and Small Firm: A Reappraisal", The Sociological Review 36, February, 1988, p. 115.

(٤) احتجاب المهارة

يمكن القول إن مصطلح «الاحتجاب المهاري»[*] Deskilling يعتبر مرادفاً لمصطلحات أخرى شاع استخدامها بين كوكبة من علماء الاجتماع الصناعي بدءاً من إدخال الآلة واستخدام وسائل التقنية الحديثة في عملية الإنتاج والتصنيع . فقد تراجعت المهارة اليدوية للعامل لتتيح المجال رحباً فسيحاً للآلة ، بأن تكون لها اليد العليا في العمليات الإنتاجية . ويعود الاهتمام بمصطلح الاحتجاب المهاري إلى أوائل الستينيات حينما أشار إليه الفيلسوف شيلر Schiller . فيصف احتجاب المهارة الحرفية بأنها عملية تدمير للمهارة الحرفية بوصفها أهم خصائص النظام الحرفي . كما أنها تعني إحداث انفصال واضح بين قدرة الإبداع الذاتي للحرفي والعقل المدبر لسير وتتبع العملية الإنتاجية ككل[٢٤] .

وانطلاقاً من رؤية شيلر ، نجد أن كثيراً من الباحثين مثل برافان (١٩٧٤)، وود Wood (١٩٨٢) قد اهتموا بدراسة ظاهرة الاحتجاب المهاري خاصة في الحرف الصناعية : هذا فضلاً عن بعض الدراسات الميدانية التي تكشف نتائجها عن وجود تلك الظاهرة ،ومن أوائل تلك الدراسات،دراسة أجريت في نيوزيلاندا خلال الفترة ما بين

(*) لقد أشار عدد من العلماء مثل بلونر (١٩٦٤)، جولد ثروب Gold Thrope ، لوكوود Lockwood ، بتش هوفر Bech Hofer ، وأيضاً بلات Platt (١٩٦٨) إلى هذا المصطلح وبعض المرادفات الأخرى له وذلك من خلال دراستهم لتأثير دور الآلة في العمليات الانتاجية داخل نسق المصنع الحديث على اتجاهات العمال وسلوكهم .. فقد عبر عنه بلونر من خلال مناقشته للتحول من ظاهرة التكاملية إلى ظاهرة الاغتراب بين العمال في موقع العمل . بينما أشار كل من جولد ثروب ولوكوود وبيتش هوفر وبلات إلى ظاهرة الاحتجاب الحرفي تحت وطأة التوسع في استخدام الميكنة في العمليات الانتاجية التصنيعية وإن الاحتجاب الحرفي يتمثل من خلال عملية الفصل الواضح بين كل من الأنشطة الرسمية للعمل ونشاطات وقت الفراغ داخل نسق المصنع الحديث : أنظر :

K. Inkson "The Craft Ideal and Integration of Work: A Study of Potters", op. cit., p. 163.

(24) Ibid., p. 165.

عامي ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ على مجزر يدوي بعد إدخال الآلة واستخدامها في تقطيع اللحم .فقد أدى استخدام الميكنة وبعض وسائل التقنية المتطورة أن تقلص قيمة المهارة اليدوية . وقلة الحاجة إليها . وقد أسفر ذلك التحول عن افتقاد العامل الحرفي للكثير من إحساسه بالفخر والاعتزاز بما يقوم به من عمل . كما فتر حماس الأفراد تجاه تماسك الجماعة وافتقدوا إحساسهم بالأمان الاقتصادي وحل محله الخوف من ترك العمل بسبب سيطرة الآلة (٢٥) .

كذلك من الدراسات الميدانية الحديثة ، ما تكشف بعض نتائجها عما يعانيه الحرفيون من جراء ظاهره الاحتجاب المهاري . وكيف ينعكس تأثير تلك المعاناة النفسية على سلوكهم في العمل . ففي دراسة أجريت حديثاً على العمال المهرة في إحدى المطابع العامة الواقعة في جنوب شرق إنجلترا خلال الفترة ما بين عام ١٩٨٣، ١٩٨٤. وبالرغم من أن هدف الدراسة لم يكن دراسة الاحتجاب المهاري بل كانت دراسة سلوكية في جوهرها ، فقد كشفت عن الموقف الصلب للعمال تجاه من يحط أو يقلل من مهارتهم وقدراتهم اليدوية . وقد تمثل ذلك الموقف في رفض العمال المهرة مزاملة عمال غير مهرة في موقع العمل واعتبروا ذلك امتهاناً لخبرتهم وتهديداً لافتخارهم واعتزازهم بما يتمتعون به من إبداع ومهارة . ولم تقف مقاومة أفراد العينة عند حد التعبير بالرفض، بل تماسكوا بروح الفريق ضد أي محاولة لمراقبتهم والإشراف المباشر عليهم من صاحب العمل لانه لايباريهم في المهارة الحرفية .

وتكشف نتائج تلك الدراسة أيضاً عن أن مفردات العينة من العمال المهرة قد عبروا عن رفضهم ومقاومتهم تلك من خلال تكاتفهم القوي مع نقابة الحرفيين للوقوف ضد تعيين عمال غير مهرة للعمل معهم جنباً إلى جنب .كما أظهرت نتائج الدراسة – من خلال مقتطفات من أقوال مفردات العينة – رفض العمال المهرة بشكل قاطع أن يزاملهم في موقع العمل عمال غير مهرة (٢٦) .

(25) Ibid., p. 163.

(26) David M. Goss, "Social Harmony and Small Firm: Reapprisal" The Sociological Review 36, February 1988, p. 129.

نخلص من المناقشة السابقة إلى أن ظاهرة الاحتجاب المهاري في الصناعات الحرفية تعنى تراجع المهارة الحرفية أمام هيمنة الآلة ووسائل التقنية الحديثة على العمليات الإنتاجية . ولكن إذا قلنا إن الاحتجاب المهاري لا يعنى افتقاد العامل الحرفي للمهارة المكتسبة لديه بل هي عملية تقلص لدور المهارة الحرفية بفعل عوامل خارجية ، فإن مصطلح الاحتجاب المهاري قد يصبح أكثر شمولية . فمثلاً نجد أن الصناعات التقليدية في دول العالم النامي تعاني من مشكلات جمة منها قلة رأس المال ، وانخفاض العائد المادي من العمل الحرفي ، ومشكلات التسويق . تلك المشكلات جميعها أو بعض منها قد يمثل ضغوطاً اقتصادية قوية على الحرفي الماهر قد تضطره أن يؤدى على مضض أنشطة حرفية تتصف بظاهرة الاحتجاب المهاري . ومن ثم فالدراسة الحالية وإن كانت لا تهدف إلى دراسة الاحتجاب المهاري فإنها عندما تركز على دراسة الصناعات التقليدية وخصائصها البنائية قد تكشف عن بعض الأبعاد التي ترتبط بتلك الظاهرة (*).

رابعاً : التعريف الإجرائي للحرف والصناعات التقليدية

من خلال إضمامة المفهومات السابقة التي عرضنا لها بالمناقشة ، يمكن أن نقترح تعريفاً إجرائياً ملائماً للحرف والصناعات التقليدية موضوع الدراسة الراهنة ، مسترشدين في ذلك بالخصائص العامة للنظام الحرفي والتى اجتمع عليها رأي الباحثين. وذلك في محاولة لتحقيق هدفين منهجيين : أولهما ، تفادى الوقوع في خطأ التحيز لتعريف بعينه من بين هذا الكم غير المتجانس من تعريفات النظام الحرفي لاسيما وأن تلك التعريفات - كما ذكرنا آنفاً - تتفاوت فيما بينها بشكل حاد من حيث الشمولية أو التقييد ؛ ثانيهما ، أن يشتمل التعريف الإجرائي على جميع النشاطات الحرفية التقليدية - قيد الدراسة - مع ملائمة هذا التعريف لكل ما يرتبط بتلك النشاطات من خصائص نوعية تتعلق بالأداء وكل من طبيعة العمل الحرفي وموقعه .

(*) انظر الفصل السابع الجزء الخاص بصناعة الأحذية البلاستيكية .

وتأسيساً على ماسبق ، يشير مفهوم الحرف والصناعات التقليدية إلى النمط التقليدي من الإنتاج الصناعي المحدود . وتعتمد عملية الإنتاج الحرفي على تسيد المهارة اليدوية لتلك العملية مع الاستعانة ببعض الأدوات والآلات ذات المستوى التقني البسيط والمتمثل في بعض العدد والأدوات اليدوية واستخدام الطاقة الكهربائية أحياناً في شكل مولدات بالإضافة إلى بعض ماكينات خراطة المعادن القديمة والمثقاب اليدوي أو الكهربائي . وتعتبر الحرف والصناعات التقليدية شكلاً من أشكال الأنشطة الاقتصادية غير الرسمية ، وفي الوقت ذاته تعتبر شكلاً من أشكال الصناعات الصغيرة .

أيضاً يشتمل التعريف الإجرائي على كل النشاطات الحرفية التي يمارسها فرد أو جماعة صغيرة العدد ويمتلك صاحب النشاط الأدوات المستخدمة ، ويكون مكان العمل الحرفي ثابتاً داخل ورشة صغيرة وقد يمتد ليشمل الرصيف أو جزءاً من الحارة . كما لاتتسم العملية الإنتاجية بخصائص البيروقراطية الحديثة . كما قد تتألف العمالة من الجماعة القرابية أو العمالة المأجورة . وتخضع «هيراركية» العمل داخل النشاط الحرفي على تدرج مستويات المهارة بدءاً من صاحب العمل حتى مستوى الصبي .

خامساً : المداخل النظرية لدراسة الحرف والصناعات الصغيرة

تتباين المداخل النظرية لدراسة الصناعات الصغيرة وفقاً للتباين بين المفهومات والأطر النظرية التي يتبناها أصحاب المداخل . فمن تلك المداخل ما يهتم بالبنية الحرفية والخصائص البنائية للعمل الحرفي .وأيضاً من بين المداخل ما يركز على مستويات المهارة الحرفية وأيضاً منها ما يهتم بدراسة الخصائص النفسية والاجتماعية لأرباب الحرف والصناعات الصغيرة . كذلك من المداخل النظرية ما يهتم بدراسة الصناعات الصغيرة من منظور اقتصادي بحت .وسوف تتضمن المناقشة التالية قدراً من التفصيل نعرض من خلالها لكل مدخل من المداخل السابقة .

١ - مدخل المعرفة

يعتبر مدخل المعرفة في دراسة الحرف والحرفيين Artisans من أقدم المداخل النظرية وأعرقها من المنظور التاريخي . فقد سبق للفلاسفة اليونانيين القدامى أن

تناولوا مفهوم الحرفة ***Techne*** أو المعرفة الحرفية من خلال مناقشاتهم المستفيضة وعقد المقارنات النظرية بين هذا المفهوم ومفهوم ***episteme*** الذى يقوم على فكرة الازدواجية بين العقل والبدن في الحكم على الأشياء ، ويقصد بذلك المعرفة العلمية . وقد تتفاوت المعرفة الحرفية في خصائصها من حرفة لأخرى . ففي حرفة الطلاء مثلاً لاتوجد معايير علمية يتبعها الحرفي للحكم على المنتج بل يستخدم اللمس باليد والإدراك الحسي في تقويمه للعمل . ومن ثم فهي لا تتقيد بالعالمية ولكنها تتآلف وتتواءم مع الزمان والمكان وتتواجد أيضاً لتحقيق أهداف محددة ولذا فهي معرفة محلية النزعة [٢٧] .

وتتواجد المعرفة الحرفية في شبكة العلاقات وتتعايش معها في مختلف اتجاهاتها ولا تنفصم عنها وتساير خطوط اتصالات المعرفة خطوط شبكة العلاقات ويتمثل هذا النوع من المعرفة في علاقة المعلم بالصبي في النظام الحرفي . فمثل هذه العلاقة لاتقوم على أساس المساواة بين طرفي العلاقة وإنما تتصف (بهيراركية) في العلاقات تتحكم فيها عدد من المتغيرات مثل السن ، القوة ، المعرفة . إلا أن المتغيرات تنصهر في بوتقة واحدة بحيث تعطى لنسق المعرفة الحرفية شكلاً (هيراركياً) خطياً وليس هرمياً . (فالهيراركية) الخطية تتسع عند القاعدة كما تتسع عند القمة . ففي النظام الحرفي تتيح (هيراركية) المعرفة الحرفية للأفراد في القاع وهم الصبية من الترقى والصعود وفقاً لشروط معينة وبعد مرور فترة معينة بحيث يصبح الصبي مُعلماً . وهذا يناقض تماماً ما عليه (الهيراركية) التنظيمية في نسق المصنع الحديث [٢٨] .

٢ - المداخل النفسية والنفسية الاجتماعية

تتعدد المداخل النفسية والنفسية الاجتماعية التي تهتم بدراسة النظام الحرفي . ومن ثم سوف نعرض فيما يلى وبإيجاز لأهم تلك المداخل ، من خلال الأخذ بتصنيف اليزابيث شيل Elizabeth Chell (١٩٨٥) لها :

(27) A. S. Marglin, "Losing Touch: The Cultural Conditions of Worker Accomodation and Resistance" Version 3.1, Prepared for Frederique Apffel Marglin and Stephen A. Marglin (Eds.), Dominating Knowledge Clarendon Press, Oxford, 1989, p. 28, 34.

(28) Ibid. p. 29.

(أ) المدخل الدينامي النفسي

تقوم فلسفة هذا المدخل على دراسة مدى تأثير الجوانب النفسية للفرد بوصفه المالك للمشروع الحرفي على الخصائص البنيوية لهذا المشروع . فيرى كيتز دي فريز Ketz de Vries (١٩٧٧) أن البنية التنظيمية للمشروع الحرفي تتبلور خصائصها النوعية تبعاً للحالة النفسية التي تتصف بالكمون عند مالك ومدير هذا المشروع [٢٩].

ويواجه هذا المدخل وفلسفته التي قام عليها ، عدة انتقادات من قبل الكثيرين من العلماء والباحثين سواء من حيث المنهج أو مجالات التطبيق وأيضا من حيث صعوبة التعميم . ونوجز فيما يلى أهم تلك الانتقادات :

١ - من حيث المنهج ، يرى فريق من العلماء أن هذا المدخل يصعب معه رصد أو تسجيل العلاقة بين الحالة النفسية لمالك المشروع والتحولات في خصائص البنية التنظيمية لهذا المشروع تبعاً للتغير الذي يعترى الحالة النفسية . وفي الوقت ذاته قد يصعب الاعتماد على الذاكرة والرغبات الشخصية المتقلبة عند رصد التتبع التاريخي لتطور تلك العلاقة وكذلك لتطور الحالة النفسية لمالك المشروع الحرفي .

٢ - ان هذا المدخل الدينامي النفسي عندما ركز جل اهتماماته حول العلاقة بين الحالة النفسية للمالك والبنية التنظيمية للمشروع فقد أغفل المؤثرات البنيوية الخارجية ذات التأثير الهام على تلك العلاقة ، عامة وعلى الحالة النفسية لمالك المشروع الحرفي خاصة . وهذا يعنى أن المدخل الدينامي النفسي عند تناوله لدينامية العلاقة بين الحالة النفسية والبنية التنظيمية قد افترض أن المشروع الحرفي نسق مغلق Closed System.

٣ - من حيث التعميم وإمكان تطبيق هذ المدخل في مختلف الثقافات والمجتمعات ، يرى كثير من الباحثين صعوبة اتصاف هذا المدخل بالعمومية . فاختلاف الثقافات يواكبه اختلاف في حجم ونوعية التأثيرات الخارجية من المجتمع على كل من البنية التنظيمية للمشروع الحرفي وعلى الحالة النفسية لمالكه .ولعل ما يزيد من صعوبة

(29) James Curran and Roger Burrows. "Ethnographic Approaches to the Study of the Small Business Owner" in Ken O'neill et al. (Eds.), Small Business Development some current Issues, Avebury, Hong Kong, 1987, p. 4.

التعميم أيضا ، ارتباط تلك الاختلافات الثقافية بالتباينات الحادة بين الأنظمة السياسية والاقتصادية على مستوى دول العالم .

٤ - من حيث التطبيق على النظام الحرفي ، فقد لايصلح هذا المدخل أن يطبق على جميع مصنفات الأنشطة الحرفية نظراً لما تكون عليه تلك الأنشطة من تباينات حادة من حيث نوع النشاط والملكية وطبيعة الإنتاج ومستويات المهارة . فضلاً عن تناثر المشروعات الحرفية وارتباط كل نشاط حرفي بالخصائص النوعية البيئية للمجتمع المحلي الذي يتعايش معه هذا النشاط .

٥ - لايمكن اعتبار المدخل الدينامي النفسي قاصراً في مجال التطبيق على النظام الحرفي فقط ، بل إن العلاقة بين الحالة النفسية والبنية التنظيمية للمشروع إنما نلمسها في كثير من الأنشطة والتنظيمات الرسمية [٣٠] . وتعتبر التنظيمات الأكاديمية مثل الجامعات مثالاً جيداً ومجالاً ملائماً لتطبيق هذا المدخل خاصة على أعضاء هيئة التدريس وعلاقاتهم بالتنظيم الرسمي للجامعة .

(ب) مدخل السمات الشخصية :

يقوم هذا المدخل على فرضية العلاقة بين السمات الشخصية لمالك/مدير المشروع الحرفي والمشاركة الاقتصادية Economic Participation . ويفترض رواد هذا المدخل من العلماء مثل ماكليلاند Mclelland (١٩٦١) أن ملاك المشروعات الحرفية يتصفون بسمة واحدة أو بمجموعة من السمات تميزهم عن باقي أصحاب المشروعات الاقتصادية الأخرى . وتواجه فلسفة هذا المدخل - كسابقه - انتقادات واسعة كما يواجه صعوبات جمة في مجالات التطبيق لولا الجهد العلمي الكبير الذي قام به ماكليلاند للتغلب على الكثير من تلك الصعوبات . ونوجز فيما يلي بعض الانتقادات التي أثارها الكثيرون من الباحثين :

(30) Ibid., pp. 4 - 6.

١ - ان طبيعة النشاط الاقتصادي لأصحاب الأموال والمشروعات لايمكن أن تتأثر فقط بالسمات الشخصية لهؤلاء الممولين بل تتعدد العوامل المؤثرة في تلك الأنشطة .

٢ - إذا سلمنا - مجازاً - بفعالية تأثير السمات الشخصية لصاحب المشروع على العمليات الاقتصادية للمشروع الصغير وديناميياته . فإن دراسة السمات الشخصية ليس بالأمر الهيّن نظراً لعدة اعتبارات من أهمها أن السمات الشخصية قد تتأثر بعوامل التنشئة وأساليب التربية . أيضاً قد تشكل تلك السمات وفقاً لنوعية المؤثرات البنيوية للبيئة . وقد تلعب تلك العوامل مجتمعة دوراً مشتركاً في تشكيل السمات الشخصية.

٣ - لايمكن القول بثبات السمات الشخصية في علاقتها بالأنشطة الاقتصادية . ومن ذلك تبرز صعوبة تطبيق هذا المدخل . حيث تثار عدة استفسارات تبحث عن أجوبة منطقية من بينها هل في مقدور السمات الشخصية أن تجدد من هويتها سلوكيا وفقاً لتباين الأوضاع الاقتصادية أم يقتصر هذا التجديد على ظروف وأوضاع بعينها .

٤ - إن عملية امتلاك وإدارة المشروعات الحرفية والصغيرة لا تعتبر على إطلاقها دالة للشخصية وسماتها الخاصة (٣١) .

٣ - المداخل التفاعلية

(أ) مداخل الشخصية - الموقف Personality - Situation

تنطلق مداخل الشخصية- الموقف من فرضية العلاقة بين الشخصية والموقف وما ينجم عن أنماط التفاعل بينها من سلوكيات . ويرى علماء تلك المداخل أن الميول الشخصية والمعاملات الرئيسية للموقف يمثلان متغيرين مستقلين بينما يعتبر السلوك الناجم عن التفاعل متغيراً معتمداً (٣٢). وينتقد عدد من الباحثين مداخل الشخصية - الموقف ، ويرون أن المشكلة الرئيسية التي تحد من تطبيق واستخدام تلك المداخل ،

---

(31) Ibid., p. 6.
(32) Ibid. p., 6 , 7.

تكمن في صعوبة التقدير الدقيق لفعالية التأثير الارتباطي بين الموقف والشخصية . حيث تذكر شيل Chell (١٩٨٥) ، أن التنبؤ بنوعية السلوك لن يكون بالدقة المطلوبة نظراً لعدم إمكانية التقدير الدقيقة لقوة هذا التأثير الارتباطي .

وتزداد صعوبة استخدام مداخل الشخصية - الموقف في البحوث الميدانية من حيث عدم دقتها في تقدير الموقف المتباين وعلاقة ذلك التباين بشخصية مالك المشروع الحرفي . فيري كل من جب Gibb ، ريتش Ritch . ضرورة توخي الدقة عند دراسة شخصية مالك المشروع الحرفي تبعاً لتباين الوضع . وهذه قضية لاتحسمها تلك المداخل بشكل كامل . فطبيعة العلاقة البيئية بين شخصية مالك المشروع والوضع المتمثل بالفترة الأولى من بداية المشروع الحرفي تختلف عن طبيعة ودينامية العلاقة ذاتها خلال الفترات اللاحقة للفترة الأولى . ويجد هذا الافتراض ما يزكيه من نتائج بعض الدراسات المقارنة بين مشروعين حرفيين الأول يتصف بالحداثة في ممارسة النشاط الاقتصادي بينما يتصف المشروع الثاني بالتقادم وطول فترة ممارسته للنشاط الاقتصادي .

من جهة أخرى ، توجه دراسة قضية الحداثة في ممارسة النشاط الاقتصادي ، مشكلة منهجية أخرى خاصة بالنسبة لدراسة المشروعات الحرفية حديثة العهد بالنشاط الحرفي . حيث يصعب على الباحث جمع البيانات الكافية للعلاقة الارتباطية بين الشخصية والموقف وتأثير فعالية تلك العلاقة على سلوك مالك المشروع في الأنشطة الاقتصادية ومكان العمل الحرفي (٣٣) .

(ب) مدخل الفعل - الموقف Situational - Act

تقوم فلسفة هذا المدخل على فرضية تأثير الموقف على أداء الدور المطلوب من صاحب/مدير المشروع الحرفي . ويعتبر هذا المشروع محتوى مركبا من عدة مواقف متباينة تفرض نفسها علي كل من يتولى إدارته أو يمتلكه . والمشروع الحرفي كأي تنظيم عمل ، يتضمن مواقف عدة منها ما تتضمنه العملية الإنتاجية بمراحلها المتعددة ، ومنها ما تحتويه الأنشطة التسويقية فضلاً عن المواقف والتي تعتمد كل منها على الأخرى اعتماداً وثيقاً . وبرغم هذا الارتباط بين المواقف العديدة ، فإن لكل موقف

(33) Ibid., p. 7.

قواعد منظمة تحدد حدوده وأهدافه . وإزاء كل قاعدة منظمة تتولد استجابات وردود أفعال متباينة . ولما كان من غير المتوقع أن تتوافر كل أنواع الاستجابات لدى صاحب / مدير المشروع ، فإن سلوكه يصبح غير متسق بالقدر المطلوب والمناسب مع كل موقف . في الوقت ذاته تنعكس عدم ملائمة الاستجابات على سلوكيات صاحب المشروع وهو يتعامل مع كل موقف [٣٤] .

٤ - مداخل القطاع غير الرسمي عند علماء الاقتصاد

تنطلق دراسة القطاع غير الرسمي Informal Sector عند علماء الاقتصاد من خلال إسهاماتهم في مجالات التنمية والتحضر ومشكلات سوق العمل واستخدامهم لازدواجية القطاع الرسمي وغير الرسمي كأسلوب ملائم لتحليل البنية الاقتصادية الحضرية . ويمكن تقسيم هذا الاتجاه إلى مداخل فرعية تبعا لقضايا الاهتمام إلى:

(أ) مداخل سوق العمل الحضري

تقوم تلك المداخل على فرضية أساسية مفادها أن القطاع غير الرسمي يمارس في الحضر دوراً هاماً في تفهم معاملين أساسيين هما : التنمية الاقتصادية ، والتحولات الديموجرافية . فالعمل داخل القطاع غير الرسمي بالنسبة للمهاجرين من الريف إلى المدينة يمثل نشاطاً مرحلياً يمارسونه خلال الفترات الأولى من حياتهم الجديدة بالمدينة وينتهزون أي فرصة عمل بالقطاع الرسمي . ومن أهم مداخل سوق العمل الحضري ، مداخل تودارو Todaro (١٩٦٩، ١٩٧٦)؛ والتي تقوم على مقولة ازدواجية القطاع الاقتصادي في العمالة الحضرية . فالمهاجرون من الريف إلى المدينة سعياً للعمل يبدأون رحلتهم داخل سوق العمل في البحث عن فرص ملائمة لهم في القطاع الرسمي . ولكن نظراً للتفوق العددي للمهاجرين على فرص العمل المتاحة بالقطاع الرسمي ، تتجه غالبية هؤلاء للالتحاق بالقطاع غير الرسمي لفترة مؤقتة انتظاراً لاقتناص فرصة عمل يتيحها لهم القطاع الرسمي [٣٥] .

(34) Loc. ci.,

(35) Robert A. Hackenberg "New Patterns of Urbanization in Southeast Asia, An Assessment", Population and Development Review 6 No. 3 September, 1980, p. 398.

ويحاول تودارو الربط من خلال رصد وتحليل التفوق العددي للمهاجرين مقارنة بعدد فرص العمل الرسمي المتاح بالمدينة ، أن يربط بين ارتفاع معدل البطالة في الحضر ودور القطاع غير الرسمي في اجتذاب المهاجرين للعمل بأجور زهيدة .وقد تطول أو تقصر فترة عمل المهاجرين في القطاع غير الرسمي إلا أنهم لا يجدون أمامهم مصادر أخرى للكسب إلا هذا القطاع وإلا فعليهم أن يعودوا أدراجهم من حيث أتوا (٣٦).

ولقد انطلق العديد من الدراسات الميدانية من فرضية تودارو والتي تربط بين العمالة والأجور داخل القطاع غير الرسمي . ومن تلك الدراسات ، دراسات هارولد ليوبل Harold Lubell في كلكتا بالهند ، ودراسات لمنظمة العمل الدولية في بعض مدن العالم النامي مثل نيروبي وأحمد اباد (٣٧) .

وتواجه مداخل تودارو عدداً من الانتقادات من جانب بعض علماء الاقتصاد ، وفي مقدمتها فرضية أن القطاع غير الرسمي يتصف بعمالة غير دائمة لفترة عمل مؤقتة ينتقل بعدها المهاجر للعمل في القطاع الرسمي . ولقد أيدت بعض نتائج الدراسات الميدانية تلك الانتقادات . ففي دراسة (*) أجريت على بائعات الأغذية المتجولات داخل عدد من دول أفريقيا وآسيا . كشفت بعض نتائج الدراسة عن الآتي :

١ - أن المشتغلات ببيع الأغذية لا يرغبن في ترك عملهن الحالي والاشتغال بالقطاع الرسمي نظراً لطول فترة اشتغالهن ببيع الأغذية لأكثر من عشر سنوات (٣٨) . وقد اتفقت هذه النتيجة مع نتائج بعض دراسات ميدانية أخرى أجريت في مدينة

(36) Ibid. p. 399.

(37) Kudamala Sreeramurty, Urban Labour in Informal Sector: A Case Study of Visakhapatnom city, B.R. Publishing Corporation, Delhi, 1986, pp. 36 - 37.

(*) أجريت هذه الدراسة على سبع دول من بينها مصر ، وذلك بواقع مدينة لكل دولة . وقد اختيرت مدينة المنيا نموذجاً بالنسبة لمصر . وكان الهدف الرئيسي للبحث هو إبراز مدى مشاركة المرأة في تصنيع أو بيع أطعمة تباع على الأرصفة . ولمزيد من التفصيل حول هذه الدراسة انظر :
Irin Tinker, "Street Food": Activity by Women and Men", Current Sociology 35, Winter, 1987, pp. 1 - 110.

أحمد أباد بالهند والتي أظهرت عدم رغبة العاملين في القطاع غير الرسمي في الانتقال للعمل في القطاع الرسمي [٣٩] .

٢- أن الاشتغال في القطاع غير الرسمي لا يقتصر علي المهاجرين من الريف بل يعمل فيه الكثير من سكان الحضر [٤٠] .

(ب) المداخل البنائية :

تهتم المداخل البنائية عند علماء الاقتصاد بدراسة الخصائص التنظيمية للقطاع غير الرسمي . وتتباين أهداف الباحثين عند تناولهم للخصائص التنظيمية . فمثلاً يرى جون ويكز John Weeks أن الخصائص التنظيمية للقطاع غير الرسمي تؤثر بفعالية على العلاقات المتبادلة بين هذا القطاع وتنظيم الحكومة في مجالين أساسيين هما : (١) الوضع الاقتصادي للقطاع غير الرسمي داخل البنية الاقتصادية الكلية والإنتاج القومي؛ (٢) اتصاف كل من العمليات الإنتاجية والعمالة داخل القطاع غير الرسمي بعدم الاستقرار إضافة إلى ما يترتب على تلك الظاهرة من صعوبة الحصر والمتابعة الرسمية من قبل الأجهزة الرسمية بالدولة [٤٢] .

ويستخدم بعض الباحثين الاتجاه الأول من المداخل البنائية في دراسة الحرف والصناعات الصغيرة «القطاع غير الرسمي» . ومن تلك الدراسات ما قام به الباحثان هيثر Heather وفيجاي Vijay في مدينة بومباي بالهند حيث استخدما في تحليلهما ثلاثة معاملات هي : بنية السوق ؛ التكنولوجيا والعلاقات مع الحكومة في دراسة القطاع غير الرسمي [٤٣] .

(38) Loc. cit.

(39) T.S. Papola, Urban Informal Sector in a Developing Economy. Vikas Publishing House PVT LTD, New York, 1981, p. 119.

(40) I. Tinker, op. cit.

(41) R. Hackenberg, op cit., p. 400.

(42) k. Sreeramurty, op. cit., p. 34, 35.

(43) Loc. cit.

وخلال السنوات القليلة الماضية ، تطورت المداخل البنائية بفضل نتائج الدراسات الميدانية التى أجريت في دولة أندونيسيا على الصناعات الصغيرة ، ومن نتائج المسح الاقتصادي الذي أجرى على دول أوروبا . ويتمثل هذا التطوير في استخدام خصائص تنظيمية جديدة تسهم في تعميق دراسة الصناعات الصغيرة عامة والقطاع غير الرسمي خاصة . ومن الخصائص التي أبرزت أهميتها نتائج الدراسات الميدانية والمسح انخفاض الإنتاجية والمستوى التقني وعدم فعالية الإدارة . وعلى الرغم من أن الخصائص الثلاث لم تكن مجهولة للباحثين ، فإنها قد أسهمت في زيادة الاهتمام نحو دراسة القطاع غير الرسمي خلال مراحل تطوره من النمط التقليدي في الإنتاج إلى نمط أكثر تطوراً وحداثة. كما أسهمت أيضاً في دراسة الصناعات الصغيرة التي بدأت تأخذ بالتحديث وأساليب التقنية المتطورة وذلك من حيث العمالة والأجور وتنظيم العمل داخل هذا القطاع (٤٤) .

وإضافة إلى المداخل السابقة ، توجد مداخل بنائية أخرى تهتم بخصائص وأبعاد أخرى مثل الحجم ودرجة التحديث ، تنظيم العمل ، طبيعة الإنتاج . ولقد انتهجت تلك المداخل ما يسمي بالمدخل المتعدد الأبعاد Multi - Dimensional Approach . ويرى الكثير من علماء الاقتصاد أن هذا المدخل قد يصلح للتطبيق ودراسة القطاع الرسمي. كما أن تطبيقاته لا تقتصر على هذا القطاع فقط . بل يرى العلماء إمكانية استخدام هذا النموذج المتعدد في عملية تنميط الأنشطة الاقتصادية بنوعيها الرسمية وغير الرسمية على المستوى القومي (ريف وحضر) .

ويحدد كل من ستالي Staley ومورس Mors قائمة الخصائص التالية التي يتضمنها المدخل البنائي متعدد الأبعاد عند استخدامه في دراسة الصناعات الصغيرة : (١) نمط الإنتاج؛ (٢) نظام تنظيم العمل؛ (٣) عدد العمال؛ (٤) رأس المال المستثمر؛

(44) Eiegene Staley and Richard M. Mors, Modern Small Industry for Developing Countries Mc. Graw - Hill Book Company: New York, 1965, p.11.

(٥) مدخلات الطاقة ؛ (٦) المقاييس الفيزيقية للمخرجات ؛ (٧) قيمة الناتج (الصافي والإجمالي)؛(٨) رأس المال المستثمر لكل عامل؛ (٩) موقع المشروع (ريف/حضر)؛ (١٠) مستوى التعقيد للإنتاج؛(١١) مستوى التقنية والأساليب التجارية؛ (١٢) نمط الملكية ؛ (١٣) درجة اعتمادية/استقلالية المشروع ؛ (١٤) اتجاهات التسويق (محلي/غير محلي)؛ (١٥) الكفاءة (مستوى التكلفة)[٤٥] .

(جـ) المداخل التقليدية المتطورة لامتصاص العمالة

يستخدم بعض علماء الاقتصاد هذه المداخل في دراسة الصناعات الصغيرة (غير الرسمية) . ومن المنظور الوظيفي تتفق تلك المداخل مع مداخل العمالة والأجور عند تودارو ، حيث يكون الدور الإيجابي للصناعات هو تشجيع الحراك الديموجرافي للسكان بانتقالهم من الريف إلى الحضر . كما يعتبر هذا القطاع أكثر يسراً من القطاع الرسمي من حيث شروط الالتحاق بالعمل . ومن ثم يعتبر القطاع غير الرسمي مصدراً اقتصادياً هاماً للتكسب خاصة للوافدين الجدد إلى الحضر . إلا أن متوسط الأجور يظل في هذا القطاع منخفضاً قياساً على الأجور في القطاع الرسمي. كما يتصف سوق العمالة في القطاع غير الرسمي، بالمنافسة العالية خاصة بين ذوي المهارات الفنية منخفضة المستوى.

من جهة أخرى ، تختلف المداخل التقليدية المتطورة عن مداخل الأجور والعمالة في فرضية أساسية تربط بين القدرة على امتصاص العمالة الماهرة وما تتقاضاه تلك العمالة من أجور زهيدة . فالمداخل التقليدية تفترض العلاقة بين امتصاص العمالة والأجور داخل القطاع غير الرسمي ، كخاصية يتصف بها هذا القطاع ،متجاهلة بذلك المؤثرات الاقتصادية الأخرى داخل البنية الاقتصادية الكلية مثل توسع المستثمرين في إنشاء المشروعات التجارية والصناعية في المناطق الحضرية وأثر ذلك على العلاقة الافتراضية السابقة .

وتثير مداخل العمالة في مجملها عدداً من القضايا الهامة التي ترتبط بسوق العمالة في الحضر.فإذا كان ما ذهب إليه كل من اليجاندرو بورتيز Alejandro Portes ،

(45) Ibid. p. 9, 10.

لورين بنتون Lauren Benton أن القطاع غير الرسمي يمثل فترة نشاط مرحلية للعمالة الحضرية حيث يمتص جزءاً كبيراً من تلك العمالة فإن ذلك قد يعني حدوث تداخل في سوق العمالة بين القطاعين الرسمي وغير الرسمي .

ولما كان من الصعب بمكان دراسة هذا التداخل كماً وكيفاً لعدم وجود إحصائيات دقيقة خاصة فيما يتعلق بعمالة وأنشطة القطاع غير الرسمي ، فإن البيانات التي تسفر عنها نتائج الدراسات الميدانية لمداخل العمالة قد تتصف بقدر غير يسير من الدقة .

من جهة أخرى . إذا افترضنا جدلاً عكس فرضية مداخل العمالة حول دور القطاع غير الرسمي فنقول إنه لايمثل فترة نشاط مرحلية للعمالة الحضرية عامة والوافدة من الريف خاصة ، فسوف تواجه الباحثين مشكلة منهجية تتعلق بدراسة العمالة في القطاع غير الرسمي .وذلك نظراً لأن عملية الالتحاق بالعمل في هذا القطاع لاتخضع للوائح منظمة كما لا يتم حصر العمالة ومتابعة تسجيلها أسوة بما هو متبع في عمالة القطاع الرسمي (٤٦) .

(د) نموذج القرار ثلاثي الأبعاد في البنية الاجتماعية الاقتصادية الحضرية

يعتبر إيرا س . لوري Ira S. Loury أول من استخدم نموذج القرار ثلاثي الأبعاد في دراسة القطاع غير الرسمي داخل عدد من مدن الولايات المتحدة الأمريكية ثم أتبعت تلك المحاولة الأولى عدة محاولات أخرى . حيث قام عدد من الباحثين بتطبيق هذا النموذج في مدن العالم النامي .وينطلق هذا النموذج من فرضية أن الوضع الأمثل للقطاع غير الرسمي داخل البنية الاجتماعية الاقتصادية للمدينة يعتمد على محصلة ثلاثة قرارات مرتبطة : (أ) قرارات تختص بتحديد واختيار مواقع العمل وهذه قرارات تتخذها إدارة المنشأة ذاتها ؛ (ب) قرارات تتخذها العائلات المقيمة بشأن اختيار مكان الإقامة والسكن داخل منطقة إقامتها " (جـ) قرارات تتخذها السلطة الحاكمة بالمدينة

(46) Ibid., p. 10.

تتعلق بتخصيص وتحديد أماكن الخدمات الحضرية . والقرارات الثلاثة ترتبط فيما بينها لتعطي في النهاية تصوراً محدداً لكل ما يتعلق بالأنشطة الرسمية ، وما عدا ذلك في تخطيط المدينة يعتبر أنشطة غير رسمية . ومن ثم فإن نموذج لوري يحدد بشكل أولى نطاق عمل ومحلات السوق الرسمي بالمدينة (٤٧) .

٥ - النمط المثالي للحرفية عند س. رايت ميلز كإطار تصوري للدراسة

مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين صاغ ميلز نمطه المثالي للحرفية كأداة تحليلية . ويتضمن هذا النمط خصائص ست لو تكاملت جميعها أو معظمها عند الحرفي الممارس للعمل اليدوي فإنها قد تحقق لديه الإشباع الذاتي والرضا الكبير إزاء ما يقوم به من عمل. كما يرى ميلز أن هذا الاطار التصوري - كما سبق الإشارة إلى ذلك- يعتبر نواة أو مقومات أساسية لأي نظرية عامة مستقبلية تهتم بدراسة الحرفية والنظام الحرفي. والخصائص الست التي يتضمنها النمط المثالي هي :

١ - أن الإنتاج يمثل الدافع الوحيد للعمل الحرفي . وأن هذا الدافع يعتمد على خاصيتين أساسيتين هما الخلق والإبداع .

٢ - أن تفاصيل العمل الحرفي ذات أهمية قصوى عند الحرفي . نظراً لأن التفاصيل تعتمد على ما يتمتع به الحرفي من إبداع أكثر من أعتمادها على مواصفات أو كمية الإنتاج من السلع الحرفية .

٣ - شعور الحرفي بالاستقلال الذاتي المتمثل في هيمنته الكاملة على أسلوب العمل ، خلال مراحل التشغيل المختلفة التي يمر بها المنتج الحرفي .

٤ - أن ممارسة العمل الحرفي تتيح للعامل اكتساب الخبرة والاستفادة بالتعلم بالممارسة في تطوير مهاراته وقدراته الذاتية اللازمة للإنتاج الحرفي .

---

(47) Robert A. Hackenbery, op. cit. p. 401.

٥ - عدم الفصل بين ساعات العمل اليومية وأوقات الفراغ أو الراحة وان التداخل بينهما واضح خلال العمل اليومي .

٦ - يعكس أسلوب الممارسة الحرفية اليومية نوعية الحياة الاجتماعية للحرفي وأسلوب معيشته [٤٨] .

ومن ثم يرى ميلز أن العامل الحرفي يطور من ذاته كلما اكتسب مهارة يدوية خلال سنوات ممارسته للحرفة . ويتمثل هذا التطور فيما يمنحه للعامل من حرية في العمل، وحق التحكم والتوجيه الكامل للنشاط الذي يمارسه ، كما أن الحرفي يضفي على وقت فراغه نفس القيم التي يضفيها أيضاً على أوقات ممارسته للعمل الحرفي [٤٩].

ومنذ مطلع الستينيات وحدثت تحولات واضحة في النظام الحرفي من حيث مستويات المهارة والتقنية ومجالات النشاط خاصة في الدول الرأسمالية مثل الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا الغربية ، ولقد اتخذت الإسهامات العلمية والدراسات الميدانية هذا التحول في الحرفية مجالاً للتحليل والدراسة ومقارنة الاستخلاصات العملية بالخصائص الست للحرف التقليدية عند ميلز . ولتقدم لنا المقارنات العلمية بين نتائج الدراسات الميدانية والإسهامات النظرية منهلاً للدراسة ومصدراً يشير إلى خصائص إضافية للنظام الحرفي .

ولقد شغل النموذج المثالي للحرفية أذهان عدد من الباحثين خلال السنوات العشرين الماضية .ويذهب بعض علماء الاجتماع للزعم أن الخصائص الست التي يشتمل عليها النموذج لم تعد موجودة على خريطة الواقع اليومي للأداء الحرفي ، وأن تلك الخصائص قد صارت محض خيال بسبب استخدام وسائل التقنية الحديثة في الإنتاج الحرفي بشكل كبير لاسيما في المجتمعات الرأسمالية الصناعية . وتتضح هذه الرؤية

(48) C. Wright Mills, op. cit. p. 220.

(49) Nels Anderson, Dimensions of Work: The Sociology of a work culture, David Mckay Company, INC. New York, 1964, p. 174.

العلمية تجاه الخصائص الحرفية في الإسهامات الحديثة عند عدد من العلماء مثل برافرمان Braverman (١٩٧٤)و ود Wood (١٩٨٢)حيث يرى هؤلاء أن الرأسمالية تؤثر بشكل كبير على مستوى المهارة الحرفية ومن ثم يحدث من تحول كبير في تلك المهارة وحدوث الاحتجاب المهاري وتقلص هيمنة المهارة الحرفية على العملية الإنتاجية . فبعد أن كان العمل الحرفي يحقق لصاحبه الرضاء والانتماء والاعتزاز بالذات والتكامل مع المحتوى الثقافي والاجتماعي الذي يعمل بداخله ويتعايش معه . نجد أن المهارة الحرفية قد حلت محلها كفاءات أخرى . ولقد كان لهذا التحول أبعد الأثر في تحطيم عناصر جوهرية تتصف بها الممارسة الحرفية ، ويبرز ذلك جلياً في كتابات الفيلسوف شيلر Schiller (١٩٦٧) ، عندما ينسب تدمير الطبيعة الإنسانية عند الفرد إلى الانفصال بين الذهن وممارسة العمل .

وعلى صعيد آخر ، يناقش بلونر الاحتجاب المهاري من خلال دراسته لظاهرة الاغتراب Alienation (١٩٦٤)، وبالمثل يرى كورنهاوزر Kornhauser (١٩٦٥) أن العامل الذي احتجبت مهارته بفعل مؤثر خارجي لم يعد يتعلم من عمله كما يتعرض في الوقت ذاته لهزات في صحته النفسية . كذلك فإن الفصل بين وقتي العمل الرسمي والفراغ يؤثر على عقل وسلوك العامل الحرفي ويتفق مع كورنهاوزر في الاتجاه كل من جولدثروب Goldthrope ، لوكوود Lockwood ، وبيتشوفر Bechhofer ، بلات Platt (١٩٦٨)[٥٠].

وتتفق مع الاتجاهات السابقة نتائج دراستين حديثتين أجريت إحداهما على صناعة البناء قام بها انكسون Inkson عام ١٩٨٠ والأخرى أجريت على حرفة جزارة اللحوم قام بها كاموك Camock وانكسون عام ١٩٨٥ . وتوضح النتائج أن الاحتجاب المهاري في ممارسة الحرفة يرجع أسبابه للضغوط الاقتصادية وظروف العمالة وتنظيم العمل[٥١] .

---

(50) Inkson, op. cit., p. 164, 165.
(51) Ibid., p. 173.

من جهة أخرى ، نجد نتائج دراسة أجريت على صناعة الفخار في نيوزيلاندا تناقض نتائج الدراسات السابقة . وأن الحرفيين في صناعة الفخار لايفضلون عمليات البيع والجوانب الإدارية المختلفة ولكن يهتمون في المقام الأول بأداء دورهم الحرفي ويعتزون بتلك الأدوار رغم انخفاض العائد المادي من صناعة الفخار فإنهم يفضلون الحرفة . وتظهر نتائج تلك الدراسة أن الخصائص الست للحرفية التي يتضمنها النمط المثالي لاتزال تتصف بها حرفة صناعة الفخار في نيوزيلندا . وفي الوقت ذاته ، تحذر نتائج تلك الدراسة من العوامل التي قد تهدد باندثار الخصائص الست للحرفية حيث أشارت إلى التأثير الضار للضغوط الاقتصادية (٥٢). فالحرفيون لم يعودوا كسابق عهدهم يشعرون بالأمان الاقتصادي ، ومن ثم فقد يلجأ بعضهم تحت وطأة الحاجة الاقتصادية إلى زيادة ساعات العمل مع التقليل من المهارة الفنية التي تميز الإنتاج الحرفي . ويعبر بعض الحرفيين عن ذلك بأن هذا التحول في طريقة الأداء الحرفي قد يؤدى إلى إحساسهم بالاغتراب النفسي .

يتضح من المناقشة السابقة أن قضية انحراف الحرف والصناعات التقليدية عن خصائصها الست في النمط المثالي لم تحسم بعد ، كما أن الدراسات التي تناولت هذا النمط بالبحث والتحليل تركزت في مجتمعات أوربية متقدمة تختلف في محتواها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي عن دول العالم النامي والتي لاتزال تفتقر إلى مثل تلك الدراسات . وأيضاً حاجة علم الاجتماع إلى مزيد من الدراسات حتى يمكن التوصل إلى نظرية عامة للقطاع غير الرسمي . ومن ثم جاءت الدراسة الراهنة كمحاولة لدراسة تلك الخصائص الحرفية على عينة عمدية من الحرف والصناعات التقليدية في مدينة القاهرة ، وذلك بغية الكشف عن بعض العوامل التي تهدد الخصائص الحرفية بالاندثار ، أيضاً العوامل التي تؤثر في الوقت ذاته على مستوى المهارة الحرفية وإحداث ما نسميه مجازا بالاحتجاب المهاري الحرفي ؟ وإلى أي مدى تتعايش تلك الحرف التقليدية مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى داخل مجتمع البحث ؟

---

(52) Ibid. pp. 173, 174.

سادساً : تساؤلات البحث

انطلاقاً من المقولات الخمس التي يتضمنها النموذج المثالي للحرفية عند ميلز ، فضلاً عن فرضية تودارو المتعلقة بمرحلية العمل بالقطاع غير الرسمي تم صياغة التساؤلات التالية للبحث :

١ - ما مظاهر الثبات والتغير في الخصائص البنائية للحرف والصناعات التقليدية؟

٢ - إلى أي حد تلتزم الصناعات التقليدية بنوعية الأدوات المستخدمة ذات المستوى التقني البسيط التي تميزها عن غيرها من الصناعات ؟

٣ - إلى أي حد يؤثر التفاعل بين البيئة المحلية والصناعات التقليدية على استمرارية وفعالية دور تلك الصناعات رغم ما تواجهه من تحديات وصعوبات وضغوط مالية ؟

٤ - استئناساً بفرضية مرحلية العمل بالقطاع غير الرسمي في الحضر عند تودارو إلى أي مدى تتصف العمالة الحرفية بالاستقرار والاستمرارية في هذا القطاع ؟

٥ - إلى أي مدى يتمسك الحرفيون في تلك الصناعات التقليدية بأخلاقيات الحرف التي كانت تمارس في ظل نظام الطوائف الحرفية ؟ وما مظاهر الثبات والتغير في تلك الأخلاقيات ؟

٦ - هل توجد فروق نوعية في مجالات التسويق والشرائح الاجتماعية للمستهلكين بين الصناعات التقليدية التي تتجاور إيكولوجياً ؟

الفصل الثاني

التاريخ الاجتماعي للنظام الحرفي

أولاً : التاريخ الاجتماعي للحرف في أوربا

ثانياً : التاريخ الاجتماعي للحرف في مصر

الفصل الثاني
التاريخ الاجتماعي للنظام الحرفي

المقدمــــة

يتفق الرأي عند جمهرة علماء العلوم الاجتماعية على صحة التزامن بين بدء ممارسة الأنشطة الحرفية ونشأة المجتمعات الإنسانية . ومع التطور التاريخي لتلك المجتمعات تعايش النظام الحرفي مع الأنظمة الفرعية الأخرى لها حتى صار جزءاً لايتجزأ من ثقافة أي مجتمع تقليدي . وقبل الثورة الصناعية كان النظام الحرفي هو الدعامة الاقتصادية الرئيسية التي تلبي احتياجات الأفراد وتفسح لهم مجالات العمل . وخلال الحقب التاريخية المتعاقبة تعرض النظام الحرفي لمؤثرات خارجية تتفاوت قوتها من مجتمع إنساني إلى آخر كما تتفاوت أيضاً وفقاً للمتغيرات السياسية والاقتصادية والعلمية داخل المجتمع الواحد .

كذلك تؤكد لنا شواهد التاريخ الإنساني ، أن الأنشطة المكونة للنظام الحرفي تتفاوت من حيث الكم والنوع وفعالية الدور الاقتصادي من دولة إلى أخرى . وعلى سبيل المثال نجد بعض الدول مثل بلدان الخليج العربي باستثناء العراق لم تشهد نشاطاً للطوائف الحرفية عبر تاريخها . من جهة أخرى نجد دولاً مثل الهند ومصر وسوريا ودول أوروبا قد شهدت أنشطة حرفية متعددة من بينها نشاط الطوائف الحرفية .

ومن ثم فإننا نحاول في هذا الفصل أن نتناول بالمناقشة النظام الحرفي بمكوناته الأساسية وخصائصه العامة في كل من أوروبا ومصر لوجود تشابه كبير بينهما من حيث شمولية هذا النظام لأنشطة عائلية ، نظام الوسطاء ، الطوائف الحرفية ، وأيضاً لأنشطة حرفية داخل حوانيت متناثرة في أنحاء متفرقة من المعمورة .

ونود ونحن في مستهل حديثنا عن خصائص الصناعات الحرفية بين الثبات والتغير في حضر مصر ، أن نعرض لأهم الخصائص النوعية للنظام الحرفي والتي أسهمت في بلورتها وتحديدها عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية في كل من أوربا ومصر .

وغني عن القول ، أننا عند مناقشة خصائص النظام الحرفي في كل من أوروبا ومصر لم نسقط من حسابنا أوجه التباين في النظام الحرفي بينهما . في الوقت ذاته نضع أيدينا على حقيقة أن الأوربيين قد اتخذوا من النظام الحرفي انطلاقة قوية نحو الثورة الصناعية بفضل ما أحرزوه من تقدم تقني لايزال إلى وقتنا الحالي على ديناميته العالية حتى فاق حدود التصور .

من جهة أخرى ، نجد أن دول العالم النامي- ومن بينها مصر - برغم شدة حاجتها لتنمية النظام الحرفي كوسيلة تتغلب بها على مشكلات البطالة والفقر ، لاتزال الجهود المبذولة في هذا الصدد ورغم كثرتها ذات فعالية محدودة .

أولاً : التاريخ الاجتماعي للحرف في أوربا

إذا أردنا أن نناقش خصائص البنية الحرفية في أوروبا خلال فترة ماقبل الثورة الصناعية التي عاشتها أوربا ، فقد يكون من المفيد أن نقسم تلك الفترة إلى أربع مراحل أساسية . نظراً لما تتصف به كل مرحلة من خصائص ومؤثرات نوعية لها انعكاساتها على النظام الحرفي . والفترات هي :

١ - النظام الحرفي خلال فترة حكم الامبراطورية الرومانية

يذكر إنجلز F. Engles أن الامبراطورية الرومانية ما قامت وما بلغت من الفن والعلم إلا بنظام الرق[١] . وهذه النقلة في عملية تقسيم العمل الاجتماعي خلال مراحل تطوره من الأساس المادي للنشاط الإنتاجي والعمل الجماعي إلى مرحلة العبيد ، قد خلقت معها بنية اجتماعية تتألف من طبقتين كان الفاصل بينهما كبيراً جداً ، والطبقتان هما طبقة الصفوة وتضم السادة من النبلاء والأشراف والفرسان ، وطبقة العامة والعبيد

(١) إسماعيل محمد هاشم ، محاضرات في التطور الاقتصادي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨، ص ٢٥.

التي تحمل على عاتقها مسئولية النشاط الاقتصادي من حرف صناعية وأنشطة زراعية(٢) .

وكان الإنتاج الحرفي قد ظل خلال العصر الروماني يعتمد على الصناعات المنزلية Cottage Industries . حيث كان الحرفي يمتلك وسائل الإنتاج ويمارس أنشطة حرفية بسيطة ومن ثم لم يكن يوجد فصل بين العمل ورأس المال . بالإضافة إلى تلك الصناعات ، كانت توجد ورش حرفية صغيرة . ولم يكن السوق الحرفي كبيراً بل كان محدوداً حيث كانت القوة الشرائية لغالبية أفراد المجتمع متدنية نظراً لانخفاض أجور العمال عامة والحرفيين خاصة. ويرجع انخفاض أجور الحرفيين إلى ازدياد عدد العبيد المشتغلين بالحرف خاصة بعد اتساع الفتوحات الرومانية . ويكفى أن نذكر أن عمالة الورشة الحرفية كانت تتألف من نسبة تتراوح بين الثلث ونصف العدد من الحرفيين الأحرار وباقي قوة العمل من العبيد والأقنان . وفيما يختص بحجم تلك العمالة على مستوى الورشة الحرفية فلم يكن في المتوسط كبيراً ، بل كان عدد العاملين صغيراً حيث لم يتجاوز عدد العاملين في الورشة الحرفية أربعة عشر فرداً ، باستثناء عدد عمال النسيج حيث كان المصنع التقليدي يضم حوالي (٢٥) فرداً . ولقد كانت العمالة الحرفية غير متجانسة وتضم الأحرار والعبيد(٣).

وفيما يتعلق بتوزيع أدوار العمل داخل الورشة الحرفية ، فقد كان صاحب الورشة يعاونه الحرفيون الأحرار في أداء الأنشطة المتعلقة بالبيع والإنتاج في حين كان العبيد يقومون بالأدوار التحضيرية للعمل وكانت جميعها أعمالاً روتينية . وباستثناء الورش التي كانت تمد الجيوش الرومانية بالسلاح والاحتياجات العسكرية من مواد بناء مثل الطوب والبلاط ، كانت الورش الحرفية صغيرة المساحة كما كانت تمارس نشاطات إنتاجية وتسويقية محدودة . ولقد كان أسلوب العمل الحرفي يتسم بالتخصصية برغم القيود

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٧ . انظر أيضا : عاصم الدسوقي ، دراسات في التاريخ الاقتصادي ، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨١، ص ٢٧.

(3) Curt Tausky, Work and Society: An Introduction to Industrial Sociology, F.E. Peacock Publishers INC., Illinois, 1984, p. 14, 15.

التي كانت تحد من أنشطة الورش الحرفية . فلقد كان في روما العديد من الحوانيت التي تتخصص في إنتاج أواني الطعام الفخارية وأخرى في إنتاج الزلع الفخارية وثالثة لإنتاج الأقداح والجرات الفخارية كبيرة الحجم . كما كانت هناك ورش حرفية تقوم بتصنيع العربات الخشبية وأخرى لعمل توابيت الموتي ، وورش تتخصص في تصنيع الخزائن الخشبية كبيرة الحجم (٤).

وفيما يختص بالحياة المعيشية للحرفيين وأسرهم في روما ، كان نمط المسكن رمزاً يدل على مكانة الحرفي ومستوى مهارته . فالحرفيون المهرة يقيمون في مساكن ذات مستوى متقارب من حيث التجهيزات والشكل وتتجمع تلك المساكن إما في بقعة معينة من المدينة أو أن تقع على امتداد شارع واحد بأكمله . ولقد أسهم هذا التجمع الحرفي في تطوير طوائف الحرف وقيامها بتقديم الخدمات الدينية لأعضائها . كما كانت توفر لأعضائها سبل الأمن والأمان في حالات المرض والموت . فعلى سبيل المثال كان إذا مرض أحد الحرفيين ، يقوم شيخ الطائفة بجمع أموال من أفراد الطائفة ليعين بها المريض على تغطية نفقات علاجه ومعيشته حتى يعود إلى عمله . كما كانت الطوائف تقوم بتدبير الأموال اللازمة لتغطية نفقات الدفن عند موت أحد أفرادها وتقديم العون المادي لعائلة المتوفي (٥).

وقصاري القول ، أن النظام الحرفي في روما قبل انقسام الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي ، كان أكثر تقدما عن سابقه ، فلقد كانت أدوات الإنتاج أكثر تطورا كما كان النظام يتسم بعملية تقسيم العمل على مختلف مستويات النشاط الحرفي . من جهة أخرى فإن ما قد يؤخذ على النظام الحرفي في روما هو ازدياد أهمية الرقيق في هذا النشاط لدرجة أن صاحب العمل لم يكن ليهتم بالإنتاج الحرفي قدر اهتمامه بزيادة عدد الرقيق العاملين تحت إمرته (٦).

---

(4) Ibid. p. 15.
(5) loc. cit.

(٦) إسماعيل هاشم ، مرجع سابق ، ص ٣١.

ومن ثم كان نمط الملكية السائد في النظام الحرفي يتمثل في الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج والرقيق .

٢ - النظام الحرفي خلال العصور الوسطى

وعندما اتجه مجد الإمبراطورية الرومانية للأفول (٢٨٤ - ٣٠٥م) بسبب عدة عوامل داخلية وأخرى خارجية من أهمها غزوات البربر والفتح الإسلامي (*)، وانعكاس تأثيرات تلك العوامل بقوة على البنية الاجتماعية في روما . ساءت الأحوال الاقتصادية وارتفعت أسعار السلع وانخفضت القوة الشرائية للعملة النقدية . وكان تأثير ذلك كبيراً على النشاط الحرفي عامة وعلى الطوائف الحرفية بشكل خاص . فقد أخذ نظام الرق - بوصفه أساس الحياة الاقتصادية في روما - في التدهور وأصدرت الدولة تشريعات بالتسعير الجبري للسلع الضرورية . ونتيجة لحالة عدم الاستقرار التي شاعت في أرجاء الدولة الرومانية ، صدرت التعليمات بحظر مغادرة العمال الحرفيين مواقعهم في المدن أو الانتقال إلى الريف والضواحي . وفي القرن الثالث الميلادي وبقرار من الامبراطور تم تجميد عضوية الطائفة ومنع أعضائها من التخلي عن طوائفهم وضرورة إلزامهم بممارسة نفس الحرف التي كان يمارسها آباؤهم (٧) .

وحينما تدهورت الطوائف الحرفية Craft Guilds وغيرها من الأنشطة الحرفية ، كانت جموع الحرفيين تؤلف طبقتين هما : طبقة ملاك الورش الحرفية كبيرة الحجم نسبياً، وكان هؤلاء ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة التي كانت أفرادها يحيون حياة رغدة وفي بسطة من العيش . وعلى النقيض كانت حياة الحرفيين قاسية في الطبقة المتدنية .

(*) نزحت غزوات البربر إلى أوربا خلال القرنين الرابع والخامس الميلادي، واستولوا على روما عام ٣٩٥ م ، ثم سقطت الامبراطورية الرومانية نهائياً في أيديهم عام ٤٧٦م . وخلال القرن السابع الميلادي كان الغزو الإسلامي لأوروبا الذي توقف شرقاً عند مشارف القسطنطينية عام ٧١٧م ، وغرباً عند «بواتيه» عام ٧٣٢م .

انظر المصدر نفسه ص ٣٠ ، ٣١ ؛ وعاصم الدسوقي ، مرجع سابق ، ص ٣٢، ٣٣.

(7) Curt tausky, op. cit., p. 15.

ومع نهاية القرن الرابع الميلادي ، انقسمت الامبراطورية الرومانية وتم القضاء على نظام الرق ، ثم خضعت أوروبا خلال العصور الوسطى (*) لنظامين اقتصاديين متتاليين هما : (١) نظام الضيعة المغلقة (**) Closed Manor System (من القرن الخامس حتى القرن الثالث عشر) ؛ (٢) نظام الاقتصاد الحرفي (٨) (من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر) . ولقد واكب كل نظام منهما تحولات جوهرية واضحة في البنية الحرفية ونوعية العمالة وحجم ونوعية الأسواق الحرفية .

(أ) نظام الضيعة

اتسم نظام الضيعة المغلقة بسيطرته على النظام السياسي ، كما أحكم قبضته على الريف واهتم بالزراعة . ومن ثم قل الطلب على المنتجات الحرفية بما كان له الأثر الواضح على انحسار حجم الإنتاج الحرفي بشكل ملحوظ . ولقد حلت وحدات الإنتاج صغيرة الحجم محل الوحدات الكبيرة الحجم نسبياً ، كذلك تحولت تلك الوحدات الصغيرة إلى وحدات اقتصادية إقطاعية . حيث ركزت تلك الوحدات الحرفية نشاطاتها في مجالات التجارة والسلع الحرفية خاصة تلك التي تتطلبها دواعي حماية ملاك الإقطاعيات وضيعاتهم الشاسعة . ولما كان النبلاء يتطلعون إلى ضم المزيد من مساحات الأراضي الزراعية ، كانت الحروب تنشب يومياً بينهم بسبب أطماعهم . ولقد أتاح ذلك للصناعات الحرفية المعدنية المتصلة بشئون الحرب أن تزدهر خاصة صناعات حدوة الحصان ، الدروع الواقية ، السيوف وغيرها من آلات الحرب (٩).

(*) تطلق عبارة "العصور الوسطى" على الفترة التى بدأت منذ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى يد القبائل الجرمانية فى القرن الخامس الميلادي (٤٧٦م) ، والتى استمرت حتى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك فى القرن الخامس عشر (١٤٥٣م).انظر عاصم الدسوقى ، مرجع سابق ، ص ٤٩.

(**) يمثل نظام الضيعة الوحدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للنظام الإقطاعى الذى ساد أوروبا إبان العصور الوسطى ، وكانت كل ضيعة تميل إلى تحقيق الاكتفاء الذاتى . انظر إسماعيل هاشم، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٩) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

ولقد شهدت أوربا إبان المراحل الأولى من العصور الوسطى ، بعض التطورات التقنية والاختراعات التكنولوجية خاصة خلال القرن الحادي عشر الميلادي مثل المحراث ذي العجلات ، واستخدام بودرة البارود في تشغيل الماكينات والمدافع ومن ثم ازدهرت الصناعات الحرفية (١٠) وأصبح للنظام الحرفي دور خطير وحيوي في مدينة العصور الوسطى . وعندما عادت الحياة إلى المدن الأوربية ، انتعشت الطوائف وقويت شوكتها . كما صار تقسيم العمل داخل النظام الحرفي بالمدن الأوروبية يقوم على المهارة المهنية والتخصصية في الأعمال والأنشطة الحرفية . وضمت المدن الأوربية حرفيين متخصصين مثل النجارين ، الخبازين ، الجزارين ...وغيرهم . ولقد كون المجتمع الحرفي البنية التنظيمية الأولى للمدينة في ذلك الوقت . ويذكر والتر أولمان Walter Ulman أن مجالس المدن الأوربية كانت تضم بين أعضائها ممثلاً واحداً لكل طائفة من طوائف المدينة حسب كل نشاط . كما كانت الطائفة بعد حصولها على ترخيص من جانب الحكومة ، تتمتع باستقلاليتها وبهيئتها الاعتبارية وبسيطرتها الذاتية على أعضائها (١١).

وفي هذا الصدد ، يصف بيرين Pierenne التنظيم الاجتماعي للطوائف في أوربا خلال العصور الوسطى فيقول :

« إن نظام الطائفة كان يؤمن مستقبل الفرد الحرفي ويحقق له الاستقلالية الذاتية من خلال أسلوب صارم يلزم جميع العاملين بالطاعة لشيخ الطائفة . وفي مقابل ما يتمتع به الفرد من استقلالية وأمان ،كان يحظر على الحرفي اتباع أي أسلوب في الإنتاج يحقق له التفوق على قرينه أو حتى تحسين نوعية الإنتاج بالخروج على المألوف في طريقة العمل . كما كان لايسمح للحرفي أن يغير من معدل إنتاجيته . فليس له أن يسرع أو يتباطأ في أداء العملية الإنتاجية . كذلك لايسمح للعامل بأن يلجأ إلى أي أساليب فنية من شأنها تقليل من تكلفة الإنتاج . ومن ثم كان التطور التقني من

(10) C. Tausky, op. cit. p. 20.

(11) Elliott A. Krause, The Sociology of Occupations, Little Brown and Company, Boston, 1971, p. 16, 17.

جانب العامل بمثابة شق عصا الطاعة وعدم الولاء ، لذلك كانت الطوائف الحرفية تنظيمات اجتماعية مستقرة»[١٢].

من جهة أخرى، يذكر أولمان أن بنية الطوائف برغم اتصافها بالتماسك والتكاملية فإنها لم تكن قوة قادرة على أن تحدث تغييرات جوهرية في المجتمع المحلي . وقصاري القول أن النظام الحرفي في ظل نظام الضيعة المغلقة قد اتصف بعدد من الخصائص التالية :

١ - اندماج الحرف مع الزراعة بعد أن كانت الحرف مستقلة النشاط إبان العهود القديمة .

٢ - تباين الأصول العرقية للعمالة الحرفية بسبب جلب العبيد والأقنان ومشاركة هؤلاء في سوق العمالة الحرفية جنباً إلى جنب مع الحرفيين الأحرار .ففي المدن الأوربية، كان الحرفيون يتمتعون باستقلالهم الذاتي داخل تنظيم الطوائف وبعض الورش الحرفية. من جهة أخرى ، كان المشتغلون بالحرف في الضيعات الإقطاعية أقنانا[*] ويقيمون بالضيعة وكانت علاقتهم بالسيد مالك الضيعة علاقة تتصف من جانبهم بالالتزام والتلقائية معاً .

٣ - لم ينزع أرباب الحرف وشيوخ الطوائف إلى الزج بأنفسهم وطوائفهم إلى حلبة الأطماع والصراعات الاجتماعية الدائرة بين الملوك والنبلاء . فقد ظلوا بعيدين عن ذلك الصراع يمارسون النشاط الحرفي بالتوارث لكل من الحرفة وأسلوب الأداء .

٤ - تنامي القيمة الاجتماعية للعمل اليدوي[١٣].

---

(12) Ibid. p. 17.

(*) القنية هى حالة بين الرق والحرية من وجهة نظر القانون .

(13) Robert L. Heilbroner, "The Economic Revolution", in Lauri Perman (Ed.), Work in Modern Society: A Sociology Reader, Kendall, Hung Publishing Company, Dubuque Iowa, 1986, p. 11.

(ب) النظام الحرفي

خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، شهدت المدن الأوربية انتعاشاً كبيراً ، كما بدأ التعامل في البيع والشراء يقوم على المعاملات النقدية .وبدأ الاتجاه الاقتصادي لدي الأفراد ينتقل من الاكتفاء الذاتي إلى أسلوب تحقيق الربح والتخلي في الوقت ذاته عن نظام المقايضات . ولقد أسهمت تلك العوامل مجتمعة في إضعاف شوكة نظام الضيعة وهروب الكثيرين من الأقنان من سيطرة هذا النظام .ولقد انتعش النظام الحرفي إبان هذه الفترة بشكل كبير وغير مسبوق ، وأخذت نشاطاته في التوسع والانتشار . ولقد شهدت تلك الفترة الزمنية أيضاً اتجاه الطوائف الحرفية نحو تحديد طقوس وأعراف تحكم عمليات الإنتاج والبيع والشراء والاهتمام بأحوال الحرفيين وترفيعهم داخل البنية الحرفية للطائفة(١٤).

ولقد واكب ازدهار المدن الأوربية وازدياد عدد السكان بها بسبب الهجرة من الريف ، قدوم بعض التجار للإقامة بتلك المدن . وحول ظهور فئة التجار ، يذكر توسكي Tausky (١٩٨٤)، أنه لا أحد يعرف على وجه الدقة خبر هؤلاء التجار ومن أين أتوا ، وإن كانت بعض الآراء ترجع أن معظم هؤلاء التجار ترجع أصولهم العرقية للأقنان الذين كانوا يعملون تحت إمرة سيدهم في شئون الزراعة داخل الضيعات الحصينة. وأن هؤلاء التجار كانوا أحراراً وليسوا عبيداً أو أقناناً كما كان هذا حال آبائهم. ولم يكن لهؤلاء التجار أي طمع للدخول في صراعات سياسية أو عسكرية ، بل كانت لديهم البراعة والقدرة على الاشتغال بالتجارة . وبمرور السنوات ، نمت فئة التجار وقويت شوكتهم وازداد عددهم بالمدن حتى صاروا قوة تؤلف طبقة اجتماعية جديدة أصبحت تعرف بالطبقة البرجوازية داخل المدينة الأوربية(١٥) .

---

(14) George Ritzer and David Walczak, Working Conflict and Change 3rd. edition, Prentice - Hall, Englewood Cliffs, New Jersey, 1986, p. 9 and 10.

(15) C. Tausky, Work and Society, op. cit., p. 21.

مما سبق يمكن القول أنه خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، تضافرت عدة عوامل لتعجل من تقويض نظام الضيعة المغلقة (النظام الإقطاعي) وبداية ازدهار النظام الحرفي كنظام اقتصادي صار يفرض سيطرته على مجريات الأمور السياسية في أوربا ، ونوجز فيما يلي أهم تلك العوامل :

١ - تنامي فئة التجار التى استطاعت الاشتغال بالتجارة في جميع مجالات النشاط الحرفي داخل المدن الاوربية . ولقد استطاع هؤلاء التجار جذب العديد من الحرفيين للعمل والإقامة بالمدن . وكان تجمع الحرفيين بالفعل حول بنيان الكنائس كالخبازين وصناع الأحذية والحياكين . وكانت الخامات والمواد الأولية اللازمة للإنتاج الحرفي يتم توفيرها للحرفيين بواسطة هؤلاء التجار بفضل ما يتوفر لديهم من رأس المال والخبرة الطويلة في المتاجرة والتسويق . ولقد كان التجار يستوردون المواد الخام من دول مختلفة ثم يعطونها للحرفيين لتصنيعها ثم يتولى التجار بعد ذلك بيع السلع في الأسواق المحلية والخارجية . وعلى سبيل المثال ، في مدينة فلاندرز (غرب بلجيكا) قام النساجون المهاجرون إلى المدينة بصناعة الثياب الفلمنكية الصوفية والتي كانت أكثر المنتجات شيوعاً وشعبية . وصارت تجارة الثوب الفلمنكي أكثر انتشاراً ورواجاً في قارة أوروبا .ولقد استمرت تلك التجارة بشهرتها حتى نهاية العصور الوسطى [١٦].

٢ - تشجيع النبلاء لنشاط كل من التجار والحرفيين ، وذلك نظراً للاستفادة المادية التي كان النبلاء يحققونها من الضرائب المفروضة من قبلهم على هاتين الفئتين [*] .ومن ثم توسعت الأنشطة التجارية والحرفية وازداد عدد المشتغلين بالحرف ، بفضل التسهيلات والخدمات التي كان يقدمها النبلاء لهذا النشاط طمعاً في زيادة مكاسبهم المادية . ومع بداية القرن الثاني عشر ، تنامت الفئة البرجوازية وباتت

(16) Loc. cit.

(*) من بين خصائص نظام الإقطاع في أوروبا خلال القرن الحادي عشر الميلادي لامركزية القضاء ، والذي من شأنه أن يتيح للسادة الإقطاعيين حقوقاً قضائية على حساب سلطة الملك المركزية ، انظر : قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، عالم المعرفة العدد ١٤٩ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مايو ١٩٩٠ ، ص ٦٩ .

الفروق الريفية - الحضرية واضحة تماماً في نوع المعيشة والخدمات وفرص العمالة . وأصبح التجار يمثلون قوة سياسية ضمن حكومة المدينة . كذلك تنامت العمالة الحرفية بشكل كبير جداً نظراً للجوء أعداد كبيرة من الأقنان لشراء حرياتهم بالنقود ثم هجرتهم للعمل بالمدينة . وقام هؤلاء بممارسة أنشطة حرفية متنوعة من أبرزها صناعة الغزل والنسيج وإصلاح الطرق والكباري وأيضاً حرفة الحدادة (١٧) .

من جهة أخرى ، برغم التشجيع المتزايد من جانب النبلاء للحرفيين والتجار ، فقد حرص النبلاء على إبقاء الفواصل الاجتماعية بينهم وبين باقي الفئات الأخرى ، حتى وإن ضمت تلك فئة ثرية مثل فئة التجار . ولضمان وجود هذا الفاصل الاجتماعي الكبير ضمن تدرج المكانة الاجتماعية ، أصدر النبلاء تشريعات تحدد نوعيات الملبس وكميات حلى التزين بحيث كان المظهر الخارجي للفرد مؤشراً قوياً يدل على طبقته الاجتماعية . ومن ثم حددت التشريعات ألوان الملابس ونوعية النسيج ونوعية وكمية المشغولات الذهبية والأحجار الكريمة التي يجب أن تتحلى بها كل طبقة اجتماعية . ولقد كان لهذا التميز الطبقي آثار ذات فائدة كبرى للنشاط الحرفي . فقد ازداد الإقبال على السلع الحرفية بسبب تنوع الأذواق العامة وبالتالي ازدهر النظام الحرفي من جراء التميز الطبقي (١٨).

٣ - الدور الكبير الذي أسهمت به الحروب الصليبية في تدعيم وتقوية النشاط الحرفي .ويتمثل هذا الدور عندما نقل الإيطاليون عدداً من الصناعات العربية من الشام إلى أوربا . خاصة تلك التي فاقت في جودتها مثيلاتها في دول أوروبا .

ومن بين الصناعات الحرفية العربية التي نقلها الصليبيون إلى أوربا ، صناعات الورق والسكر والزجاج والخزف والقيشاني وصناعة الأثاث إلى جانب صناعات أخرى مثل النسيج والعقاقير والعطور والخمور والنبيذ . أيضاً أسهمت الحروب الصليبية بفضل حاجتها لمزيد من الجند وتكوين جيوش قومية دائمة في تقويض أركان نظام

(17) C. Tausky, op. cit., p. 22.
(18) Loc. Cit.

الإقطاع . وفي الوقت ذاته قامت بتشجيع الحرف والطوائف الحرفية وفئة التجار على العمل ومزاولة الأنشطة الحرفية المختلفة لإمداد الجيوش الصليبية بما يلزمها من معدات وأدوات قتال ومؤن وذخيرة . ومن ثم انتعشت صناعات الحديد والأسلحة ، والصابون والسجاد على نحو لم يسبق له مثيل وذلك إبان القرن الثاني عشر الميلادي [١٩].

٤ - انتعاش المبادلات النقدية ونشاط التجارة وازدياد السكان الحضريين وحصول المدن الأوربية على استقلالها من سيطرة أمراء الإقطاع [٢٠].

ولقد أدى تضافر تلك العوامل إلى ازدهار الحرف وانتعاش العلاقات التجارية بين الريف والحضر . حيث كان النظام الحرفي بالمدن يمد الريف بما يلزم من منتجات وملابس وبعض الأدوات والمصنوعات البسيطة .وفي المقابل كان الريف يمد سكان الحضر والحرفيين منهم خاصة بما يلزم من مواد أولية وخامات ، بالإضافة إلى ما يحتاجه سكان الحضر من مواد الاستهلاك المباشر .

وفيما يلي بعض الخصائص الهامة للنظام الحرفي :

١ - بدء اختفاء الحرف بسبب الاستغلال من قبل الفئة البرجوازية التي تحكمت في الإنتاج بدءاً من توفير المادة الخام حتى بيع المنتج الحرفي في الأسواق المختلفة .

٢ - تشجيع السلطات الحاكمة على انضمام الحرفيين من أبناء الحرفة الواحدة في تنظيم نقابي طائفي . ولقد صادف هذا الاتجاه ميلاً قوياً عند الحرفيين أنفسهم . ولقد انتشرت النقابات الطائفية في أوربا إبان القرن الثاني عشر ، وكانت تلك النقابات أو الطوائف الحرفية تضم أصحاب الحرف والحرفيين المأجورين . وقد نشأت تلك الطوائف نتيجة لرغبة أصحاب الحرفة الواحدة في الاتحاد للدفاع عن مصالحهم وأيضاً رغبة الهيئات الحاكمة في نشوء تلك الاتحادات لتيسير عملية جمع الضرائب [٢١] .

(١٩) قاسم عبده قاسم ، مرجع سابق ، ص ٢١٥ ، ٢١٦.

(٢٠) عبد العزيز عجمية ومحمد محمود محروس ، التطور الاقتصادي فى أوربا والعالم العربى ، الدار الجامعية ، بيروت ، ١٩٨٨، ص ٢٨ ، ٢٩.

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٧ ، ١٨.

٣ - وجود طوائف التجار إلى جانب الطوائف الحرفية . وكان من بين طوائف التجار من يمتلك بعض المشروعات الحرفية .

(جـ) نظام الوسطاء

لقد تضافرت بعض العوامل مثل الحروب الصليبية وقاعدة الذهب وحركة الكشوف الجغرافية مع عوامل أخرى من أهمها ظهور الفكر التجاري وسياسة المستعمرات في أن تودع أوربا العصور الوسطى ولتبدأ عصراً جديداً ونظاماً جديداً هو النظام الرأسمالي والتي ظهرت بوادره تدريجياً إبان السنوات الأخيرة من العصور الوسطى. فقد أدت تلك العوامل مجتمعة إلى انتعاش كبير للتجارة وتحويل فئة غير قليلة من التجار إلى الثراء الفاحش . وصار الهدف الأساسي لهؤلاء هو تحقيق الأرباح الطائلة من خلال اتخاذهم لعدة أساليب في مقدمتها إحكام القبضة والسيطرة الكاملة على نشاط النظام الحرفي . وقد تمثلت تلك السيطرة في اتجاه التجار لاحتكار بعض السلع كما احتكرت جماعة منهم بعض الأسواق الحرفية والزراعية . ومن ثم لم يجد الحرفيون أمامهم من سبيل إلا بيع منتجاتهم للتجار . ومما زاد من إحكام سيطرة التجار أن غالبية الحرفيين كانوا فقراء وبعد أن كان بعضهم يمتلك أدوات الإنتاج في بداية العصور الوسطي ، أصبحوا لا يمتلكون شيئاً . وصار التاجر يتحكم في الأدوات فضلاً عن المنتج الحرفي وتوفير المواد الخام اللازمة . وكان للاحتكار هدفان أساسيان آخران لا يقلان أهمية عما سواهما للأنشطة الحرفية خلال القرن السابع عشر الميلادي والهدفان هما : (١) تدعيم الصناعات الحرفية الناشئة ؛ (٢) حماية مصالح الفئة الجديدة من كبار الصناع والحرفيين وهم من أثرياء الحرفيين . حيث كانت الفجوة الاجتماعية بين هؤلاء وباقي الحرفيين المأجورين كبيرة جداً . [(٢٢)]

ولقد ترتب على سياسة الاحتكار من قبل التجار أن افتقد الحرفيين استغلالهم الذاتي في العمل ، كما ازدادوا فقراً ، بينما ازداد التجار ثراء [(٢٣)].

(٢٢) إسماعيل هاشم ، محاضرات في التطور الاقتصادي ، مرجع سابق ، ص ص ٧٢ - ٧٤.
(٢٣) المرجع السابق ، نفس الصفحات .

ولما كانت الأعراف والتقاليد الحاكمة للإنتاج في الطوائف الحرفية ، تفرض قيوداً على المنتج من حيث الكم والكيف والجودة . فلقد صارت الطوائف عائقاً أمام سياسة الاحتكار من جانب التجار ورغبتهم في الثراء . لذا كان من الضروري أن يبحث هؤلاء عن بديل أفضل يحقق أطماعهم وفي الوقت ذاته يحطم تلك القيود . ولذلك لم يتعامل التجار مع شيوخ الطوائف وإنما اتجهوا للتعامل المباشر مع الحرفيين والصناع وبالفعل تم لهم المراد . وقام التجار بإمداد الحرفيين برأس المال المطلوب لتغطية استهلاكهم الضروري وشراء ما يلزمهم من مواد خام . ولقد عجلت تلك السياسة التي انتهجها التجار بتقليص نظام الطوائف فيما بعد وظهور نظام حرفي جديد يحقق تطوراً في قوى الإنتاج وعلاقاته. وقد عرف هذا النظام بنظام الوسطاء Putting out System (الصناعات المنزلية Cottage Industries) (٢٤).

يقوم نظام الوسطاء على أساس الفصل بين العمل ورأس المال وتلك قيمة اقتصادية جديدة لم تعهدها الأنظمة الحرفية الأخرى . وتعتبر الصناعات المنزلية أول إفراز للنظام الرأسمالي حيث استطاعت بوضوح أن تميز بين فئتين على أساس اقتصادي هما فئة أصحاب الأعمال التي تملك أدوات الانتاج وفئة الصناع المأجورين المعتمدين على قوة سواعدهم . وفي ظل هذا النظام كان صاحب العمل يعهد إلى عدد من الصناع في منازلهم بالمواد الأولية لتصنيعها لحسابه طبقاً لمواصفات معينة يحددها لهم . وكان من دافع حرص صاحب العمل على استثمار أمواله أن يعاود المرور مراراً على هؤلاء الصناع للتأكد من وجود العمالة الكافية وانتظامها في العمل الحرفي . وفي الوقت ذاته يحدد الأجر الكلي لأفراد الأسرة (الرجال والنساء والأطفال) . ثم يقوم بنفسه بتجميع المنتج النهائي وتسويقه. ولقد انتشر هذا النظام خلال القرن الخامس عشر الميلادي حتى القرن السابع عشر (٢٥).

---

(24) C. Tausky, Work and Society, op. cit.,

(25) Ibid., p. 215, 26.

وانظر أيضا : عبد العزيز عجمية ومحمد محروس ، التطور الاقتصادي في أوربا والعالم العربي ، مرجع سابق ، ص ٣١ ، ٣٢ .

وكنتيجة لزيادة نشاط نظام الوسطاء ، تخصصت مدن أوربية في صناعات معينة وصارت الأسواق أكبر حجماً، كما تنوعت وتعددت في أوربا . فعلى سبيل المثال تخصصت مدن مثل «نورمبرج» و «توليدو» في إنتاج الأسلحة وملحقاتها ، و «قرطبة» بالصناعات الجلدية المتنوعة وكل من «يواتييه» و «ليموج» في السجاد و «فينيسا» في صناعة زجاج المرايا والمنتجات الزجاجية المتنوعة وسيفيل في صناعة الملابس الحريرية[٢٦] .

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ظهر نظام المصنع اليدوي حيث يجتمع العمال في مكان واحد لإنتاج سلعة معينة تحت إدارة مباشرة من جانب صاحب العمل أو من ينوب عنه . وقد اتسم هذا النظام بخاصيتين : أولهما سهولة الاشراف والرقابة على العمل وسيره حيث يجتمع العمال في مكان واحد ؛ وثانيهما سهولة تطبيق قواعد تقسيم العمل على نطاق واسع مما يؤدى إلى زيادة الإنتاج وانخفاض تكاليفه . إلا أن هذه المصانع اليدوية لم تبلغ في الانتاج والانتشار ما بلغته الصناعات المنزلية بسبب اعتماد الأولي على الأساليب التقليدية في الإنتاج . ومن ثم لم يستطع نظام المصنع اليدوي أن يحل محل الصناعات المنزلية . ومن ثم شهدت تلك المرحلة الانتقالية أنظمة صناعية ثلاثة تضم نظام الوسطاء ، والورش الحرفية الخاصة ، ونظام المصنع التقليدي ، وكانت هذه الصناعات بمثابة علامة على طريق ازدهار الرأسمالية[٢٧].

ولقد صاحب التحول الكبير في النشاط الحرفي في نهاية القرن الثامن عشر اتصاف النظام الحرفي بعدد من الخصائص الهامة التالية : (١) الفصل الكامل بين العمل ورأس المال ؛ (٢) تحول قوة العمل الحرفي إلى سلعة تعتمد على العرض والطلب ؛ (٣) اتصفت علاقات النسق الحرفي بالسوق بالمساومة والاستغلال في غالبية الأحوال ؛ (٤) تدهور نظام تدريب الصبية الذي كان سائداً في ظل نظام الطوائف الحرفية ؛(٥) افتقد الحرفي قدرته على الإلمام بكافة دقائق العملية الإنتاجية ، واقتصر دوره على

(26) C. Tausky, op. cit., p. 25.

(٢٧) عبد العزيز عجمية ومحمد محروس ، مرجع سابق ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

أداء نشاط تخصصي محدد[٢٨] ؛ (٦) اعتماد الحرفي على التاجر أو صاحب المشروع الحرفي . ولم تعد للحرفي استقلاليته التي كان يتمتع بها في ظل نظام الطوائف .

(د) نسق المصنع

مع نهاية القرن الثامن عشر تدهور نظام الوسطاء بفضل التطور الكبير في وسائل الانتقال واستخدام طاقة البخار في السكك الحديدية ورصف الطرق . ولقد حقق هذا التطور سهولة في عمليات الانتقال والاتصال بين المناطق المختلفة في داخل الأقطار الأوربية خاصة المملكة المتحدة[٢٩] . وبفضل التطور الهائل والتقدم التقني السريع في تنظيم مجالات النشاط الصناعي في اوربا ، وبفضل المخترعات الكثيرة في صناعة الغزل والتعدين والقوى المحركة لاسيما في بريطانيا - بفضل هذين الجانبين - حدث تراكم في رأس المال ، وتحولت المصانع اليدوية في ظل نظام الوسطاء ، إلى مصانع أكثر حداثة لتدخل أوربا طوراً صناعياً جديداً بدأته بريطانيا وهو الثورة الصناعية وظهور نسق المصنع الحديث .

ثانياً : التاريخ الاجتماعي للنظام الحرفي في مصر

١ - الحرف في مصر الفرعونية

الواقع أن استقراء التاريخ الاجتماعي للنظام الحرفي في الدولة المصرية القديمة ، يطلعنا على بعض الخصائص النوعية لكل من البنية الاجتماعية للمجتمع المصري وأيضاً على خصائص النظام الحرفي الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك البنية . فبقدر ما كانت تتصف به البنية الاجتماعية من صرامة وتشوه كان إنعكاس ذلك بقوة على البنية الحرفية .

---

(٢٨) رمزي زكي ، التاريخ النقدي للتخلف : دراسة في أثر نظام النقد الدولي على التكوين التاريخي للتخلف بدول العالم الثالث ، عالم المعرفة ، العدد ١١٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٧ ، ص ٥٠ .

(29) Richard Hall, Dimensions of Work, Sage Publications Beverly Hills, London, 1986, p. 28.

وتؤكد رموز البرديات والنصوص المصرية التي عثر عليها في أنحاء متفرقة من مصر ، أن بدء ممارسة النشاط الحرفي كان متزامنا ومتلازما مع بزوغ شمس الحضارة المصرية العريقة والضاربة بجذورها في أعماق التاريخ البشري . ونظراً للطول الزمني للخلفية التاريخية للنظام الحرفي في مصر ، فسوف نعرض فيما يلي وبإيجاز لأهم خصائص هذا النظام ونوعية العمالة الحرفية ومدى تأثر هذا النظام بالبنية الاجتماعية للمجتمع المصري عبر فترات زمنية متعاقبة من التاريخ تبدأ من عصر ماقبل الأسرات حتى النصف الثاني من القرن العشرين .

يتفق جمهرة علماء الآثار المصرية فيما بينهم على أن المصريين القدماء قبل عصر الأسرات قد مارسوا العديد من الأنشطة الحرفية . وتدل الآثار المصرية القديمة أن المصريين أول من اكتشفوا معدن النحاس في شبه جزيرة سيناء . وكانوا يستخدمونه في تجميل عيون النساء . كما استخدم المصريون القدماء مادة القار في تصنيع الأدوات الصوانية والفخار . لم يتوقف نشاط المصري القديم عند مجرد صناعة بعض المنتجات المعدنية والخشبية بل أبدع فيها إلى الحد الذي لايزال لغزاً محيراً . فقد انتجت يد الصانع المصري البارع نماذج فخارية ومشغولات ذهبية وحلى وتماثيل وكراسي خشبية ومعدنية ، يرجع تاريخ ممارستها إلى مصر القديمة فترة ما قبل عصر الأسرات (٣٠)

وتكشف الآثار المصرية القديمة عما كان يمتلكه الحرفي من قدرات إبداعية تمثلت في إنتاجه للعديد من المنتجات بالغة الدقة في فنون الزخرفة والنقش . فقد اكتشفت البعثات الأثرية الكثير من المنتجات الخرزية والمصنوعة من الزجاج الملون ، كما استخدم الحرفيون (القشرة) التي يتم لصقها على المنتجات الخشبية وذلك للمرة الأولى في تاريخ البشرية . كما برع الحرفيون في إنتاج العديد من أشكال الوصلات الخشبية التي تتحكم في حركة الأبواب الخشبية . هذا بالإضافة إلى مشغولات ذهبية وفضية كثيرة

(٣٠) محمود عبد الحميد أحمد ، الهجرات العربية القديمة من شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام إلى مصر ، الطبعة الأولى ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٨ ص ٢٨٤.

دقيقة الصنع وذات ذوق فني رفيع ،من بينها ماهو مكفت بالفضة أو مرصع بالأحجار الكريمة مثل الفيروز . وجدير بالذكر أن طريقة المصريين القدماء في تصنيع تلك المشغولات الذهبية والفضية لاتزال يستخدمها الحرفيون حالياً في مصر [٣١].

وقبل حوالي (٣٠٠٠) سنة قبل الميلاد ، إبان فترة الثورة الزراعية وتحول معظم أنشطة المصريين صوب زراعة الأرض إلى جانب الاشتغال بحرف أخرى مثل الرعي دعت حاجة الزراعة وفلاحة الأرض إلى بعض الأدوات الزراعية التقليدية مثل الفأس والنورج الخشبي وبعض الآلات الزراعية الأخرى .وخلال تلك الفترة بدأت بعض الحوانيت الحرفية في الظهور بأسواق المدن المصرية .وشهدت فترة العصر الحجري المتقدم ، ظهور بعض المدن التي تتصف بالتخصصية المهنية . وكانت تضم عدداً من الورش الحرفية صغيرة المساحة تقوم بتصنيع الأسلحة والأواني والأدوات الزراعية وإعداد الملابس الصوفية . ومع التوسع الزراعي ، ازداد الطلب على الأدوات والآلات الزراعية مما صاحبه رواج في النشاط الحرفي [٣٢].

ولما كان الملك يُنَصب نفسه إلهاً وأفراد المجتمع رعيته يقومون على خدمته وطاعته فقد فرض على كل حرفي يشتغل بالزراعة أن يدفع ما يوازي ١٠٪ من محصول الأرض ، ثم يقوم بتوريدها عيناً إلى خزانة الملك .ولقد تم تخصيص تلك النسبة لإطعام سكان المعبد وهم كثيرون . واستتبع ذلك بالضرورة تشغيل مئات من الحرفيين داخل المعابد بالإضافة إلى عملهم بورش داخل المدينة [٣٣]. فقد استعانت الدولة المصرية بالكثير من الحرفيين الذين ألحقتهم للعمل في تنظيماتها بهدف أداء خدمات معينة من أهمها تجهيز الأجور العينية للعمالة الحكومية . وتتمثل الأجور في وجبات غذاء يومية تتحدد أصنافها وحجم ونوعية مكوناتها تبعاً لمكانة الموظف الرسمي داخل التنظيم البيروقراطي للدولة ولما يتمتع به من حظوة تتمثل في وجبة غذاء

(31) C. Tausky, Work and Society, op. cit., p. 8.
(32) Loc. cit.
(33) Ibid., p. 8, 9.

عند النبلاء وأفراد البلاط الفرعوني . ولقد كان كل موظف رسمي يتقاضى دخلاً عينياً يومياً يتم تقديره بواسطة جهاز إداري معين لهذا الغرض ويقوم الجهاز بتوزيعه عبر مراكز إدارية محلية . وتضم وجبة الغذاء أرغفة من الخبز وقطعة من اللحم وإناء من الجعة . ومن ثم كان الحرفيون المعينون من خبازين وطباخين وصناع الجعة يقومون بأداء تلك الأنشطة يومياً وبشكل دائم . وكانت حصة الغذاء المخصصة للوجبة الواحدة ترتبط بالمكانة الرسمية وصلة القرابة التي يتمتع بها الموظف الحكومي. وإلى جانب حرف الإطعام انتعشت حرف أخرى مثل صياغة الذهب والأشغال النحاسية (٣٤).

وإضافة إلى ماسبق ، مارس المصريون القدماء العديد من الحرف ، فبعد أن اخترع الكهنة الرموز الهيروغلوفية كوسيلة للكتابة ، فقد تطلب ذلك ضرورة تعليم الأفراد تلك الرموز . ولذلك تم إنشاء مدارس لتعليم الكتابة لجماعة النساخين في المعابد .حيث كان يعين خمسة نساخين لمعاونة كل كاهن كما كانوا في خدمة الجهاز البيروقراطي الكبير . أيضا أدى اختراع الرموز الهيروغلوفية إلى ضرورة تصنيع الأدوات والأقلام المعدنية اللازمة لنقش تلك الرموز ولتحديد اسم أو مهنة كل من يعمل داخل الجهاز البيروقراطي ، ومن ثم تكليف عدد من الورش الحرفية تصنيع تلك الأدوات والأقلام (٣٥).

كذلك مارس المصريون القدماء حرف البناء والنجارة . ففي بناء الأهرامات ،شارك النجارون والبنا ءون من غير العبيد والآلاف من الفلاحين في هذا العمل الضخم ، ولقد كان فرعون مصر يختار من بين حاشيته من يتولي الإشراف على بناء الهرم . كما كان يتدخل في اختيار «معلم» البنائين من بين أهل الثقة عنده (٣٦).

(34) Ibid., p. 11.
(35) Ibid., p. 12.
(36) Loc. cit.,

وإذا انتقلنا من مناقشة الحرف اليدوية التي كان المصريون القدماء يزاولونها إلى العمالة الحرفية وخصائصها ، نجد أنها اتصفت بالتباين العرقي ، وما كانت برمتها مصرية المنبت . ويرجع بعض الباحثين ، الأصول العرقية للعمالة الحرفية إلى أربعة مصادر رئيسية هي :(١) عناصر بشرية قدمت إلى مصر قهراً كأسرى حرب بسبب الحروب الكثيرة التي كانت تخوضها مصر إبان العصور القديمة ؛ (٢) عناصر بشرية عمورية المنبت جذبتها خصوبة الأراضي الزراعية الشاسعة في مصر وذلك إبان عصر الدولة الوسطى ؛ (٣) عناصر بشرية قدمت إلى مصر للاشتغال بالتجارة ثم استوطنت بها بشكل دائم ؛ (٤) عناصر بشرية قدمت إلى مصر بحثاً عن العمل والالتحاق بالمعابد للعمل كخدام أو بالعمل في الزراعة كأقنان (٣٧).

ومن خلال فك رموز البرديات والنصوص المصرية التي عثر عليها في شبه جزيرة سيناء ، يستنتج الباحثون أن العمالة الحرفية في مصر القديمة كانت تضم بعض الرجال الذين مارسوا أنشطة مختلفة كما ساهموا في إنشاء بعض المقاصير وشغل عدد من الوظائف داخل التنظيم البيروقراطي للدولة المصرية . كذلك تتضمن بعض البرديات مثل بردية بركلين ٣٥، ١٤٤٦ (*) مايشير إلى عمالة الأطفال والنساء إلى جانب العمالة الذكرية في بعض الحرف والأشغال المنزلية (٣٨).

ويمكن القول أن التشوه الذي كانت تتصف به البنية الحرفية قد أسهم فيه تباين الأصول العرقية ونظام الرق ؛ بالإضافة إلى تشوه البنية الطبقية للمجتمع المصري في

(٣٧) محمود عبد الحميد ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٤ .

(*) " ورد في بردية بركلين ٣٥، ١٤٤٦ التي تؤرخ بعصر الدولة الوسطى أسماء ٤٥ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال من العموريين كانت أسماؤهم مسبوقة بكلمة C>m بمعنى خادم ، وكلمة C>mt بمعنى خادمة . وقد كتب إلى جانب كل شخص منهم العمل الموكل إليه ، فمن الرجال من كان يعمل خادماً في المنزل hry.pr أو طباخاً psi أو صانع جعه cfty, ومن النسوة من كن يعملن بالحياكة والنسيج وتجهيز الملابس أو كأمينات مخزن snc " (محمود عبد الحميد ١٩٨٨ ص ص ٢٤١-٢٤٣).

(38) Tausky, op. cit., p. 11.

العالم القديم فلقد كانت البنية الحرفية إفرازاً حياً للبنية الاجتماعية في مصر القديمة وما كانت تتصف به من صرامة وتشوه في آن واحد ، . وقبل الثورة الزراعية ، كانت البنية الاجتماعية تتصف باتساع الفجوة الاجتماعية بين طبقة الصفوة على القمة وعامة الأفراد من الفلاحين الفقراء في القاع . أما الطبقة الوسطى فكانت تضم بعض الفلاحين الأثرياء بالإضافة لفئة الحرفيين الأحرار فقط ، أما العبيد والأقنان ممن يمارسون الأنشطة الحرفية فكانوا يمثلون مع الفلاحين الفقراء الطبقة الدنيا .

وإبان فترة الثورة الزراعية حدثت تحولات في قيمة العمل الزراعي كما تحول معظم أنشطة الأفراد صوب زراعة الأرض واستطاعت بعض العائلات المصرية أن تحقق حراكا اجتماعياً بسبب ثرائها من جراء وفرة المحاصيل الزراعية لأراضيها . وقد أدى هذا الثراء إلى تقريب الفجوة الاجتماعية بين أثرياء الفلاحين والنبلاء وكسب ود الصفوة حتى أمكن لهؤلاء الفلاحين الانضمام للطبقة العليا . بينما بقي الفلاحون الأقل حظاً في الزراعة والثراء عند الطبقة الوسطى مع فئة الحرفيين (٣٩) .

وإلى جانب التفاوت الطبقي للعمالة الحرفية في مصر القديمة ، كان يوجد تفاوت داخل الفئة الواحدة بسبب عدة عوامل من أهمها نوعية العمل الحرفي ومكان ممارسة النشاط الحرفي وارتباطهما بحاجة الملوك/الفراعنة وأسر النبلاء لنوع النشاط الحرفي . حيث كان النشاط الحرفي يمارس داخل القصور لخدمة الفراعنة والملوك وعند النبلاء وداخل معابد الكهنة . بالإضافة إلى ممارسة النشاط داخل حوانيت صغيرة الحجم حيث يعمل الحرفي مستقلاً أو كعبد تحت سيطرة سيده .

وفيما يختص بالأحوال المعيشية وعلاقة الحرفيين بالجهاز البيروقراطي الحكومي الذي أنشأته الحكومة المصرية ، نجد أن موقع العمل الحرفي وطبيعة النشاط داخل البلاط الفرعوني أو بعيداً عنه كانا عاملين أساسيين يوثران على المكانة الاجتماعية للحرفي ونوعية الحياة التي يحياها . كما لعبت أنماط السلطة الحكومية دوراً أساسياً

(39) George Ritzer and David Walczak, Working Conflict and Change, op. cit., p. 8.

في الزام الحرفيين بأنشطة حرفية معينة دون أن تلقى بالاً للحالة التي كان عليها الحرفي من حرية أو رق (٤٠).

ولقد تباينت نوعية الحياة للحرفيين وفقاً للأوضاع المكانية للعمل الحرفي . فكان الحرفي الذي يعمل في البلاط الفرعوني وعند النبلاء أوفر حظاً من زميله الذي يعمل داخل معابد الكهنة . من جهة أخرى ، كان الحرفي الذي يعمل في حانوت بالمدينة يعاني من شظف العيش ولم يكن دخله كافياً لسد احتياجاته المعيشية . ولقد كان البلاط الفرعوني يضم الصفوة المختارة من النبلاء والموظفين الرسميين لخدمة الفرعون . كما كان يضم العديد من الحرفيين في مجالات متعددة بدءاً من ممارسة الفنون للترويح عن الفرعون حتى مستوى القيام على خدمته . وكانت فئة الحرفيين داخل البلاط الفرعوني تتصف بتدرج وظيفي يستند إلى السلطة . فإذا ما استثنينا الفنانات اللائي كن تروحن عن أفراد الطبقة الحاكمة ، نجد أن الحرفيين العاملين في مطبخ القصر ، يتدرجون وفق السلطة من مقطع اللحم للغذاء الفرعوني/الملكي في القمة يليه خباز الفطائر ثم خباز العيش المنفوش ثم صانع المربى (٤١).

وبعد اختراع فن الكتابة ، انشأت الدولة المصرية جهازاً بيروقراطياً ضخما بهدف تنظيم جباية الضرائب والقيام بإحصائيات دورية لمساحات الأرض المنزرعة وحصر عدد المصريين العاملين في القطاعات الزراعية والحرفية ، بالإضافة لحصر عدد السكان. ولقد اتخذ الجهاز البيروقراطي حينئذ نمطاً من السلطة قريب الشبه من نظام «الأوليجاركيه». حيث تحكمت طبقة الصفوة بشكل سافر في كل مقدرات المجتمع المصري وأنساقه الفرعية . كما تم تحديد المراكز والأوضاع الاجتماعية لكل فئة بل لكل فرد داخل المجتمع.ولقد ارتبطت سياسة الثواب والعقاب بتلك المراكز والأوضاع الاجتماعية . فعلى سبيل المثال ، كان المتسبب في إيذاء أو إصابة الموظفين الرسميين يتعرض لعقوبات رادعة من جانب الحكومة . وعلى النقيض لو كان المصاب حرفيا أو من المشتغلين في

(40) Robert L. Helibroner "The Economic Revolution" op. cit. p. 11.
(41) C. Tausky, op. cit, p. 12.

مجال الفنون تكون عقوبة المتسبب أخف بكثير من الحالة السابقة . بينما إذا أصيب قن أو عبد بغض النظر عن حرفته أو عمله فلا يوقع على المتسبب بالضرر أي عقوبات بدنية أو مادية . وإذا ارتبط بإصابة العبد ضرر في ممتلكات الأثرياء وأصحاب النفوذ لزم دفع التعويضات المالية المناسبة لهؤلاء حسب الضرر وجسامته(٤٢).

نخلص من المنافشة السابقة حول البنية الحرفية ونوعية العمالة الحرفية في الدولة المصرية القديمة إلى بعض الخصائص الهامة التالية :

١- ارتبط النشاط الحرفي ارتباطاً قوياً بالتنظيم الحكومي للدولة المصرية كما كانت حاجة هذا التنظيم البيروقراطي للنشاط الحرفي قوية . وكان الحرفيون يعملون في معابد الكهنة وفي داخل البلاط الفرعوني .

٢- تشوه البنية الحرفية من جراء تشوه البنية الاجتماعية للمجتمع المصري . وهذا يعكس الارتباط القوي بين البنيتين الاجتماعية والحرفية .

٣- عدم تجانس العمالة الحرفية سواء من حيث العرقيات أو من حيث اشتمال العمالة على حرفيين أحرار وآخرين أرقاء أو أقنان .

٤ - تباين المكانة الاجتماعية للحرفيين داخل البنية الطبقية الاجتماعية للدولة المصرية القديمة . فالأحرار لايتساوون مع العبيد من حيث المعاملة أو العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع .

٥ - تباين المكانة الاجتماعية للحرفيين وفقاً للوضع الوظيفي الذي يشغله الحرفي داخل أو خارج التنظيم البيروقراطي للجهاز الحكومي .

٦ - تباين مستوى المعيشة ونوعية الحياة لفئة الحرفيين تبعاً للتباين في الأوضاع الوظيفية . فمستوى المعيشة ونوعية الحياة للحرفيين العاملين داخل أروقة البلاط الفرعوني ، أفضل ممن سواهم من الحرفيين .

---

(42) Ibid., p. 13.

٧ - إن الارتباط بين الحرفي والتنظيم البيروقراطي الحكومي لم يكن اختيارياً على إطلاقه بل كان لسياسة القهر والسلطة «الأوليجاركية» من قبل الصفوة الحاكمة الدور الأعظم في إقامة هذا الارتباط .

٢ - الحرف منذ غزو الإسكندر الأكبر حتى الفتح الإسلامي لمصر

خلال فترة إخضاع الدولة المصرية لسيطرة الإسكندر الأكبر زهاء ٣٠٠ عام ، يمكن القول إن الأوضاع المعيشية والأحوال الاقتصادية للحرفيين في مصر لم تتغير عن سابق عهدها بشكل ملموس . كما ظلت البنية الحرفية على تشوهها والعمالة الحرفية غير متجانسة .

من جهة أخرى ، يمكن القول إن غزو الإسكندر الأكبر لمصر قد واكبه ظهور أنشطة حرفية صناعية جديدة لم يسبق للحرفيين أن خبروا أسرارها أو مارسوها من قبل، مثل استخدام معدن الحديد المعالج في صناعة الأسياف والنصال والدروع .فعندما غزا الإسكندر الأكبر منطقة الشرق الأوسط بدءاً من مصر وسوماريا كانت جيوشه تتسلح بالأسلحة المصنعة من الحديد المعالج . ولقد انتقلت تلك الصناعة إلى مصر . وقلد المصريون الأتراك(*) في صناعة الأسلحة الحديدية وانتشرت بالتالي الورش الحرفية التي تصنع الأسياف والنصال الحديدية في المدينة المصرية(٤٣).

وعندما احتل الرومان مصر عام ٣١ قبل الميلاد ، لم يكن الحرفيون أوفر حظاً من نظائرهم في أوروبا التي رزحت أحقاباً طويلة تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية. فقد تدهورت الأنشطة الحرفية وازدادت الأحوال المعيشية والاقتصاد للحرفيين سوءاً . ويرجع سبب ذلك التدهور إلى أطماع الرومان في جباية الأموال وفرض الضرائب الباهظة

(*) لقد كان للأتراك السبق في استبدال معدن البرونز والذي كان شائع الاستخدام في تصنيع الأشكال المعدنية والأدوات الحربية بمعدن الحديد بعد معالجته بالحرارة بطريقتي الكربنة والتلدن annealing ونفيد الطريقتان في اكساب السيف الحديدي الصلابة والقوة وتحمل الضربات اثناء القتال القتال المتلاحم . انظر: Ibid., p. 10.

(43) Loc. cit.

على كل فئات الشعب المصري . ولقد اثقلت الضرائب كاهل الحرفيين وأصبح معظمهم غير قادرين على الوفاء والسداد . ومن ثم لم يجدوا أمامهم من سبيل إلا الفرار فهجروا صناعتهم وحوانيتهم ولم يتبق منهم سوى نفر قليل .

وخلال فترة احتلال الرمان لمصر كان حجم السوق الحرفي محدوداً جداً ويتصف بالكساد . كما قل عدد الحرفيين الممارسين لحرفتهم داخل حوانيت ثابتة بالأسواق . وتحول الحرفي إلى منتج وبائع لسلعته في آن واحد . وما كان دخل الحرفي من صنعته كافيا لسد رمق أسرته . ولقد كان بعض الأنشطة الحرفية تتم داخل الأسر لتوفير القوت الضروري . وكان يطلق على الصناع المتخصصين «أرباب الحرف» (٤٤).

أيضا ، اتصفت الفترة بالتكاملية الواضحة بين النشاطين الحرفي والزراعي حيث كان القطاع الزراعي يوفر المواد الخام اللازمة للإنتاج الحرفي . كما كان الحرفي باستخدام الأدوات والآلات البسيطة التي يمتلكها يقوم بتصنيع بعض الأدوات الزراعية .

وفيما يختص بالأنشطة الحرفية التي مارسها المصريون إبان الحكم الروماني لمصر ، وإضافة للأنشطة التي عركوها من قبل ، تدل الآثار المصرية على اشتغالهم بصناعة السجاد والنسيج الصوفي (٤٥).كما أقام الأباطرة الرومان في مدينة الإسكندرية مصنعاً حرفياً لصناعة الملبس الإمبراطوري . حيث يقوم الأباطرة بتقديمه هدية للامبراطور تقرباً إليه .وكان هذا الملبس يصنع من الكتان الذي اشتهرت به مصر (٤٦) .

من جهة أخرى ،في أعقاب فترة الحكم اليوناني لمصر، بدأ النظام الحرفي يستعيد حيويته فنشطت الصناعات الحرفية وكثرت الحوانيت الحرفية في الأسواق المختلفة . ولقد مارس الأقباط وبعض أفراد الجالية اليهودية عدداً من الأنشطة الحرفية . ويذكر بعض المؤرخين أن الأقباط كانت لهم أدوار هامة في تقدم وتنمية الصناعات الحرفية .

(44) Ibid., p. 14.

(45) Robert L. Heilbroner, "The Economic Revoluation: op. cit., p. 7.

(٤٦) وزارة الشئون الاجتماعية ، اللجنة القومية للمرأة ، بحث التكنولوجيا المستخدمة فى الريف المصري ، مرجع سابق ، ص ٢٨.

وخلال العصر القبطى في مصر ، ازدهر العديد من الصناعات الحرفية ، خاصة صناعات النسيج بأنواعها المختلفة الكتانية والصوفية ، وصناعات السجاد الذي اشتهرت به مدينة أسيوط منذ ذلك الحين . وكما انتشرت صناعة الحصر وراجت خلال تلك الفترة بعض الحرف القديمة مثل صناعة النعال والتي يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة(٤٧).

نخلص من المناقشة السابقة حول النظام الحرفي في مصر ابتداء من غزو الإسكندر الأكبر لها حتى بداية الفتح الإسلامي لمصر ، إلى بعض الخصائص العامة يمكن أن نجملها فيما يلى :

١ - إبان حكم الإسكندر الأكبر لمصر : (أ) ظلت البنية الحرفية على تشوهها دون تغيير ملموس ؛ (ب) استفادت الخبرة الحرفية كثيراً من خبرة الأتراك في معالجة الحديد .وتعتبر تلك الفترة بداية حقيقية لانتقال الخبرة الحرفية من تصنيع البرنز إلى تصنيع منتجات أشد صلابة ومتانة باستخدام معدن الحديد .

٢ - في عصر الحكم الروماني لمصر :(أ) تدهورت الأحوال المعيشية للحرفيين. كما هجر الكثير منهم الحرفة تحت وطأة الضرائب الباهظة المفروضة عليهم من قبل الحكام الرومانيين ؛ (ب) ازدواجية دور الحرفي فقد أصبح صانعاً وبائعاً لسلعته في الوقت ذاته، في محاولة منه لتدبير معيشته وتوفير قوت يومه ؛ (د) صغر حجم الأسواق الحرفية وانخفاض العرض من السلع الحرفية ؛ (هـ) الفصل الكامل بين النظام الحرفي بأنشطته وعمالته عن التنظيم الرسمي للحكومة ؛ (و) التكاملية بين الأنشطة الحرفية والأنشطة الزراعية .

٣ - في العصر القبطي : (أ) انتعشت الأنشطة الحرفية وازداد عدد الورش الحرفية بالأسواق؛ (ب) شاركت عناصر جديدة في العمالة الحرفية مثل الأقباط واليهود؛ (جـ) اتساع حجم السوق الحرفي نسبياً وبشكل غير مسبوق .

---

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٧٨ .

٣ - الحرف منذ الفتح الإسلامي حتى التدخل الأوربي في مصر

بدءاً من الفتح الإسلامي العربي ، حدث تحول كبير في النشاط الحرفي . وتعتبر تلك الفترة بحق أزهى العصور التي شهدها النشاط الحرفي حيث كثر عدد المشتغلين بالحرف . كما لقي معلمو الحرف وشيوخ الطوائف اهتماماً كبيراً من قبل الأجهزة الحكومية خاصة في عهد الفاطميين .

ولقد أسهمت تعاليم الدين الإسلامي الحنيف في رفع المكانة الاجتماعية للحرفيين. ولقد أسهم جميع المصريين من مسلمين وأقباط ويهود - في مجال الأنشطة الحرفية ،دون اضطهاد أو توترات جنباً إلى جنب .ومما يجدر التنويه إليه في هذا الصدد أن الأقباط قد أدوا أدواراً هامة في تقدم وازدهار النشاط الحرفي خاصة إبان الحكم الإسلامي في مصر (٤٨) . ولقد انتشرت الأسواق الحرفية في أنحاء المعمورة كما انتشرت الحرف في كثير من المدن والمناطق الريفية في مصر . مثال ذلك حرفة نسج القطن في كل من القاهرة وطنطا والمحلة الكبرى . وأيضاً نسيج الصوف في الفيوم والحرير في كل من دمياط والمحلة الكبرى ،كذلك انتشرت صناعة أشرعة السفن والخيام بالقاهرة ، حيث كان الحرفيون يستخدمون الكتان في صناعتها .

ويمكن القول إن النظام الحرفي خلال فترة الفتح الإسلامي لمصر قد اتصف بخاصيتين أساسيتين أولهما أنه استطاع أن يغطى احتياجات البلاد من الأقمشة والشيلان مما يعكس أهميته وارتباطه بحاجة المجتمع ، وثانيهما ، أن انتشار الحرف في ربوع البلاد وتوطنها قد ارتبط بدرجة كبيرة بتواجد المواد الخام ومناطق زراعتها (٤٩). ولقد ظل النظام الحرفي يتصف بهاتين الخاصيتين إلى وقتنا الحالي .

تعتبر فترة حكم الفاطميين لمصر ، أبرز فترات الفتح الإسلامي على إمتدادها ؛ تأثيراً على نمط الحياة الاجتماعية للمجتمع المصري عامة وعلى النظام الحرفي خاصة.

(٤٨) محمد أحمد محمد ، مظاهر الحضارة في مصر العليا في عصر سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية ، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٧، ص ١٩١ .

(٤٩) وزارة الشئون الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٣١ ، ٩٩.

ويمكن القول أن الصناعات الحرفية قد بلغت حداً من الإزدهار والانتعاش الاقتصادي لم تشهده مصر قبل أو بعد الحقبة التاريخية التي بدأت من عصر المعز لدين الله الفاطمي حتى عصر المماليك البحرية . كما تعتبر فترة حكم الفاطميين أزهى الفترات وأكثرها تأثيراً على ازدهار الصناعات الحرفية في مصر . ويكاد يجمع علماء العلوم الاجتماعية أن حياة البذخ والترف والثراء المفرط التي عاشها الفاطميون في مصر، كانت المحرك الأول والباعث الرئيسي لازدهار الصناعات الحرفية . ومن ثم سوف نقصر مناقشتنا على العصر الفاطمي كمثال فريد لما كانت عليه الصناعات الحرفية وأربابها من ازدهار واستقرار .

الحرف والصناعات في العصر الفاطمي

يمكن القول أنه خلال العصر الفاطمي الأول والذي بدأ بوصول المعز لدين الله إلى القاهرة عام ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) ، بلغت الحرف الصناعية أوج عظمتها وشهرتها ، كما استخدمت أساليب جديدة في الصناعة المصرية . ويرجع علماء التاريخ أسباب الازدهار إلى رغبة الفاطميين في تقوية دعائم ملكهم ، وما كانت تتصف به مصر من استقرار وتسامح ديني (*)، ولحياة الترف والبذخ التي سادت بعض المدن المصرية خاصة القاهرة

(*) قد يرجع أسباب سياسة التسامح الديني التي طبقت إبان العصر الفاطمي الأول إلى أن الفاطميين جاءوا بمذهب شيعي خالف ما كان عليه جمهور المصريين من المذهب السُنّي . ولذلك خشي الفاطميون الاستعانة بالمصريين في تصريف شئون الدولة . ولتوطيد دعائم الحكم استعان الفاطميون بأهل الذمة وأظهروا لهم كثيراً من التسامح . ومن مظاهر التسامح الديني أن المعز لدين الله قد استعان بكثير من الأطباء اليهود . كما اتسم العزيز بن المعز بالتسامح مع النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة نسب . انظر :

محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر : سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٩ ، ص ٨٦ .

ومن أساليب التسامح الديني أيضا ، تجنب الفاطميين إثارة حفيظة المسلمين السنيين في مصر . فعندما دخل جوهر الصقلي مصر وأسس مدينة القاهرة في نفس الليلة ، لم يلجأ إلى مفاجأة المصريين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي . ومن ثم شرع في بناء مسجد الجامع الأزهر اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٧٩٠م) كرمز لسيادة الدعوة الفاطمية في مصر .
انظر: المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

والفسطاط . وذكر لنا المقريزي في خططه الكثير من الأقوال التي تكشف بجلاء حالة البذخ والترف التي كان عليها الخلفاء الفاطميين. فكانت رغبتهم في اقتناء القصور ولبس الحرير «والديباج» المطرز بالذهب وغيرهما من أفخر أنواع الثياب وفق المناسبات الرسمية المختلفة والتي سنّها الفاطميون في مصر (٥٠).

وعني الفاطميون بالصناعة عامة وأولوا من بينها اهتماماً كبيراً ببعض الصناعات في مقدمتها صناعة النسيج والتي كان المصريون يمارسونها منذ القدم . ففي العصر الفاطمي ، بلغت صناعة النسيج في مصر من الرقي والتطور بحيث أصبح من اليسير صنع الأقمشة الحريرية والصوفية والكتانية . وقد اشتهرت كثير من المدن بصناعة

---

(٥٠) يذكر المقريزي ، أن القصر الكبير كانت به عدة خزائن ، منها خزانة الكسوات ، التي أنشأها المعز لدين الله الفاطمي كانت تحتوي على المنسوجات المختلفة والعمامات والسراويل وما دونه من الملابس والمنديل من فاخر الثياب ونفيس الملبوس . وكانت خلع الأمراء الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب . وعند الموسم الكبير ويسمى بعيد الحلل ، لأن الحلل فيه تعم الجماعة وفي غيره للأعيان خاصة . وفيما يختص بلباس الخليفة فيصفها المقريزي بقوله :
« ... فأحضر الأمير افتخار الدولة مقدم خزانة الكسوة الخاص ليتسلم ما يختص بالخليفة وهو برسم الموكب بدلة خاصة جليلة مذهبة ثوبها موضح مجاوم مذايل عدتها باللفافتين إحدى عشرة قطعة السلف عنها مائة وستة وسبعون ديناراً ونصف ومن الذهب العالي المغزول ثلثمائة وسبعة وخمسون مثقالاً ونصف كل مثقال أجرة غزله ثمن دينار ومن الذهب العراقي ألفان وتسعمائة وأربع وتسعون قصبة ... » انظر :
تقي الدين ابن العباس أحمد بن على المقريزي «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بالخطط المقريزية ، الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، ص ٤٠٩، ، ٤١٠.
اهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية منها عيد الفطر وعيد الأضحى ورأس السنة الهجرية ، مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ويوم عاشوراء ومواسم أخرى كليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه . وكان الاحتفال بتلك الأعياد والمناسبات يتصف بالبذخ والعظمة . لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر :
محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦.

المنتجات الكتانية ، على سبيل المثال إقليم الفيوم ، تنيس (*) ، شطا (**) ، دمياط وديبق (***) . ولقد تحدث ناصر خسرو عن مدينتي تنيس ودمياط وشهرتهما في صناعة النسيج وذلك خلال رحلته إلى مصر - في مؤلفه «سفر نامة» . منذ ما كان ينسج في تنيس من قصب ملون تصنع منه العمائم والطواقي المنسوجة بالذهب وملابس النساء كذلك ذكر خسرو أن القصب الأبيض كان يصنع في دمياط إلا أنه لا يباع ولا يستطيع أحد الحصول عليه لأنه خاص بالسلطان والأمراء (٥١) . فالمصانع الحكومية والتي كانت تُعرف بدار «الديباج» و «منظرة الغزالة» كانت تقوم بنسج القصب والقلموني (٥٢) .

ومن المنسوجات الحريرية التي اشتهرت بها مصر في عصر الفاطميين ما يُعرف بالثياب «العتابية والخسرواني والتستري» (****) ، وجميعها طرز مستحدثة في مصر

(*) كانت تنيس من أهم الثغور الواقعة بين النيل والبحر الأبيض المتوسط وترد إليها تجارة الشرق والغرب واشتهرت بتجارة السمك وصناعة الثياب . وتقع مدينة تنيس بالقرب من بحيرة المنزلة.

(**) اشتهرت شطا بصناعة العمائم المذهبة كبيرة الحجم وكانت تُعرف بالعمائم الشطوية نسبة إلى شطا.

(***) كان يصنع في ديبق قماش ثقيل جيد النسيج والعمائم الطويلة التي يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع .

(٥١) زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١١٤.

(٥٢) «القلموني» هو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع في دمياط وتنيس خاصة . ويماثل القلموني نسيج آخر يُعرف «بالقُرْقُبي» ويصنع باليونان ثم أدخلت صناعته إلى مصر خاصة دمياط وتنيس . انظر:
حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ، ومصر ، وسورية ، وبلاد العرب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٥٨٤ .

(****) العتابية طراز من النسيج ينتسب إلى أحد أحياء بغداد حيث اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب ؛ وينسب الخسرواني إلى خسرو شاه أحد ملوك فارس ، أما نسيج التستري فينسب إلى تستر أو (شستر) أشهر مدن خوزستان ، انظر:
حسن إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص ٥٨٤ .

اتقن الصناع المصريون نسجها وأبدعوا فيها . وتعتبر دليلاً قوياً على إدخال أساليب جديدة على صناعة النسيج في مصر خلال عصر الفاطميين . ولقد اشتهرت الإسكندرية ودبيق بصناعة الأقمشة المنسوجة من الحرير (٥٣).

وكان للأقباط باع كبير في صناعة النسيج في مصر منذ العصر القبطي . وتعتبر تلك الصناعة أكثر الصناعات المصرية التي يعمل بها الأقباط ، خاصة في مصر الوسطى مثل أخميم وأسيوط و«البهنس» . ومما يجدر الإشارة إليه أن كلاً من أخميم وأسيوط كانتا مشهورتين بين مدائن مصر بصناعة النسيج إبان العصر القبطي (٥٤).

ومما سبق ، نخلص إلى أن صناعة النسيج في العصر الفاطمي اتصفت باللامركزية في التوزيع . فلم تكن المصانع في القاهرة وحدها ، بل تواجدت أيضاً في الكثيرمن مدن وقرى الوجهين البحري والقبلي . أيضاً كان إلى جانب مصانع النسيج التي تختص بصناعة الملابس الخاصة بالحكام والأمراء مثل دار الكسوة . كانت توجد أيضاً مصانع تتبع بعض الأمراء . وفيما يتعلق بدار الكسوة التي شيدت في عهد الخليفة المعز لدين الله ، كان ينسج فيها ثياب الخليفة والأمراء والوزراء والحلل التي كانت تمنح للأشراف وكبار رجال الدولة في الأعياد خاصة عيد الفطر حتى سُمي هذا العيد باسم «عيد الحلل» (٥٥).

ومما نخلص إليه أيضاً فيما يتعلق بصناعة النسيج في مصر ، أن حياة الترف والبذخ للخليفة والأمراء فضلاً عن ازدياد الإقبال العالمي على المنسوجات المصرية ، قد أديا إلى احتكار الحكومة للصناعة ، كما يعد هذا سبباً قوياً لانتشار مواقع العمل في أنحاء المعمورة حتي شملت الريف والحضر . ومن ثم نقول أن العصر الفاطمي في مصر اتصف بالاحتكار.ولقد واكب الاحتكار الحكومي لبعض الصناعات ،ظهور نمط قريب من

---

(٥٣) زكي محمد حسن ، مرجع سابق ، ص ١١٦.
(٥٤) المرجع نفسه ، الصفحة ذاتها .
(٥٥) حسن إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص ٦٣٦ ، ٦٣٧.

نظام الوسطاء إلا أن ناظر الصناعة والممثل للحكومة قد حل محل التجار في هذا النظام. فكان ناظر الصناعة يرسل معاونيه بتعليمات صارمة تتعلق بحجم المنتج ونوعيته لكل وحدة إنتاجية في قرى مصر (*).

ومن الصناعات التي اشتهرت أيضاً بإدخال أساليب جديدة في عملية التصنيع إبان العصر الفاطمي الأول هي صناعات الخزف والزجاج والبللور الصخري . فقد بلغت تلك الصناعات درجة عظيمة من الرقي . فعلى الرغم من أن صناعة الخزف قد سبقت إليها الصين وبرعت في أساليب إنتاجها ، فإنها عندما انتقلت إلى مصر ، استطاع الصانع المصري أن يبدع فيما أنتجه من فناجين وقدور وصحون وغيرها من المنتجات الخزفية (**). ولقد كانت الأواني الخزفية ذات بريق أخّاذ وألوان رائعة. وكانت مدن الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عبادة «بكورة البهنس» (المنيا الآن) ، والإسكندرية تشتهر بتلك الصناعات في العصر الفاطمي .

ومن الصناعات الهامة التي كانت تحظى بعناية واهتمام الفاطميين صناعات الخشب والحفر على الخشب ، والعاج والفسيفساء . وكان الفاطميون يستوردون ما يلزم لتلك الصناعات من أخشاب من غابات الشام وآسيا الصغرى والسودان والهند وشبه جزيرة الملايو . وكانت التحف الخشبية التي صنعت في العصر الفاطمي تتصف بدقة الصنعة وجمال الزخرفة . ومن أهم الميادين الطريفة في الفنون الإسلامية ميدان الزخارف في شبابيك (القلل).

(*) وكان يخصص «لناظر الطراز» «العشاري» وهو نوع من المراكب للتنقل بها بين القرى للمرور على صنّاع النسيج ، كما كان بين يديه مائة رجل كمندوبين ينقلون أوامره إلى القرى بنسج الكميات اللازمة . كما كان تحت إمرة «ناظر الطراز» ثلاثة مراكب من النوع المخصص لكبار رجال الدولة في العصر الفاطمي .انظر :
زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، مرجع سابق ، ص ١١٢.

(**) ذكر ناصر خسرو في مؤلفه «سفرنامه» «أنه رأي التجار يصنعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلاً من الورق ، كما رأى في أسواق الفسطاط الأقداح والصحف والسكارح البديعة الصنع، حتى لقد استطاع أن يرى يده واضحة من وراء ظهر الإناء» انظر : المرجع نفسه ، ص ٥٩٢.

وفي العصر الفاطمي ، راجت صناعات أخرى كثيرة مثل الصناعات النباتية، ولقد اهتم الفاطميون بها اهتماماً كبيراً حتى كادوا أن يحتكروها . ومن تلك الصناعات النباتية ، صناعة السكر ، وصناعة العسل وأيضاً صناعة الزيت من الزيتون والسمسم . وقد اشتهرت بعض المدن المصرية بتلك الصناعات مثل مدن صَنْدفا بكوره البهنسا مركز بني مزار بمدينة المنيا والفيوم والفسطاط(٥٦).

ومن الصناعات الرائجة التي أبدع المصريون في ممارستها حتى ذاع صيتها وبلغ الآفاق ، صناعة الخيام ، وصناعات الجلود ، المعادن والتكفيت(*) .ولقدأولى الفاطميون اهتماماً خاصاً بالصناعات الحربية لاسيما صناعة السفن . فأنشأوا لها دوراً للصناعة . مثل دور صناعة السفن في الإسكندرية ودمياط وجزيرة الروضة . كما تم إنشاء دار بمصر لصناعة المراكب النيلية والشواني(٥٧).

الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للحرفيين خلال العصر الفاطمي

ارتبطت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للحرفيين ارتباطاً قوياً بحالة الثراء التي كانت عليها الدولة الفاطمية . كما تفاوتت المكانة الاجتماعية للصناع تبعاً لمدى حاجة الحكام الفاطميين لنمط الصناعة التي تحقق مآربهم . ولذلك يمكن القول أن النساجين وصناع الجواهر والذهب والأواني البللورية ذات النقوش والزخرفة كانوا أفضل مكانة عمن سواهم من الحرفيين في عصر الفاطميين . وحسبنا هنا أن نستخلص ماكان يتمتع به صناع النسيج خاصة الذين كانوا يعملون في المصانع الخاصة «طراز الخاصة» حيث كانت تصنع المنسوجات للخليفة والأقمشة التي كان يمنحها لكبار رجال دولته وأفراد حاشيته من خلال وصف المقريزي لمنظرة الغزالة وحجم الميزانية التي كانت ترصد لها سنوياً لتغطية تكلفة المنتج . وحول «منظرة الغزالة» ذكر المقريزي :

(٥٦) المرجع نفسه ص ٥٩١ ، ٥٩٤.

(*) سوف نعرض لتلك الصناعات في الفصلين السادس والسابع لارتباطها بالصناعات التقليدية موضوع الدراسة .

(٥٧) المرجع نفسه ص ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

«أنها كانت مسكناً للأمير أبى القاسم ابن المستنصر ، ثم أصبحت بعد ذلك مقراً لناظر الطراز .وكانت ميزانيتها في وزارة الأفضل بن بدر الجمالي واحداً وثلاثين ألف دينار ، منها خمسة عشر ألفاً للقماش نفسه ، وستة عشر ألفاً للذهب الذي يستخدم في نسجه ، وزادت هذه الميزانية في عصر الوزير المأمون فبلغت ثلاثة وأربعون ألفاً وتضاعفت في الأيام التي كان الخليفة الآمر يحكم فيها بنفسه» (٥٨).

وتتضح مكانة صاحب «الطراز» من خلال ما ذكره المقريزي عن ابن الطوير حول الأحوال والتقاليد التي يجب على صاحب الطراز مراعاتها عند المثول بين يدي الخليفة ومعه ما تم تصنيعه من منسوجات خصيصاً للخليفة . ومن بين ما ذكره المقريزي :

«... فإذا وصل (يقصد صاحب الطراز) بالاستعمالات الخاصة التي منها المظلة (*)، وبدلتها ، والبدنة ، واللباس الخاص الجمعي (**) ، وغيره هيء بكرامة عظيمة ، وندب له دابة من مراكيب الخليفة ، لاتزال تحته حتى يعود إلى خدمته . وينزل في الغزالة على شاطىء الخليج ...؛ ولو كان لصاحب الطراز في القاهرة عشرة دور ، لايمكن من نزوله إلا بالغزالة . وتجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة ، فيتمثل بين يدي الخليفة بعد حمل الأسفاط المشدودة على تلك الكساوي العظيمة ، ويعرض جميع ما معه وهو ينبه على شيء فشيء بيدّ فرّاش الخاص في دار الخليفة مكان سكنه» (٥٩).

---

(٥٨) زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، مرجع سابق . ص ١١١ ، ١١٢.

(*) المظلة عبارة عن قبة من حرير مزركش بالذهب كانت تحمل على رأس الخليفة في المواكب وتكون على لون الثياب التي يلبسها الخليفة حينئذ . انظر :
المصدر نفسه ، هامش ص ١١٢.

(**) لاستعمال الخليفة أيام الجمع ، المصدر نفسه .

(٥٩) المصدر نفسه . ص ١١٣.

ويستطرد المقريزي نقلاً عن ابن الطوير حديثه عن مكانة صاحب «الطراز» وسلطانه ما يلي :

«الخدمة في الطرا ز، وينعت بالطراز الشريف ، ولا يتولاه إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف . وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين . ومقامه بدمياط وتنيس وغيرهما . وجارية أمير الجواري . وبين يديه من المندوبين مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى وله عشاري دقماس مجرد معه ، وثلاثة مراكب من الدكسات ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون ونفقاتهم جارية من مال الديوان ...».

وكان أجر صاحب الطراز سبعين ديناراً ونائبه عشرين ديناراً كل شهر . وكانت مهمة النائب قيامه بتسليم الثياب للخليفة في حالة تغيب صاحب الطراز لعذر قهري [٦٠].

ولقد كانت مهارة الصناع المصريين عاليه في عصر الفاطميين لاسيما صناع النسيج . وكانت درجة الرضاء عن العمل بينهم عالية . لما كانوا يتمتعون به من حظوة عند الخليفة وكبار رجال الدولة . وأيضاً لما كانوا يتمتعون به من مهارة يدوية فائقة في نسج الثياب . حتى أن مهارتهم كانت حديث الكثيرين من البلدان الأخرى . ولقد اكسبت المهارة اليدوية اعتزاز الحرفي بعمله كما حققت له دخلاً مادياً متميزاً . فعلى سبيل المثال ، ذكر ناصر خسرو في معرض إعجابه وحديثه بمهارة النساجين المصريين ، إن أحد النساجين قد منح خمسمائة ديناراً نظير قيامه بنسج قطعة واحدة من الديباج صلحت لعمامة السلطان [٦١] .

وتتجلى براعة النساجين المصريين فيما نقله المقريزي بالوصف «للبدنة» وهو ثوب كان ينسج للخليفة في مدينة تنيس . فقد كان هذا الثوب بديعاً في هيئته بالغ الدقة في صناعته .فقد كان نسيج الثوب تضم خيوطاً في اللحمة والحابل لا يتعدى في الوزن

(٦٠) المصدر ذاته والصفحة ذاتها .

(٦١) المصدر نفسه ، هامش ص ١١٢.

أوقيتين ، أما باقي الثوب فكان منسوجاً بالذهب . وكان النساجون يتقنون صنعته. حتى أنه إذا ما انتهوا من نسج الثوب فلا يحتاج للقطع أو للخياطة بعد ذلك. وكانت تكلفة إنتاج هذا الثوب ألف دينار (٦٢). ويتضح ما كان عليه المصريون من مهارة عالية من خلال وصف المقريزي لكسوة الكعبة والتي أمر الخليفة المعز لدين الله بنسجها وصناعتها في مصر (٦٣)

ولم تتوقف براعة المصريين ومهارتهم الفائقة على صناعة النسج فقط بل ، امتدت لصناعات حرفية أخرى منها - على سبيل المثال لا الحصر - صناعات الزجاج والبللور الصخري . حيث صقلت خزائن الفاطميين بتحف الزجاج والبللور ، التي بلغت حد الإعجاز في جمال الصناعة ودقتها . كما برع المصريون في صناعة المعادن والتحف المعدنية وأيضاً في أساليب الحفر على الخشب . ولعل من أروع التحف الخشبية الفاطمية الدالة على براعة المصريين في أساليب الحفر على الخشب وصناعة المحاريب الثلاثة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، والتي كانت بالجامع الأزهر ، وجامع السيدة نفيسة والثالثة بجامع السيدة رقية (٦٤).

وفيما يتعلق بالمجتمع الحرفي من حيث العرقية ومذهب أهله ، يمكن القول إن الصناع كانوا مصريين باستثناء قلة معدودة من الحرفيين استقدمهم الخليفة المعز لدين الله من الشام لأداء أعمال محددة . ولم تكن إقامة هؤلاء دائمة في مصر .وكان المجتمع

(٦٢) المصدر نفسه ، هامش ص ١١٢.

(٦٣) وصف المقريزي كسوة الكعبة بقوله :«... كانت مربعة الشكل ، مصنوعة من ديباج أحمر ، سعتها مائة وأربعون شبراً ، وفي حافاتها اثنا عشر هلالاً ذهبياً ، في كل هلال إترجة ذهبية ، بداخل كل منها خمسون دره تشبه بيض الحمام في الكبر . وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، ونقشت في حافاتها الآيات التي وردت في الحج بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك ، ووضعت في القصر بحيث يراها الناس من داخله وخارجه» . انظر :

حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، مرجع سابق ، ص ٥٨٣ .

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٥٨٩ ، ٥٩١ .

الحرفي يتألف من صناع مصريين مسلمين ويهود وأقباط . وقد أتاحت سياسة التسامح الديني أن يبدع الأقباط في بعض الأنشطة الحرفية مثل الحفر على الخشب . وقد نجد مثالاً لإبداعهم فيما نراه من التحف الخشبية التى وجدت بكنيسة بربارا بمصر القديمة ، ومن الألواح الخشبية التي عُثر عليها بمارستان قلاوون . فالألواح ذات زخارف بالغة الروعة والاتقان (٦٥).

وفيما يختص بسكنى الحرفيين ، فلم تكن إقامتهم داخل كل من مدينة القاهرة والفسطاط بل امتدت لتشمل عدداً من المدن والقرى المصرية . إلا أن منظرة الصناعة كانت بالقاهرة ولها فروع في أنحاء مختلفة من المعمورة ، خاصة فيما يتعلق بصناعات مثل النسيج والخزف . كما كانت كل من الفسطاط والقاهرة محلاً لإقامة الكثير من الصناع الحرفيين داخل قياسر أو خانات ضخمة . وكانت كل قيسارية تتألف من مجموعة من المباني العامة تضم مصانع وحوانيت ومخازن ومساكن ومساجد لتجار المسلمين يعلوها رباع يقيم فيها الصناع والتجار بأجر . وقد كثرت القيساريات (الخانات) بمصر في العصر الفاطمي وإرتفع إيجارها (٦٦).

ويمكن القول أن بنية أجور الحرفيين كانت غير متجانسة ، حيث تفاوتت الأجور تبعاً لنوع النشاط الحرفي وأهميته عند الحكام الفاطميين . كما تفاوتت تلك الأجور تبعاً لتصنيفات النشاط الحرفي وتبعاً للملكية الخاصة أو التبعية للدولة (*).ولقد كانت أجور الصناع في الطراز الحكومي أفضل بكثير مما يتقاضاه زملائهم في الطرز الأهلية وكان النساجون لاسيما العاملين منهم في المصانع الحكومية يتقاضون أعلى الرواتب (٦٧).

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٦٢٠ ؛ انظر أيضاً : محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

(*) كان المشروع الحرفي إما تابعاً للحكومة وكان يطلق عليه «طراز الخاصة» أو ملكاً للأهالي وكان يطلق عليه «الطراز الأهلي» الذي تثقله الحكومة بضرائب فادحة ورقابة شديدة . انظر: زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، مصدر سابق ، ص ١١٠ ، ١١١ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ١١٦ .

وإذا انتقلنا من عصر الفاطميين إلى عصر سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية ، نقول إن رواج الحالة الاقتصادية وازدياد نشاط حركات البيع والشراء في الأسواق كان لهما دور أساسي في انتعاش الحالة الاقتصادية للحرفيين وطوائف الحرف الصناعية ، وكذلك الحال بالنسبة لطوائف التجار الذين استطاعوا الهيمنة على تجارة البحر الأحمر منذ العصر الأيوبي مثل طائفة «الكارمية» في قوص إحدى مدن الوجه القبلي. فلقد استطاعت طائفة الكارمية أن تكون لنفسها نقابة خاصة تهيمن على تجارة التوابل والبخور والعاج (٦٩).

ومجمل القول أن الأيوبيين والمماليك قد كرسوا قدراً كبيراً من اهتماماتهم للصناعات الحرفية وتنمية موارد الثروة المعدنية فخصصوا لها المنقبين والأمناء ، كما حاولوا الارتقاء بالمراكز الصناعية في مختلف أنحاء المعمورة . ولقد كان ذلك دافعاً قوياً لازدهار النظام الحرفي في عهدهم ، بالإضافة إلى زيادة تحسين المنتجات الحرفية ، مما رفع جودة تلك المنتجات الحرفية ودقة صناعتها (٧٠).

وإذا أضفنا للعوامل السابقة ما أحدثه الإسلام من رفع مكانة الحرفيين في مصر من بادىء الأمر ، لقلنا على الفور إن النظام الحرفي في ظل حكم الأيوبيين والمماليك قد مارس نشاطه على مختلف المستويات بدءاً من مستوى الأسرة حتى الورش في الأسواق الكثيرة في حضر مصر .ولقد ارتبط اسم السوق باسم الطائفة أو جماعات الحرفيين الذين يمارسون الحرف في هذا السوق . ولاتزال مدينة القاهرة تضم العديد من الأحياء القديمة التي تحمل أسماء بعض الحرف والحرفيين مثل الصاغة والنحاسين والخروجية والخيمية والمغربلين . ورغم التطورات التي تجرى في تلك المناطق وغيرها من أبنية حديثة وحوانيت للبقالة ولبيع السلع المتنوعة فإن بعضاً من الحرف التقليدية الأصلية لاتزال تمارس نشاطها مثل صناعة الطربوش والنقش البارز والحفر على المعدن وصناعة القبقاب الخشبي وصناعات الخيام وغيرها من الصناعات الأخرى .

(٦٩) محمد أحمد محمد ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧.

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٨٧.

ولقد انتشرت الأسواق الحرفية المتخصصة في كثير من مدن الوجه القبلي في عهدي الأيوبيين والمماليك . ففي صعيد مصر يذكر بعض علماء التاريخ كثرة الأسواق الواقعة في المدن المطلة على نيل مصر . وأن أكثر تلك الأسواق شهرة ورواجاً ، أسواق الفيوم ، منية ابن خصيب، ومير، والقوصية ، أبو تيج ، أسيوط وأخميم وسوهاج وقنا (٧١).

وفي ظل الحكم العثماني لمصر ، تدهور النشاط الحرفي كباقي الأنشطة الأخرى. وذلك نظراً لعدة أسباب منها : (١) سياسات السلب والنهب التي لجأ إليها الحكام الأتراك في مصر ؛ (٢) عدم إلمام الأتراك باللغة العربية وصعوبة إقامة علاقات عمل واضحة مع القطاعات الإنتاجية ؛ (٣) قيام الأتراك بنقل الصناع المصريين المهرة إلى الأستانة ؛ (٤) وفرض العزلة على مصر (٧٢).

ولقد تعرضت فئة التجار الوسطاء ، التي ظهرت في مصر خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ،لعدة نكسات ترجع أسبابها إلى السياسة الاحتكارية لمحمد على ومنافسة السلع الأوربية مع انخفاض ثمنها . ولقد تسببت تلك النكسات في ضعف نشاط تلك الفئة . ومع ازدياد الضرائب التي فرضتها السياسة الاحتكارية لمحمد على توقف تماما نشاط فئة التجار الوسطاء . ولقد فرضت هذه السياسة الاحتكارية قيوداً سافرة على النشاط الحرفي تمثل في الآتي :(١) رقابة الحكومة على الكميات التي تتسلمها الورش الصغيرة من مواد خام لتصنيعها ؛ (٢) قيام الحكومة بتسلم المنتجات الحرفية بعد الانتهاء منها ولقد أدت تلك القيود إلى توقف تجارة الوسطاء وأيضا إلى سوء حالة الصناع الحرفيين وهجرهم لحرفتهم واشتغالهم بالزراعة والتي أتاحت سياسة محمد على الزراعية فرصاً كثيرة للعمل بها ؛ (٣) قيام الحكومة بوضع لائحة أسعار للمنتجات الحرفية بعد الانتهاء منها (٧٣).

---

(٧١) المصدر نفسه ، ص ٨٨.

(٧٢) إسماعيل محمد هاشم ، محاضرات فى التطور الاقتصادى ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١.

(73) Barbra Ibrahim, Social Change and The Industrial Experience: Women as Production Workers in Urban Egypt, (unpublished ph,D., Dissertation) Indiana University, October, 1980, p. 54.

كذلك من أسباب عزوف صغار الحرفيين عن الاشتغال بالحرف،عدم قدرتهم الفردية على إقامة مشروعات صناعية تنافس المشروعات الصناعية التي أقامها محمد على بالإضافة إلى نقص الإمكانات الفنية والتي اكتسبوها بالوراثة ولعجزهم عن عدم توفير رؤوس أموال ضخمة لإقامة المشروعات الصناعية ولقد كان من جراء ذلك - كما ذكرت - تأخر الصناعات الحرفية في مصر في الوقت الذي كانت بقيه الصناعات في أوربا تعيش أزهى أوقاتها على أثر اكتشاف البخار واستخدام الآلة البخارية .

ومن الأسباب أيضا المؤدية إلى هجر الحرفيين الاشتغال بالصناعات الحرفية ، هو أن جانباً كبيراً من هذه الصناعات كان يعتمد على الهواية لدى الحرفيين وعندما تدخلت الحكومة المصرية بهذه السياسة المقيدة لنشاطهم الحرفي فضّل بعص الحرفيين الانصراف عن العمل الحرفي لإحساسهم بفقد الاستقلالية والحرية الكاملة اللتين كانت تحققهما الهواية وحب العمل لديهم (٧٤).

وفي الواقع ، لم يكن محمد على مهتماً بشئون الحرف والصناعات الصغيرة ، بل على النقيض كان تدهور تلك الصناعات تتيح أمامه فرصة استغلال العمالة الحرفية في تشغيل مصانعه والعمل في الزراعة والتي توسع محمد علي كثيراً في أنشطتها مما أتاح فرص عمل كثيرة أمام هؤلاء (٧٥).

٤ - الحرف خلال فترة التدخل الأوربي وحتى عام ١٩٥٢

وخلال فترة التدخل الأوروبي في مصر ، حدثت تحولات واضحة في البنية الاقتصادية للدولة المصرية والتي كان لها تأثير قوي على إضعاف النشاط الحرفي . فنتيجة للسياسة البريطانية الخاصة بالتوسع في زراعة القطن بمصر لتشغيل المصانع البريطانية ثم إعادة تصديره لمصر على شكل ملابس جاهزة وبألوان متناسقة وبأسعار زهيدة قد أوجد منافسة حادة أمام الإنتاج الحرفي المماثل . ومع ازدياد التوسع في سياسة غمر الأسواق المصرية بالمنتجات الأوروبية وعجز منتجات النشاط الحرفي عن

(٧٤) إسماعيل محمد هاشم ، مرجع سابق ، ص ص ١٩٠ - ١٩٢

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٢.

مجاراة السلع الأوروبية كماً وكيفاً بدأ هذا النشاط في التدهور والانحسار وتقلص دوره االاقتصادي إلى حد كبير .

أيضاً إبان فترة حكم كل من الخديو عباس والخديو سعيد لمصر ، ازدادت حالة الحرفيين سوءاً وتدهور معظم الأنشطة الحرفية بسبب سياسة الضرائب الباهظة التي أثقلت كواهل معظم فئات الشعب خاصة الحرفيين وفئة التجار الوسطاء الذين أحجموا بدورهم عن ممارسة أنشطتهم في المجال الصناعي(٧٦).

من جهة أخرى ، لعبت بعض المتغيرات الدولية قبل قيام الحرب العالمية الأولى ، دوراً هاماً في إحياء النشاط الحرفي في مصر . ومن أهم تلك المتغيرات ظهور ما يسمى بسوق العمل الحر Free Labor Market وقيام الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥). فلقد صاحب الحرب الأهلية انخفاض صادرات الولايات المتحدة الأمريكية من القطن لمصانع انجلترا وفرنسا .ومن ثم كان الاعتماد الأكبر على القطن المصري وتوسيع رقعته الزراعية وإعطاء الفرصة بالتالي لتنامي النشاط الحرفي مرة أخرى . خاصة تلك التي تعتمد على محصول القطن(٧٧).

ومما يجدر التنويه إليه - أنه خلال تلك الفترة ، وبسبب العوامل السابقة ، بدأت المصانع المصرية التي تقوم على محصول القطن ، العمل بكفاءة تحت إدارة بريطانية ، بينما اقتصر نشاط العمالة المصرية على المستويات المتدنية داخل تنظيم المصنع وذلك بأجور زهيدة .ويرى بعض الباحثين أن تلك الطفرة الصناعية كانت تشهد بداية ظهور فئة «البلوريتاريا» الصناعية في مصر .

وخلال الطور الثاني من تطور الصناعة المصرية الذي بدأ منذ أوائل الثلاثينيات من القرن الحالي ، بدأ عدد من التجار المولين المصريين مزاولة أنشطتهم التجارية

(76) Amos Perlmutter, "Egypt and The Myth of the New Middle Class: A Comparative Analysis". Comparative Studies in Society and History 10, 1967, p. 49.

(٧٧) ج. بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، ترجمة وتقديم عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمي الجمال ، مرجع سابق ، ص ٣٢٢.

والصناعية بعد فترة ركود دامت سنوات طويلة . وقد أسهم بنك مصر الذي أسسه طلعت حرب في تشجيع الاستثمار الصناعي الخاص ، وتقديم القروض والتسهيلات البنكية في محاولة وطنية رائدة لتمصير التصنيع وتقوية دعائم الاقتصاد المصري (٧٨).

ويعتبر عام ١٩٣٠ بحق تاريخ بدء قيام الصناعة الحديثة في مصر . فقد أصدرت الحكومة في ١٧ فبراير ١٩٣٠ تعريفة جمركية جديدة تهدف أساساً إلى حماية الصناعات الناشئة ، كما أرسلت البعثات العلمية للتدريب في الدول المتقدمة صناعياً . وانخفضت حدة المنافسة للسلع الأجنبية (٧٩) إلا أن سياسة المندوب السامي البريطاني في مصر لربط مصر بالمملكة المتحدة واعتبارها إحدى المستعمرات البريطانية وتطبيق سياسة الباب المفتوح ، قد أسهمت بشكل كبير في ازدياد تقلص حجم العمالة الصناعية في مصر . فلقد أحدثت سياسة المندوب السامي البريطاني تعقيداً واضحاً في حركة النشاط الصناعي القومي في مصر . ومن ثم فإن النشاط الحرفي خلال الفترة التي تلت عام ١٩٣٧ ، قد صار محدوداً ، حيث اقتصر على ورش للإصلاح والصيانة بالإضافة إلى عدد محدود من المنشآت الحرفية صغيرة الحجم التي لا تستطيع في مجملها أن توفر فرص عمل تتناسب مع الزيادة في عدد سكان مصر (٨٠).

من جهة أخرى ، هيأت ظروف الحرب العالمية الثانية ، فرصة كبيرة لانتعاش الصناعات الحرفية مرة أخرى وكذلك ظهور صناعات جديدة . فلقد قيدت ظروف الحرب من تصدير معظم السلع الأوربية إلى مصر . ومن ثم كان السوق المصري متاحاً أمام الأنشطة الحرفية والصناعات القومية لتغطية احتياجات المواطنين من مستلزمات وسلع خدمية . ولقد نشط العديد من الصناعات الحربية والكيميائية والمعدنية وصناعة نسج

(78) Robert Mabro and Samir Radwan, The Industrialization of Egypt 1939 - 1973' Policy and Performance, Clarendon Press, Oxford, 1976, p. 28; K.M. Barbour, The Growth, Location and Structure of Industry in Egypt, Praeger, New York, 1972, p. 61.

(٧٩) إسماعيل هاشم ، مرجع سابق ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١.

(80) R. Mabro and S. Radwan, op. cit,. p. 26.

القطن والصوف وتعبئة الخضورات والعلف الصناعي ومواقد الغاز والأجهزة الطبية [٨١]. ولقد شمل النمو الصناعي كلاً من القطاعين الرسمي وغير الرسمي .

كذلك أسهمت الحرب العالمية الثانية في تنشيط دور التجار الوسطاء . فخلال فترة الحرب استفادت فئة التجار الوسطاء والرأسماليين أيضا بمتطلبات السوق وتمرّسوا على إمكانية إنتاج بعض السلع الصناعية الخدمية . كما استفادوا أيضا من خلال تجاربهم السابقة بسياسات السوق . وتحديد حجم ونوعية السلع الخدمية المطلوبة ، التي تعتمد على سياسة الاستيراد . وكنتيجة للاستفادة الكبيرة والمتنوعة في مجالات السوق خاصة فيما يتعلق بالمنتجات الصناعية ، فقد أسهمت فئة التجار الوسطاء مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين ، في المجال الصناعي للدولة المصرية ، وذلك حسب ما أتاحته لها الظروف السياسية السائدة خلال تلك الفترة أيضاً .

ومجمل القول ، أن الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية قد شهدت نمواً في النشاط الصناعي . إلا أن غالبية العمال الصناعيين في مصر كانوا يعملون في ورش صغيرة الحجم . حيث تدل الإحصائيات أنه في عام ١٩٤٨ كان (٩٢٪) تقريباً من العمال الصناعيين يشتغلون في ورش صغيرة لا يتعدى حجم العاملين بها عن خمسة أفراد . كما أن (٨٠٪) من هذه الورش لاتتجاوز استثمارات كل منها (١٠٠) جنيه استرليني [٨٢] .

٥ - الحرفيون في مصر منذ عام ١٩٥٢

ومنذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين ، لم يكن قد تبقى من أنشطة النظام الحرفي في مصر إلا الصناعات المنزلية والصناعات الصغيرة المتناثرة في المدن والمناطق الريفية .

---

(٨١) إسماعيل هاشم ، مرجع سابق ، ص ٢٤١.

(٨٢) آلان منتجوي ، التصنيع في الدول النامية ، ترجمة وتقديم وتعليق السيد الحسيني ، الطبعة الثانية ، دار قطري بن الفجاءة ، الدوحة ، ١٩٨٦ ، ص ٢٤١.

وإذا ما حاولنا حصر عدد الحرفيين في مصر منذ عام ١٩٥٢ فسوف نواجه بعض الصعوبات في عملية الحصر نظراً لأن أول إحصاء رسمي تناول المنشآت تفصيلاً هو إحصاء عام ١٩٦٠ . ومن ثم فإن ما سبقه من بيانات تتعلق بحصر الحرفيين جاءت مجملة وغير تفصيلية .

أيضا بعد إنشاء جهاز الحرفيين في مصر ليعني بتنمية النشاط الحرفي ، فقد قام هذا الجهاز بمسح شامل لفئة الحرفيين وذلك في عام ١٩٧٤ . ولقد اعتمد الجهاز في تصنيفه لتلك الفئة إلى ثلاث عشرة مجموعة ، على تعريف إجرائي للحرفة(*) .

(*) إن التعريف الإجرائي للجهاز يعتبر الحرفي " كل من يعمل بنفسه أو يعاونه آخرون بما لايتجاوز عددهم تسعة أفراد سواء كان هؤلاء المعاونون ينتمون إليه عائلياً أو غيرهم من المشتغلين بالحرفة شريطة أن يعتمد أداء الحرفة على المهارة اليدوية التي يتمتع بها هؤلاء المشتغلون وإمكانية استخدام بعض الأدوات والآلات البسيطة المستوى التكنولوجي وأيضا لا يتجاوز رأس المال المستغل عن ثمانمائة جنيهاً . هذا ولا يعتبر رأس المال شرطاً في هذا التعريف الإجرائي بل يستعان به إحصائيا كمؤشر فقط عند تصنيف الحرف ، وقد اعتمدنا على هذا التعريف في حصر الحرفيين رغم بعض التحفظات لدينا قبل هذا التعريف .

وتنقسم المجموعات الثلاثة عشر إلى :(١) المصنوعات الجلدية والأحذية وتشمل صناعة الأحذية - الحقائب الجلدية - حقائب السيدات ، صناعة المحافظ والأكياس - منتجات خان الخليلي - سروج جلدية - شباشب وصنادل - بلغ ومراكيب - وجه الحذاء - ملابس جلدية - قفازات ، وأحزمة جلدية ؛ (٢) الصناعات الخشبية وتجارة الأثاث وتشمل صناعة الأثاث - نشر وخراطة ومسح وتقطيع الأخشاب - صناعة الأبواب والشبابيك - نجارة أرابيسك - صناعة براميل وصناديق وأوعية - قوالب الأحذية - منتجات الحفر على الخشب - منتجات خشب وفلين - آنية وسلاسل بوص ، اقفاص جريد - صناعة الخيزران والجريد - منابر المساجد - تذهيب ودهان لاكيه - دهان استر وستائر؛ (٣) صناعات هندسية ومعدنية وتضم برادة ومعادن - أثاث معدني - أواني منزلية - مواقد كيروسين - نجف - سمكرة - لحام - طلاء وجلفنة وتجليخ- شمعدان وأباجورة معدنية - ورش سمكرة (عداد سمكرة السيارات) ؛ (٤) صناعة المجوهرات وتشمل مصوغات الذهب والفضة والمعادن الثمينة - القشرة - النياشين - سن الفيل- خان الخليلي ؛(٥) النسيج اليدوي وتشمل نسج القطن - نسج الصوف - غزل الصوف - غزل ونسج الألياف النباتية الأخرى - صباغة الخيوط والمنسوجات - طبع المنسوجات - غزل ونسج الحرير - سجاد وكليم - المشايات والدواسات - الكليم من قصاصات الأقمشة - صناعة الحصر من السمار - التطريز - التريكو وشغل الإبرة (٦) الملابس الجاهزة وتشمل صناعة القبعات والقفازات - =

ويمكن أن نتناول تطور العمالة الحرفية في مصر ابتداء من عام ١٩٥٢ (*) ، إلى ثلاث مراحل وفقاً للظروف السياسية والاقتصادية التي تتصف بها كل مرحلة وتأثيرها على النشاط الحرفي .

أ - مرحلة بداية الثورة (١٩٥٢ - ١٩٦١)

تتسم تلك المرحلة بزيادة عدد المشتغلين بالصناعات الحرفية حيث بلغ تعدادهم (١٦١٤٩٠)، (١٨٢١٢٠)، (١٨٩٨٦٦) خلال أعوام ١٩٥٤، ١٩٥٧، ١٩٦٠ على التوالي .

وإذا ما قورن معدل الزيادة في تعداد هؤلاء وفي جملة عدد المشتغلين في القطاع الصناعي في عامي ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ لتبين مدى الزيادة المئوية في تعداد

= أحزمة الملابس - تفصيل وحياكة بدل الرجال والأولاد - ملابس خارجية للبنات والسيدات - قمصان وبيچامات - ملابس بلدية - أنشطة أخرى للملبوسات ؛ (٧) الطباعة والنشر وتشمل طباعة ونشر الكتب - بطاقات وظروف وأدوات كتابية - الزنكوغراف"حفر على النحاس" - صناعة وسائل حفظ الأوراق وتجليد الكتب - فوتوغرافيا ؛ (٨) التصوير الفوتوغرافي وتشمل استوديوهات تصوير فوتوغرافي - تحميض وتكبير - تصوير الأغراض التجارية - أنشطة أخرى ؛ (٩) صناعات دقيقة وتشمل إصلاح راديو - تليفزيون - ثلاجات - غسالات - ساعات - منبهات - عدسات وأجهزة كهربائية ؛ (١٠) خدمات الإصلاح وتشمل ورش ميكانكا سيارات - كهرباء سيارات - إصلاح موتوسيكلات - سمكرة سيارات - إصلاح اطارات - محلات إصلاح أخرى ؛ (١١) صناعات حرفية أخرى وتشمل أطراف صناعية - أجهزة بصرية - حلاقة وتجميل - الرفا - كي الملابس - تبييض نحاس - تجليخ عدسات - شنابر نظارات - نظارات شمسية ؛ (١٢) صناعات بيئية وريفية وتشمل منتجات فنية للخزف والصيني - منتجات الفخار - التماثيل - مكانس - رخام وأحجار - غرابيل - حصير جريد - خيرزان (بامبو) ؛ (١٣) صناعات متنوعة وتشمل طحين الغلال - تبييض الأرز - خبر بلدي- خبز أفرنجي - كنافة - فطائر - قطايف - أنشطة لطحين وتهيئة .

(*) إن كل ما يتم مناقشته حول النشاط الحرفي بعد عام ١٩٥٢ في هذا الفصل ، تم اقتباسه من تقرير "الحرفيون خلال الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٨٠" الذي شاركت به الباحثة ضمن المسح الاجتماعي الشامل للمجتمع المصري من الفترة ١٩٥٢ - ١٩٨٠ والذي قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر .

المشتغلين في المنشآت الحرفية والتي بلغت (٧٨ر١٥٪) من عددهم عام ١٩٥٤ مقابل ٤٨ر٣١٪ زيادة في إجمالي عدد المشتغلين بالقطاع الصناعي خلال الفترة المذكورة كما يوضح ذلك جدول رقم (١) .

أيضا يتضح مدى التباين في تعداد فئة الحرفيين المشتغلين تبعاً لنوع النشاط والحجم التنظيمي للمشروعات الموجودة خلال تلك الفترة كما يوضح ذلك جدول رقم (١).حيث يتركز غالبية الحرفيين في قطاع الخدمات الشخصية والمنزلية حيث بلغت نسبتهم (٨٢ر٩٧٪) من إجمالي المشتغلين بهذا القطاع في عام ١٩٦٠ في حين بلغ عدد المشتغلين في المنشآت الحرفية (٥٣٥٥ مشتغلاً) بما يوازي ١٨ر٣٥٪ من جملة المشتغلين في قسم البناء والتشييد . أما بالنسبة لتعداد الحرفيين المشتغلين في التنظيمات الكبيرة الحجم فلم تتعد نسبتهم ١٧ر٢٪ من جملة المشتغلين وذلك لاعتماد قطاع الخدمات الشخصية والمنزلية بالدرجة الأولى على المشروعات الصغيرة الحجم حيث تتركز النسبة العددية من الحرفيين .

وجدير بالذكر أن الزيادة التي تشير إليها تلك الإحصائيات تمثل في الواقع زيادة منخفضة إذا ما قيست بالزيادة في تعداد السكان خلال تلك الفترة والتي بلغت نسبتها ٠٣ر٤٠٪ خلال الفترة ما بين عامي ١٩٤٧ - ١٩٦٠ [٨٣]، هذا بالإضافة إلى حدوث انخفاض واضح في تعداد الحرفيين المشتغلين في القطاع الصناعي في عام ١٩٦٠ حيث بلغت نسبتهم ٣٩ر٣٦٪ من إجمالي المشتغلين في هذا القطاع أي بانخفاض قدره ٣ر٤٪ عنه في عام ١٩٥٤ ولعل هذا قد يرجع إلى إغفال دور تلك الفئة من قبل الأجهزة الرسمية وبالتالي تفاقم المشاكل التمويلية والتسويقية أمام الصناعات الحرفية . وأن الاهتمام الجدي بتلك الفئة بدأ مؤخراً بإنشاء جهاز للحرفيين يتولى شؤونهم .

(٨٣) عادل حسن ،العلاقات الصناعية، دراسة مقارنة، دار المعارف بالإسكندرية ، ١٩٦٣، ص ٦٠.

جدول رقم (١)

تطور عدد المشتغلين بالمنشآت الحرفية فى الفترة مابين ١٩٥٤ - ١٩٧٦
ونسبتهم من جملة المشتغلين بالنشاط الاقتصادي (قطاع خاص)

النشاط الاقتصادي	عدد المشتغلين بالمنشآت الحرفية	جملة المشتغلين بالنشاط الاقتصادي	النسبة المئوية
الصناعات التحويلية			
١٩٥٤	١٦١٤٩٠	٣٩٦٨٤٢	٤٠ر٦٩
١٩٥٧	١٨٢١٢٠	٤٣٧٢٥٦	٤١ر٦٥
١٩٦٠	١٨٩٨٦٦	٥٢١٧٦٩	٣٦ر٣٩
١٩٦٤	١٨٦٩٧٧	٦٩٥٧٣٢	٢٦ر٨٧
١٩٦٧	٢٨١٩٠٠	٨٨٧٧٥٠	٣١ر٧٥
١٩٧٢	٣٢٦٤٤٤	٩٧٤٨٤٥	٣٣ر٤٩
١٩٧٦	٣١٥٦٨٠	١٣٦٦٦٤٢	٢٣ر٠٩
التشييد والبناء			
١٩٦٠	٥٣٥٥	١٥٢٢١	٣٥ر١٨
١٩٦٤	٤٩٤٩	٣٧٢٨٦	١٣ر٢٧
١٩٧٢	٦٥٩٩	٥١٧٤٢	١٢ر٧٥
١٩٧٦	١٩٦٤٨٨	٢٢٨٣٧١١	ر ٠٨٦
الخدمات الشخصية والمنزلية وغيرها من خدمات المجتمع			
١٩٦٠	٢٠١٦٨٥	٢٠٦١٦٧	٩٧ر٨٣
١٩٦٤	٢٠٧٦٨٢	٢٢٤٢٣٧	٩٢ر٦١
١٩٧٢	١٣١٩٨٦	٢٣٣٠٣٣	٥٦ر٦٤
١٩٧٦	١٨٧٩٨٠	١٨٥٩٩٥٤	١٠ر١١

المصدر : الحصر العددي للسنوات ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ ، انظر :

Mabro, Robert and Radwan, Samir, The Industralization of Egypt 1939-1973: Policy and performance, Oxford: Clarendon Press, 1976, p. 261.

وبالنسبة لحصر عام ١٩٦٧ انظر : الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء ، تعداد الإنتاج الصناعي الجزء الأول (٩ مشتغلين فأقل ، قطاع خاص) أبريل ١٩٧١ ، أما حصر أعوام ١٩٦٠، ١٩٦٤ ، ١٩٧٢، ١٩٧٦ انظر :

الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء ، تعداد المنشآت أعوام ١٩٦٠، ١٩٦٤، ١٩٧٢، ١٩٧٦ وتعداد السكان لعام ١٩٧٦.

ب - مرحلة تطبيق النظام الاشتراكي (١٩٦٢ - ١٩٧٢)

تميزت تلك المرحلة التاريخية بما حفلت به من قوانين ونظم أثرت إلى حد بعيد على الاتجاهات الإيجابية لفئة الحرفيين نحو المشاركة في المشروعات الصناعية في القطاع العام على وجه الخصوص وليس أدل على ذلك من :

١ - هجرة عدد كبير من أفراد تلك الفئة لحرفهم الأصلية والاشتغال في المشروعات الصناعية الكبيرة . ويؤكد ذلك ما يوضحه جدول رقم (١) من انخفاض عدد الحرفيين المشتغلين بالمنشآت الحرفية في قسم التشييد والبناء حيث بلغت نسبتهم ٢٧ر١٣٪ من جملة المشتغلين في هذا القسم عام ١٩٦٤ مقابل ١٨ر٣٥ عام ١٩٦٠ . من جهة أخرى ازداد عدد الحرفيين في قطاع الخدمات الحرفية ليصل إلى (٢٠٧٦٨٢ مشتغلاً) في عام ١٩٦٤ وبزيادة قدرها (٥٩٩٧) عنه في عام ١٩٦٠ إلا أنه إذا ما قيس هذا العدد بإجمالي تعداد المشتغلين في الحرف الخدمية لتبين حدوث انخفاض بلغت نسبته ٢١ر٥٪ في عام ١٩٦٤ إذا ما قورن بتعداد هؤلاء في عام ١٩٦٠ . وإجمالا تشير إحصائيات العمالة عام ١٩٦٦ إلى أن نسبة الحرفيين بلغت ١٨٪ من إجمالي القوى العاملة على مستوى الجمهورية [٨٤].

٢ - انخفاض عدد الحرفيين المشتغلين في النشاط الصناعي الخاص ويوضح جدول رقم (١) أن عام ١٩٦٤ شهد انخفاضاً قدره ٥٢ر٩٪ من إجمالي عدد الحرفيين المشتغلين في القطاع الخاص لعام ١٩٦٠ التي كانت تمثل ٣٩ر٣٦٪ من جملة المشتغلين في هذا القطاع مقابل ٨٧ر٢٦٪ في عام ١٩٦٠.

٣ - تدل إحصائيات عام ١٩٦٧ على انخفاض عدد المنشآت الحرفية في بعض مجالات النشاط الاقتصادي والتي كانت موجودة عام ١٩٤٧ مثل صناعات النسيج ، المواد الغذائية والتبغ ، الكيماويات ، البترول والفحم . وزاد عدد المنشآت الحرفية في

(84) Cairo Demographic Centre, Demographic Aspects of Manpower in Arab Countries, Series No. 3, Cairo's S.O.P. Press, 1972, p. 151.

عام ١٩٤٧ مثل صناعة الملابس والمنسوجات الجاهزة ، الأحذية ، الخشب والفلين (عدا صنع الأثاث) الأثاث والتركيبات ، الورق ، الطبع والنشر ، الجلود والمصنوعات الجلدية (عدا الأحذية) ، المطاط ، مصنوعات غير معدنية ، مصنوعات معدنية أساسية ، منتجات معدنية عدا الماكينات ووسائل النقل ، الماكينات الكهربائية وغير الكهربائية وأيضاً وسائل النقل كما يوضح ذلك جدول رقم (٢).

جدول رقم (٢)

التوزيع النسبي للمنشآت الحرفية (١ - ٩ مشتغل)

بالصناعات التحويلية حسب الفروع الصناعية لعامي ١٩٤٧ ، ١٩٦٧

الفروع الصناعية	١٩٤٧	١٩٦٧
المواد الغذائية والمشروبات والتبغ	٧٧ر٤	٥١ر٩
النسيج	٩٤ر٨	٨٩ر٣
الملابس والمنسوجات الجاهزة والأحذية	٩٠ر٨	٩٨ر٩
الخشب والفلين (عدا صنع الأثاث)	٨٨ر٣	٩٨ر٢
الأثاث والتركيبات	٩٢ر٢	٩٨ر٧
الورق	٧٠ر٩	٧٤ر٧
الطبع والنشر	٦٧ر٣	٧٦ر٩
الجلود والمصنوعات الجلدية (عدا الأحذية)	٨١ر١	٨٦ر٧
المطاط	١٤ر٣	٦٥ر٣
الكيماويات	٦٣ر٦	٤٩ر٤
منتجات البترول والفحم	٥٠ر٠	١٤ر٣
مصنوعات من الخامات غير المعدنية	٧٩ر٠	٧٧ر٥
المنتجات المعدنية الأساسية	٦٥ر٨	٨١ر٤
المنتجات المعدنية عدا الماكينات ووسائل النقل	٨٤ر٣	١٤ر٨
الماكينات غير الكهربائية	٥٠ر٠	٨٦ر٦
الماكينات الكهربائية	-	٩٤ر٤
وسائل النقل	٩٣ر٩	٩٧ر٧
متنوعة	٩١ر٥	٩٦ر١

المصدر : الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء ، إحصاء الإنتاج الصناعي لعام ١٩٤٧، وتعداد الإنتاج الصناعي عام ١٩٦٧.

ويرجع إلى القوانين الاشتراكية التي أعلنتها الدولة المصرية الأثر الكبير في التحولات السابقة التي حدثت في فئة الحرفيين في مصر . ومن ثم يتضح مدى تأثير العوامل السياسية في عزوف بعض أفراد تلك الفئة عن ممارسة الحرفة واتجاههم نحو الاشتغال في شركات القطاع العام بنوعيها الإنتاجي والخدمي لما كفلته تلك القوانين من تأمين ومعاش وتعويضات في حالات العجز .

أيضا قد يرجع انخفاض عدد الحرفيين المشتغلين بحرفهم الأصلية أولاً إلى سيطرة الدولة واحتكارها لبعض المواد الأولية الهامة للصناعات الكبيرة ، وثانياً إلى اهتمام الحكومة بتنمية بعض الصناعات قومياً مثل صناعات البترول والفحم وغيرها بهدف زيادة العائد القومي .

جدول رقم (٣)

التوزيع النسبي لإجمال عدد المنشآت الصناعية التحويلية

حسب الحجم (١٩٤٧ ، ١٩٦٧)

حجم المنشآت (عدد العاملين)	١٩٤٧ ٪	١٩٦٧ ٪
أقل من ٥	٦٨ر١	٨٤ر٠
٥ - ٩	١٩ر٧	٥ر٩
مجموع أقل من ١٠	٨٧ر٩	٨٩ر٢
١٠ - ٤٩	١٠ر٣	٦ر٩
٥٠ فأكثر	١ر٨	٣ر٢
إجمال الصناعات التحويلية	١٠٠ر٠	١٠٠و٠

المصدر : الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء ، إحصاء الإنتاج الصناعي ١٩٤٧، ١٩٦٧.

بالإضافة إلى التغيرات السابقة التي حدثت في حجم الفئة الحرفية نجد تغيرات أخرى مصاحبة تمثلت في زيادة معدلات الهجرة الداخلية من الريف إلى المدينة حيث تتركز معظم المشروعات الصناعية التي أنشئت في القاهرة والإسكندرية في المرحلة الأولي ثم امتدت تلك المشروعات الصناعية وغيرها إلى باقي المحافظات الحضرية الأخرى مثل السويس وبورسعيد . ففي الوقت الذي تزايدت فيه بعض المشروعات الحرفية زيادة طفيفة بلغت ٣ر١٪ خلال الفترة من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٦٧ كما يوضح ذلك جدول رقم (٣) نجد زيادة في عدد المؤسسات الصناعية والتجارية التي أنشئت في عام ١٩٦٠ بلغت ١٢٧٪ (٨٥).

أيضا تدل الإحصائيات على زيادة عدد المشتغلين في المنشآت الصناعية الحرفية داخل المناطق الحضرية مثل القاهرة والإسكندرية عنه في المناطق الريفية على الرغم من زيادة عدد السكان في ريف مصر عنه في الحضر . كما تدل الإحصائيات أيضاً على زيادة مستمرة لنسبة سكان الحضر إلى سكان الريف والذي لا يرجع بدون شك إلى كثرة النسل في المدن بل إلى زيادة معدلات الانتقال لسكان الريف إلى الحضر . وإذا ما قورنت نسب سكان الحضر إلى مجموع سكان إقليم مصر في أعوام ١٩٣٧ ، ١٩٤٧ ، ١٩٦٠ ، ١٩٧٦ لنجد أنها سجلت ٣٤٪ ، ٣٠٪ ، ٣٧٪ ، ٨ر٤٣٪ على التوالي مما يؤكد اتجاهات الهجرة الداخلية (٨٦) .

جـ - مرحلة الانفتاح الاقتصادي (١٩٧٣ - ١٩٨٠)

وتجدر الإشارة إلى أن مرحلة الانفتاح الاقتصادي تتميز بإجراء أول حصر شامل للحرفيين قام به جهاز الصناعات الحرفية والتعاون الإنتاجي فى ديسمبر عام ١٩٧٤ حيث تضمن هذا الحصر مجموعات الصناعات الحرفية وتعداد الحرفيين فى مختلف محافظات الجمهورية باستثناء بعض المحافظات (*) التى تم تهجير سكانها خلال

(٨٥) عادل حسن ، المرجع السابق ، ص ٧٠٨ .
(٨٦) المصدر السابق ، ص ٧٢٦، انظر أيضاً : الجهاز المركزي ، التعداد العام للسكان لعام ١٩٧٦.
(*) المحافظات هي : بورسعيد ، الإسماعيلية ، السويس ، سيناء بالاضافة إلى محافظات البحر الأحمر ، الوادي الجديد ، مطروح .

جدول رقم (٤)

توزيع الحرفيين حسب فئات السن على مستوى الجمهورية

(حضر - ريف)

		١٨-٢٩	٣٠-٣٩	٤٠-٤٩	٥٠-٥٩	٦٠ فأكثر	غير مبين	المجموع
حضر	العدد	٣٦٧٤٥	٣٢٠٢٢	٣٢٦٣٤	١٨٦٨٤	١١٥٩٩	٧٩٩	١٣٢٤٨٣
	النسبة	٢٧ر٧	٢٤ر٢	٢٤ر٦	١٤ر١	٨ر٨	٠ر٦	١٠٠
ريف	العدد	٩٤٥٤	٩٥١٢	١٠٦٢٠	٧٠٩٤	٤٢٣٤	٦٧	٤٠٩٨١
	النسبة	٢٣ر١	٢٣ر٢	٢٥ر٩	١٧ر٣	١٠ر٣	٠ر٢	١٠٠
المجموع	العدد	٤٦١٩٩	٤١٥٣٤	٤٣٢٥٤	٢٥٧٧٨	١٥٨٣٣	٨٦٦	١٧٣٤٦٤
	النسبة	٢٦ر٦	٢٣ر٩	٢٤ر٩	١٤ر٩	٩ر٢	٠ر٥	١٠٠

المصدر : جهاز الصناعات الحرفية والتعاون الإنتاجي ، إدارة الإحصاء والمتابعة ، حصر الحرفيين (ديسمبر ١٩٨٤) .

حرب ١٩٧٣ إلا أن الحصر رغم أهميته السابقة لايمكن الاعتماد عليه في التقدير الفعلي للعمالة الحرفية في ريف وحضر مصر بسبب استبعاد تلك المحافظات ، ويوضح الملحق رقم (١) نتائج هذا الحصر .

ويوضح جدول رقم (٤) بعض السمات الديموجرافية للحرفيين حيث تم توزيعهم حسب فئات السن على مستوى الريف والحضر . ومن هذه البيانات يتضح أن شريحة كبيرة من الحرفيين تقع فى فئة السن من ١٨ - ٣٩ سنة حيث بلغت نسبتها (٥٠ر٥٪) من إجمالي عدد الحرفيين . من جهة أخرى يتضح أن نسبة كبيرة من الحرفيين تقطن المناطق الحضرية حيث بلغت (٧٦ و ٣٧٪) من إجمالي تعداد الحرفيين، قد يرجع ذلك إلى ما تتميز به تلك المناطق من أسواق لبيع منتجاتهم ولشراء

ما يلزمهم من مواد أولية ومستلزمات الإنتاج الحرفي . هذا بالإضافة إلى عوامل تاريخية مثل ارتباط صناعة الأثاث الخشبي بدمياط وصناعة النسيج بالمحلة الكبرى .
ويمكن استنباط ذلك من بيانات ملحق رقم (١) حيث تبلغ نسبة المشتغلين في الحضر لكل من صناعات الحرير الطبيعي والصناعي والنايلون ، الحقائب الجلدية وبدائله ، وأيضاً السجاد (٧١ر٥٦٪ ، ١٠٠٪ و ٦٥ر٦٠٪) للصناعات السابقة على التوالي من إجمالي العمالة الحرفية لكل منها . بينما تتركز غالبية العمالة الحرفية في مجال النسيج اليدوي في ريف مصر حيث تبلغ نسبتهم (٩٤ر٥٤٪) من إجمالي المشتغلين في تلك الحرفة على مستوى الجمهورية .



الفصل الثالث

الدور الاجتماعي الاقتصادي للطوائف الحرفية في مصر بين النشأة والاندثار ، رؤية نقدية

أولاً : التنظيم الاجتماعي للطوائف الحرفية
ثانيا : الطوائف الحرفية في مصر بين النشأة والاندثار
ثالثا : حوار وتعليق

الفصل الثالث

الدور الاجتماعي الاقتصادي للطوائف الحرفية في مصر بين النشأة والاندثار ، رؤية نقدية

المقدمــــة

كان نظام الطوائف الحرفية Guild System(*) في مجتمعات ما قبل التصنيع الحديث ، نوعاً من التكوين الاجتماعي تضافرت للإبقاء عليه وضمان حيويته ، عوامل مترابطة ، اجتماعية وثقافية واقتصادية . ولعلنا لا نبالغ في القول عندما نذكر أن نشأة الطوائف الحرفية تعد إفرازاً لتلك العوامل التي هيأت لبنية تلك الطوائف قدراً كبيراً من الاستقرار والتوازن الاجتماعي . ولقد أمكن ذلك للطوائف الحرفية ، بوصفها نمطاً أساسياً من أنماط الإنتاج التقليدي في الحضر ، أن تزدهر ، وتصبح قادرة على الإدارة الذاتية لكافة شئونها الداخلية والخارجية المرتبطة بالسوق والإنتاج والعمالة . وبالفعل صارت الطوائف الحرفية لما تمتلكه من خصائص بنائية وأخرى تتعلق بالعمالة والمنتج الحرفي ذات أهمية بالغة من الوجهة الاقتصادية كنمط تقليدي للإنتاج على مستوي المجتمع الكبير .

من جهة أخرى ، ورغم التمييز الواضح للدور الاقتصادي للطوائف الحرفية ، وظهور الثورة الصناعية ، فإنه تحت تأثير عوامل مختلفة بدأت تلك الطوائف في الاضمحلال تدريجياً ثم اندثرت بعد ذلك .ولقد تباينت أسباب كل من الاندثار والنشأة من دولة إلى أخرى .فبفضل الثورة الصناعية وانتشار حرية العمل تدهور النظام الحرفي كوحدة اقتصادية في البلدان التي أخذت بسياسات التصنيع . بل أصدرت بعض الدول قوانين بإلغاء الطوائف وتحريم قيام اتحادات مهنية . ففي انجلترا على سبيل المثال ، لم يكن لنظام الطوائف دور خطير كما كان في معظم دول أوربا ومع ذلك فقد صدر قانون في عام ١٧٩٩ يحرم قيام اتحادات مهنية أو رابطة حرفية(١) .

(*) تشير كلمة طائفة Guild إلى تنظيم يضم جميع العاملين في حرفة Craft معينة . انظر :
Eugene V. Schneider, Industrial Sociology: The Social Relations of Industry and The Community, 2nd edition, Mc Graw - Hill, New York, 1971, p. 34.

(١) نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين ، معجم العلوم الاجتماعية ، تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٢٦.

وفيما يختص بعوامل النشأة والاندثار للطوائف الحرفية ، فإذا كان أوجين شنايدر E.Schneider وآخرون قد ذهبوا إلى أن نشأة الطوائف الحرفية في أوروبا قد بدأت خلال القرنين التاسع والعاشر وبلغت أوج دورها الاقتصادي في القرن الثالث عشر الميلادي فإن بعضها ظل يؤدى دوره الاقتصادي ووظائفه حتى القرن التاسع عشر [٢]، فإن تاريخ نشأة الطوائف الحرفية في مصر تتباين حوله الأقوال والاتجاهات. حيث نجد اختلافات واضحة في أثناء الاتجاهات العلمية التي تهتم بعوامل اندثار الطوائف الحرفية في مصر . وقد يعكس هذا الاختلاف حجم وعمق التأثيرات المضادة على نظام الطوائف الأمر الذي قد يستوجب ضرورة التحليل النقدي للآراء المختلفة حول تلك القضية .
وتأسيساً على ذلك ،تهتم المناقشة في هذا الفصل بقضيتين أساسيتين هما :(١) دراسة ومناقشة خصائص التنظيم الاجتماعي للطائفة الحرفية بوصفها أحد أنماط القطاع الحرفي. ثم معرفة إلى أي حد نجحت تلك الخصائص في إكساب الطائفة الحرفية الدور الاقتصادي البارز في سوق الإنتاج التقليدي .(٢) تحليل نقدي للآراء والاتجاهات التي تناولت عوامل النشأة والاندثار للطوائف الحرفية بكونها أحد أنماط النظام الحرفي الشامل. ولتحقيق أهداف هذا الفصل نرى ضرورة أن نتناول بالشرح التنظيم الاجتماعي للطائفة وشبكة العلاقات داخل الطائفة وأيضاً خارجها مع كل من المجتمع والسلطة الحاكمة .

أولاً : التنظيم الاجتماعي للطوائف الحرفية

تعتبر الطائفة الحرفية نمطاً من أنماط الإنتاج التقليدية ، كما تمثل شكلاً تنظيمياً وقانونياً كان يجمع أهل الحرفة الواحدة.ولقد لعب نظام الطوائف دوراً متقدماً في المجتمع الإقطاعي لأنه ساعد على تطوير الفنون الإنتاجية المستخدمة في الإنتاج الحرفي . كما ساهم في رفع كفاءة العمل اليدوي من خلال نظم التلمذة الصناعية والتدريب . كما عمل على حماية الحرفيين من استغلال رجال الاقطاع . ويعتمد هذا النظام على المهارة

(2) Schneider, op. cit. p. 34.

اليدوية كمعيار أساسي للترقي من مستوى إلى مستوى آخر أعلى منه عبر ثلاث مستويات هي الصبية Apprentices، «الاسطوات» Masters وأخيراً شيخ الطائفة (٣).

الطاقة البشرية كوحدة مهنية تستعمل أدوات تقليدية في عملية الإنتاج .وتتسم البنية الاجتماعية للطائفة بشبكة من العلاقات المستقرة قد تماثل في نوعيتها نمط العلاقات الأولية . ويبدو تأثير كل من الأعراف والقيم الاجتماعية والدينية واضحاً في أنماط السلوك وعلاقات العمل داخل التنظيم الاجتماعي للطائفة . أيضاً يتصف هذا التنظيم بعدة خصائص عامة تتماثل إلى حد بعيد مع خصائص عموم النظام الحرفي . وسوف نعرض لتلك الخصائص مصنفة وفق الموضوعات الأساسية التالية :

١ - نمط علاقات العمل السائد في نظام الطوائف الحرفية

كانت شبكة العلاقات السائدة في نظام الطوائف الحرفية متداخلة فيما بينها بحيث يتعذر الفصل بين العلاقات الرسمية والعلاقات الاجتماعية غير الرسمية في مكان العمل . وقد يرجع السبب في ذلك إلى عدد من العوامل في مقدمتها صلة القربى بين أفراد الطائفة وتأثير التوارث المهني بينهم.أيضا قد يرجع السبب إلى العلاقات المباشرة بين الحرفيين في موقع العمل ،فلا توجد حواجز أو قيود تنظيمية داخل تنظيم الطائفة .

ولقد كان نمط العلاقات السائد في النظام الحرفي عامة يعتمد على الأعراف والتقاليد الاجتماعية فلم تكن توجد تشريعات وضعية تحدد أو تنظم تلك العلاقات بين التنظيمات الصناعية المختلفة ، مثلما يحدث الآن في المجتمعات الصناعية الحديثة.وفي

---

(3) Gabrial Baer, Egyptian Guilds in Modern Times, Oriented Society, Jerusalim, 1964, p. 59, 69.

انظر أيضا : رمزي زكي ، التاريخ النقدي للتخلف : دراسة في أثر نظام النقد الدولي على التكون التاريخي للتخلف بدول العالم الثالث ، عالم المعرفة ، العدد ١١٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٧ ، ص ٣٨ .

نظام الطوائف بوصفه نمطاً من أنماط الإنتاج التقليدي ، كانت علاقات العمل القائمة في محيط العمل ، تتسم بالاستقرار والثبات [٤]. وقد يرجع ذلك لأسباب كثيرة منها :

١ - كانت العمالة الحرفية في نظام الطوائف ، تنحدر من وسط اجتماعي مهني ثابت فلا توجد بينهم فوارق طبقية ولا تمزقهم اختلافات عرقية ومن ثم كان االمناخ التنظيمي للطائفة الحرفية ، يتصف بالانتمائية وحب العمل من جانب هؤلاء الأفراد [٥]. أضف إلى ذلك تأثير أواصر صلة القربي وحالات الود والتضامن والتعاون بين أفراد الطائفة ولقد كانت علاقات العمل أقرب في طبيعتها إلى العلاقات الأولية .

٢ - كان لعامل القرابة الدور البارز في توارث المهنة داخل نظام الطوائف ، فالأب إن كان حرفياً تدفعه انتمائيته وحبه للعمل أن يحرص على تعليم ابنه أو أحد أقربائه فنون الحرفة التي يمارسها [٥] . فكان يقوم بتدريبه عملياً على الحرفة ومتابعته المستمرة لهذا الابن حتى يكتسب المهارة اليدوية ويقع على كل أسرار الحرفة . وقد يحدث في بعض الأحيان أن الأب إن لم يكن حرفياً يتبع طائفة معينة ، كان عليه أن يدفع مبلغاً من المال نظير تعليم ولده فنون الحرفة عند أحد الأسطوات .

٣ - إن الأعراف والتقاليد التي قامت عليها شبكة العلاقات في نظام الطوائف هي التي أبرزت مناخاً مستقراً لتلك العلاقات ، ومن ثم لم تنشأ أي منازعات في مجال العمل ، وإن حدثت فلا يفصل فيها إلا شيخ الطائفة حيث كان يترأس حلقات التحكيم وفض المنازعات داخل الطائفة ، وأما في العلاقات الخارجية والطائفة والأجهزة الحكومية والقضائية ، فقد كان شيخ الطائفة ينوب عن أفراد طائفته ، كما يتحمل مسئولية تنفيذ الأحكام الصادرة ضد أفراد طائفته ، وكل ما يتعلق بشئون العمل والتسويق .

(٤) عبد الباسط حسن ، علم الاجتماع الصناعي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢، ص ١٣٢. انظر ايضاً : اميل فهمي حنا شنودة ، تاريخ التعليم الصناعي حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٩.

(4) Nels Anderson, Dimensions of Work, The Sociology of Work Culture, David Mckay Company, INC. New York, 1064, p. 26.

(5) Richard Hall, Occupations and The Social Structure, Prentice Hall INC. New Jersey, 1975, p. 190; Nels Anderson, op. cit. p. 80.

٢ - أخلاقيات الحرفة في نظام الطوائف

قد يرجع إلى أساليب التنشئة المهنية في مكان العمل داخل نظام الطوائف الأثر الأكبر في غرس قيم العمل الحرفي عند الصبية . ولقد انبثقت تلك القيم واستمدت قدرتها وفعاليتها من القيم الاجتماعية المتوارثة والتي تعبر عن ثقافة المجتمع المصري. ولا نبالغ في القول بأن أخلاقيات الحرفة في نظام الطوائف قد استلهمت معظم عناصرها من القيم الدينية والاجتماعية التي كانت سائدة في نمط الأسر الممتدة في صعيد مصر. فالقيم الدينية تدعو إلى المساواة في الأجر لنفس العمل كما تدعو إلى المساواة في فرص الترقي بقدر المساواة في أداء العمل الحرفي والإخلاص المتمثل في البذل والعطاء. كما تحث القيم الدينية على أن يوقر الصغير الكبير ويمتثل لكل أوامره عن طواعية ، لا إكراهاً . وفيما يلي أهم أخلاقيات الحرفة في نظام الطوائف :

١ - الطاعة والامتثال من الأدنى للأعلى طبقاً للمستويات الثلاثة في تنظيم الطائفة . فالصبي يجب عليه أن يمتثل لأوامر معلمه ويطيعه في كل ما يأمر به . كما أن احترام شيخ الطائفة واجب على كل أفراد الطائفة . والخروج على تلك القيمة يقابله ضوابط وعقوبات يقبلها الجميع دون استثناء في نظام الطوائف بشكل عام . كما أن الطاعة والامتثال تتم عن طواعية وليس بالقهر أو بالخوف من فقد ترقية أو خشية من بطش المعلم .

٢ - الترقية على أساس المهارة اليدوية المكتسبة وسنوات الخبرة في العمل ويتساوى في ذلك جميع أفراد الطائفة الحرفية .باستثناء منصب شيخ الطائفة فيكون بالوراثة والتعاقب عليه من داخل أفراد الأسرة الواحدة .

٣ - الأخذ بالمشورة والرأي قبل الموافقة على الترقي لأحد أفراد الطائفة بدءاً من مستوى الصبي ، فالعريف ثم فئة «الأسطوات» .

٤ - عدم إفشاء أسرار المهنة خارج حدود الطائفة . وذلك يحقق المحافظة على جودة المنتج الحرفي وأيضا لا يمنح أي فرصة لمن هم خارج نظام الطوائف أن يقلد المنتج أو حتى ينافس الطوائف .

٥ - ضرورة نقل فنون الحرفة من مستوى لآخر داخل تنظيم الطائفة دون حجب أي من أسرار الحرفة عن أفراد الطائفة . وذلك من شأنه أن يتيح لنظام الحرفة أن يستمر في أداء دوره الاقتصادي فضلاً عن تنمية الموارد البشرية وقدراتها الحرفية في آن واحد.

٦ - أن يكون تقويم العمل الحرفي للفرد من أقرانه ومعلميه وليس ممن هم خارج الطائفة الحرفية . وقد يبدو ذلك جلياً في حالات الترقي من مستوى لآخر وأيضاً في حالة إهمال الصانع وإنتاج سلع رديئة . وللمخالفة والخروج عن تلك الأخلاقيات عقوبات محددة .

٣ - المعايير التي تحدد نوعية الأداء الحرفي وجودة المنتج

١ - كان نظام الطوائف في بعض البلدان يلزم العامل أن يؤدي قسماً في حضور اثنين من رؤساء العمل ، يتعهد فيه أن يتقن حرفته بأمانة وإخلاص وأن لايخفى أية مخالفة ترتكب ضد صالح العمل على رؤسائه داخل نظام الطائفة .

٢ - لايحق لأي فرد من أفراد الطائفة أن يمارس دور المعلم أو «الأسطى» إلا بعد إجازته مهنياً أمام المحلفين ورؤسائه في الحرفة مع إشهار ذلك في الأوساط الحرفية .

٣ - معاقبة كل من يقوم بإنتاج سلع حرفية رديئة لاتخضع لمعايير الجودة الحرفية وذلك بالطرد المؤقت خارج الطائفة[٧].

٤ - معاقبة كل من يقوم بالأداء غير الجيد في إنتاج السلع الحرفية وذلك بأن يقوم شيخ الطائفة بتعليق بعض من إنتاجه الرديء على باب ورشته الخارجي حتى يراه كل من يمر عليه .

٥ - الإبقاء على الكفاءات ذات المهارة الحرفية العالية مع التخلص من غير الأكفاء مهنيا وإبقائهم خارج تنظيم الطائفة .

٦ - الرقابة الفنية المباشرة والتوجيه المستمر إذا لزم ذلك[٨] أثناء قيام الحرفي بأداء المنتج الحرفي . مع التأكد من مطابقة المنتج الحرفي للأسس المتبعة والمعمول بها في نظام الطائفة .

---

(٧) أميل شنودة ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

٤ - نظام الطوائف الحرفية وعلاقات السوق

يفصح لنا التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، عن وجود علاقة تربط نظام الطوائف الحرفية بسوق الإنتاج التقليدي . وكان يحكم تلك العلاقة خاصيتان أساسيتان من جانب نظام الطوائف هما الاحتكار الكامل للمهارة الحرفية ، والسيطرة الكاملة على كل ما يتعلق بالسلعة الحرفية . كماً وكيفاً وتسويقاً ، ومن جانب الحكومة المصرية ، فقد كانت تؤازر وتدعم هذا الاتجاه الاحتكاري وبسط السيطرة على السوق من جانب الطوائف الحرفية . ويمكن استخلاص هذا الاتجاه الإيجابي من جانب الحكومة من خلال ما كتب في التراث الاجتماعي في هذا الصدد . فلقد سعى الطرفان معاً لتحقيق أهداف الطوائف ، باتباع أسلوب المراقبة المزدوجة لعمليات السوق وما يتصل بها من شئون أخرى كالموازين والتمغة وغيرها . فمن جانب الطوائف ، كانت تكلف «العريف» التواجد والمرور في الأسواق للتأكد من جودة المنتجات وعدم وجود منافسة من منتجات أخرى للسلع الحرفية التي تنتجها الطوائف . وفيما يختص بدور الحكومة المصرية فكان متمثلاً في تعيين فرد يُعرف بالمحتسب(*). ولقد كان من بين واجبات المحتسب التعاون مع العريف لمراقبة المنتجات الحرفية بما يحقق عدم المنافسة بينها . وقد يبدو أن مؤازرة الحكومة المصرية لأهداف نظام الطوائف الحرفية في علاقاتها بسوق الإنتاج التقليدي أمر له مبرراته . ومن بين تلك المبررات ما يلي :

(٨) حسن الساعاتي ، علم الاجتماع الصناعي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٨٠ .

(*) «وكان بجوار حبس المعونة دكة الحسبة ومكانها اليوم يُعرف بالاباززة ومكسر الحطب بجوار سوق القصارين والفحامين . قال ابن الطوير أما الحسبة فإن من تسند إليه لايكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدّلين لأنها خدمة دينية وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم وله الجلوس بجامعي القاهرة ومصر يوماً بعد يوم . ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ويأمر نوابه بالختم على قدور الهرّاسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزارة وكذلك الطبّاخون ويتبعون الطرقات ويمنعون من المضايقة فيها ... وينذرون معلمي المكاتب بأن لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرّحاً ولا في مقتل ... وينظرون المكاييل والموازين وللمحتسب النظر في دار العيار ويخلع عليه ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ولا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها ...» انظر :
تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

١ - كانت الطوائف الحرفية نظاماً وطنياً وإفرازاً معبراً عن الرغبة الشعبية ومحققاً لاحتياجاتها خاصة طبقة الفقراء والتي تضم السواد الأعظم من سكان مصر .

٢ - كانت الطوائف الحرفية كنمط أساسي من أنماط الإنتاج التقليدي ، أكثر تلك الأنماط نظامية وإنتاجية . كما كان لها الباع الأكبر في سوق العمل ومجالات الأنشطة المختلفة خاصة في مدينة القاهرة حيث دواوين الحكومة والهيئات الرسمية ، واعتمادهم على ما تقدم الطوائف من خدمات متنوعة ومنتجات حرفية متميزة تدل على براعة الحرفي وأصالته .

٣ - على المستوى القومي ، كان للمشاركة المستمرة للطوائف الحرفية في المناسبات . والاحتفالات الرسمية والعامة الأثر الطيب في نفوس أفراد المجتمع ، كما كانت المشاركة تحظى بتقدير عند الحكومة المصرية . فكانت الطوائف تشارك في جميع المراسم والاحتفالات الدينية منها على سبيل المثال ، خروج المحمل بالقوافل من القاهرة إلى بيت الله الحرام بمكة في أرض الحجاز . وكذلك الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف وبأهل البيت الكرام والاحتفال برؤية هلال شهر رمضان[٩] . أيضاً كانت الطوائف تشارك في الاحتفالات بوفاء النيل .أيضاً كانت الطوائف الحرفية تشارك الحكام مراسم ومواكب النصر ، كما كانت تشاركهم إخراجهم كحفلات الزفاف والعرس . ففي العصر المملوكي (١٢٥٠ - ١٥١٧م) كان بعض الحكام من المماليك يخرجون في موكب حافل للتباهي بسلطانهم واستعراض الجاه والقوة . وكانت تصاحبهم مواكب مشايخ طوائف الحرف في عربات مزينة وتسير في طابور منظم . وكان كل شيخ من شيوخ الطوائف يجلس في مقدمة العربة بينما يجلس باقي أفراد الطائفة خلفه ولكن داخل العربة[١٠].

٤ - إن الترابط والتضامن والعلاقات الشخصية القوية بين جميع الفئات الحرفية قد أوجد سوقاً للعمالة الحرفية يقوم على معايير واضحة تحقق له الثبات والاستقرار ، كما خول هذا الترابط أيضا لشيوخ الحرف الهيمنة الكاملة على سوق العمالة والتحكم

(٩) على محمود اسلام الفار ، علم الاجتماع الصناعي ،دار المعارف ،القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٥.
(١٠) أميل شنودة ، مرجع سابق ، ص ٢٠ .

في نسبة البطالة وفرص تشغيل العاطلين وفقاً لمعدلات الإنتاج الحرفي [١١] ، ومتطلبات السوق وتبعاً للعدد المتاح من الأسطوات . ولقد أتاحت تلك الخاصية للطوائف الحرفية أن تضمن مساندة الحكومة للنشاط الحرفي في مقابل إتاحة الفرص لامتصاص الأيدي العاطلة في نظام الطوائف ، كانت الحكومة المصرية تكفل حماية أعضاء الطوائف من البطالة وإتاحة الفرصة لتشغيل كل الطاقة البشرية وذلك بإصدار قوانين تحظر استيراد البضائع المنافسة للمنتجات المحلية من خارج البلاد .

٥ - إن حجم العمالة الحرفية كان كبيراً ، كما كان تنظيم أساليب العمل والعلاقات في نظام الطوائف يقوم على معايير وقيم متوارثه تضمن وحدة الهدف وحق الملكية وحرية العمل داخل هذا النظام . ومن ثم فأي اعتداء من أي جهة على تلك الحقوق كان يواجه بتصرف جماعي مناهض لأي تهديد [١٢] . وإذا أضفنا إلى ذلك أهمية الدور الاقتصادي الكبير والهام للطوائف في الاقتصاد القومي والإنتاج التقليدي ، يتضح منطقية العلاقة القوية بين الحكومة المصرية وشيوخ الطوائف بوصفهم ممثلين لتلك الطوائف أمام الجهات الرسمية المسئولة في الدولة المصرية .

٦ - إن الطوائف الحرفية كمثال مبسط للعمل المنظم يملك تحديد منتجاته ، ويحدد أجور الحرفيين ويتميز عن غيره من أنماط الإنتاج التقليدي المتناثرة في ربوع البلاد المصرية ، بوضوح علاقته مع الجهاز الحكومي . فنظام الطوائف الحرفية يلتزم بدفع ما تفرضه الدولة من ضرائب ، فكان شيخ الطائفة يقوم بجمع الضرائب المقررة على أهل الحرفة ويعطيها للموظف المختص بجمع تلك الضرائب من قبل الحكومة .ولقد كان تقدير الضرائب على أساس نسبة إيرادات الطوائف الحرفية [١٣] . وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كان يؤخذ برأي مشايخ الطوائف عند تقرير مبالغ تلك الضرائب .

---

(١١)

(12) Nels Anderson, Dimensions of Work, op. cit, p. 78.

(١٣) محمد فهيم ، تاريخ الحركة النقابية وتشريعات العمل بالإقليم المصري ، عالم الكتب ، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٠، انظر أيضاً : على اسلام الفار، مرجع سابق، ص ١٠٣، وأميل شنودة ، مرجع سابق ، ص ٣٢ . ٣٦.

٥ - تقسيم العمل وتوزيع الأدوار في الطوائف الحرفية

تتسم عملية تقسيم العمل في نظام الطوائف بالبساطة فضلاً عن اعتمادها على العادات المتوارثة والتي تحكم وتنظم العلاقات في مجال العمل . كما أنها ترتبط بشعور العامل الحرفي بإحساسه بالاعتمادية الكاملة على جماعة العمل التي يتعايش معها يومياً . وتلعب التنشئة الاجتماعية في العمل دوراً مؤثراً في تقوية هذا الإحساس عند جميع أفراد الطائفة . فالطاعة وتوقير الكبير والأسطى والالتزام بأخلاقيات العمل الحرفي والرضاء بالفروق في المكانة والدور بسبب عوامل التوارث المهني والسن ، كان ذلك كفيلاً بأن يحقق قدراً من الرضاء عن العمل المصاحب لعملية تقسيم الأدوار. ويفسر فبلين Veblen سبب رضاء الحرفيين عن عملهم إلى شعورهم بالاستقلالية الكاملة في أداء العمل كما أنهم يستمدون من هذا العمل الإحساس بالفخر [١٥].

ولقد كانت عملية الترفيع عبر التسلسل «الهيراركي» داخل تنظيم الطائفة ، يعتمد كلية على المهارة اليدوية وسنوات الخبرة الحرفية [١٦] ونخلص من ذلك إلى أن خصائص وطبيعة البنية الاجتماعية للطوائف لم تهيىء مناخاً للتوترات أو لأي شكل من أشكال الصراع القائم على المصلحة . كما لم تهيىء تلك البنية فرصاً لاحساس الحرفيين بالاغتراب في موقع العمل .

ومن المنظور المهني ، نجد أن الصانع الحرفي يعتبر الوحدة المهنية الأساسية التي تقوم عليها العملية الإنتاجية حيث يستخدم الحرفي مهارته المكتسبة وكلتا يديه في إبداعه الخاص أثناء أداء جميع مراحل العملية الإنتاجية وفي إنتاج سلعة واحدة [١٧]. ومن ثم لا تتطلب عملية الإنتاج الحرفي تخصصية الأدوار الإنتاجية أو إنتاج السلعة

(15) Ibid. p. 26 and 79.

(16) Melvin Kranzberg and Joseph Gies, "The Industrial Revolution: Birth of The Factory: in Lauri Perman (Ed.), Work in Modern Society: A Sociology Reader, Kendall / Hunt Publishing Company Dubuque, Iowa, 1986, p. 41.

(17) Ibid. p. 40.

عبر محطات إنتاجية متتابعة كما يحدث في خطوط التجميع الحديثة . فكل معلم يحيط بأسرار ودقائق حرفته ويتولي بنفسه إنتاج السلعة دون مساعدة أو مشاركة من زميل .

وإذا ما أضفنا إلى طبيعة الأدوار الحرفية في العملية الإنتاجية ، اتجاه الحرفيين الرافض لاستخدام الماكينات أو أي أساليب تقنية متطورة في عملية الإنتاج الحرفي ، يمكن القول إن عملية تقسيم العمل فضلاً عن اتصافها بالبساطة فإنها تتصف أيضا بالاستقرار والثبات . وليس أدل على استقرار عملية تقسيم العمل داخل الطائفة من أن أساليب الإنتاج التقليدية ظلت على حالها دون أن تطرأ عليها أي تعديلات . ومن ثم ظلت فنون الحرفة كما هي طوال فترة انتعاش الدور الاقتصادي للطوائف الحرفية من النشأة حتى الاندثار . وقد ورد ما يشير إلى ذلك من بين ما ذكره جيرار - أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر ، حول حرفة النسيج في مصر ، فيذكر :

«أن حرفة النسيج الفنية كانت تمارس في مصر منذ القدم ويقال إن عملياتها لم تتغير منذ العصور الغابرة . فهي بسيطة كما نعرف والعمل فيها لا يتطلب تعليماً طويلاً غير محدود المدة» (١٨).

أيضاً ما يدل على بساطة تقسيم العمل واتصافه بالاستقرار ، ثبات الألقاب المهنية مع قلة عددها . فلم يطرأ عليها أي تبديل أو إضافة ألقاب جديدة فمنذ نشأة الطوائف الحرفية وحتى اندثارها كانت الألقاب المهنية المستخدمة وفقاً لتوزيع أدوار العمل وتصنيفاتها هي الصبي ، المعلم (الأسطى) ، النقيب ، شيخ الطائفة ، شيخ المشايخ وأحياناً العريف . وما ينطبق قولاً على الألقاب المهنية ينطبق بالتالى على الأدوار الحرفية ومجالاتها . فلم يعتريها أي تغيير وظلت على حالتها ، تقليدية تقوم على معايير محددة . وفيما يختص بطبيعة الدور لكل مستوى من المستويات الثلاث داخل تنظيم الطائفة فيمكن أن نتناولها فيما يلي :

---

(١٨) حسن الساعاتي ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

١ - **أدوار شيخ الطائفة** . كان يتقلد شيخ الطائفة أعلى مكانة اجتماعية داخل نظام الطوائف الحرفية قياساً على مكانة «الأسطى» أو «المعلم». وكانت تجتمع إلى شيخ الطائفة كل السلطات لينهض بأعباء الطائفة شؤوناً وأفراداً داخل الطائفة وخارجها . كما كان شيخ الطائفة أكثر أعضائها فهماً ودراسة بدقائق وأسرار الحرفة فضلاً عن كونه أفضلهم تأدباً وأخلاقاً . وكان تنصيب الشيخ يتم عن طريق الانتخاب الحر الذي كان يقوم به أفراد الطائفة . ويعقب تنصيب شيخ الطائفة خطوة ضرورية هي حصوله على موافقة رسمية من قبل الحكومة المصرية وذلك من خلال قرار يصدر في هذا الشأن . ويجدر الإشارة هنا إلى أن منصب شيخ الطائفة كان وراثياً حيث يتعاقب عليه أفراد الأسرة الواحدة ، ويظل مقصوراً عليهم . ونظراً للتبعات والمسئوليات الكثيرة التي تتصل بمنصب شيخ الطائفة ، فكان يتخذ مساعداً كان يلقب بـ «النقيب» الذي كان يعهد إليه بمتابعة وتنفيذ تعليمات شيخ الطائفة[١٩].

ولقد كانت سلطة شيخ الطائفة مطلقة وطاعته والامتثال لأوامره ملزمة وواجبة من قبل أعضاء الطائفة ، كذلك ما كان لأي فرد من أفراد الطائفة حق المطالبة في عزل شيخ الطائفة إلا في حالات نادرة حيث تكون المبررات لهذا الحق قوية . فمثلاً إذا ثبت يقيناً أن شيخ الطائفة قد أساء استخدام السلطات المخولة له . ففي هذه الحالة يجوز أن يتفق الحرفيون فيما بينهم على عزل شيخ الطائفة وانتخاب بديلاً له من بين الأسطوات ممن تتوفر فيهم أهلية المشيخة[٢٠]، وفيما يتعلق بالمسئوليات والواجبات التي يقوم بها شيخ الطائفة نوجزها فيما يلي مقسمة تبعاً لكل مجال من مجالات النشاط داخل تنظيم الطائفة .

فمن المنظور الاجتماعي، ينهض شيخ الطائفة بالمسئوليات الآتية : (١) مساعدة فقراء الطائفة وتوفير فرص العمل للعاطلين منهم ؛ (٢) التدخل لفض النزاعات التي قد تنشب بين أفراد الطائفة واستخدام سلطاته في معاقبة كل من يخل عن عمد

(١٩) عبد الباسط حسن ، علم الاجتماع الصناعي ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ ؛ انظر أيضاً : إميل شنودة ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٢٠) عبد الباسط حسن ، مرجع سابق ، ص ١٣٤.

بتقاليد الحرفة ؛ (٣) إقامة علاقات شخصية وطيدة بين الطائفة والطوائف الأخرى لضمان السيطرة على سوق العمالة الحرفية وضمان اتصافها بالثبات والاستقرار .

ومن المنظور المهني تتمثل أدوار شيخ الطائفة في القيام بالأدوار التالية : (١) المحافظة قدر الطاقة على أهداف الطائفة وعلى وحدتها وتقوية الروابط بين أفرادها؛ (٢) تحديد أجور أفراد الطائفة ؛ (٣) إصدار صكوك أو مكتوب يحدد الأجر اليومي للحرفي في حالات العمل بنظام المقطوعية حيث يحصل طالب الصك عليه بناء على طلب مسبوق بهذا الخصوص[(٢١)]؛ (٤) إجازة وإقرار ترقية أعضاء الطائفة من مستوى إلى آخر . فهو يجيز ترقية الصبي إلى صانع والصانع إلى «اسطى» أو «معلم» ولابد للشيخ أن يقر لهما بتلك الترقية ؛ (٥) الرقابة على عمليات شراء المواد الخام المطلوبة للطائفة ؛ (٦) تحديد عدد الصبية الذين سيتم إلحاقهم بالعمل لتعلم الحرفة كما كان يحدد أسماء " الأسطوات " الذين سوف يتولون تدريب هؤلاء الصبية .

من المنظور الإداري والإشرافي ، يمارس شيخ الطائفة السلطات التالية : (١) يعتبر مسؤولاً أمام الأجهزة الحكومية عن كل الموضوعات التي تتعلق بشئون طائفته؛ (٢) جمع الضرائب المفروضة على أهل الحرفة وتسليمها إلى مسؤول الحكومة ؛ (٣) يحق له أن يطلب من الأجهزة الحكومية المعنية معاقبة أو حبس المخالفين من أفراد طائفته إذا ثبت له أن الحرفي قد تقاضى أجراً باليومية لا يتساوي مع المنصوص عليه كتابة بمعرفة الشيخ ؛ (٤) معاقبة من يقوم بإنتاج سلع رديئة وذلك بالطرد المؤقت للمهمل خارج نطاق الطائفة ؛ (٥) له حق إرجاع الصبي الآبق إلى إمرة معلمه . كما كان له حق نقل الصبي من إمرة معلم إلى إمرة معلم آخر . ولا يجوز للصبي أن يترك معلمه دون موافقة شيخ الطائفة ؛ (٦) فرض عقوبات على كل من ينقل أسرار الحرفة إلى من هم خارج عمالة الطائفة ذاتها ولأن مثل هذا التصرف يعتبر مخالفة صريحة لأخلاقيات الحرفة .

---

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٣٣.

(٢٢) إميل شنودة ، مرجع سابق ص ص ٣٢ - ٣٦ ؛ أنظر أيضاً : على اسلام الفار ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ ؛ ومحمد فهيم ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

٢ - أدوار «المعلم» أو «الأسطى» : يعتبر الدور الذي تقوم به فئة «المعلمين» أو «الأسطوات» أكثر الأدوار الحرفية اتصافاً بالمهارة اليدوية والخبرة الفنية الطويلة . ويرجع إلى هذا الدور الفضل الأول فيما يحظى به «المعلم» أو «الأسطى» من مكانة حرفية متميزة بين أقرانه ومساعديه . وتلى مكانة «الأسطى» مكانة شيخ الطائفة مباشرة. كما أن «المعلم» يستمد من مكانته الحرفية العالية سلطاته على باقي أفراد الطائفة الذين هم دونه في المكانة المهنية . وإذا كان التوارث المهني يلعب دوراً أساسياً في مكانة شيخ الطائفة ، فعلى النقيض ، نجد أن المكانة الحرفية للمعلم لم تقم على صلات القربى أو التوارث أو الثروة . بل يتبوؤها «الأسطى» بفضل اجتهاده وعرقه وكدّه . ويعتمد علي مهارته اليدوية وخبرته الطويلة في النشاط الحرفي .

ويقوم «الأسطى» بالأدوار التالية : (١) يشارك العاملين تحت إمرته في العملية الإنتاجية يداً بيد ، ويقوم بالأداء الكلي للعملية الإنتاجية معتمداً في ذلك على خبرته الفنية الطويلة ووقوفه على جميع دقائق وأسرار الحرفة ؛ (٢) يراقب ويوجه أساليب وطرق أداء العملية الإنتاجية لكل من يعمل تحت إمرته ، مثله في ذلك شيخ الطائفة ، فالأسطى هو كبيرهم ومعلمهم والمسؤول عن أدائهم ؛ (٣) يباشر الإشراف والرقابة على تدريب الصبية وأدائهم وسط بيئة عمل تتصف بالود والعلاقات الأبوية وهذا من شأنه قد يجعل من حل المشكلات التي تواجه الصناع مجالاً لاكتسابهم خبرات متجددة ، كما تصقل مواهبهم الذاتية ؛ (٤) يقف إلى جانب من هم تحت إمرته من الصناع ويساعدهم في حل مشكلاتهم الاجتماعية والأسرية كما يشاركهم في مختلف المناسبات الاجتماعية؛ (٥) يقوم على تعليم الصبية وتدريبهم على فنون الحرفة والاطلاع على أسرارها . وقد تبلغ علاقته بهم حداً يماثل علاقة الأب بأولاده فيشملهم برعايته وقد يؤوى بعضهم إليه ليقتسم الغرفة مع أبنائه في المنزل ، ويوفر لهم الطعام والملبس . وبعد أن يشب الصبي عن الطوق بعد فترة التدريب التي يقضيها ، ينهل خلالها من خبرات معلمه يصبح الصبي مطيعاً لمعلمه مقلداً له في أسلوب العمل ، كما يتخذ من معلمه المثل الأعلى والقدوة في حياته العملية داخل الطائفة وخارجها .

(٢٣) حسن الساعاتي ، علم الاجتماع الصناعي ، مرجع سابق ، ص ٢٠ .

٣ - **أدوار الصبية** : خلال الفترة الأولى من الالتحاق بالطوائف ، كان يوكل إلى الصبي الأعمال الهامشية والخدمية التي لا تتصل بالعملية الإنتاجية بشكل مباشر. فقد كان الصبي يقوم بتنظيف وكنس مكان العمل . كما كان يقوم بإحضار كل ما يطلب منه شراؤه للعاملين . وأحياناً كان يقوم بخدمة أهل شيخ الطائفة .وخلال الفترة الثانية يبدأ تدريب الصبي على الأعمال اليدوية البسيطة. وتبدأ عملية التدريب بالملاحظة . حيث يبدأ الصبي في ملاحظة «المعلم» وأثناء خطوات تنفيذ العملية الإنتاجية . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة محاكاة الصبي لكل ما لاحظه وتعلمه من المعلم . ويبدأ في أداء أدوار فنية صغيرة تحت إشراف المعلم وتوجيهاته . وبعد فترة قد تطول لسنوات يكون الصبي من خلال عملية الممارسة العملية والملاحظة المباشرة ،قد تعلم فنون الحرفة وأسرارها . وقد يلحظ الصبي مدى تقدمه ومهارته في العمل من خلال ما قد يسمعه من تعليقات معلم الحرفة حول ما يقوم به من عمل . ومع استمرار أدائه الكامل للعملية الإنتاجية يستأذن الصبي معلمه في الترفيع داخل الطائفة . ونظراً للمعايير التي تحكم عملية الترفيع في نظام الطوائف ، يجب على الصبي أن يتبع خطوات محددة وثابتة تنتهى بالاحتفال الرسمي وحصوله على إجازة مزاولة العمل الحرفي والترفيع لمرتبة المعلم.

كانت الصبية تمثل المستوى الأدنى داخل التدرج الوظيفي لتنظيم الطوائف . أيضاً كانت الصبية بمثابة القاعدة الأساسية للعمالة الحرفية حيث تمد نظام الطوائف بالطاقة البشرية والتي تعتبر عصب الإنتاج الحرفي وركيزته الأساسية ، ومن ثم يولى شيخ الطائفة اهتماماً كبيراً بفئة الصبية فيتعهدهم بالرعاية الاجتماعية ويتولى مراقبتهم ومتابعة مدى استيعابهم لفنون الحرفة أثناء فترة تدريبهم .وتعتبر مسؤولية تدريب الصبية من اختصاص الأسطوات . حيث يقوم شيخ الطائفة بتوزيع هؤلاء الصبية بأعداد متساوية وفقاً لخبرتهم على الأسطوات . وقد يستغرق تدريب الصبية فترة من الوقت قد تصل في معظم الأحيان إلى سبع سنوات أو أكثر وغالباً لا يتقاضى الصبي أجراً خلال تلك الفترة .

وبعد انقضاء فترة التدريب وقد أصبح الصبي أهلاً للترقي ، فقد ينعم عليه بلقب «العريف» وهذا يعني أن الصبي صار يعرف الكثير من فنون الحرفة وأسرارها . قياساً بباقي الصبية . ولا يرتبط بمنح لقب «العريف» حراكاً رأسياً للصبي ، بل كانت تحقق له المزايا التالية : (١) إشراك الصبي في بعض الأنشطة الحرفية للمرة الأولى في حياته . كأن يوكل إليه مراقبة جودة السلعة في الأسواق والتأكد من عدم وجود منافسة للسلع الحرفية التي تنتجها الطائفة ؛ (٢) كان يتقاضى أجراً زهيداً - في أغلب الأحوال - نظير قيامه بأداء دور حرفي محدود في العملية الإنتاجية . تحت رعاية ورقابة مستمرة من معلمه ؛ (٣) كان حصول الصبي على لقب العريف أماناً لحياته العملية ، فلا يجوز للمعلم أن يطرد العريف قبل انقضاء فترة تتراوح بين ثلاث إلى خمس سنوات . وهي الفترة التي يجب أن يقضيها الصبي الذي نال لقب «العريف» تحت إمرة معلمه ؛ ومن جانب العريف ، فلا يحق له أيضاً خلال تلك الفترة أن يترك معلمه وإن فعل ذلك فلن يجد له معلماً آخر يقبله ؛ (٤) بعد انقضاء فترة العمل كعريف تحت إمرة معلمه يكون له الحق أن يجتاز اختبار الترفيع للمستوى الأعلى داخل تنظيم الطائفة .

ونظير قيام المعلم برعاية الصبي اجتماعياً ومهنياً وتدريبه على فنون الحرفة وأسرارها ، يلتزم الصبي بالواجبات الأساسية التالية : (١) الطاعة الكاملة والامتثال لأوامر المعلم الذي يقوم على إعالته وتدريبه ؛ (٢) لايحق للصبي أن يترك معلمه أو يهرب منه . ولابد أن يوضح لشيخ الطائفة الأسباب التي تدفعه لترك معلمه فإن لقيت عند الشيخ قبولا كان يحقق للصبي ما أراد ؛ (٣) يجوز للمعلم أن يسترد الصبي الآبق دون موافقة الشيخ ، وذلك بالطرق القانونية وعن طريق المحاكم .

وعندما ينضج الصبي مهنياً ويشعر ببراعته ومهارته في عيون معلمه وتقديره لما يتحلى به الصبي من طاعة له وامتثال ، فإنه يرغب أن يجتاز اختباراً ليرقى إلا أن الحياء يغلب على الصبي فلا يستطيع أن يكاشف معلمه بهذه الرغبة . ومن ثم يدفعه هذا الحياء إلى إطلاع "النقيب" عن مكنون صدره ولعلمه بأواصر المودة والروابط القوية التي تربط بين النقيب ومعلمه . وفي حالة موافقة المعلم على وساطة النقيب يقوم

الصبي بإثبات مدى براعته ودقته في الأداء الحرفي وذلك بأن يقوم بإنتاج منتج كامل بمفرده ثم يقدمه إلى معلمه . فإن حاز هذا المنتج قبولاً عند المعلم ووافق عليه ، يقوم المعلم بجمع أقرانه في الحرفة للتقويم الجماعي لهذا المنتج والحكم على مدى خبرة ومهارة الصبي . كما يتبع العريف الطريقة ذاتها عندما يرغب أن يكون معلما . وفي كلتا الحالتين كان التقويم بالموافقة على ترقية الصبي أو العريف يتم في موكب باهر أشبه ما يكون بحفل «شد الولد».

ثانيا : الطوائف الحرفية في مصر بين النشأة والاندثار

كان لزاماً علينا ونحن بصدد دراسة قضية النشأة والاندثار لنظام الطوائف الحرفية في مصر ، أن نعرض في هذا الفصل للخصائص البنائية ولطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة داخل هذا النظام . وذلك بقصد استجلاء واستخلاص بعض النقاط الهامة التي قد تدعم المناقشة النقدية لتلك القضية والتي تضاربت حولها الأقوال والاتجاهات من جانب علماء العلوم الاجتماعية ولعل من أهم تلك النقاط ما يلي :

١ - أن نمط العلاقات الاجتماعية في مجال العمل داخل نظام الطوائف ، كان أشبه بنمط العلاقات الأولية السائد داخل الأسرة المصرية التقليدية . فقد كان هذا النمط يخلو من أشكال الصراع القائم على المصلحة . وكان يغلب على شبكة العلاقات في نظام الطوائف ، روح الصداقة وأواصر المحبة والاحترام المتبادل والطاعة بين الرئيس والمرؤوس . ومن ثم خلت طبيعة الأداء الحرفي في موقع العمل من جميع أشكال الاغتراب .

٢ - كان نظام الطوائف إفرازاً طبيعياً للثقافة المصرية التقليدية ، كما كان يستمد من روافد تلك الثقافة قوته واستمراريته وشعبيته الكبيرة .

٣ - كانت الطوائف الحرفية نظاماً اقتصادياً وطنياً صرفاً ، يحقق رغبة الغالبية العظمى من أفراد المجتمع المصري ويستوعب طموحات الفقراء منهم ويحقق متطلباتهم. فلا مناص أن يهيمن هذا النظام على سوق العمل الصناعي التقليدي في مصر بل ويتحكم أيضاً في مدخلاته ومخرجاته .

٤ - آلت السلطة وأساليب التحكم في العمالة والإنتاج والتسويق داخل نظام الطوائف إلى شيخ الطائفة . ومن ثم فإننا نتوقع بقدر ما يتقلص دور شيخ الطائفة يتقلص الدور الاقتصادي لهذا النظام ،تتعرض البنية الاجتماعية لتحولات قد تهدد نظام الطوائف بأكمله .

٥ - يرتبط كل من استقرار وفعالية الدور الاقتصادي لنظام الطوائف باستقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية للمجتمع المصري . ولقد كان للمؤازرة والحماية التي كانت تحظى بها طوائف الحرفيين من قبل الحكومة، الدور الهام في نجاح الدور الاقتصادي وزيادة فعالية الطوائف على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي .

ومن خلال المناقشة التالية لأهم الآراء والاتجاهات التي تناولت قضية النشأة والاندثار للطوائف الحرفية في مصر ، يمكن أن نضع أيدينا على أهم عوامل الاندثار تأسيسا على النقاط الخمس السابقة .

١ - حول نشأة نظام الطوائف الحرفية في مصر

يرى بعض علماء العلوم الاجتماعية أن نظام الطوائف في مصر يعتبر امتداداً طبيعياً لنظام الإنتاج العائلي ، وعلى غرار ما حدث في المملكة المتحدة . وفي بادىء الأمر ، كان نظام الإنتاج العائلي قاصراً على سد الاحتياجات الأسرية كما كانت عمليات البيع والشراء تقوم على نظام المقايضة في أسواق القرى . ولقد تطور الإنتاج العائلي مع مرور السنين بحيث تخصصت كل أسرة في إنتاج سلعة معينة . فالأسر التي تشتغل بغزل الصوف باستخدام مغازل داخل الأسرة ، تقوم باستلام كمية محدودة من التاجر لغزلها ثم إعادتها إليه بعد الانتهاء منها وذلك مقابل أجر كان يتم الاتفاق عليه بين التاجر ورب الأسرة ،ولقد كان لتقلبات السوق الصناعي ولحالات الكساد التي تؤثر على سوق العمالة أكبر الأثر في ظهور الطوائف . فعندما يحدث كساد لصناعة ما ، كان عمال تلك الصناعة يجتمعون،بعضهم مع بعض لبحث أحوال العمل وظروف معيشتهم.

ومن خلال تكرار تلك الاجتماعات استطاع العمال أن يكونوا طوائف وجماعات حرفية تدافع عن مصالحهم (٢٤)

ولما كان رب الأسرة في نظام الإنتاج العائلي يتولي كافة المسئوليات ويمارس جميع السلطات على أفراد أسرته والعاملين تحت إمرته في ظل هذا النظام ، فإن الطاعة والامتثال لأوامره والولاء له واجب على جميع هؤلاء الأفراد ولكن دون قهر أو قسر بل عن اقتناع وقبول ورضاء من جانبهم . وبفرض أن نظام الطوائف قد نشأ من خلال نظام الإنتاج العائلي ، فقد اكتسب معظم خصائصه البنائية وطبيعة العلاقات الأولية التي يتصف بها نظام الإنتاج العائلي .

أيضاً ، إذا كان أصحاب الاتجاه الأول قد أشاروا إلى وجود تماثل في النشأة لنظام الطوائف بين مصر وبعض دول أوروبا . فعلى النقيض ، نجد كثيراً من الجدل قد أثير حول تاريخ نشأة نظام الطوائف في مصر . فقد تناول عدد من المؤرخين من أمثال الجبرتي، ابن إياس ، وعدد من علماء الحملة الفرنسية على مصر ، طوائف الحرف في مصر . كذلك تناولها بعض علماء العلوم الاجتماعية أمثال جبرائيل بير Bear (١٩٦٤)، ماك كون Mc Coon ولقد جاءت إسهامات هؤلاء العلماء متباينة حول تاريخ نشأة الطوائف في مصر . ومن ذلك التباين ، نجد أن بعض الباحثين مثل ماك كون Mc Coon يزعمون أن مصر قد أخذت نظام الطوائف الحرفية من تركيا (٢٥) من جهة أخرى يرى كروشيلي Crouchley (١٩٣٨) أن مصر عرفت نظام الطوائف الحرفية منذ النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي حتى بداية القرن التاسع عشر (٢٦). وأما الفريق الثالث من الباحثين ، فيزعم أن ظهور الحرف في شكل طوائف لها لوائحها المنظمة في مصر ، يرجع إلى العصر الأيوبي . ففي خلال هذا العصر ، انتظم أرباب الحرف في نقابات لهم وبعد ذلك استمرت الطوائف تمارس نشاطها الاقتصادي المتنوع كنظام يتصف

(٢٤) حسن الساعاتي ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

(٢٥) إميل شنودة ، مرجع سابق ، ص ٣١.

(26) A. Grouchley, The Egyptian Development of Modern Egypt, Longman Green and Co., New York, 1938, p. 10, 24.

بالاستقرار والنشاط إبان العصر المملوكي . ويرجعون سبب الاستقرار وازدهار النشاط الحرفي للطوائف خلال العصر المملوكي إلى اهتمام الأمراء بالصناعة واعتبارها مصدراً من مصادر قوة حكمهم . ولقد بلغ الاهتمام بالطوائف الحرفية . أن حرص الأمراء في حفلات الزفاف وعند خروجهم في مواكب الزينة للتباهي بالجاه والقوة ، أن تصحب مواكبهم خروج أصحاب الحرف بعربات مزينة تحمل بداخلها باقي أعضاء الطائفة (٢٧).

وإذا ما قورنت الاتجاهات الثلاثة السابقة بما أوردته موسوعة العلوم الاجتماعية في مجلدها السابع عن الطوائف الحرفية في مصر لتبين لنا صواب عدم الأخذ بالاتجاهات الثلاثة في تحديداتها لتاريخ نشأة الطوائف الحرفية حيث تتضمن موسوعة العلوم الاجتماعية رأيين هامين : أولهما أن الطوائف قد انتشرت خلال العصر الروماني في كل من مصر وآسيا الصغرى ودول ما بين النهرين ؛ وثانيهما يرى احتمالا لم يؤكده بالدليل القطعي أن مصر قد شهدت تنظيمات مستقلة للحرف ذائعة الصيت فترة ماقبل الحكم الإغريقي وأن من أمثلة تلك التنظيمات : الكتبة ، السكرتارية ، الملاحظون ، صانعوا الذهب ، النجارون وأيضاً بعض أرباب الحرف الأخرى (٢٨).

٢ – قضية اندثار نظام الطوائف في مصر

لما كان ازدهار نظام طوائف الحرف في مصر ، يعتمد على ما تتمتع به الدولة المصرية من استقلال واستقرار سياسي واجتماعي ، فإن حركة التاريخ الاجتماعي لمصر ولقرون عديدة ، كانت تتصف بالدينامية العالية وعدم التجانس . من ثم فقد تعرضت الصناعات الحرفية لحالات من التدهور والاضمحلال تارة ، والازدهار والنماء تارة أخرى. ولقد تباينت الإسهامات العلمية في تناولها لتلك القضية لاسيما تلك الإسهامات التي

---

(٢٧) اميل شنودة ، مرجع سابق ، ص ٣١.

(28) San Nicolo Mariano "Guilds in Antiquity: Ancient Mesopotania and Pharaonic Egypt". in Encyclopedia of The social Scienses Vol. 7 11th edition, 1954, p. 204, 205.

اهتمت بحركة التاريخ الاجتماعي لمصر بدءاً من حكم محمد علي.وتكتسب قضية اندثار نظام الطوائف في مصر ، أهمية كبيرة عند علماء الاجتماع لعدة اعتبارات من بينها :

١ - كان نظام الطوائف الحرفية مصدراً للكسب ، يضم الكثيرين من الفقراء المصريين الذين يشتغلون بالعديد من الحرف خلال القرن التاسع عشر الميلادي . ولما كانت غالبية سكان مصر من الفقراء فإن ما قد يصيب نظام الطوائف من كساد أو اضمحلال ، تصحبه أضرار بالغة لشريحة عريضة من الشعب المصري . ويصف لنا علي باشا مبارك (١٨٢٤ - ١٨٩٣) عدد طوائف مصر وحجم العمالة المشتغلة بها فيقول :

«وعدد طوائف المحروسة مائة وثماني وتسعون طائفة أصحاب حرف وصنائع متنوعة وعدد الشغالة بتلك الحرف والصنايع ثلاثة وستون ألفاً وأربعمائة وسبعة وثمانون شخصاً ... والبرابرة نحو ألف وخمسمائة شخص والخدامون نحو ألفين وخمسمائة وباقي الطوائف عبارة عن تجار وصيارف وكتبة وباعة ودلالين ومداحين وغسالين ونحوذلك وطائفة الفعلة تبلغ نحو ثلاثة آلاف شخص ولكل طائفة شيخ ومخاترة ونقباء وأسماؤهم مقيدة في المحافظة والدائرة البلدية وطائفة المزينين تزيد على ذلك وقيد أسمائهم في مجلس الصحة وعددهم يزيد وينقص بالنسبة لكبر تعداد الطائفة وصغره والمشايخ هم الذين يرجع إليهم في طلبات الحكومة وتوزيع الفرص وتقديرها..»(٢٩).

٢ - يعتبر نظام الطوائف من خلال أدواره الاقتصادية والاجتماعية إحدى آليات التغير الاجتماعي في المجتمع التقليدي كما يعتبر أيضا مظهراً من مظاهر الثقافة المصرية التقليدية .

وعندما نتفحص كل ما كتب حول قضية اندثار الطوائف الحرفية في مصر سوف نجد العديد من الاتجاهات العلمية المتناقضة في رؤيتها لتلك القضية ، ويسوق كل اتجاه منها مبرراته وأسانيده التي تدعم ما ذهب إليه ويمكن تصنيف تلك الاتجاهات إلى:

(٢٩) علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، مرجع سابق ، ص ٩٩، ١٠٠ .

الاتجاه الأول ، يذهب أصحاب هذا الاتجاه أن انهيار نظام الطوائف ترجع أسبابه للمطامع والدسائس السياسية بين حكام مصر خاصة في عهد المماليك وكذلك إلى أطماع المستعمرين الذين غزوا مصر متعاقبين . وقيام هؤلاء المستعمرين خلال فترة حكمهم بفرض الضرائب الباهظة على أصحاب الحرف بشكل خاص . فيصف علي باشا مبارك حالة أرباب الطوائف في مصر فترة الاحتلال الفرنسي لها وبالتحديد ما حدث للطوائف عام ١٢١٩ هجرية فيقول :

«وفي شهر صفر من سنة تسع عشرة وزعت على أرباب الحرف والصنائع خمسمائة كيس فضجوا مع ما هم فيه من وقف الحال وأصبحوا لم يفتحوا الدكاكين وحضر منهم طائفة إلى الجامع الأزهر ومر الأغا والوالي ينادون بالأمان وفتح الدكاكين وفي تاني يوم تجمع الكثير من غوغاء العامة والأطفال معهم طبول وصعدوا إلى منارات الجامع الأزهر يصرخون ويطبلون وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ووصل الخبر إلى الباشا فأرسل إلى السيد عمر النقيب يقول إنَّا رفعنا عن الفقراء فقال السيد عمر أية هؤلاء الناس وأرباب الحرف كلهم فقراء وكفاهم ما هم فيه من قحط ووقف الحال فكيف تطلب منهم مغارم ... فرجع الرسول بذلك ثم عاد بفرمان يتضمن رفع الغرامة عن المذكورين بذلك فاطمأن الناس ...» (٣٠).

الاتجاه الثاني ، ويتزعمه عدد من الباحثين وذلك من خلال تحليلهم للظروف الاجتماعية والاقتصادية في مصر إبان حكم محمد علي . حيث يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن سياسة الاحتكار التي انتهجها محمد علي كانت من أهم أسباب تدهور الطوائف الحرفية في عهده . فمن خلال سياسة الاحتكار ضمن محمد علي السيطرة على الصناعات الحرفية وجذب الكثيرين من الحرفيين وأرباب الحرف للعمل في المصانع الكبيرة التي أقامها محمد علي . ويستند بعض أصحاب هذا الاتجاه إلى وصف عبد الرحمن الرافعي لتقهقر الصناعات الصغيرة في عهد محمد علي ، بقوله :

---

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٣٦.

« إن الكلام عن الصناعة في عهد محمد علي يقتضي التمييز بين الصناعات الكبري والصناعات الصغرى ، أما الصناعات الصغرى فيمكن القول إجمالاً بأنها تقهقرت في هذا العهد بسبب نظام الاحتكار فإن الاحتكار قد شمل الصناعات التي كانت قائمة وهي الصناعات الصغرى فأضرّ بها وبأصحابها ضرراً كبيراً وأما النهضة الصناعية التي حدثت في ذلك العهد فهي نهضة الصناعات الكبري التي استحدثها محمد علي بانشاء الفابريقات أي المصانع الكبيرة التي تدار بالآلات » (٣١).

أيضاً يضيف بعض الباحثين من أصحاب هذا الاتجاه ، عاملاً آخراً بالإضافة إلى قيام محمد علي بإنشاء المصانع الكبيرة ، وهو أنه قد سعى إلى التدخل في شئون الصناعات الصغيرة القائمة وذلك بالسيطرة على عملية الإنتاج . فقد كان محمد علي يقوم بمراقبة ومتابعة حجم المواد الخام المستخدمة وكذلك حجم المنتج النهائي ويعتمد هؤلاء الباحثون في زعمهم هذا على وثيقة تاريخية تتضمن أمراً من محمد علي إلى حاكم المنوفية صادرة بتاريخ ٢٣ من ذي القعدة عام ١٢٣٤ هـ الموافق ١٤ سبتمبر عام ١٨١٨ م ، وفيما يلى نص الوثيقة :

« فهم من مكاتبة الآتي ناظر الأصناف (المراد بالأصناف أنواع الزراعة التي كان يحتكرها محمد علي وهي الكتان والتيلة والقطن والحنطة والشعير) أنه لغاية الآن لم ينزل كتانا إلى شون الخيط ، فيا عمر بك حيث أن ارادتنا هي الاعتناء بمصلحة الأنوال هذه ، فعند وصول مكاتبتنا واطلاعكم عليها ، بأن مطلوبنا السعي لتشغيل الكتان الذي ينزل في شون الخيط بمعرفة المأمورين بلا انقطاع وتقسيم الكتان المنزل في الأنوال ينسجها قماشاً وأن تعرفونا بواسطة ناظر الأنوال في كل شهر عن مقدار الكتان الذي أعطى ومقدار الذي صنع خيوطاً منه ، ومقدار الأقمشة التي نسجت ، بادروا للعمل على الوجه المحرر » (٣٢).

---

(٣١) هذا الاقتباس ورد في : على إسلام ، علم الاجتماع الصناعي ، مرجع سابق ، ص ١٠٨.

(٣٢) هذا الاقتباس ورد في : إميل شنودة، تاريخ التعليم الصناعي حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق ، ص ١٢٦.

وبالإضافة إلى الأدلة السابقة التي استند إليها أصحاب الاتجاه الثاني القائل بأن سياسة محمد علي كانت السبب الرئيسي في انهيار نظام الطوائف ، نجد أدلة إضافية قد تدعم في ظاهرها أصحاب هذا الاتجاه منها ما أورده الجبرتي وآخرون حول بعض الطوائف الحرفية في مصر . فمن بين ما يذكره الجبرتي أن طائفة عمال النسيج قد ألغيت بناء على قرار من محمد علي . من جهة أخرى ، نجد أن علي باشا مبارك يذكر تلك الطائفة من بين تصنيفه لطوائف المحروسة والتي سبق الإشارة إليه . فيذكر على مبارك أن عدد عمال طائفة النسيج كان يبلغ (٥٨٥) فرداً خلال السبعينيات للقرن التاسع عشر .

ومن جهة نظرى ، فإن ما ذهب إليه أصحاب الاتجاه الثاني بزعمهم أن سياسة محمد علي الاحتكارية كانت السبب الرئيسي في تدهور نظام الطوائف ، لم يقم على أدلة كافية قد ترجح هذا الزعم . أيضا فإن تجربة محمد علي الصناعية لم تستغرق سنوات طويلة بل لفترة لم تتجاوز - على حد قول معظم الباحثين - عشر سنوات . فهل يمكن لمؤثرات تلك التجربة أن توهن من قوة نظام الطوائف الممتد تاريخه عبر مئات السنين ؟ كذلك ، فإن التغيرات الاجتماعية التي صاحبت سياسة الاحتكار ، رغم قوة تأثيرها على بنية النظام الاقتصادي في مصر فإن تأثيرها على طوائف الحرف كان محدوداً من وجهة نظري للأسباب التالية :

١ - لم يكن في صالح محمد علي أن يثير غضب علماء الأزهر وكذلك زعماء الطوائف الدينية (مثل طائفة الشرقاويين التي جاء ذكرها في الخطط التوفيقية) . خاصة وأن محمد علي كان يسعى إلى الاستقلال بحكم مصر بعيداً عن سيطرة والى تركيا .

٢ - كانت طوائف الحرف تضم أعداداً كبيرة من أفراد الشعب المصري الذي كان غالبيته من الفقراء: ولنفس الهدف السابق الذي ذكرناه فليس من الحكمة أن يسعى محمد علي لإثارة غالبية أفراد الشعب ضد سياسته .

٣ - كذلك معظم الطوائف تمارس نشاطها في الحضر . ولم يكن الحضر هو محور اهتمام محمد علي في تحقيق أطماعه ، بل كما يذكر الباحثون ، إنه صرف معظم اهتمامه نحو القطاع الزراعي بتطويره وتحديثه إلى جانب اهتمامه بالتحديث الصناعي .

٤ - أن سياسة الاحتكار تركزت على التحديث الصناعي بما يخدم الأهداف العسكرية من صناعات حربية إلى جانب بعض الصناعات الخدمية مثل الملابس وغيرها . ومن ثم يمكن القول إن بعض الأنشطة التي تمارسها طوائف الحرف قد تأثرت بتلك السياسة مثل صناعات الغزل والنسيج والملبوسات أما غالبية طوائف الحرف لم يكن هناك سبب أو مبرر منطقي للقضاء عليها أو منافستها من جانب حكومة محمد علي وسياسته الاحتكارية .

٥ - لم تكن التأثيرات غير المباشرة لسياسة الاحتكار ذات فعالية للدرجة التي توهن من نظام الطوائف . الذي كان من أهم أسباب تماسكه عدم وجود صراعات طبقية من أي نوع بين الفئات المكونة للبنية الاجتماعية لهذا النظام حتى مستوى الصبي .

الاتجاه الثالث : ويتزعمه كل من جبرائيل بير ، وكروشلي وآخرون . يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى رفض الاتجاه الثاني الذي يزعم أن سياسة محمد علي قد دمرت نظام الطوائف وعلى سبيل المثال ، نجد أن بير (١٩٧٦) يدافع عن وجهة نظره ويسوق عدداً من الأدلة التي نراها مقبولة إلى حد بعيد ، ومن خلال مساهمات بير حول تاريخ الطوائف الحرفية في مصر ، نجد أنه يدحض زعم أصحاب الاتجاه الثاني ، ويقيم الحجج على ذلك على النحو التالي :

إن الثورة الصناعية في عهد محمد علي وما يدعيه بالتحول الكامل في طريقة الإنتاج قد أثرت على الطوائف الحرفية وأعضائها . وإن أساس ذلك يرجع إلى التجارة الأجنبية التي احتكرها محمد علي . كما أنه قد سعى إلى جمع الفلاحين وليس سكان المدينة للعمل في مصانعه ، ويمكن القول إن تأسيس محمد علي لصناعاته الحديثة لم يؤثر على الغالبية العظمى من أعضاء الطوائف الذين لم يكن لهم أية ارتباطات بعمال

المصنع الحديث (٣٣). أيضا يضيف بير عدداً من الحجج التالية التي تدعم وجهة نظره نوجزها فيما يلي :

١ - أن السياسة الصناعية التي انتهجها محمد علي ، قد استحدثت أنشطة جديدة لم تكن سائدة في المجتمع المصري .وكانت تحتاج لخبرات علمية ودورات تدريبية. ومن ثم لم تحقق تلك الصناعات أي مجالات للمنافسة في سوق الإنتاج التقليدي الذي تسيطر عليه طوائف الحرف . ومن أهم الصناعات الحديثة التي أنشأها محمد علي صناعات السكر ، التبغ ، بودرة البارود ، الألبان ، الصناعات المعدنية ، النسيج وأيضاً مسابك الحديد .

٢ - أن سياسة التصنيع قد واكبها هجرة العديد من العمال الزراعيين الذين هجروا الريف هرباً من شظف العيش بالقرية ومن الارستقراطية الزراعية ونظام السخرة المطبق على الفلاحين للعمل في المدينة حيث المصانع التي أنشأها محمد علي . من ثم كان معظم عمال المصانع من الفلاحين بينما كانت غالبية المشتغلين بالطوائف الحرفية من الحضريين .

٣ - على الرغم من قيام محمد على بتجنيد بعض أفراد الطوائف للعمل في المصانع الجديدة فإن عدد هؤلاء الأفراد لم يكن بالكثرة التي تهدد نظام الطوائف الحرفية بالتوقف . كما أن ذلك لم يواكبه إلحاق خسائر فادحة في الدور الاقتصادي لهذا النظام .

٤ - أن طوائف الحرف ظلت تمارس نشاطها الاقتصادي حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . كما ظل مشايخ تلك الطوائف يؤدون دورهم الرسمي في جمع الضرائب ودفعها للحكومة . كما كان يؤخذ برأي مشايخ الطوائف بالنسبة لتقدير قيمة الضرائب المفروضة . وكذلك كان مشايخ الطوائف يقومون بدورهم تجاه أعضاء الطائفة من تحديد الأجور والوكالة عنهم أمام القضاء والجهات الرسمية .

---

(٣٣) ج. بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، ترجمة وتقديم عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمي الجمال،مكتبة الحرية الحديثة،جامعة عين شمس،١٩٧٦،ص ٣٠١ ، ٣٠٢.

٥ - رغم سيطرة الحكومة في عهد محمد علي على المادة الخام والمنتج النهائي من حيث الكم والسعر والتسويق ، فإن كروشلي يتفق مع بير ، أن الحكومة لم تمارس ضغوطاً إدارية أو غير إدارية على مشايخ الطوائف .ويسوق أصحاب هذا الاتجاه دليلا يدعم زعمهم هذا ، بظهور طوائف جديدة مثل طوائف عتالي الفحم وطائفة مرشدي السفن في ميناء الاسكندرية(٣٤).

ثالثاً : حوار وتعليق

من خلال تناولنا للاتجاهات الثلاثة السابقة ، وكذلك من خلال تفحص التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة بعد فترة محمد علي ، قد نستطيع أن نرجع الاتجاه الثالث على باقي الاتجاهات فيما يتعلق بقضية اندثار الطوائف في مصر ومن جهة أخرى لايمكن أن نرفض الاتجاه الثاني برمته . ومن خلال المناقشة السابقة يمكن أن نستخلص نقطتين هامتين : (١) أن بعض الطوائف وإن كانت قليلة العدد ، فقد تأثرت بسياسة محمد علي الرامية إلى تحديث التصنيع في مصر ؛ (٢) أن محمد علي لم يمارس ضغوطاً على الطوائف الحرفية بقصد إلغائها أو تقليل دورها الاقتصادي .

وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن الكثير من إسهامات العلماء قد اتفقت على أن نظام الطوائف بعد فترة حكم محمد علي ظل قائماً بدوره الاقتصادي كما انضمت إلى هذا النظام طوائف أخرى كالتي ذكرناها في معرض حديثنا السابق وإنني أرى نقطتين أساسيتين يجب الاهتمام بهما عندما نتناول قضية اندثار نظام الطوائف في مصر ، هما : (١) رغم أن محمد على خلال فترة حكمه لم يصدر مرسوماً بإلغاء الطوائف الحرفية ، فإنه أصدر مرسوماً يتيح حرية العمل والانتقال من عمل إلى آخر . وهذا المرسوم قد أثر بشكل حاد من وجهة نظرى في وظائف شيخ الطائفة فقد أفقده السيطرة على العمال . فلم يكن لأحد أفراد الطائفة الحق في الانتقال من عمل إلى آخر إلا بشروط معينة وبموافقة شيخ الطائفة.وبالتالي كان له تأثير غير مباشر على تماسك البنية الاجتماعية

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠٤

وبالتالي على الدور الاقتصادي لنظام الطوائف .(٢) النقطة الثانية، وتتعلق بالتدخل الأوروبي في أواخر عهد محمد علي والفترة التي أعقبته ، لقد كان التدخل الأوروبي عاملاً أساسياً في انهيار نظام الطوائف. فبعد معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، ازداد النفوذ والتدخل الأوروبي في معترك الحياة السياسية والاقتصادية في مصر . وقد واكب هذا التدخل فتح الأسواق المصرية لمزيد من السلع الأوروبية الجيدة الصنع التي باتت تهدد الإنتاج التقليدي لنظام الطوائف والمنتجات والصناعات الحرفية الأخرى المنتشرة في ربوع مصر ، بالتوقف وكساد السلعة الحرفية في الأسواق المصرية .

الفصل الرابع

الثقافة الحرفية بين الثبات والتغير

أولاً : المعايير والأعراف والعادات الاجتماعية داخل التنظيم الحرفي .

ثانياً : نماذج من الثقافة الحرفية في كل من أوربا والهند .

ثالثاً : أخلاقيات العمل الحرفي كما كانت تمارس في ظل نظام الطوائف الحرفية

رابعاً : مؤشرات الثبات والتغير في عناصر الثقافة الحرفية.



الفصل الرابع
الثقافة الحرفية بين الثبات والتغير

المقدمة

يعتبر مفهوم الثقافة Culture من أكثر المفهومات شيوعاً واستخداماً في العلوم الاجتماعية . ولقد تعددت الأقوال والتعريفات حول مفهوم الثقافة لدى العلماء على مستوى التخصص الواحد ومستوى التخصصات العلمية المختلفة . ولكن ما يعنينا هنا هو أن نستقر على تعريف يتفق منهجياً مع أهداف هذا الفصل ، حيث التركيز على الثقافة الحرفية . ولما كان النظام الحرفي - كما تناولناه من قبل - هو نظام يقوم على الأعراف والمعايير والتقاليد ، فإننا سوف نأخذ هنا بتعريف الثقافة عند بارسونز وسوركين حيث تعتبر الموضوعات الثقافية رمزيات من التقاليد والمعتقدات والأفكار والرموز التعبيرية وأنماط القيم (١).

ويتفق مالينوفسكي في الزعم حول مفهوم الثقافة مع ما ذهب إليه كل من بارسونز وسوركين . فيعرف مالينوفسكي الثقافة أنها تشتمل على المهارات الموروثة ، والأشياء والأساليب أو العمليات الفنية والأفكار والعادات والقيم (٢) .

وما يجدر الإشارة إليه هنا حول فلسفة هذا التعريف أنه قد انطلق من المحاولات الرائدة لأدوارد تايلور لمفهوم الثقافة . فقد حدد تايلور مفهوم الثقافة بقوله :إن الثقافة أو الحضارة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والقانون والأخلاق والعادات والعرف وكافة القدرات والأشياء الأخرى التي تؤدى من جانب الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع (٣).

(1) Duncan Mitchell, A Dictionary of Sociology, Routledge and Kegan Paul, London, 1968, p. 48.

(٢) محمد عباس إبراهيم ، الثقافات الفرعية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ ، ص ٩٩ .

(3) George Theodorson and Achilles Theodorson, A Modern Dictionary of Sociology, Barnes and Noble Books A Division of Harper and Row Publishers, New York, 1969, p. 95.

ويمكن القول إن دراسة الثقافة الحرفية أيسر كثيراً من دراسة كل من الثقافة المهنية Occupational Culture والثقافة التنظيمية Organizational Culture وأيضاً الثقافة الصناعية Industrial Culture والتي تعتبر أشدهم وأكثرهم صعوبة في الدراسة والمعالجة العملية .

فالثقافة الحرفية ليست من بين الثقافات التي تتصف بالتغير بل هي ثقافة فرعية تتصف بالثبات النسبي. فالتنظيم الحرفي لا يتصف بالشلل أو الزمر Cliques وثقافاتهم الفرعية . كما لا تتضمن البنية الحرفية مستويات إدارية ذات أيديولوجيات متباينة عن ثقافة العمال . هذا بالإضافة إلى أن النظام الحرفي يعتمد في تنظيم سير العملية الإنتاجية على الأعراف والتقاليد المتوارثة وليس على اللوائح والتعليمات الرسمية القابلة للتغيير وفقاً لمتطلبات واتجاهات الإدارة العليا أو تبعاً للسياسة العامة.

وسوف نركز في مناقشتنا للثقافة الحرفية في هذا الفصل على أنها إضمامة أنماط السلوك المكتسب ، المهارات التي يكتسبها الأفراد بوصفهم أعضاء في الجماعة الحرفية ، الأدوات والأساليب الفنية المستخدمة في العمليات الإنتاجية ، المعايير ، الأعراف ، العادات الاجتماعية ، الرموز التعبيرية ، القيم ، كموجهات للسلوك وأخلاقيات الحرف التي تتميز بها جماعة الحرفيين دون غيرها من الجماعات الفرعية داخل المجتمع . ومن ثم تشير الثقافة الحرفية إلى السلوك والمعايير والقيم والأخلاقيات المتفق عليها داخل جماعة الحرفيين والتي تكونت وتطورت على مر السنين . وينقسم هذا الفصل إلى أربعة أقسام هي: (١) المعايير والأعراف والعادات الاجتماعية في النظام الحرفي ؛ (٢) نماذج الثقافة الحرفية في أوربا والهند ؛ (٣) أخلاقيات العمل الحرفي كما كانت تمارس في ظل نظام الطوائف الحرفية ؛ (٤)مؤشرات الثبات والتغير في عناصر الثقافة الحرفية .

أولاً : المعايير والأعراف والعادات الاجتماعية داخل التنظيم الحرفي

إن المعيار كما يذكر توني واطسون Tony Watson (١٩٨٠) يعتبر جزءاً من نمط الحياة الاجتماعية[٤]. وهذا المعيار في النظام الحرفي لايتغير ، فطاعة الحرفيين

(4) Tony J. Watson, Sociology, Work and Industry, Routledge and Kegan Parel, London, 1980, p. 13.

لشيخ الطائفة أو لصاحب العمل الحرفي واجبة ، كما كانت طوائف الحرف تحقق نجاحاً أمثل في التزام أعضائها بتعليمات شيخ الطائفة الخاصة بالمنتج الحرفي من حيث الكم والنوعية وطرق أداء هذا المنتج(٥) .

ففي العصور الوسطى كان شيوخ الطوائف الحرفية في أوربا يضعون معايير صارمة للإنتاج يلتزم بها الحرفيون، وكان الهدف من تلك المعايير ،هو ضمان الرقابة علي نوعية المنتج الحرفي ، ومنع وقوع المنافسة بين منتجات الحرفيين وكذلك ضمان وحماية سوق الإنتاج الحرفي(٦) .

كذلك كانت العادات الاجتماعية في النظام الحرفي هي المحك الرئيس لتحقيق الضبط Control عن طريق الثواب والعقاب كأسلوب مقوّم للسلوك المنحرف عما تحدده المعايير الحرفية ، مثال ذلك : حالة الطوائف الحرفية في أوربا إبان العصور الوسطى .
ويقوم النظام الحرفي على ثلاثة أنماط من المعايير سوف نتناولها على النحو التالي :

١ - معايير عامة

(أ) يذكر (لولاني) في وصفه لنظام الطوائف ، بوصفه أحد الأنظمة الاقتصادية التقليدية ، أن الأنشطة الإنتاجية لهذا النظام تنغمس بأكملها داخل التنظيم الكلي للمجتمع .

فالعلاقات بين الشيخ والمعلم والصناع وكذلك تدريب الصبية ، وأجور الحرفيين يتم تنظيمه بواسطة عدد من المعايير والقواعد تحكم كلاً من الطائفة والمدينة التي تحتضنها(٧).

(5) Curt Tausky, Work and Society: An Introduction to Industrial Sociology, F. E. Peacock Publishers INC. Illinois, 1984, p. 24.

(6) Lauri Perman (Ed.) Work in Modern Society: A Sociology Reader, Kendall, Hunt Publishing Company, Dubuque, Iowa, 1986, p. 1.

(7) M. Bursten et al., Candian Work Values: Findings of A Work Ethic Survey and A Job Satisfaction Survey, Department of Manpower and Immigration: Stratigic Planning and Research, Montreal, 1 978, p. 14.

(ب) أن يتناسب نوع العمل الحرفي ومستوى المهارة المطلوبة لأدائه مع مجموعة طاقات العمل الفردي . وهذا المعيار يعتبر إحدى المفهومات الأساسية للنظام الحرفي (٨).

(جـ) يعتمد التدرج المهني داخل بنية النظام الحرفي على المهارة المكتسبة وفترة التدريب للصبي التي قد تطول أو تقصر (٩) .

(د) الإشراف المباشر من قبل معلم الحرفة على أسلوب تدريب الصبية والأداء الحرفي لأعضاء الطائفة الحرفية . وفي هذا الصدد يذكر ولبرت مور (١٩٧٠) أن الطوائف الحرفية تضع المعايير والممارسات لتدريب الصبية كما تحدد أسلوب الترفيع في العمل المهني إذا ما بلغت الكفاية والمهارة اليدوية لدي الفرد الحرفي حداً معيناً ، كما تحدد أيضاً معايير تقوم عليها شبكة العلاقات والارتباطات الفنية بين أعضائها (١٠).

(هـ) أن تكون الأجور محددة طبقاً لمعايير محددة تعتمد على ظروف العمل الحرفي (١١).

٢ - معايير خاصة تتعلق بعمالة الصبية في الطوائف الحرفية

(أ) لا تقبل الفتيات ضمن برامج تدريب الصبية .

(ب) يتم تدرج دور الصبي داخل موقع العمل الحرفي . حيث يلزم إسناد بعض الأدوار البسيطة والهامشية للصبي خلال مراحل التحاقه الأولى بالعمل . مثل الكنس ، النظافة ، حمل الأدوات ، شراء ما يلزم عمال الحرفة ، وأحيانا قد يعمل خادماً لعائلة

---

(٨) چورج فريدمان ، بيار نافيل وجابه رينيه تريالتون . رسالة في سوسيولوچيا العمل ، الجزء الأول، ترجمة بولاند عما نوئيل ، من منشورات عويدات - بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٢٨٩.

(٩) المصدر نفسه ، ص ٢٩١.

(10) W. Moore and G. Rosenblum, The Professions: Roles and Rules, Russell Sage Foundations, New York, 1970, p. 114.

(١١) رمزي زكي ، التاريخ النقدي للتخلف : دراسة في أثر نظام النقد الدولي على التكوين التاريخي للتخلف بدول العالم الثالث ، عالم المعرفة العدد ١١٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٧ ، ص ٥٠.

رب الحرفة أو «المعلم» ، وبعد فترة يقدرها «المعلم» تبدأ فترة التدريب التدريجي للصبي على العملية الإنتاجية . وفي هذه الحالة تكون مسؤولية شيخ الطائفة أو «المعلم» أحياناً توزيع عدد الصبية بنسب معينة بحيث يتولى كل «معلم» مسؤولية تدريب عدد محدد من هؤلاء الصبية .

(جـ) يحدد شيخ الطائفة عدد الصبية الذين يتم إلحاقهم بالحرفة وأيضا يحدد عدد ساعات عمل الصبية ، والأساليب التي يتحتم على الصبي تعلمها واستخدامها في عملية الإنتاج الحرفية (١٢) .

(د) يلزم «المعلم» تدريب الصبية لفترة من السنوات قد تتراوح ما بين ٣-٥ سنوات.

(هـ) من مسؤولية المعلم توفير كل سبل المعيشة للصبية من إطعام ونوم ويجوز أن يدفع لهم أجوراً زهيدة خلال فترة تدريبهم (١٣) .

(و) يجب على« المعلم» تدريب الصبي وإفهامه كل دقائق وأسرار العملية الانتاجية (١٤).

(ز) يجوز «للمعلم» أن يلحق بالحرفة أي عدد من الصبية من عائلته دون أي قيد أو شرط وهذا يعزز من خاصية التوارث المهني .

(ح) لايجوز ترفيع الصبي إلى عامل حرفي أو معلم إلا بشروط محددة هي :

١ - أن يتأكد «المعلم» من خلال الملاحظة بالمشاركة أن الصبي أصبح ماهراً ومُلماً بأسرار ودقائق الحرفة وأن يلحظ رغبة الصبي في الترفيع ليصبح صانعاً Journeyman. ويقوم الصبي بالتصنيع الكامل دون تدخل من «المعلم» ، لمنتج حرفي مماثل لما يقوم «المعلم» بإنتاجه بحيث تتوافر في هذه العينة جميع المواصفات الفنية التي جرى العرف على اعتمادها تكون العينة من نفس نوع المنتَج الذي تدرب عليه الصبي .

(12) Robert L. Heilbroner, "The Economic Revolution" In Lauri perman (Ed.), op. cit., p. 12.

(13) Tausky, op. cit,. p. 23.

(١٤) رمزي زكي ، مرجع سابق .

ففي طائفة صناعة القبعات مثلاً ، يقوم الصبي بصنع قبعة كاملة ، وكذلك في طائفة الخبازين يقوم الصبي بعمل عجينة كيك جاهزة للأكل ليبرهن بذلك على إتقانه للحرفة وأحقيته في الترفيع (١٥).

٢ - أن يحظى ما أنتجه الصبي من سلعة حرفية بقبول ورضا معلمي الطائفة وشيخها وأيضاً بموافقة الجاويش (١٦).

٣ - أن يقوم الصبي بدفع مبلغ نقدي بمثابة رسم ترخيص يجيز له حق مزاولة الحرفة ، ويقوم شيخ الطائفة بتسليم هذا المبلغ للجهات الرسمية .

٤ - يتعهد الصبي أمام أفراد لجنة الترفيع بالالتزام الحرفي والكامل بقوانين الطائفة ، وذلك من خلال القَسَم (*) الخاص بأخلاقيات الحرفة والذي يتلوه أمام اللجنة (١٧).

٣ - معايير خاصة بتنظيم إجراءات العمل الحرفي

كانت الطوائف الحرفية تنظم ساعات العمل وتضع الضوابط التي تضمن اتباع الحرفيين للتعليمات التالية ، الصادرة بهذا الشأن من قبل شيوخ الطوائف .

(أ) تحددت ساعات العمل اليومي بدءاً من وقت الفجر حتى الغسق .

(ب) كان عدد ساعات العمل تتفاوت حسب التوقيتين الصيفي والشتوي ، فساعات العمل تطول صيفاً وتقصر شتاءً (١٨) .

---

(15) Melvin Kranzberg and Joseph Gies, "Medieval Work: Guilds and The Putting - out System" in Lauri Perman (Ed.) op. cit., p. 3.

(16) Tausky, op. cit., p. 23.

(*) وتجدر الإشارة هنا إلى أن معيار القسم المهني لايزال سارياً بالنسبة لبعض المهن التخصصية Professions مثل مهنة الطب .

(17) M. Kranzberg and J. Gies, op. cit,. p. 3.

(18) Loc., cit.

(جـ) يحظر العمل ليلاً نظراً لعدم توفير الإضاءة الكافية حيث كان الاعتماد على الفتيل الشمعي في الإنارة . والدافع لهذا القيد هو المحافظة على جودة الأداء، وإتقان العمل الحرفي .

(د) يحظر العمل بعد ظهر يوم السبت من كل أسبوع ، كما يحرم أيام الأعياد وأيام الآحاد والمناسبات الدينية . والغرض من ذلك هو ضمان عدالة المنافسة بين الحرفيين (١٩).

(هـ) لايحق للحرفي أن يقوم بإنتاج سلعة من نبت أفكاره بل يلتزم حرفياً بالمنتج المتكرر وخصائصه المتفق عليها . ولايجيز معيار النظام الحرفي إدخال أية تحسينات سواء في أسلوب الإنتاج أو على شكل المنتج الحرفي. وكل من يحاول ذلك من الحرفيين يصطدم بمعارضة صارمة وأسلوب متشدد من أساليب العقاب (٢٠).

(ز) لايجب أن يقع تمايز بين الحرفي ومساعده من حيث المظهر أو الملبس . كما يلزم أن يتبع كلاهما أسلوباً واحداً في الأداء .

(هـ) لايجوز للحرفي أن يغير من حرفته بممارسة حرفة أخرى .

(و) في حالة انتقال الحرفي من ورشة إلى ورشة أخرى فلا يصاحب هذا انتقاص في المكانة المهنية له .

ثانياً : نماذج الثقافة الحرفية في كل من أوربا والهند

١ - الثقافة الحرفية في أوربا

شهدت أوربا نوعين من الطوائف، هما :طوائف التجار والطوائف الحرفية . فكانت طوائف التجار تتخصص في عمليات البيع والشراء للسلع المستوردة . كما كانت تحدد أسواق ومناطق بيع السلع إما داخل صالات تابعة لهم،أو في أسواق محددة . وكانت هذه

(19) Tausky, op. cit., p. 23.

(20) Paul E. Mott, "Industrialization" in Lauri Perman (Ed.), Work in Modern Society, op. cit., p. 21.

الطوائف هي المسئولة عن تحديد عدد ساعات البيع ومواقيتها ، كما كانت تحدد نوعية المشترين ، وكان شيوخ طوائف الحرف التجارية لديهم حق الامتناع عن بيع السلع التي ليست من إنتاج الطوائف الحرفية . أما الطوائف الحرفية - بوصفها الوحدة الرئيسية للإنتاج - كانت تمتلك أساليب الضبط وإحكام السيطرة على كل من كمية ونوعية المنتج الحرفي فضلاً عن مراقبة عمليات البيع والشراء . لتحقيق الضبط والسيطرة ،كان يتم تعيين فرد مسؤول - لكل طائفة - عن الضبط والمراقبة أطلق عليه " الجاويش " كما تشكلت محكمة الطائفة Guild Court والتي كان لها سلطة فرض غرامات على المخالفين من الحرفيين ويحق لها طرد كل من تسبب عن عمد في مخالفة المواصفات المتفق عليها في إنتاج السلعة الحرفية أو في حالة ارتكاب أية مخالفات مماثلة يقر بها شيخ الطائفة [٢١].

ولقد كان الجاويش يقسم قسماً مقدساً بأن يراعى مصالح الطائفة بعناية وألاً يتهاون إزاء أي تصرف خاطيء، كالغش في المنتجات الحرفية ،وأن لا يستثني من ذلك أي قريب أو صديق، وأن يقوم بمنع بيع أو عرض أي سلعة لا تنطبق عليها المواصفات الفنية المتعارف عليها من قبل الطائفة .

أيضاً كانت من وظائف الجاويش مراقبة الكميات المستخدمة من المواد الأولية في إنتاج السلعة الحرفية ، حيث كانت تلك الكميات ونسب خلطها معلنة من قبل شيخ الطائفة ، ولايجوز لأي حرفي أن يغير أو يبدل حتى ولو كان الهدف من هذا التغيير زيادة جودة المنتج الحرفي [٢٢] فمثلاً في صناعة الفتيل الشمعي الذي يستخدم للإنارة، كان الجاويش يراقب الكميات المستخدمة من الشحم الحيواني والشمع والفتيل ، ولقد كانت نسبة خلط المواد الأولية المتعارف عليها هي أربعة أرطال من الشحم الحيواني لكل ربع رطل من الشمع بالفتيل .

أيضاً كان من المحظور على صناع المنتجات العظمية أن يقوموا بطلاء منتجاتهم بالفضة . فمثلاً يحظر عند إنتاج المقابض التي تصنع من العظام ، أن يتم طلاؤها

(21) Tausky, op. cit., p. 22.

(22) George Ritzer and David Walczak, Working: Conflict and Change, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, New Jersey, 1986, p. 10.

بالفضة حتى لاتبدو في ظاهرها كما لو كانت مصنعة من سن الفيل مما يدلس على المستهلكين. بالمثل كانت طائفة بائعى الملابس الجاهزة ، تراقب الحرفيين وتحظر عليهم طى أو كيّ الملابس ؛ مخافة أن يبيع هؤلاء الملابس البالية غشاً للمشترين باعتبارها ثياباً جديدة (٢٣).

وفيما يتعلق بالقيود الملزمة للحرفي في إنتاجه للسلعة دون أي حق له في التعديل أو الابتكار ، نجد في حرفة النسيج مثالاً ظاهراً لتلك القيود التي تفرضها قيم ومعايير الحرفة ، ففي صناعة المنسوجات ، لو أراد الحرفي أن ينسج قطعة من القماش من ابتكاره وإبداعه الشخصي مع مخالفة بعض المواصفات المتفق عليها ، فليس له الحق في أن يضعها على النول إلا بعد حصوله على إجازة وإذن صريحين بذلك ، من لجنة قضاة المدينة . بحيث يعرض الحرفي أمام تلك اللجنة جميع المواصفات من أطوال وإعداد بكرات الخيط التى يرغب في استخدامها . ويلزم لحصوله على إذن بالعمل على النول أن يحصل على موافقة أربعة أفراد من قدامي التجار، وموافقة أيضاً من أربعة حرفيين من قدامي معلمي حرفة النسيج من داخل الطائفة (٢٤) .

وبالإضافة للواجبات السابقة التي كان الجاويش يقوم بها خير قيام ، كانت هناك زيارات تفتيشية مفاجئة يقوم بها من حين لآخر للسلع المعروضة في الأسواق أو أمام الحوانيت الحرفية للتأكد من التزام الحرفيين بالمواصفات الفنية وعدم التطفيف وبخس الميزان عند البيع (٢٥).

ولقد تضمنت سلطات الجاويش أيضاً، قيامه بتفتيش منازل من تدور حولهم الشبهات من الحرفيين بحثاً عن منتجاتهم الرديئة التي يحاولون إخفاءها في منازلهم . ولكي يتم معاقبة هؤلاء ، في حالة ثبوت المخالفة كان من الضروري تقديم الدليل على صدق الوشاية ، من خلال عمليات التفتيش التي يقوم بها الجاويش وأحياناً كان يرافقه شيخ الطائفة أو بعض معلمي الحرفة في عملية الضبط .

(23) M. Kranzberg and J. Gies, op. cit., p. 2.

(24) Robert L. Heilborner, "The Economic Revolution" op. cit., p. 13.

(25) Kranzberg and Gies, op. cit., p. 3.

ولكي يضمن شيوخ الطوائف التزام الحرفيين بجودة المنتج الحرفي وعدم محاولة إخفاء المخالف منها للمواصفات المتفق عليها ، كان شيخ الطائفة يلزم من تحت إمرته بالإقامة في مساكن متجاورة ، أو في تجمعات سكنية حتى تسهل عملية الضبط والسيطرة .

أيضاً من أساليب الضبط التي أقرتها معايير الحرفة ، أن يطلب شيخ الطائفة من كل حرفي صانع أن يرمز إلى كل سلعة بعلامة أو رمز معين مع ضرورة أن يدع نسخة طبق الأصل من هذه العلامة في مكان معلوم داخل موقع العمل بالطائفة . ولضمان عدم خداع المستهلك ، وضمان تحقيق الجودة في المنتج الحرفي ، كانت هناك رقابة على الصناعات الحرفية تمثلت في الآتي :

١ - صناعة العربات الخشبية التي تجرها الخيول (مثل الكارو) كانت معايير الإنتاج تحذر من استخدام معدن الحديد الزهر في تصنيع لجام الفرس . كما حددت المعايير أيضاً نوعاً معيناً من الأخشاب ليستخدم في تصنيع حلقة سرج الفرس .

٢ - صناعات اللحوم والأغذية ، كان يحظر وضع اللحم منغمساً في الفطائر، وعدم بيع لحم الغزال ، كما يحظر نهائياً وضع لحم الأرانب في الفطائر عند خبزها .

٣ - صناعة المعاطف الصوفية وغير الصوفية ، كان يحظر صباغتها باللون الأبيض . كما يحظر صباغة المعاطف الصوفية باللون الرمادي الداكن المائل للون الأسود ، وذلك لأن فن الصباغة لم يكن متطوراً . وأن مادة الصباغة سوف تزول بسقوط الأمطار على المعطف .

٤ - حرفة بيع الأسماك ، كان يحظر على بائع السمك أن يضع الطازج منه ظاهراً للعين ، بينما يُخفى ما هو رديء النوع في قاع السلة التي يحملها فوق رأسه أو يعرض بها بضاعته على جانب الطريق أو في الأسواق (٢٦).

(26) Tausky, op. cit., p. 23.

٢ - الثقافة الحرفية في الهند ، (صناعة الإيكات نموذجاً)

وإذا انتقلنا بالحديث عن معايير الإنتاج الحرفي من الطوائف في أوربا إلى حرفة أخرى هي حرفة صناعة «الإيكات» (Ikat)(*) ، سوف نجد أن النزعات المذهبية والمعتقدات الدنيية تلعب دوراً أساسياً في تحديد تلك المعايير .

يرجع تاريخ حرفة النسيج المعروف «بالإيكات» إلى أوائل القرن الثامن عشر في مملكة بورى Puri . حيث تدل وثائق المعبد الهندوسي أن النساجين الهنود كانوا أكثر تمسكا بمذهبهم ، عبادة ربهم «جاجاناثا Jagannatha» والذي يسمي هذا المعبد باسمه . وكانت الشعائر والطقوس الدينية تحدد معايير ممارسة هؤلاء الحرفيين للحرفة فيما يختص فقط بنسج ثوب الرب عندهم .

ولقد بلغ معيار الإنتاج عندهم مبلغة من التزمت والالتزام بالمعتقدات الدينية ، فقد كان الاعتقاد بالمحافظة على ثوب الإله طاهراً من كل دنس أو نجس هو القيد الملزم والمعيار الأساسي في عملية الإنتاج .وتتمثل بعض تلك المعايير في الالتزامات التالية :

(*) تعتبر صناعة «الإيكات» من الصناعات التقليدية في الهند . و«الإيكات» هو نوع من المنسوجات التي تكون على شكل الأربطة التي يتم صباغتها بالألوان ويتم صباغة الخام قبل نسجه . ولقد تدهورت تلك الحرفة بسبب ممارسة بعض الهنود لتلك الحرفة من خارج الأسر التي مارستها وتوارثت فنها لقرون مضت ، وكانت توجد مراكز إنتاجية حالية لصنع «الإيكات» في جنوب شرق آسيا واليابان وغرب أفريقيا وأمريكا الجنوبية . وفي الهند كانت صناعة «الإيكات» تمارس في عدة مناطق منها على سبيل المثال جوجارات في الهند الغربية . وثلاثة مراكز لاتزال تعمل في الوقت الحالي في ولاية أوريسا .

ولقد أجريت دراسة ميدانية على حرفة «الإيكات» في شتاء ١٩٨٥ - ١٩٨٦ بهدف دراسة المعرفة الحرفية ولاستكمال الرؤية العلمية حول تنظيمات العمل الحرفي خاصة صناعة النسيج بالنول اليدوي والتي لم تتوافر حولها معلومات تكفي للدراسة المتعمقة للتنظيم الاجتماعي لتلك الحرفة . وقد أجريت الدراسة في قرية نوابتنا Nuapatna الواقعة في ولاية أوريسا Orissa بالهند . ويذكر الباحث أنه في عام ١٩٧١ كان عدد المشتغلين بالصناعات المنزلية عموماً (معظم هؤلاء من النساجين) (٦٥٠) مشتغلاً من اجمالى عدد السكان والذي كان يبلغ (٣٥٠٠) نسمة . لمزيد من التفصيلات حول الدراسة انظر :

S. A. Marglin "Losing Touch: The Cultural Conditions of Workerr Accomodation and Resistance. Version 3.1 Prepared for Dominating Knowledge" in F. A. Marglin and S. A. Marglin (Eds.), Clorendon Press, Oxford, 1989, p. 65.

١ - أثناء عملية نسج الثوب المقدس يحظر تماماً على أي فرد أن يلمس هذا الثوب كما يحظر عليه أن يلمس النول الخشبي الذي يتم استخدامه في نسج هذا الثوب، بل يحظر على الحرفي القائم بعملية النسيج أن يلمس قاعدة النول بإحدى قدميه أو كلتيهما .

٢ - يجب على القائم بنسج الثوب أن يتم ما بدأه من عمل فلا يقوم من مقامه حتى يكتمل نسج هذا الثوب .

٣ - يجب أن يرتدي القائم بعملية النسيج ثياباً نظيفة وخالية من كل ما يعلق بردائه من تلوث أو دنس ، كما يلتزم الحرفي بارتداء ثوب معين أثناء العمل ولا يرتديه خارج نطاق عمله .

٤ - في حالات حدوث وفاة لأحد أفراد أسرة النساج لا يجوز له أن يقوم بنسج الثوب الملكي .

٥ - يتم اتخاذ الاحتياطات الضرورية التي تضمن عدم سقوط ظل المرأة أو الطفل على الثوب المقدس أثناء نسجه حتى لا يتلوث .

٦ - لا ينبغي للنساج مضغ اللبان أثناء العمل ، كما لا ينبغي له التحدث مع زميله خشية أن يلوث رذاذ الفم الثوب المقدس .

٧ - يلزم قيام النساجين بأداء طقوس دينية محددة قبل البدء في العمل على النول.

٨ - وفيما يتعلق بتحديد أوقات العمل على النول ، فقد كانت سبعة أيام أسبوعياً،وقد يتخلل فترات العمل فترات راحة بسبب المراسم والمناسبات المذهبية العامة. ومن الطريف أنه خلال وقت الاحتفال المذهبي يتوقف العمل تماما على النول في الصباح بينما تبدأ في المساء الاحتفال بعبادة النول ، وكانوا من قبل يعبدون العمود الخشبي الذي يشد إليه النول لتثبيته . وبعد سنوات طويلة تحولت عبادتهم من الساري الخشبي والذي كان يصنع من نوع خاص من الأخشاب (Teem Trees) إلى عبادة النول فقط (٢٧).

(27) Ibid., p. 81 and 82.

فضلاً عما تقدم ، فإن الثقافة الحرفية تتضمن معايير أخرى تتعلق بالجزاءات والعقاب الذي كان من نصيب كل من يخالف المعايير العديدة التي ذكرناها في أثناء مناقشتنا السابقة للثقافة الحرفية .

ولقد كان أسلوب العقاب رادعاً للحرفيين . فمثلاً لو استخدم صائغٌ مّا قطعاً من الزجاج بدلاً من الأحجار الكريمة المرصعة في المشغولات الذهبية ، فإنه يتعرض لغرامة مالية كبيرة قد توقعه تحت طائلة الاستدانة من الغير . وإذا تمادى الحرفي في مخالفاته للمعايير الخاصة بمواصفات المنتج الحرفية وتكرر منه الخطأ فيمكن أن تأمر محكمة الطائفة بحبسه أو سجنه وقد يصل الأمر إلى حد الطرد من الطائفة . ويمنع على المخالف ممارسة النشاط الحرفي سواء في حانوت آخر أو داخل طائفة أخرى مماثلة كما يحظر عليه ممارسة العمل في حانوت خاص به [٢٨] . وفي مصر ، كان المنتج الحرفي الردىء يتم تثبيته في مكان واضح على واجهة الحانوت ليدل ذلك على أن الحرفي لم يؤد عمله كما يجب وأيضاً لتنبيه المشترين إلى رداءة الإنتاج الحرفي لهذا الحرفي المخالف .

ثالثاً : أخلاقيات العمل الحرفي : كما كانت تمارس في ظل الطوائف الحرفية

يمكن القول إن أخلاقيات العمل الحرفي كانت واضحة ولا تحتاج لتفسيرات، أو لترشيد العلاقات بين المشتغلين بالحرف وغيرهم من أفراد المجتمع [٢٩] . وذلك انطلاقاً من أن العمل الحرفي يعتمد كلياً على التقاليد والأعراف السائدة في المجتمع . ومن ثم لم تبتكر معايير أو تستحدث علاقات دخيلة على المألوف بين الناس . من جهة أخرى ، اتخذ العمل الحرفي له مواثيق وقيم عمل يلتزم بها كل من يشتغل بالحرفة.

ومن أخلاقيات العمل الحرفي ، قسم الولاء . فكل من يلتحق بالعمل الحرفي في الطوائف عليه أن يقسم بالولاء للحرفة وأن يتعهد بإطاعة أعرافها والتحلي بآداب الحرفة. وكذلك التزام الحرفي بإطاعة أوامر الجاويش . كذلك كان الحرفي يتعهد بعدم إفشاء أسرار حرفته [٣٠] .

(28) Melvin Kranzberg and Joseph Gies, op. cit., p. 2 , 3.
(29) Robert Heilbroner, op. cit., p. 12.
(30) Tausty, op. cit., p. 22.

أيضاً كان من أخلاقيات الحرفة الالتزام بعدم التعدي على زميل حرفة من حيث نوعية المنتج . فلا يقلل من قيمة بضاعة زميله ولا يعرض بضاعته بسعر أقل ؛ كي يقبل عليه الناس دون غيره . ولذلك فقد حرصت الطوائف على توحيد سعر السلعة الحرفية وجعل هذا السعر ثابتاً أيضاً . وفي الوقت ذاته وضعت الطوائف عدة قيود أو ضوابط لتحمي أخلاقيات الحرفة . ومن أهم تلك الضوابط :

١ - كان يحظر على أي حرفي أن يجذب المشترين إلى بضاعته .

٢ - كان يحظر على الحرفي أن يقدم تسهيلات أو تنازلات من شأنها إغراء المشترين لشراء سلعته(*)، فعلى سبيل المثال ، في مدينة «فلاندرز» كان يُحظر على الحرفيين تحية المارة والزبائن أو حتى تقديم أية مشروبات لهم أو مجرد التلميح لهم بما يعرضونه من سلع حرفية أمام حوانيتهم . ولقد نجحت طوائف تلك المدينة في المحافظة على أخلاقيات الحرفة إلى حد بعيد (٣١) .

ورغم هذا التشدد من جانب الطوائف إزاء التزام جميع الحرفيين بأخلاقيات الحرفة، كان هؤلاء الحرفيون من جانبهم لا يتذمرون من ذلك بل على النقيض كانوا حريصين على الالتزام ، ومقاومة كل من يحاول أن يعتدي على هذا الالتزام . ولنضرب لذلك مثلاً بطائفة صناعة الملابس في أوربا .

فبعد سنوات قليلة من ممارسة أفراد تلك الطائفة لصناعة الملابس ، ظهرت طائفة جديدة هي طائفة صناعة وتركيب أزرار الثوب ولقد كان من غير المألوف تركيب أزرار للملابس . ومن ثم عندما بدأ الحياكون في تركيب وتثبيت الأزرار للملابس الجاهزة بعد صناعتها ثارت طوائف صناعة الملابس واعتبرت ذلك العمل منافياً لاخلاقيات المهنة حيث أن من يقوم بتثبيت الأزرار فوق الملابس إنما يأتى بعمل مستحدث لم يعهده النشاط الحرفي . وإزاء هذا الاستياء العام من جانب طائفة صناعة الملابس أصدرت الحكومة بياناً تندد فيه بهذا العمل المستحدث وتعتبره تهديداً سافراً لاستقرار صناعة

(*) ولقد أستثنت من تلك الضوابط طائفة بائعي الأسماك الطازجة .

(31) Kranzberg and Giess, op. cit., p. 3.

الثياب . ولم تكتف الحكومة بهذا البيان ، بل أوقعت غرامة مالية كبيرة على من يقومون بتركيب أزرار الثياب . ورغم ذلك لم يكن هذا الموقف المتشدد الذي اتخذته الحكومة كافياً من وجهة نظر طوائف صناعة النسيج ، بل طالبوا بحق تفتيش منازل ومخازن صناع أزرار الثياب وتوقيع عقوبة مالية ،إضافة إلى القبض على كل من يتم ضبطه من أفراد الشعب مرتدياً لتلك السلعة المرفوضة[٣٢].

من ذلك نخلص إلى أن مقاومة التغير عند الحرفيين كانت عنصراً أساسياً من عناصر أخلاقيات المهنة .

كذلك من الأخلاقيات الحرفية،توقير الصغير للكبير والصبي للمعلم ،وفي الوقت ذاته ضمان العلاقات الاجتماعية المتكافئة للجميع ، فلا فضل للمعلم على الصبي إلا بالمهارة وطول مدة الخبرة الحرفية أما العلاقات المتبادلة بينهم جميعاً فكانت متوازنة . وتتمثل تلك الأخلاقيات في سلوكيات الأفراد داخل الطوائف عموماً وفي حياتهم العامة. فمن أخلاقيات العمل أن يقف جميع أفراد الحرفة مع زميل لهم إذا ألمت به ضائقة أو محنة . فلقد كانت أخلاقيات العمل تلزم رجال الطوائف حضور وتشييع جنازة زميلهم المتوفي ، كما كان لزاماً على كل الحرفيين وليس - اختياراً - أن يشتركوا جميعاً فيما بينهم في جمع مبلغ من المال لتغطية نفقات الجنازة والمواسم الدينية كالأعياد [٣٣].

أيضاً من أخلاقيات العمل الحرفي عدم التخلي عن الحرفي بسبب عجزه أو ضعف قدرته على العمل بفعل الشيخوخة أو كبر السن . أو لأي أسباب أخرى فنية تتعلق بالعمل . ولقد كانت تلك السمة عامة للنظام الحرفي وليست قاصرة على الطوائف الحرفية . وتتضح تلك السمة من خلال ما تضمنه التقرير الذي نشره جورج ستورت George Sturt في عام ١٩٢٣حول حرفة صناعة العجلات الخشبية في إحدى المدن الصغيرة في إنجلترا وكان جورج ستورت ابناً لمالك ورشة العجلات الخشبية . وبعد وفاة

(32) Heilbroner, op. cit., p. 13.
(33) Tausty, op. cit., p. 22.

والده تولى هو إدارة شؤون الورشة وشارك عمالها ما يقومون به من عمل ، كما شاركهم نوعية الحياة داخل الورشة . ومن بين ما أورده في هذا التقرير ما يدل صراحة على أخلاقيات العمل الحرفي فيما يتعلق بالحرفيين من كبار السن . فبعد أن أدخل جورج بعض التطوير التقني(*) على الحرفة إضافة إلى استحداث فن السيارات ، وهو يعلق على أحد الحرفيين القدامى بالورشة ممن كانوا يعملون مع والده، فيقول :

«لقد سعيت لتطوير الحرفة لزيادة الربح وبعد اختراع السيارات كان من الضروري الاستغناء عن بعض العاملين اليدويين . ولكن لكي أقوم بطرد عامل حرفي فهذه مشكلة بالغة الصعوبة من الناحية النفسية والأخلاقية، فلو أنني فعلت أكون بذلك قد ارتكبت خطأ كبيراً لايغتفر تجاه من علموني فنون الحرفة وأسرارها منذ نعومة أظفاري . هذا بالإضافة إلى أنه يشق كثيراً على نفسي أن أقوم بطرد صديق» .

ثم يستطرد في تعليقاته ما يؤكد أخلاقيات العمل الحرفي فيقول :

«... إنني إزاء رغبتي في زيادة الربحية لابد من إصدار التعليمات للحرفيين ببذل أقصى جهد وهذا يعني وقوع صدامات معهم وهذا أمر شائك لا أستطيع تحمله لأننا لم نعتد ذلك أبداً طوال حياة أبي وعمله بالورشة»(٣٤).

رابعاً : مؤشرات الثبات والتغير في عناصر الثقافة الحرفية

من خلال مناقشتنا السابقة للتاريخ الاجتماعي للنظام الحرفي في كل من أوربا ومصر عرضنا لبعض العوامل التى أدت إلى اندثار طوائف الحرف وتدهور الكثير من الأنشطة الحرفية الأخرى .ويمكن القول أيضاً:إن تلك العوامل قد أحدثت تغيرات واضحة في الثقافة الحرفية .فالرأسمالية ، والرغبة في الثراء ، وزيادة الأرباح من عائد المنتج

(*) يذكر جورج ستورت في تقريره أنه في حوالي عام ١٨٨٩ أدخل بعض الآلات الحديثة مثل الماكينات التي تعمل بالغاز ومنشاراً ومخرطة كهربية ومثقاباً وحجر جلخ لتوفير الوقت والتكاليف وزيادة الربح : لمزيد من التفصيل حول الدراسة الميدانية أنظر :

Marglin, op, cit., pp. 1 - 46.

(34) S. A. Marglin, op. cit., p. 45.

الحرفي قد دفع ببعض الحرفيين خاصة من فئة المعلمين إلى التخلي عن بعض المعايير الثقافية للحرفة التي كانوا هم أول من يدافعون عنها . وقد تمثل خروج فئة المعلمين على الثقافة الحرفية في : (١) اتخاذ المعلمين والأسطوات زياً خاصاً بهم يميزهم عن باقي أفراد الحرفة أو الطائفة الحرفية . وقد شاع هذا الاتجاه المناهض للثقافة الحرفية بين أثرياء المعلمين إبان القرن السادس عشر الميلادي في أوربا كما اتخذوا من هذا الزي دلالة على مكانتهم الاجتماعية ؛ (٢) سعى الأثرياء من المعلمين والأسطوات إلى زيادة مكاسبهم المادية من الإنتاج الحرفي . ولتحقيق هذا الهدف فقد هيمنوا على كل قرارات المجلس الحرفي والذي كان يختص بأمور الطائفة الحرفية ومنتجاتها. ومن ثم أصبح معيار «السعر المحدد والثابت للمنتج الحرفي» مجرد شعار لا يؤخذ به في عمليات البيع والشراء . فصار الغني أكثر غنى، والفقير أكثر فقراً.ولم يعد للطائفة الحرفية استقرارها وعلاقاتها الأولية ، بل حدثت صراعات بين المعلمين الأثرياء من جهة ، والحرفيين وبعض المعلمين الفقراء من جهة ثانية .

كذلك أحدثت ثورة التصنيع والاكتشافات العلمية واستخدام الميكنة في عمليات الإنتاج ، تحولات كبيرة في السوق والمنتجات . وقد واكب تلك التحولات ، تغيرات جوهرية في كل من النشاط الحرفي وثقافته الفرعية .

فقد أحدثت المنافسة العالية في الأسواق بين المنتج الحرفي، ونظيره من إنتاج المصانع الحديثة ، الذي يتصف برخص الأسعار ، اندثار الكثير من الحرف الصناعية . كما تخلى الكثير من الحرفيين - كرهاً أو طوعاً - عن اشتغالهم في ورش صغيرة الحجم والتحقوا بالعمل بالمصانع الكبيرة .

ومع ازدياد التقدم الصناعي واستخدام أساليب التقنية الحديثة في الإنتاج الصناعي وباقي الأنشطة الاقتصادية الأخرى ، ازداد تدهور النشاط الحرفي ،كما حدثت تحولات كبيرة في الثقافة الحرفية .

من جهة أخرى فقد ظل العديد من الصناعات التقليدية يُمارَسُ في كثير من دول العالم إلا أن الثقافة الحرفية قد اعتراها الكثير من التغير .

وفي معرض لمناقشة بعض علماء الاجتماع المهني مثل ريتشارد هال ، كابلو، بلونر Blauner ، ريتشارد ماير R. R. Myer حول تعريفي الحرفة Craft والمهنة التخصصية Profession يمكن استخلاص بعض التغيرات التي طرأت على الثقافة الحرفية وعلى الأنشطة الحرفية إجمالاً .

فيرى ريتشارد هال أن العمالة الحرفية رغم أنها ظلت ثابتة نسبياً ولسنوات طويلة بالنسبة للقوى العاملة الكلية ، إلا أن حرفاً جديدة قد ظهرت مثل إصلاح التليفزيون ، وإصلاح السيارات لتحل محل الحرف القديمة التي كانت تقوم بتصنيع العربات الخشبية بأنواعها المختلفة (٣٥).

أيضاً يرى كابلو أن تدريب الصبية في النظام الحرفي لم يعد قاصراً على المعايير التقليدية وإن ظل مستمراً وفعّالاً في الوقت الراهن . فإلى جانب دور النظام الحرفي في تدريب الصبية أمكن تدريبهم أيضاً في مدارس فنية خاصة لمن يلتحقون بالحرف الجديدة . والفارق الأساسي بين نظامي التدريب ، أن النوع الحديث الذي تقوم به المدارس الفنية يكسب الصبي مهارات على أساس تعلمه للوسائل التقنية الحديثة وكيفية استخدام أجهزة القياس والضبط . ويضيف كابلو نوعاً ثالثاً من تدريب الصبية وهو التدريب العملي بتعلم الحرفة في موقع العمل وليس داخل مدرسة أو مركز تدريب فني . ويتم ذلك عادة من خلال التنسيق بين مراكز التدريب للحرفيين وبعض الورش الحرفية (٣٦) .

ومع تنوع مصادر تدريب الصبية وارتباط هذا التدريب بفترة محددة وتحت إشراف جهات رسمية من خارج الحرفة ، حدثت تحولات واضحة في المعايير التقليدية المنظمة للعمالة الحرفية .

كذلك يرى ريتشارد هال أن الحرف الحديثة لم تعد تعتمد على معايير المهارة اليدوية كشرط أساسي لممارسة الحرفة . ففي الصناعات التقليدية يكون الحرص على

(35) Richard Hall, Occupations and The Social Structure, Prentice - Hall, INC., New Jersey, 1975, p. 197.

(36) Loc. cit.

الحرفي باعتباره وحدة أساسية وتعتمد مكانته المهنية بشكل كامل على مهارته اليدوية وخبرته الطويلة. أما في الحرف الحديثة فقد أصبحت الخلفية العلمية جزءاً أساسياً في إكساب الحرفي المهارة العالية . فمثلاً لابد للحرفي الذي يقوم بصيانة وإصلاح الأجهزة الكهربائية من تعلم قواعد الدوائر الكهربائية وكيفية استعمال أجهزة الاختبار والفحص الفني . وكذلك بالنسبة للحرفي الذي يستخدم المقاييس المختلفة عليه أن يتعلم بعض الأسس العلمية التي تحقق له دقة القياس . من جهة أخرى يذكر هال أن بعض الحرفيين في الصناعات التقليدية يستخدمون المقاييس بواسطة التجربة والخطأ واعتماداً على خبرتهم الطويلة في العمل اليدوي (٣٧).

ويدعم اتجاه ريتشارد هال ما تناوله تقرير جورج ستورت حول صناعة العجلات الخشبية . فمن بين ما يتضمنه هذا التقرير «... لم نعرف العلم السببي الذي نعتمد عليه في صناعتنا... العين واليد فقط بما تمتلكانه من قدرة ومهارة يتم استخدامهما في أداء العمل ...بالنسبة للحداد الماهر فهو يعرف قوة ربط الإطار باستخدام مسمار طوله اثنان ونصف بوصة ويكرر ذلك العمل للعجلات الخمس . فمن خلال إدراكه وإحساسه وباستخدام عضلاته فهو يقدر قوة الربط ...وكل شيء يتم تعلمه في حرفتنا بواسطة التجربة والخطأ وأيضا من خلال الخبرة المتوارثة» (٣٨).

أيضاً من خلال مناقشات ريتشارد ف. هاملتون Richard F. Hamilton لسلوك وقيم العمل عند العمال المهرة والعلاقات التي تربط بينهم ، يمكن أن نستخلص بعض ملامح الثقافة الحرفية التقليدية . فالثقافة الحرفية قد أكسبت الحرفيين الإحساس بالاندماجية والارتباط القوي بالعمل وكذلك إحساسهم بالاستقلالية الذاتية . ولقد كشف المسح الذي أجراه هاملتون في الولايات المتحدة الأمريكية على الحرفيين الأعضاء في تنظيمات تطوعية أنهم أكثر ارتباطاً فيما بينهم عن سائر الأعضاء من خارج الفئة . بل إن علاقة الحرفي الماهر بزميله سواء الماهر أو شبه الماهر أقوى من علاقة أيهم بعضو غير حرفي . كما أظهر هذا المسح أيضاً أن الحرفيين المهرة أكثر ميلاً

(37) Ibid., p. 196.
(38) Marglin, op. cit., p. 42.

للاستقلالية في حياتهم العملية والعامة . ففي حياتهم العامة ، يميلون لامتلاك مساكن خاصة بدافع من رغبتهم في تحقيق الاستقلال الذاتي ، ومن ثم كان الحرفيون أكثر أفراد عينة المسح امتلاكاً لمساكن خاصة . وفي مجال العمل يُرجع هاملتون سبب إحساس الحرفيين المهرة بالاستقلال الذاتي إلى عامل التوارث والتنشئة الحرفية . فلقد تربى هؤلاء الحرفيون على معايير حرفية تحقق لهم الاستقلالية والحرية في أداء العمل (٣٩).

كذلك أظهر هذا المسح أن معظم الأنشطة الحرفية حالياً قد اتجهت صوب النشاط الخدمي Service Crafts وظهرت الحرف الخدمية في مجالات فنية متعددة مثل إصلاح التليفزيون والراديو وإصلاح السيارات والأجهزة المنزلية المختلفة .وفي هذا الاتجاه يتفق مع ما ذهب إليه ريتشارد هال فيما يتعلق بالتحولات التي تحدث في السنوات العشرين الماضية للنشاط الحرفي (٤٠).

وفيما يختص بالإحساس بالاستقلالية الذاتية كقيمة أساسية للحرفي رغم ما حدث في الثقافة الحرفية من تحولات ، نجد اتفاقاً واضحاً في الرأي بين كوكبة من علماء الاجتماع أمثال ريتزر Ritzer ، هاملتون ، وجولد ثروب ،بأن الثقافة الحرفية تكسب الحرفيين إحساساً بروح الجماعة من خلال المعايير الاجتماعية ومعايير علاقات العمل . أيضاً تأكدت تلك القيمة من خلال نتائج الدراسة الميدانية التي قام بها وليم فوت وايت William Foot Whyte على عمال مصنع الزجاج حيث يعتمد الإنتاج على الخبرة المقرونة بقدر من التقنية اليدوية Technology Hand حيث كان العمال الحرفيون المهرة أكثر أفراد العينة إحساساً بالانتمائية للجماعة . وإنهم حريصون على الحفاظ على هذا الإحساس أكثر من حرصهم على الترقي للمستويات العليا . وتظهر الدراسة أن العمال السويديين كانوا أكثر العاملين مهارة وخبرة وإحساساً فنياً بالعمل . وأن هذا الاحساس قد هيأ لهم تكوين جماعة مهنية قوية متماسكة ، ويرى وايت أن هذا الاتجاه الإيجابي هو محصلة القيم التقليدية التي تربي عليها هؤلاء الحرفيون في ظل النظام التقليدي للإنتاج (٤١).

(39) R. Hall, op. cit., p. 198.
(40) Loc. cit.,
(41) Ibid., p. 142.

الفصل الخامس

منهجيــــة البحـــث

أولاً : معايير اختيار مجتمع البحث
ثانياً : معايير اختيار عينة البحث من الصناعات التقليدية
ثالثاً : الخصائص الديموجرافية لعينة البحث من الحرفيين
رابعاً : أدوات جمع البيانات
خامساً : خطة تحليل البيانات



الفصل الخامس

منهجية البحث

أولاً : معايير اختيار مجتمع البحث

لما كان الهدف الرئيسي للدراسة هو دراسة الصناعات التقليدية وخصائصها بين الثبات والتغير ، يكون من الأحرى اختيار مجتمع للبحث بحيث تتوافر فيه عدة خصائص تخدم هذا الهدف . وأول تلك الخصائص أن يكون مجتمع البحث من بين المناطق القديمة التي كانت تحتضن - ولاتزال - عدداً من الصناعات التقليدية .

وكما نعلم فإن مدينة القاهرة تضم بين ربوعها الكثير من الأحياء القديمة والشوارع العريقة التي لاتزال بما تحتويه من أطلال وآثار وأبنية قديمة ، تعكس حضارة الماضي في مرآة الحاضر . ومن تلك الأحياء : (باب الشعرية ، الجمالية ، تحت الربع ، الغورية ، سوق السلاح ، الباطنية ، حارة اليهود ، الصاغة والمغربلين) . وقد تبدو للوهلة الأولى أن عملية اختيار مجتمع البحث ستكون هينة لتوافر العديد من الأحياء القديمة بمدينة القاهرة . إلا أن واقع تلك الأحياء وما أصابها من تحولات فيزيقية وكذلك ما أصاب العديد من الحرف التقليدية التي ارتبطت بتلك الأحياء من تدهور أو اندثار يجعلنا ندقق جيداً في عملية الاختيار .

فتحت وطأة التحديث تقوضت حرف وصناعات تقليدية .كما تحولت بعض الورش الحرفية إلى محال تجارية بفعل الضغوط الاقتصادية والتحولات التي طرأت على الذوق العام في السوق المصري .

ومن ثم أضحى اختيار مجتمع البحث قضية تحتاج الروية عند دراسة معاملات التغير الاقتصادية والاجتماعية داخل بيئة هذا المجتمع ، وأيضاً عند ملاحظة أوجه التفاعل المتبادل بين تلك المعاملات والأنشطة الحرفية المتنوعة داخل المجتمع ذاته . وهذا يتطلب بدوره أن تتوافر بمجتمع البحث عدد من الصناعات الحرفية ذات الأنشطة المتنوعة تتفاعل فيما بينها كما تتعايش في اتساق مع خصائص ومعاملات البيئة لهذا المجتمع .

ومن ثم استغرقت الدراسة الاستطلاعية فترة ستة أشهر متصلة بدأت من نوفمبر عام ١٩٨٧ واستمرت حتى نهاية إبريل من عام ١٩٨٨ . وخلال تلك الفترة كان يتم القيام بزيارات استطلاعية متكررة للمنطقة الواحدة وعلى فترات زمنية غير منتظمة . وقد شملت تلك الزيارات (باب الشعرية ، الباطنية ، تحت الربع ، المغربلين ، الغورية ، الصاغة ، وحارة اليهود .

وقد تم افتراض المعايير الأساسية التالية عند اختيار مجتمع البحث والذي تضمن كل من(المغربلين وحارة اليهود) على النحو التالي :

١ - أن يكون المجتمع محتضناً لعدد من الصناعات التقليدية المتنوعة والتي تتعايش منذ زمن طويل مع هذا المجتمع بكل خصائصه . كما تكون الصناعات التقليدية ذات خلفية تاريخية طويلة .

٢ - أن يكون المجتمع متضمنا لتنوع واضح من الأنشطة الحرفية . كما تتباين الصناعات التقليدية من حيث حجم العمالة ورأس المال المستثمر في النشاط الحرفي .

٣ - أن يكون المجتمع محتضناً للصناعات الحرفية التي تستخدم الأدوات ذات المستوى التقني البسيط مع الاعتماد الأساسي على المهارة اليدوية في أداء العملية الإنتاجية .

وتأسيساً على المعايير الثلاثة ، وقع الاختيار على كل من حارة اليهود ، والمغربلين في مدينة القاهرة ليمثلا مجتمع البحث .

وبالإضافة إلى العوامل الثلاثة السابقة يوجد عاملان هامان وراء اختيار حارة اليهود والمغربلين هما :

١ - أن التقارب الفيزيقي بين المغربلين وحارة اليهود قد يجعل من العوامل المحدثة للتغير في النشاط الحرفي متماثلة إلى حد ما . كما أن طبيعة علاقات العمل الحرفي من واقع المشاهدات الميدانية تختلف في المغربلين عنها في حارة اليهود .

٢ - وجود فروق هامة في نوعية العلاقة ومستوى التكاملية بين الأنشطة الحرفية في كل من حارة اليهود والمغربلين .

ففي حارة اليهود ورغم احتوائها على العديد من الأنشطة المتنوعة التجارية والصناعية والخدمية إلا أن البيئة المجتمعية للحارة تتصف بعلاقات اجتماعية أشبه ما تكون بعلاقات القرية ، وأبعد ما تكون عن نمط العلاقات الشائع في المدينة . أيضاً إن تنوع الصناعات التقليدية في الحارة لم يمنع من حدوث ترابط ومودة بين العاملين تكون سبباً أساسياً في إحداث تكاملية واضحة بين تلك الأنشطة في أداء المنتج الحرفي بل وفي التغلب أيضاً على ندرة رأس المال الخاص عند معظم الحرفيين . ففي حارة اليهود ، توجد بعض الورش الفنية التي تستخدم ماكينات خراطة متقادمة وبعض الأدوات الأخرى مثل المثقاب الكهربائي للمعادن وأحجار التجليخ وأحواض الطلاء الكيميائي التى تستعين بها بعض الورش الحرفية ، ولا يأخذ التعاون بين الجهتين أي شكل من أشكال التعاقدات الرسمية بل إن الجميع يعمل داخل بوتقة واحدة بهدف تحقيق الاستمرارية للنشاط الفني والحرفي والتكاملية الواضحة في أداء المنتج الحرفي ،حيث توجد بعض الورش الفنية مثل ورش الخراطة ، والسبك ،وتلميع المعادن ،وطلائها، تقوم بأداء عمليات معينة خلال مراحل إنتاج السلعة الحرفية ، ومن ثم تساعد تلك الورش الفنية أرباب الحرف التقليدية في إنجاز أعمالهم دون حاجة للبحث عن ورش فنية في أماكن قد تبعد كثيراً عن حارة اليهود ، كما أن لعامل التجاور الايكولوجي أثره الواضح في التكاملية وفي التخفيف من تأثيرات ندرة رأس المال الذي يعاني منه أرباب الحرف التقليدية على النحو الذي سوف نعرض له في أثناء مناقشة وتحليل نتائج الدراسة الميدانية .

أما المغربلين فيضم ست ورش لصنع الخيام واللوحات الفرعونية ، وأيضاً ورشة(للسمكرة البلدي) ويمتلكها الحرفي الملقب «بالملك». وورشة لصناعة الطرابيش، وأخرى لتصنيع وبيع الشنط الجلدية من نوع الجلد الاصطناعي ثم عدد من الورش الصغيرة تضم ما بين حرفي أو ثلاثة حرفيين يعملون في صناعة الأحذية من الجلد الاصطناعي، يتواجدون في مبنى واحد في عطفة خالد ابن الوليد . ومن بين تلك الورش ، توجد ورشة كبيرة تضم سبعة حرفيين .

من جهة أخرى ورغم أن شارع المغْربلين بدءاً من أول شارع الغورية حتى الخيمية وبوابة المتولي، يتماثل إلى حد كبير مع البيئة المجتمعية لحارة اليهود فإن الدراسة

الاستطلاعية قد أظهرت عدم الترابط بين الورش الحرفية أو بين الحرفيين أنفسهم في المغربلين . وذلك رغم تجاور الورش الحرفية التي تقوم بانتاج نفس السلعة . فعلى مقربة من بوابة المتولي وفي منطقة مسقوفة تتجاور وتتقابل في آن واحد ورش الخيمية وذلك في مساحة محدودة جداً من الشارع . إلا أنه لاتوجد علاقات من أي نوع تقريباً بين أفراد كل ورشة وأخرى إلا ما ندر ، كما أن لكل رب حرفة رأي في جاره الحرفي الذي يقوم بنفس العمل وربما له نفس سنوات الخبرة .

وبالمثل ، نجد أن الورش المتخصصة في صناعة الأحذية من الجلد الاصطناعى تتجمع في مبنى واحد داخل عطفة صغيرة ولا توجد تكاملية بينها في مجال العمل . أيضاً شاهدنا عدم وجود ورش فنية وسيطة على امتداد شارع المغربلين كالتي شاهدناها في حارة اليهود . وباستثناء الخيمية وصناع الأحذية ، لاتوجد تجمعات حرفية أخرى في المغربلين . بل توجد بعض الصناعات التقليدية القليلة العدد والمتناثرة على مسافات غير قصيرة . وقد قمنا باختيار عينة البحث من الصناعات التقليدية بطريقة عمدية لتشتمل على حرفة السمكرة البلدي ، وصناعة الخيام وصناعة الأحذية في المغربلين فضلاً عن تجميع موقد الكيروسين ، ومنتجات خان الخليلي وصناعة (دبل البخت) في حارة اليهود . وفيما يلي وصف لمجتمعي البحث .

(١) حارة اليهود(*)

تبدأ حارة اليهود بالقاهرة من حيث ينتهى شارع المقاصيص المتفرع بدوره من شارع الصاغة . وللقاصد إلى حارة اليهود من جهة (الغورية) عبر شارع الصاغة أن

(*) يشير على مبارك في تقسيمه لأنماط الشوارع إلى أن أياً من الحارة أو الدرب أو العطفة قد ينتهى بمر مغلق أو مفتوح . ولقد عدد المقريزي عدد الحواري في مدينة القاهرة بست وثلاثين حارة . من بينها حارة اليهود .. ويذكر أن سكان تلك الحواري كانوا من الجماعات المتجانسة مهنياً وعرقياً بينما كانوا لا يتصفوا بالتجانس الاقتصادي . وكانت الحارات لها بوابات يتم إغلاقها أثناء الليل . انظر :

الترجمة العربية لدراسة نوال المسيري نديم «مفهوم الحارة : دراسة تاريخية سوسيولوجية لحارة السكرية» . في محمد الجوهري وعلياء شكري ،علم الاجتماع الريفي الحضري ، الطبعة الثانية، دار المعارف ، ١٩٨٣ ، ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ .

يتجه صوب اتجاه سبيل عبد الرحمن قوقوخ - الذي أنشأ مدرسة النحاسين - ثم يتجه يساراً بعد مسجد السلطان قلاوون صوب شارع المقاصيص ومنه إلى خان أبو طاقية ثم ينعطف إلى حارة اليهود حيث تبدأ ، ثم إلى سوق الصياف حيث تنتهي [(١)].

ويذكر المقريزي أن حارة اليهود وخط الخرنفش حتى شارع النحاسين قد حلا محل البستان الكبير والذي كان يقع بين قصر الشوق والخليج الرابع الذي أنشىء في عهد عمرو بن العاص .وفيما يختص بأنواع الحرف التي شهدتها حارة اليهود على مر السنين والعصور ، فيذكر المقريزي : أن حارة زويلة الآن هي حارة اليهود وما جاورها لأنها كانت كبيرة جداً . ولقد شهدت حارة اليهود العديد من الحرف على مرّ السنين والعصور وكذلك كانت الشوارع المحيطة بها تعج بالكثير من صناع (الأهوان) والحنفيات وصنع الموازين وأشغال النحاس المختلفة .

وحول شارع المقاصيص ، يذكر المقريزي أن طوله يبلغ مئة وثمانين متراً ويبدأ بمسجد يُعرف بمسجد المقاصيص وينتهي بحارة اليهود وشارع خان أبو طاقية . وبه سبيلان أحدهما وقف الحرمين والثاني وقف المرحوم محمد بك تضري بردي وهما في نظارة الوقف . وعند نهايته باب شارع المقاصيص وهو واقع بين الخُردجية والجوهرجية . كما كان شارع المقاصيص يضم رحبة بيبرس . ويستطرد المقريزي قائلاً إن المنطقة المحيطة بحارة اليهود كانت تضم عدة وكائل إحداها معد للسكنى ، ووكالة الملا المعدة لبيع الفحومات ، وأيضاً وكالة حسن الجبلي معدة لتشغيل الجوهرجية. كذلك فإن شارع المقاصيص كان يسكنه الصياغ والحيّاكون والصيارف ومركبو الأحجار الكريمة كما كان أكثر سكانه من اليهود [(٢)].

واستكمالاً للتأصيل التاريخي لحارة اليهود وما بها من حرف متنوعة ، لجأت الباحثة لأقدم الحرفيين تواجداً بالحارة وأكبرهم سناً كي يعطى انطباعاته حول هذا الموضوع ونسرد فيما يلي أهم ما ورد في أقواله بهذا الخصوص .

---

(١) محمد عمارة (دراسة وتحقيق) ، الأعمال الكاملة لعلي مبارك المجلد الثالث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١ ، ص ٢٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ص ٤٨٦ - ٤٨٨.

«حارة اليهود كانت في الأصل مكاناً لسكنى اليهود ولم يكن يوجد بها إلا محلات للأكل والخضار وغير هذا مما يحتاجه اليهود فقط لحياتهم اليومية .أما محلاتهم وأماكن عملهم وورشهم كانت جميعها في الصاغة في وكالة التفاح ووكالة الجوهري ، وأيضا وكالة الشوق ... وفي عطفة أبو طاقية (خان أبو طاقية) كانت توجد أبنية تتألف من عدة أدوار تضم بداخلها ورشاً حرفية لصناعات الذهب وغيره مثل الخواتم الذهبية والفضية وأباريق نحاسية.وكان الخان يضم وكالتين خصص لهما الوقف الحكومي مسؤولاً عنهما من وزارة الأوقاف ، إلا أن الوكالتين قد تحولتا إلى وكالة (عزيزة) التي نجحت في إعلان شرعية حقها في ميراث الوكالتين» . ولقد كان اليهود منغلقين على أنفسهم ، لا يأذنون لمن هو خارج جماعتهم بالدلوف إليها وتعلم الحرف على أيديهم . ولقد استمر اليهود على حالتهم تلك حتى قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ . فلقد أصبحت الظروف السياسية والاقتصادية غير مواتية لتحقيق مآرب جماعة اليهود . هذا بالإضافة إلى تأثير بعض الضغوط التي مارستها الحكومة المصرية عليهم فلم يجدوا مناصاً من التخلي عن سكناهم وأعمالهم ومغادرة البلاد بلا عودة وذلك خلال السنوات الأولى من فترة حكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

وتعتبر الأبنية في حارة اليهود تقليدية في طرازها كما نلحظ الألفة وحسن الجوار في متن لغة سكان الحارة المشتغلين بالأعمال التجارية والحرفية بداخلها بالرغم من التفاوت الواضح في رأس المال وحجم النشاط التجاري والصناعي . وهذه خاصية قد يسهل تلمسها في الكثير من المناطق الشعبية في مدينة القاهرة . فحارة اليهود تعتبر إحدى روافد شارع الصاغة الذي يضم أكثرية تجار الذهب في مصر كما ينجذب إلى هذا الشارع أفواج السائحين من مختلف دول العالم ممن يرغبون في اقتناء مشغولات ذهبية، وفضية، وبعض منتجات خان الخليلي التي برع المصريون في حرفتها يدوياً على مرّ آلاف السنين .

ولعل التفاوت الواضح بين الرأسمالية العالية المتمثلة في تجارة وصناعة الذهب في حوانيت متلاصقة على جانبي شارع الصاغة ، وحارة اليهود بوصفها إحدى الروافد الفقيرة لشارع الصاغة ، هذا التفاوت قد أثار في ذهن الباحثة تساؤلات عدة تتعلق

بالحرف القائمة حالياً في حارة اليهود وكيف تتعايش كنمط إنتاجي تقليدي ولسنوات طويلة تحت وطأة الرأسمالية الموجودة رغم كل الضغوط الاقتصادية التي تواجهها .

وتحظى حارة اليهود بالعديد من الصناعات الحرفية مثل صناعة المشغولات الذهبية والفضية،صناعات خان الخليلي بمختلف أنواعها ،صناعة (دبل البخت)، صناعة موقد الكيروسين «وابور الجاز» ، كما توجد حرف أخرى متنوعة تستخدم الخشب في منتجاتها إما على شكل صورة «الشيشة» البلدي أو بالحفر واستخدام نقوش فرعونية للسياح .أيضاً توجد بعض الورش مثل ورش الخراطة أو السبك ، وأخرى للمعالجة الكيميائية للمشغولات المعدنية مثل الطلاء بالفضة وغيره .وتتكامل كل الحرف بعضها مع بعض رغم عدم تبعيتها لصاحب عمل أو تاجر رأسمالي في إنتاج السلعة الحرفية . ومن ثم تتسم العملية الإنتاجية خلال مراحلها المختلفة بالاكتفاء الذاتي وعدم الحاجة إلى ورش خارجية في مناطق أخرى بالقاهرة لإنجاز بعض أو إحدى مراحل المنتج الحرفي.

ولقد قامت الباحثة باختيار بعض الحرف التي يمكن أن نسميها بالصناعات التقليدية وهي صناعة (دبل البخت) ويرجع اختيار هذه الصناعة بالذات للاعتبارات التالية والتي كشفت عنها الزيارات الاستطلاعية :

١ - أن صاحب الحرفة من أقدم الحرفيين اشتغالاً بالحرفة في حارة اليهود وأكبرهم سناً ولديه من المعلومات حول تطور حارة اليهود منذ عام ١٩٥٠ ما يثرى التأصيل التاريخي لمجتمع البحث .

٢ - أن صاحب الحرفة قد مارس طوال فترة عمله بالحارة عدداً من الحرف ، ثم انتهى به المطاف إلى العمل في حرفة صناعة (دبل البخت) . ولهذا التحول مبرراته ودوافعه التي يعتبر من وجهة نظر الباحثة أساساً لدراسة ديناميات العمل الحرفي .

٣ - استمرارية الطلب على(دبل البخت) التي يستخدمها بعض البائعين المتجولين كجوائز للأطفال في ألعاب البخت بصورها المختلفة والتي نراها في الاحتفالات الشعبية ، والمناسبات الدينية وتكريم الأولياء ، وأصحاب الطرق الصوفية . وهي عادات شعبية متأصلة في مصر .

وبالإضافة إلى صناعة (دبل البخت) فقد تم اختيار صناعة موقد الكيروسين وصناعة منتجات خان الخليلي وبالتحديد (ورشة الخوانكي) لأنه يعتبر من رواد صناعة تلك المنتجات ، ولقد تدرب على يديه العديد ممن يزاولون هذه الصناعة حتى الوقت الراهن ومنهم من لايزال يعمل في ورشة الخوانكي ومنهم من استقل واستأجر ورشة صغيرة لممارسة نفس الحرفة ولكن بإنتاج محدود نظراً لقلة رأس المال . ومن ثم تعتمد تلك الورش الصغيرة على ما قد يُطلب منها من مشغولات من قبل ورشة الخوانكي فالعلاقة بينهما علاقة ارتباطية غير تعاقدية . فشرف الكلمة هو نمط التعاقد الشائع بشكل عام في حارة اليهود وبشكل خاص بين ورشة الخوانكي والورش الصغيرة المنتجة لمشغولات خان الخليلي . ومن ثم فإن طبيعة العلاقة بين تلك الورش الحرفية من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية تعطي دلالات كثيرة تخدم أهداف البحث . ولقد اختيرت ورشة الخوانكي بالإضافة إلى ورشتين أخريين تعمل بمشغولات خان الخليلي ضمن عينة الدراسة الحالية .

(٢) الخيمية والمغربلين

من بين ما يذكره المقريزي عند تناوله لشارع قصبة رضوان والخيمية والمغربلين ما يصفه بقوله :

«أوله من باب المتولي ، والذي يطلق عليها العامة الآن (بوابة المتولي*) ، وآخره باب شارع الداووديه وعرف بهذا الإسم بعد بناء الأمير رضوان بك قصبته المعروفة به المعدة لبيع المراكيب ونحوها »[٣]، «وهذا الشارع عامر إلى الآن وبأوله عدة دكاكين من

(*) كانت بوابة المتولى تُعرف بباب زويلة نسبة إلى قبيلة مغربية من القوات المسلحة الغازية ضمن جيش المعز لدين الله الذي أسس مدينة القاهرة كعاصمة لملكه في عام ٩٦٩ م . وكانت بوابة باب زويلة هي البوابة الجنوبية من بين ثمان بوابات أقامها المعز لدين الله لحماية القاهرة . ولقد اكتسبت البواب بعد ذلك اسم بوابة المتولي نسبة إلى اسم موظف من العصور الوسطى كان يجلس بجانب البوابة ويجمع الضرائب من الذين يدخلون إلى المدينة . انظر :
نوال نديم مصدر سابق ، ص ٥٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥١٠ .

الجانبين يصنع بهما المراكيب والنعال ونحوها ثم يلي ذلك وكالة كبيرة وقف رضوان بك معدة لبيع أصناف الجلود ، ثم عدة دكاكين يصنع بها الخيام ثم يليها دكاكين من عطارين وجزارين وخضرية وزياتين ونحو ذلك »[٤] . وهذا الشارع أوله يعرف بقصبة رضوان ووسطه يعرف بالخيمية وآخره يعرف بالمغربلين وهذه حالته في وقتنا هذا . وأما في الأزمان القديمة فكان يُعرف بخط الموازين[٥] .

أيضاً نجد أن المقريزي يذكر إن سوق المغرابليين والمناخليين قد أصبحت تعرف اليوم بشارع المناخلية والسكرية ومن بين ما يذكره في هذا الشأن قوله :

« لما نقل أمير الجيوش باب زويله إلى حيث هو الآن صار في المسافة التي حدثت بين الباب القديم والباب الجديد سوق المغرابليين والمناخلين ...وكان فيه حوانيت تعمل بها مناخل الدقيق والغرابيل ويقابلها عدة حوانيت تعمل فيها الأغلاق ، المعروفة بالضُبب »[٦].

ومن جهة شارع الأزهر ، نجد شارع الغورية يمتد عبر الخيمية والمغربلين حتى بداية شارع الكحكيين أو خط الكحكيين والذي وصفه ابن أبى السرور البكري بأنه كان يُعرف في القرن العاشر برحبة الكحكيين . وكان يباع في هذا الشارع من المأكولات ما لا حد له في الكثرة وفيها طباخون عندهم الأطعمة الفاخرة . وقد ورد في شأنه أن هذا الخط الذي يعرف بالكحكيين كان به قاعة لتصفية الفضة[٧].

ومن خلال قيام الباحثة بزياراتها الاستطلاعية وفي ذاكرتها ما ذكره المؤرخون من أمثال المقريزي وغيره عن الخيمية والمغربلين ، كان هناك انطباع قوي بأن نجد للحرف والصناعات التقليدية مكانتها وسط تلك المناطق القديمة خاصة وأن بها حرف نادرة مثل صناعة الخيام والتي تنفرد بها الخيمية عن سائر بقاع الجمهورية ، ولكن بدا من الوهلة

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥١٢ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٥١٣.
(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٠٩.
(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

الأولى اختلافات كثيرة عما تذكره المؤلفات والمراجع حول مجتمع البحث . فرغم احتفاظ شارع الغورية حتى المغربلين والخيمية بطرز الأبنية العربية المتلاصقة والمميزة بالمشربيات ونمط الأبنية التي تحمل ذكريات الماضي في منظومة تروق للعين ، نجد أن قلة من الأبنية الحديثة نسبياً قد اقتحمت تلك المنظومة العربية بشكل غير منسق ودون أي أساس مدروس . ويفصح المظهر السائد لمعظم تلك الأبنية عن تدني نسبي واضح للمستوى الاقتصادي لسكانها .

وتشكل المغربلين والخيمية منطقة متصلة تضم عدة شوارع تضيق ثم تنفرج دون استقامة بل يغلب عليها الانحناءات وسوء الرصف . ولا يزيد عرض أكبر شوارعها عن ستة أمتار . وتتحدد الخيمية والمغربلين بثلاثة شوارع أساسية أولها الشارع الممتد عبر الغورية صعوداً إلى بوابة المتولي ثم انحناءات وتعرجات في شكل أزقة ضيقة ثم تتفرع إلى شارعين أقرب إلى التعامد مع الشارع الأول ، أحدهما يتجه صوب باب الوزير بينما يتجه الشارع الثاني صوب تحت الربع الذي لم يعد فيها إلا حرفي واحد يصنع «المراكيب» فضلاً عن وجود بعض الورش الحرفية المستحدثة .

وتتفرع الشوارع الثلاثة إلى حارات وأزقة متقاطعة متصلة ومغلقة لا يسهل على الزائر للمرة الأولى أن يسير خلالها دون أن يضل الطريق .

ثانياً : معايير اختيار عينة البحث من الصناعات التقليدية

تأسيساً على المعايير الافتراضية لاختيار مجتمع البحث ، وارتباطاً بها ، تتحدد معايير أخرى يتم على أساسها - افتراضاً - اختيار عينة البحث من الصناعات التقليدية في كل من المغربلين وحارة اليهود . ولقد تم وضع عدد من المعايير التي تخدم أهداف الدراسة الحالية .

فعندما نرمي إلى دراسة خصائص الحرف فإن ذلك لا يعنى مناقشتها في معزل عن المؤثرات الفاعلة التي تحتويها بيئة مجتمع البحث . ومن ثم كان ضرورياً أن نضع معايير لاختيار الصناعات التقليدية بحيث تمكن الباحثة من الرؤية المتعددة الزوايا

لملامح التغير الحادث في تلك الخصائص . ولإمكان معرفة إلى أي مدى تتراوح تلك الخصائص بين الثبات والتغير على مستوى الصناعة الحرفية الواحدة ، أو على مستوى الصناعات التقليدية ككل ، التي تحتويها عينة البحث . ومن ثم وضعت المعايير الأساسية التالية عند اختيار عينة الصناعات التقليدية بحيث تقتصر على :

١ - الأنشطة الحرفية ذات موقع العمل الثابت بمعنى أن يكون للصناعة التقليدية موقع عمل ثابت . ومن ثم تستبعد جميع أنواع الأنشطة الحرفية الأخرى التي يقوم بها حرفيون متجولون .

٢ - صناعات تقليدية تتفاوت فيما بينها من حيث حجم العمالة الحرفية والمساحة الفيزيقية للورشة وموقع العمل .

٣ - الصناعات التقليدية التي تعتمد اعتماداً أساسياً على المهارة اليدوية، بالإضافة إلى استخدامها للأدوات ذات المستوى التقني البسيط مثل الإبرة ، المطرقة ، السّندال وحتى استخدام المحركات الكهربائية والمخارط التي تدار بتلك المحركات وما يقابلها في المستوى التقني ذاته مثل المثقاب الكهربائي وحجرالجلخ مع ملاحظة أن تكون المعدات التي تعمل بالكهرباء متقادمة وتعتمد على مهارة العامل اليدوية أكثر من اعتمادها على المساعدات التقنية المتطورة والتي أضيفت حديثاً لتلك المعدات بما يحقق لها سرعة إنجاز العمل وتقليل اعتمادها على المهارة اليدوية لعامل الخراطة .

٤ - الأنشطة الحرفية ذات العائد الاقتصادي ، وأن تكون الصناعة التقليدية هي مصدر الكسب الأساسي للحرفي . ومن ثم تستبعد عينة البحث كل النشاطات الحرفية التي يمارسها البعض لشغل وقت الفراغ أو لإشباع هوايات خاصة دون مقابل مادي . كما تستبعد أيضاً كل الأنشطة الحرفية الأسرية .

٥ - صناعات تقليدية تتفاوت فيما بينها من حيث نوعية وكمية المنتج الحرفي . وارتباط كل سلعة حرفية بشريحة معينة من شرائح المستهلكين للسلعة في المجتمع المصري حيث تضم العينة بعض الصناعات التقليدية التي تجد رواجاً لسلعتها عند القاعدة العريضة من أفراد المجتمع المصري .من جهة أخرى ، تتضمن عينة البحث بعض

الصناعات التي تجد لها رواجاً لسلعتها على المستوى المحلي بين الشريحة الغنية من المجتمع المصري وعلى المستوى الدولي بين السياح .

٦ - الصناعات التقليدية التي تختلف فيما بينها على أساس رأس المال الخاص والمستغل في النشاط الحرفي ، كما تتفاوت فيما بينها أيضاً على أساس علاقات السوق ونوعيته .

٧ - الصناعات التقليدية التي تعتمد اعتماداً كلياً على المجتمع المصري في توفير احتياجاتها من المواد الخام اللازمة للإنتاج الحرفي .

٨ - الصناعات التقليدية ذات الخلفية التاريخية الطويلة وفقاً لطول فترة الممارسة الفعلية للنشاط الحرفي في مجتمع البحث .

وتأسيساً على المعايير السابقة وانطلاقاً منها ، تم اختيار الصناعات التقليدية التالية لكي تكون موضوعاً للدراسة الراهنة .

(١) صناعة منتجات خان الخليلي صناعة (دبل البخت) ، وصناعة موقد الكيروسين في حارة اليهود .

(٢) صناعة الخيام ، (السمكرة البلدي) ، وصناعة الأحذية في المغربلين .

ثالثاً : الخصائص الديموجرافية لعينة البحث من الحرفيين

يتضح من خلال المقابلات وبيانات دليل العمل الميداني أن جميع المشتغلين بالحرف والصناعات التقليدية - موضوع الدراسة - من الذكور . ومن حيث المستوى التعليمي ، فإن الغالبية العظمى منهم أميون إذ تبلغ نسبتهم (٨٢٪) من إجمالي مفردات العينة البالغ عددها (٣٩ مفردة)، مقابل (١٨٪) من ذوي المؤهلات المتوسطة والجامعية .

أيضا تكشف لنا بيانات دليل العمل الميداني أن تلك العمالة تقع ضمن أربع شرائح عُمْرية يمكن ترتيبها تنازلياً وفقاً للنسبة المئوية للعاملين في كل فئة من الإجمال الكلي لمفردات العينة . فتحتل الفئة العُمْرية (٣٠ - ٤٠ سنة) المرتبة الأولى من حيث

حجم العمالة الحرفية التي تضمها .حيث تبلغ نسبة تلك العمالة (٨ر٧١٪) من إجمالي مفردات العينة . وفي المرتبة الثانية تأتي الفئة العمرية (من ٤٠ - ٥٠ سنة) حيث تبلغ النسبة المئوية للعاملين ضمن تلك الفئة ، (٤ر١٢٪) من إجمال مفردات العينة. وتحتل الفئة العمرية (٢٠ - ٣٠ سنة) المرتبة الثالثة على أساس ما تمثله من حجم العينة البحثية . فتبلغ نسبة العمالة ضمن تلك الفئة العمرية (٨ر١٠٪) من إجمالي مفردات عينة البحث . وانخفاض هذه النسبة خاصة لفئة العمر الشبابية (٢٠ - ٣٠ سنة) قد تعطي مؤشرات ذات دلالة على الاتجاه السلبي نحو الشباب للانخراط في النشاط الحرفي . أيضا تحتل الفئة العمرية (٥٠ سنة فأكثر) والتي تضم كبار السن وأرباب الحرف ، المرتبة الرابعة والأخيرة .حيث تبلغ نسبة هؤلاء (٥٪) من إجمالي مفردات عينة البحث . وجدير بالذكر أن الورش الحرفية موضوع الدراسة تضم أربعة عشر طفلاً .

من حيث الأصول الريفية - الحضرية لمفردات العينةتظهر بيانات دليل العمل الميداني أن جميع الحرفيين المشتغلين في الصناعات التقليدية - قيد الدراسة - ينتمون إلى أصول حضرية . فمنهم من ترجع نشأته إلى مدينة القاهرة ، والبعض الآخر ترجع أصول نشأته لمدن مصرية أخرى مثل مدينة طنطا حيث نشأ بها أقدم الحرفيين سناً في حارة اليهود .

وقد استغرقت الدراسة الميدانية خمسة أشهر (أول يناير حتى نهاية مايو عام ١٩٨٩) . كما عاودت الباحثة زياراتها لمجتمع البحث خلال الأسبوع الأخير من شهر أغسطس والأسبوع الأول من سبتمبر عام ١٩٩٠ .

رابعاً ، أدوات جمع البيانات

لعل المستخلصات الأساسية التي أسفرت عنها الزيارات الاستطلاعية للمغربلين وحارة اليهود قد أسهمت في اختيار المدخل الملائم منهجياً لدراسة الصناعات التقليدية بما يخدم أهداف البحث وهي : (١) دراسة مدى اتصاف تلك الصناعات بالخصائص الست الأساسية التي تضمنها النمط المثالي للحرفية ؛ (٢) محاولة الكشف عن العوامل

الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الكامنة وراء استمرارية تلك الصناعات في أداء دورها كنمط إنتاجي تقليدي ؛ (٣) مقومات تعايش الصناعات التقليدية مع مثيلاتها من منتجات القطاع الرسمي .

وقد استعانت الباحثة بأكثر من أداة لجمع البيانات نوضحها فيما يلي :

١ - الملاحظة لبعض العمليات والجوانب المحددة لطبيعة العمل الحرفي وأسلوب أدائه .

٢ - الاستعانة بالإخباريين ممن لهم دراية بمجتمع البحث والأنشطة الحرفية المختلفة بما يسهل كثيراً عملية جمع البيانات (أنظر بطاقات الاخباريين ملحق رقم(٢).

٣ - دليل العمل الميداني .يشتمل دليل العمل الميداني (ملحق رقم ٣) على خمسة محاور أساسية ترتبط بالهدف العام للبحث فضلاً عن البيانات الأولية المتعلقة بالنشاط الحرفي والورشة ، والمحاور الخمسة هي: (١) العملية الإنتاجية والمنتج الحرفي؛ (٢) العمالة الحرفية بالورشة ؛ (٣) واقع الخصائص الحرفية ؛ (٤) أخلاقيات العمل الحرفي ؛ (٥) استمرارية العمل في القطاع الحرفي .

واشتمل كل محور من هذه المحاور الخمس على عدد من الموضوعات التي تم صياغتها تأسيساً على ما أسفرت عنه الزيارات الاستطلاعية لمجتمعي البحث . ولقد روعي عند صياغة تلك الموضوعات أن تتصف بقدر من المرونة التي قد تتيح إمكانية الحذف والإضافة وفقاً لمعطيات البحث الإمبيريقي بحيث يكون دليل العمل في صورته النهائية مع نهاية العمل الميداني .

ويحتوى دليل العمل على الموضوعات التالية :

أولاً : بيانات أولية :

(١) **بيانات أولية** تتعلق بالورشة من حيث الخلفية التاريخية ، ومورفولوجية الورشة ومساحتها وكيفية استخدام تلك المساحة .

(٢) **النشاط الحرفي** : اسم الصناعة ، الخامات المستخدمة ومصادر الحصول عليها ، الأدوات المستخدمة والمستوى التكنولوجي، مستويات المهارة المطلوبة لأداء النشاط الحرفي ، والتطورات التى أدخلت على الحرفة والأدوات المستخدمة منذ الممارسة الفعلية لها .

(٣) **العمالة** : من حيث الحجم، والخصائص الديموجرافية : العمر ؛ الحالة الزواجية ، المستوى التعليمي، الأصول الريفية - الحضرية ، الألقاب المهنية الشائعة الاستخدام بين أعضاء جماعة العمل الحرفية. ملاحظة درجة التباين في الزي ، وعلاقة ذلك بالمكانة المهنية لأعضاء جماعة العمل .

(٤) **أسلوب الأداء للعمل الحرفي** ويشتمل هذا القسم على ملاحظة عملية تقسيم العمل وتوزيع الأدوار ، شبكة العلاقات الاجتماعية والمناقشات الجماعية التي تتم بين أعضاء جماعة العمل الحرفية بعضها ببعض . وذلك من خلال الملاحظة من قبل الباحثة دون حاجة إلى سؤال المبحوثين حولها .وأيضاً من خلال الحوار مع رب الحرفة ثم إتاحة الوقت الكافي للتحدث فيما يتعلق بممارسة الحرفة وما يواجهها من مشكلات تهدد تواصلها وكيفية التصدي لها .

ثانياً : مؤشرات الثبات والتغير في خصائص الصناعات التقليدية

٥ - مؤشرات الثبات والتغير في خصائص الصناعات التقليدية . وأيضاً العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المؤثرة على تلك الخصائص .

٦ - أشكال التعايش القائم بين الصناعات المثيلة في القطاع الرسمي . وتأثيرات المنافسة في السلعة واعتماد الصناعات التقليدية على القطاع الرسمي في تحديد أشكال التعايش .

٧ - التحولات الاقتصادية والتغير في الذوق العام بالأسواق المصرية وموقف القدرات الإبداعية والمهارة اليدوية للعامل الحرفي حيالها .

٨ - تنظيم أوقات العمل ومستوى التداخل بينها وبين أوقات الفراغ في موقع العمل .

٩ - علاقات العمل الخارجية للنشاط الحرفي . والمعايير المحددة لتلك العلاقات وأطراف التعامل بمستوياتها المختلفة .

١٠ - مصادر تنمية القدرات الذاتية وأساليب التنشئة المهنية ، وعمالة الأطفال داخل النشاط الحرفي ضمن بيئة المجتمع المحلي بكل خصائصه الثقافية والاقتصادية والاجتماعية .

١١ - خاصية التوارث المهني والتحولات التي تطرأ عليها بفعل عوامل خارجية من البيئة المحيطة بالنشاط الحرفي .

١٢ - خاصيتي الاستقلال الذاتي والاعتزاز بالنشاط الحرفي بين الثبات والتغير في مواجهة مؤثرات خارجية من المجتمع المحلي.

١٣ - مؤشرات التكامل بين الأدوار المتداخلة داخل النشاط الحرفي . والعوامل المؤثرة على تلك المؤشرات على مستويات التعامل الداخلية والخارجية .

ثالثاً : أخلاقيات ومعايير العمل الحرفي

١٤ - القيم التقليدية كموجهات لسلوك الحرفيين في مواقع العمل أو في تعاملاتهم مع زملاء الحرفة (على سبيل المثال : احترام الصغير الكبير ، الطاعة والامتثال لأوامر «الأسطى» ، التعاون بين زملاء الحرفة ، قيمة الجمعية مقابل الفردية ...الخ .

١٥ - شكل العلاقات الاجتماعية بين الحرفيين على مستوى كل نشاط حرفي. وإلى أي حد تتصف بالتعاون ، التساند ، أو بالمنافسة والصراع ؟

١٦ - المعايير المنظمة لتأهيل الأيدي الحرفية وتنشئة أجيال حرفية بشكل دائم ومستمر . والتحولات التي طرأت على تلك المعايير .

١٧ - مدى قبول أو مقاومة الحرفيين لأي تطوير تقني سواء في أسلوب الأداء أو نوع المنتج .

رابعاً : استمرارية العمل في القطاع الحرفي

١٨ - درجة الرضا عند الحرفيين للعمل في القطاع الحرفي .

١٩ - دوران العمل ومدى رغبة الحرفيين في ترك عملهم الحالي والبحث عن عمل آخر في القطاع الرسمي مع تساوي الدخل في كل منهما .

٢٠ - انتماء الصانع للحرفة ورغبته الدائمة في ممارسته لها طوال حياته برغم الضغوط الاقتصادية الراهنة وتداعيات سياسة الانفتاح الاقتصادي وما أتاحته من فرص عديدة للعمل سواء داخل أو خارج البلاد .

خامساً : خطة تحليل نتائج البحث الميداني

تقوم خطة تحليل نتائج البحث الميداني والتي تقع في ثلاثة فصول هي السادس ، السابع والثامن على المحاور التالية :

١ - تحليل البيانات الميدانية للصناعات الحرفية في حارة اليهود والمغربلين كل منهما على حده ، من ثم يقتصر الفصل السادس على تحليل البيانات الميدانية لعينة الصناعات الحرفية في حارة اليهود ، كما يتعلق الفصل السابع بتحليل البيانات لعينة الصناعات التقليدية في المغربلين .

٢ - يراعى عند تحليل البيانات الكيفية في الفصلين ، تناول عدد من المتغيرات التي تؤثر على خصائص الحرفية من حيث الثبات والتغير ، مع التركيز على إبراز الفروق النوعية التي تنشأ من التباين في تلك المتغيرات على مستوى كل صناعة على حده والمتغيرات التي تدور حولها تحليل البيانات الميدانية كما يلي وفق ترتيبها في متن كل من الفصلين السادس والسابع : (١) التأصيل التاريخي للحرفة / الصناعة ؛ (٢) مورفولوجية الورشة ؛ (٣) العمالة الحرفية بالورشة وخصائصها الديموجرافية ؛ (٤) الخامات والمواد الأولية والتعديلات التي أدخلت عليها ؛ (٥) مراحل الإنتاج ؛ (٦) تقسيم العمل وتوزيع الأدوار والألقاب المهنية والرموز المستخدمة داخل الجماعة الحرفية ودلالاتها السوسيولوجية ؛ (٨) مدى تقارب أو تباعد كل حرفة/صناعة في خصائصها على النموذج المثالي .

ويختص الفصل الثامن والأخير بمناقشة نتائج البحث وسوف نركز المناقشة على المحاور التالية :(١) علاقة الصناعات التقليدية بالقطاع الرسمي ؛ (٢) الصناعات التقليدية تحت وطأة الرأسمالية ؛ (٣) تعايش الصناعات التقليدية مع منتجات القطاع الرسمي المثيلة ؛ (٤) تقارب أو تباعد الصناعات التقليدية من منظور خصائصها عن النموذج المثالي ؛ (٥) مظاهر الثبات والتغير في الاخلاقيات الحرفية قياساً بالتي كانت سائدة في ظل نظام الطوائف الحرفية ؛ (٦) المستقبل المهني للحرفيين وفرضية تودارو ؛ (٧) التجاور الإيكولوجي للحرف/الصناعات والفروق النوعية بينها ؛ (٨) مناقشة نقدية لنموذج الخصائص الحرفية عند ميلز في ضوء المعطيات الامبيريقية .

الفصل السادس

الحرف والصناعات التقليدية في حارة اليهود

أولاً : صناعة دبل البخت

ثانياً : صناعة موقد الكيروسين

ثالثاً : صناعة منتجات خان الخليلي (المشغولات النحاسية)



الفصل السادس

الحرف والصناعات التقليدية في حارة اليهود

أولاً : صناعة «دبل البخت»

مقدمـــة

يشيع استخدام «دبلة البخت» بين عامة أفراد الشعب المصري خاصة في المناطق الريفية والشعبية .ففي الأعياد والاحتفالات الشعبية والموالد،تكون دبلة البخت مصدراً لادخال السرور والبهجة على نفوس الأطفال والصبية من خلال شرائها أو الفوز بها في إحدى لعبات الحظ . فعادة ما يجتمع الأطفال والصبية حول لعبات الحظ وبشترك بعضهم مقابل قروش معدودة ، فقد يحالفه الحظ ليفوز باحدى الجوائز التي يعرضها صاحب اللعبة.وقد تكون تلك الجائزة هي «دبلة البخت».ومن ثم تجد صناعة دبلة البخت، سوقاً لها في مصر عامة وفي المناطق الريفية خاصة،حيث يقيم معظم السكان .

تتم صناعة «دبل البخت» داخل ورشة صغيرة المساحة في حارة فرعية تسمى حارة الربايين وهي حارة مفصلية تربط بين شارعين أساسيين في حارة اليهود هما شارع درب النصيري المتفرع من شارع يسمي «سوق الفراخ» والشارع الثاني هو شارع الجامع نسبة إلى المسجد المقام على امتداده . ويعتبر شارع الجامع هو أكثر الشوارع الداخلية في حارة اليهود اتساعاً بالرغم مما يتصف به من ضيق في العرض . ويلتقي شارع الجامع عند بدايته من جهة خان «أبو طاقية» مع شارع «سوق الفراخ» ثم ينفرج منه مستقلاً ليمتد في غير استقامة ناحية اليسار .

١ - مورفولوجية الورشة وتاريخ نشأة الصناعة في حارة اليهود

تقع ورشة «دبل البخت» داخل مبنى قديم يتألف من طابقين وتبدو عليه آثار فن العمارة الإسلامية .ولا تزيد مساحة الورشة عن ثلاثة أمتار مربعة . يلعب كل من شخصية رب الحرفة والموقع الجغرافي للورشة أدواراً ذات ثقل في نمط العلاقات الاجتماعية وعلاقات العمل وكثافة التفاعل الاجتماعي في حارة اليهود . فمن حيث

الموقع ، تحتل ورشة «دبل البخت» مكاناً متميزاً على مفرق دربين ضيقين حيث توجد بعض المنازل والمحلات التجارية متجاورة أيكولوجيا ، مما يتيح قدراً كبيراً من التفاعل الاجتماعي بين رب الحرفة والمقيمين بحارة اليهود . وأيضاً بينه وبين بعض الحرفيين في أنشطة حرفية أخرى . وتغطى شبكة العلاقات الاجتماعية بين الحرفيين في ورشة «دبل البخت» مع بعض المقيمين بالحارة معظم ساعات العمل اليومي . كما يتطرق الحوار بين هؤلاء إلى موضوعات شتى تتعلق بعضها بالمشكلات الأسرية والبعض الآخر بقضايا العمل وأيضاً بعض المشكلات التي تتصف بها الحياة المعيشية بشكل عام . وأسفرت المشاهدات الأمبريقية عن أن الموقع المتميز لورشة «دبل البخت» يزيد ويقوى من التفاعلات الاجتماعية بين العاملين بالورشة والمارة على مختلف شرائحهم الاجتماعية ومصالحهم ، وحول نشأة الورشة وتاريخ المبنى الذي يحتويها ، يقول صاحب الورشة وهو أكبر الحرفيين سناً في حارة اليهود :

«المبني اللّي فيه الدكان بتاعي - يقصد الورشة - كانْ في الأصل عيادة للأسنان وعلاج العيون . وكانت الْعيَادَة مخصصة لعلاج اليهود فقط . وكانت استراحة المستشفي في الدور الثاني من المبني . والمبني زَيّ ما هُوَّه. وكان المكان دَهْ إسْمه «اورش» أي الملجأ . وكان صاحب المبني اسمه المسْتر دُورين جَليس الملك فاروق . ولما خرج اليهود من الحارة في مصر في عصر الريس عبد الناصر تَمّ تأميم المبني ووضعه تحت الحراسة وفي سنة ١٩٥٨ قمت بتأجير المحل ده من شركة التأمين الأهلية بمبلغ اثنين جنيه وعشرين قرش في الشهر» .

وحول تاريخ نشأة صناعة «دبل البخت» في حارة اليهود واشتغال صاحب الحرفة بها ، يقول : «لما جيت الحارة من أكثر من ٥٥ سنة ، كانت مخصصة لسكن اليهود وماكنش حد يقدر يدخل الحارة أو يشتغل معاهم إلا الشاطر واللي يخلص لهم في العمل . وكان اليهود بيشتغلوا في ثلاث حرف هي تجارة الذهب والفضة وتجارة الأقمشة.والصناعات بتاعتهم كانت كلها في خان أبو طاقية في مباني أدوار.وكانت ورشهم بتصنع الخواتم والدبل والغوايش والكرادين والخلخال البلدي من الذهب والفضة والنحاس . وكان فيه وكالتين لسه مبانيهم موجودين لحد دلوقت كانوا بيقوموا بتجليخ

المعادن وصناعة الإبريق النحاس . وفي الواقع لما النحاس سعره ارتفع بدأت أصنّع الدبل من النحاس الخردة اللي بشتريه بالكيلو من المواتير المحروقة» .

وعند سؤاله كيف تعلم حرفة صناعة «دبل البخت» ؟ وهل تعلمها على أيدي الصناع اليهود في الحارة ؟ أجاب قائلاً :

«ورثت عمل الغوايش والكرادين والدبل النحاس من والدي الله يرحمه وكان عمري وقتها خمس سنوات ، لما بدأت في ورشة والدي بطنطا وبعد كده جيت حارة اليهود واشتغلت في نفس الشغلانة مع اليهود . مَاكَانْشْ حد يقْدَرْ يُدْخل الحارة أو يشْتغلْ معاهم إلا الشاطر وحَبُّوني لشُغْلي الكُوَيّس وساعدوني وعَلّمُوني وكان رطل النحاس في الخمسينات ثمنه ٣ تعريفة وحاليا زاد سعره وَبْقه بثلاثة جنيه ، واللي كان بيشتغل من الصنايعية في النحاس دلوقت ترك الحارة واشتغل في أماكن ثانية ولما الخامة زاد سعرها بطّلت اشتغل في الكرادين وغيره واشتغلت في عمل «دبل البخت» وعلمت الصنايعية اللي معايا دول الحرفة والحمد لله ماشية».

٢ - العمالة الحرفية في صناعة «دبل البخت»

لاتوجد في حارة اليهود سوى ورشة واحدة لتصنيع «دبل البخت» ويشترك في رأس المال المستثمر ثلاثة حرفيين من بينهم رب الحرفة والذي استعانت به الدراسة الحالية كأحد الإخباريين . وتضم ورشة دبل البخت خمسة حرفيين ، وثلاثة من الأطفال لا يتجاوز عمر أكبرهم تسع سنوات . ولا يعمل هؤلاء الأطفال بشكل دائم بالورشة ولكن خلال فترة الإجازة الصيفية والعطلات المدرسية . فالثلاثة يلتحقون بالمدارس ونظراً لرقة حال أسرهم فإنهم يعملون بالورشة خلال العطلات نظير أجر أسبوعي . ويبلغ الأجر الأسبوعي للطفل ستة جنيهات مصرية .

وتغلب صلة القربى على العمالة الحرفية في صناعة دبل البخت . حيث تتألف العمالة من رب الحرفة وابنه وزوج ابنته وثلاثتهم يشتركون في رأس المال المستثمر في الصناعة . هذا بالإضافة إلى حرفيين آخرين أحدهما أبكم والآخر شاب صغير السن . وقد تعلم الجميع فنون الحرفة وأسرارها على يد رب الحرفة .

وفيما يتعلق بالمستوى التعليم للعمالة ، فباستثناء ابن صاحب الحرفة الذي تخرج من إحدى كليات التكنولوجيا في القاهرة - تتصف العمالة الحرفية بالأمية . حيث لم يكن لهم حظ في التعليم . كذلك فيما يختص بالحالة الزواجية للعمالة الحرفية ، فباستثناء الحرفي الشاب صغير السن ، فجميع الصناع متزوجون ويعولون . ويقطن الحرفيون الثلاثة الذين تربطهم صلات القربى ، في حي واحد من أحياء القاهرة كما يقيمون في منزل يمتلكه صاحب الحرفة .

٣ - الخامات والمواد الأولية التي تستخدم في صناعة «دبل البخت»

تعتمد صناعة «دبل البخت» على لفائف الأسلاك النحاسية التي تفقد خواصها الكهربائية في المولدات والمحركات الكهربائية التالفة . وتتعدد مصادر الحصول على الأسلاك النحاسية التالفة ، كما تكون زهيدة الثمن . وتتوفر تلك الأسلاك محليا وبكميات كبيرة في كل من شركات القطاع الإنتاجي المنظم وعند تجار الخردة ، ويشترى الحرفيون في صناعة «دبل البخت» أسلاك النحاس بالكيلوجرامات وبكميات احتياطية يحتفظون بها داخل موقع العمل كما يتضح ذلك من الصورة رقم (٦ - ١) حيث يبدو الكثير من أسلاك النحاس معلقة فوق حائط الورشة .

ويستخدم الحرفيون في صناعة «دبلة البخت» الأسلاك النحاسية بمواصفات معينة. فلا يستخدم إلا السلك النحاس دائري المقطع بمقاس (٦٠ مللي مربع) . ويطلق على هذا النوع من السلك في الأسواق السلك النحاسي المبروم مقاس (٦٠ مللي).كذلك يستخدم الحرفيون في صناعة «دبل البخت»، نوع من المسحوق الكيميائي أو «البودرة» يطلقون عليها «التنكار»، و «التنكار» هو الاسم التجاري الشائع للبودرة أو المسحوق الذي يتكون من خلط الزنك والنحاس والبوراكس بنسب كيميائية محددة . ويطلق الحرفيون على البودرة اسم «المونة» لما تقوم به من معالجة الدبلة كيميائياً أثناء عملية تصنيعها . وتتوفر البوردة محلياً كما توجد أيضاً في بعض مسابك المعادن الموجودة في خان أبو طاقية قريباً من موقع الورشة في حارة اليهود . و «التنكار» يتم الحصول عليه من نفايات مسابك المعادن وأسعارها زهيدة وفي متناول صناع «دبلة البخت» .



صورة رقم (٦ - ١)
اسطوانة لغاز الاستيلين الذي يستخدم في اللحام بديلاً
للكيروسين ، كذلك يتضح خام أسلاك النحاس المستخلصة من
المولدات والمحركات الكهربائية التالفة



صورة رقم (٦ - ٢)
أداة لسحب أسلاك النحاس تسمي «الفتالة»



صورة رقم (٦ - ١)

اسطوانة لغاز الاستيلين الذي يستخدم في اللحام بديلاً للكيروسين ، كذلك يتضح خام أسلاك النحاس المستخلصة من المولدات والمحركات الكهربائية التالفة



صورة رقم (٦ - ٢)

أداة لسحب أسلاك النحاس تسمي «الفتالة»

أيضا تم إدخال تطوير على عملية سحب الأسلاك النحاسية خلال المرحلة الأولى من مراحل العملية الإنتاجية «لدبلة البخت» . فقد كان الطفل يقوم بمعاونة الحرفي في التخلص من ثنيات السلك الخام بمحاولة شده من الناحيتين إلى أن يتحول إلى أسياخ طولية حتى يمكن تجزئته لأطوال متساوية ، وكانت تلك العملية تستغرق وقتاً طويلاً . ومن ثم استخدم الحرفيون «الرتالة» والتي كانت تصدر صوتاً قوياً لجمع الجند في معسكرات البريطانين فترة احتلالهم لمصر . وقام الحرفيون بتطوير «الرتالة» ليمكن استخدامها في عملية سحب السلك النحاسي وأطلقوا عليها «الفتّالة» ، كما يتضح من الصورة رقم (٦ - ٢) .

«الفتالة» . وهي أداة أشبه «بالنعارة" »أو «الرتالة» التي كان يستخدمها جنود الاحتلال البريطاني في مصر في حالات الإنذار ومواعيد الوجبات الغذائية وانتهاء العمل اليومي . وتستخدم في لف السلك . وقد أدخل عليها الحرفي بعض التعديلات. حيث قام بإبدال الجزء المحدث للصوت في «الرتالة» بذراع له يد يمكن أن يقوم بعملية جدل، أو تضفير السلك باستخدام حلقة مستديرة يربط بها طرفي السلك . ويطلق على تلك الحلقة اسم «الشبك» . وحديثا يستخدم محرك كهربائي صغير لسرعة إنجاز سحب السلك قبل جدله.وكان الصبي يقوم بعملية جدل السلك قبل استخدام المحرك الكهربائي.

بالإضافة للأدوات السابقة التي تستخدم في صناعة «دبل البخت» ، يستخدم الحرفيون أدوات أخرى بسيطة مثل قصافة السلك وأيضاً يستخدمون «تزجة» خشبية أشبه بالمنضدة إلا أنها لا ترتفع عن الأرض أكثر من ٤٠ سنتيمتراً . ويستخدم الحرفي «التزجة» الخشبية في أداء عمليات معالجة الدبلة بالبودرة واللحامات وأيضاً في «رص» الدبل الجاهزة في ألواح معدنية ، كما يتضح من الصورتين رقم (٦ - ٣) ، (٦-٤).

وعن تنظيم موقع العمل ، يستخدم كل حرفي «تزجة» خاصة ويضع حولها كل ما يلزمه من أدوات ومواد خام مما يقلل من الوقت الفاقد أثناء العمل . وهذا الأسلوب من تنظيم العمل يماثل إلى حد كبير ما تتجه إليه أساليب تنظيم العمل الحديثة من



صورة رقم (٦ - ٣)
أحد الحرفيين يقوم بالعمل على «تزجة» خشبية بينما رب الحرفة
يدخن الشيشة البلدي وأمامه كوب مملوء بالشاي



صورة رقم (٦ - ٤)
صبي يقوم بعملية «بل الدبلة» أمام معلمه

دراسة الوقت والحركة Time and Motion Study . وفي صناعة «دبل البخت» ، يجلس الحرفيون على الأرض جنباً إلى جنب وفي مواجهة كل منهم الآخر مما يقوي من العلاقات المباشرة أثناء العمل وملاحظة سير العملية الإنتاجية من جانب رب الحرفة .

نخلص مما سبق ، إلى أن الأدوات المستخدمة في صناعة دبل البخت ذات مستوى تقني بسيط وأن التعديلات التي طرأت على تلك الأدوات كانت محدودة . ولكن قبول الحرفيين لتطوير الأداء في العملية الإنتاجية يعتبر مؤشراً إيجابياً يناقض في الوقت ذاته ما أسفرت عنه نتائج بعض الدراسات والمسوح الاجتماعية . ولقد كشفت نتائج المسح الاجتماعي الذي أجرى في مصر على عدد من الصناعات الريفية ، المعارضة الشديدة التي أبداها كبار السن من الحرفيين تجاه محاولة إحداث بعض التطوير في الآلات التي يستخدمونها في عمليات الإنتاج الحرفي [١] .

٥ - مراحل إنتاج «دبلة البخت»

تتضمن عملية إنتاج« دبلة البخت» تسع مراحل متعاقبة تتم جميعها في موقع العمل باستثناء عمليتين هما التجليخ والنقش وأيضاً عملية طلاء الدبلة . حيث تتم كل عملية منهما في ورش متخصصة خارجية في حارة اليهود .والمراحل التسع نوجزها وفقاً للترتيب التالي : (١) التجليخ والنقش أو ما يطلق عليه الحرفيون «الترترة» . وتقوم بتلك المرحلة الأولي من مراحل الإنتاج ورشة فنية متخصصة في حارة اليهود . ويقصد بالتجليخ إزالة كل ما يعلق بالأسلاك النحاس أو ما يكسوها من مواد عازلة مثل طبقة الورنيش . فكما ذكرت - أن الأسلاك النحاسية المستخدمة في صناعة «دبل البخت» ، عبارة عن خامات سبق استخدامها بمواصفات معينة في المولدات والمحركات الكهربائية . ومن تلك المواصفات «تكسية» السلك بمادة الورنيش .وبعد عملية التجليخ تقوم الورشة الفنية «بنقش السلك» على شكل خطوط غائرة متقاطعة كي تعطي للدبلة شكلاً حسناً . وتعرف عملية النقش بين الحرفيين «بالترترة» ؛ (٢) «جدل السلك ولفه»؛

---

(١) وزارة الشئون الاجتماعية ، اللجنة القومية للمرأة ، بحث التكنولوجيا المستخدمة في الريف المصري ، ص ، ١٨٦ .

(٣) الصلادة باستخدام اللهب ويسمى الحرفيون تلك المرحلة «تسوية السلك» وذلك باستخدام غاز البوتاجاز ؛ (٤) سحب السلك باستخدام «الفتالة» ؛ (٥) القص في شكل أسياخ بطول ١٨ - ٢٠ سم لكل منها ؛ (٦) التفصيل في شكل حلقات بمقاسات محددة تناسب محيط إصبع اليد ؛ (٧) اللحام باستخدام المونة ، وهي عملية لحام طرفي السلك الدائري ليصبح دبلة ؛ (٨) طلاء الدبلة وذلك في ورش متخصصة في حارة اليهود ومملوكة للغير ، وفي هذه المرحلة يقوم الحرفي بإعداد الدبل المطلوب طلاؤها بأن توضع في طوق سلك وتبدو كشكل العقد ؛ (٩) التعبئة في أكياس من البلاستيك صغيرة الحجم لإعدادها للبيع . ويطلق الحرفيون على تلك المرحلة «التكييس» .

٦ - تقسيم العمل وتوزيع الأدوار

لا تأخذ عملية توزيع أدوار العمل في صناعة «دبل البخت» ، الشكل الرسمي من لوائح أو قواعد رسمية ، بل يقوم رب الحرفة بعملية التوزيع وفقاً لرؤيته الفنية وإلمامه بالمستوى المهاري لكل حرفي في موقع العمل . فإلى رب الحرفة ترجع سلطة توزيع أدوار العمل لكونه معلمهم ولأنه يباشر العمل معهم يداً بيد . وعلى الرغم من بساطة عملية إنتاج «دبلة البخت» إلا أن بعض مراحل الإنتاج تحتاج للخبرة الطويلة وبراعة العمل . وتعتبر المرحلة الأخيرة من العملية الإنتاجية أهم المراحل نظراً لأنها تتعلق بالشكل النهائي« لدبلة البخت» .ومن ثم يقوم بها رب الحرفة نظراً لخبرته الطويلة التي تزيد على ٥٥ عاماً منها ٣٣ عاماً قضاها في ممارسة الحرفة مع اليهود . كذلك يقوم بأداء المرحلة الأخيرة ابن رب الحرفة لما لديه من مهارة يدوية مكتسبة تم صقلها بما لديه من خلفية علمية أكسبته تذوقاً فنياً عالياً . ويشارك الاثنين في أداء تلك المرحلة زوج ابنة رب الحرفة نظراً لمهارته العالية وخبرته الطويلة على امتداد ٢٣ عاما قضاها في ممارسة الحرفية . أما باقي العمال الحرفيين فيقومون بأداء المراحل الأخرى في العملية الإنتاجية . ومن ذلك يتضح بساطة عملية تقسيم العمل وتوزيع الأدوار في صناعة دبل البخت .

أيضاً ، يقوم رب الحرفة بتوزيع الأدوار على الأطفال . حيث يقصر دورهم على غمس الدبل في المياه وهي عملية تعرف بين الحرفيين داخل الورشة بعملية «بل الدبلة». هذا بالإضافة إلى قيام الأطفال على خدمة الحرفيين بإحضار ما يحتاجون إليه من مشروبات ومأكولات وإحضار «الشيشة البلدي» كما يتضح ذلك من الصورة رقم (٦-٤).

٧ - أنماط التنشئة المهنية

من خلال مناقشة الثقافة الحرفية في الفصل الرابع ، نقول إن التنشئة المهنية Occupational Socialization تبدأ بالمعايشة الكاملة للأطفال للحياة الحرفية داخل وخارج موقع العمل . فالطفل يتربى في كنف معلمه الذي يشمله بالرعاية الاجتماعية والمهنية حتى يكتسب المعايير الحرفية ويقف على دقائق وأسرار الحرفة .

من جهة أخرى ، ومن خلال أقوال صاحب العمل يتضح افتقاد الصناعة لنمط التنشئة المهنية المستمرة والذي كان سائداً في ظل نظام الطوائف الحرفية . فعمالة الأطفال في «صناعة دبل البخت» أثناء إجراء الدراسة الميدانية ما هي إلا عمالة مؤقتة وفي الوقت ذاته تؤدى أدواراً هامشية لا تؤثر في العملية الإنتاجية بشكل مباشر . وحول إمكان تعلمهم فنون وأسرار الحرفة ، يقول رب الحرفة معلقاً على ذلك :

«دُولْ تلامذة ، أهاليهم فقراء وبيرْسُلُوهم لنَا ولْغيرْنَا في فترة أجَازات المدارس أو بعد ما تنتهي المدرسة كل يوم ومشْ ضَامن إن الولد من دُولْ ناوي يحط دمَاغه في الشّغلانة بتَاعتْنَا .. ودول غيرْنا زمان كان الواحد بيتْعَلّم بالضرب والأسْطَى زمان كان زَيّ أبونا تمامْ يضرَبْ أو يسبّ يعْمل اللي هُوّ عَاوْزُهْ حتى الواحد يشْربْ الصنعة .. لكن دلوقت لو زَعّقْت لولدْ منهم تيجي أمه أو ييجي أبوه ويْعاتْبوني ، ومُكن ما يبْعَتْهُوش ثاني عَنْدي ، مَعَ إن الشُغْلانة دي كويسة يعني الولد من دول باعطي له ستة جنيه أسبوعي ويَدُوْب كل شُغْلُه يُنْفُخْ النار ، أوْ يسَاعدْ في جَدلْ السلك أو يشوف طلباتنا من شاي أو قهوة أو شيشة».

يتضح من خلال أقوال رب الحرفة ، تقلص سلطة الأسطى التي كان يمارسها -إبان عصور ازدهار النشاط الحرفي - على الصبية في عملية التنشئة المهنية من أجل المحافظة على استمرارية الحرفة واحلال عمالة جديدة مدربة .

٨ - خصائص الحرفية في صناعة «دبل البغت»

(أ) الاعتزاز بالعمل الحرفي والاحساس بالاستقلال الذاتي

تكشف معطيات الدراسة الامبيريقية عن عدة مصادر تحقق للحرفي الإحساس بالاستقلال الذاتي كما تجعله فخوراً ومعتزاً بما يقوم به من نشاط وعمل . وتتمثل المصادر في المهارة اليدوية المكتسبة وقدرة الحرفي على الخلق والإبداع في مجال الحرفة واستمرار تحكمه الذاتي في كل ما يتعلق بشئون العمل وأوقات الفراغ والعمل . وكذلك إحساس الحرفي بالاندماجية والانتمائية للعمل الحرفي . كما يلعب التوارث المهني دوراً إيجابياً في الاعتزاز بالعمل الحرفي . ويمكن استخلاص تلك المصادر من خلال رؤية كل من صاحب الحرفة وأكبر الحرفيين بعده سناً وخبرة . وفي هذا الصدد ، يقول رب الحرفة موجهاً حديثه للباحثة : «شُوفي أنا عمري الآن ٧٣ سنة ولما كان عمري خَمَسْ سَنَوات كنت باشْتغلْ في نفس الشُغْلانة دي وفي حُلْقَان وكَرَادين نَحَاس . ولما زاد تَمَن النَّحاسْ ومَفيشْ مَعَايا فُلُوس قلت اشْتغل في شُغْلتي اللّي انْت شايفاها وأنا مَليش غيْرها وعلى الرّغم انّها محْتَاجَة صَبْر وخبْرة لكني سعيد وانا باشْتغلْها وبَعْدين الواحد بيشْتَغَل على أصُول، حُرّ نَفْسي وما أحبّشْ حد تاني بعد العمر دَهْ يتْحَكمْ فيّ» .

ويعقب أحد الصناع ، وهو زوج ابنة صاحب الحرفة على القول السابق ، ومستكملاً حديث معلمه فيقول : «بعد ما قَضيتْ عمري كله في الشُغْلانة ديْ ومَفيشْ حَدْ عَاوزْ يتْعَلّمْها وما بَاعرَفْش اقْرا ولا اكتب والحمد لله بنكْسَب منها ودي هيّ الحرفة اللي نفهم فيها ونحبها ولوَ سبْنَاها نبْقَي عَلَى رأي المَثَل اللي خَرَجْ من دَارُه اتْقَلّ مقداره» .

وعند سؤال «الأسطى» عن أسباب اختياره لصناعة «دبل البخت» دون غيرها من الحرف المثيلة في مجال خبرته الطويلة أجاب قائلاً :

«أنا طول حياتي كنت حرَفي ، يعني صَنَايْعي وكنت مع والدي الله يرحمه في طنطا وهو اللي عَلّمْني الصنعة بتَاعة الغَوَايشْ والكَرَادين والنّحَاسْ . وعَلّمني ازاي احْترِم شُغْلتي واحِبّها وعَشَان كدَه كان اليهود يحبوني ويشغلوني عندهم لأن مفيش حد مصري غير يهودي يقدر يسكن في الحارة أو حتى يدخلها أحياناً، ولما تأكّدُوا من حبي لشُغْلتى ومـاكَنْشْ لهم إلا الشُغل وبَس وأنا حر نفسي،ولما خرج اليهود من مصر وما كانش معايا فلوس كفاية يَعْني أجرْت المحل دَهْ اشتغل فيه وما أحبش أشتغل عند حد ودي ميزة الصّنْعة بتَاعتنَا وعلي قَدْ مَا تدّيها إخْلاص وفَهْم تدّيكي فلوس وتْخَليكي سعيدة جُوّاكي - يمكن دخلها أقل من غيْرها انما ظريفة وبعدين الشغل فيها ما يفْرقْش كتير عن شُغلتي الأولى وهيّ فرق الخامة فقط وكمان مُش محتاجة شُغل خرَاطة أو تَشْكيل في ورَشْ تانيهْ وحاجة تانيه كَمَان مُهمة هيّ إن دبل البخت لها أسواقها في كل البلاد سواء في القاهرة أو الأرياف ، الموالد والليالي الكبيرة ، مُولْد السيدة زيْنَبْ وسيدنا الحسين وأهل البيتْ والأولياء ، من زمان قوي وهيّ موجودة في مَصْر وهتسْتمِرْ على طُول والدبلة رخيصَه قوي والاولاد بيفرحوا بها وده برضه اللي خلاني أشتغل بها لكن للأسف الضرائب ما بْترْحَمْش» .

(ب) تكاملية الأدوار Integration of Roles **في صناعة «دبل البخت»**

تكشف بيانات الدراسة الميدانية من خلال أقوال المبحوثين في صناعة «دبل البخت» عن جوانب ثلاثة للتكاملية في الأدوار وأنشطة العمل الداخلية والخارجية .

١ - التكاملية في أدوار عملية الإنتاج

من خلال تناولنا لمراحل تصنيع «دبلة البخت» وتنظيم العمل داخل الورشة ، أوضحنا بساطة عملية تقسيم العمل . وأن إنتاج «دبلة البخت» تمر في مراحل إنتاجية متتالية مع انخفاض مستوى المهارة اليدوية المطلوبة في أداء كل مرحلة باستثناء المرحلة

الأخيرة . ونظرا لعدم حاجة العملية الإنتاجية لمستويات نوعية أو خاصة من المهارة اليدوية ، فيمكن لأي حرفي أن يقوم بالعمل الذي يقوم به زميله داخل الورشة . بمعنى أن أي حرفي من القائمين بعملية «التقفيل» يمكنه القيام بعملية «التموين» والعكس صحيح . وكما يذكر رب الحرفة ، أن مثل هذه التكاملية تحدث قليلاً في حالات تغيب أحد الحرفيين لمرض أو لأي عذر يحبسه عن الحضور للورشة . فالعمل لايتوقف وأي حرفي يمكنه القيام بعمل زميله الغائب دون امتعاض أو تبرم . لأن الجميع يحبون حرفتهم لكونها المصدر الأساسي لدخلهم ومصدر رزقهم . هذا ابالإضافة إلى ما يجمع الحرفيين من روابط القربى وعلاقات الود وسنوات العمل الكثيرة معاً داخل الورشة .

٢ - تكاملية في علاقات العمل الخارجية

تظهر بيانات الدراسة الميدانية عن وجود تكاملية واضحة في علاقات صناعة «دبل البخت» ببعض الورش الأخرى الفنية في حارة اليهود . وتسهم تكاملية العلاقات الخارجية في التغلب على مشكلات عدم توفر رأس المال بالقدر الذي يضمن استمرارية العمل في تصنيع «دبلة البخت» . فكما ذكرنا من قبل أن عمليتين من عمليات إنتاج «دبلة البخت» ، تقوم بهما ورش فنية خارجية تمتلك آلات ومعدات متخصصة للتجليخ «والترترة» وأيضاً لطلاء الدبلة . ومن ثم يصبح من الضروري أن تنشأ علاقة عمل خارجية بين ملاك ورشة تصنيع «دبلة البخت» وبين أصحاب الورش الفنية . ولا تأخذ تلك العلاقة شكلاً من أشكال التعاقد الذي يضمن استمرارية عملية تصنيع دبلة البخت دون توقف .

ومن خلال ما يذكره رب الحرفة حول علاقة العمل الخارجية مع الورش الفنية ، يتضح اتصاف تلك العلاقة بالتكاملية الواضحة والتعاون القائم على المودة وعلاقات الجيرة في حارة اليهود.فيقول رب حرفة تصنيع «دبلة البخت» معلقاً على تلك العلاقة: «كل الناس في الحارة قَلْبُهم على قَلْب بَعْض والحِرَفِي لازم يشيل أَخُوه . والواحد منا بيتْربط من لسانهُ ومَفِيش بينِي وبين أي صاحب ورشة عَقْد أو شروط مكتوبة بِكْفِي كِلمةْ شَرَف وبَسْ .وكَمَانْ مِشْ لازم أدْفع ثمن التَجْليخ أو التَرْتَرة إذا كان معايا بأدفع ولو

جزء وإذا ماكَانش مْعَايا صاحب الورشة ينْتِظِر لغاية ما ربنا يِسَهّلْ وأبيع الدبل وأعطي له حقُّه أو جزء من حَقُّه . ومفيش هنا حد بياكل حق حد تاني . والخراط بيْكُون عَنْدُه نُوتَه بِيَدوّنْ فيها كل حِسَاباتْنَا وحسابات غيرنا لأننا جميعا حَالتْنا المادية تقريباً واحدة . ولُولاَ كِدَه ماكُنَّاش هَنِقْدَرْ نِشْتَغْل وكان زَمَانّا واقفين، وأَهُهْ كُلنا بِنِشْتغل لما نِشيل بَعْض يَعْني هُوّه وَرْشِته هَتِشْتغل واحْنا كَمَان بِنِشْتغل وخِلاَف كده ما أظنش يمكن نِشْتغل» .

٣ - التكاملية بين أدوار العمل والأدوار الاجتماعية في الحياة اليومية

تتضمن أدوار العمل الحرفي الجانبين الرسمي وغير الرسمي معاً إلا أن الجانب الأخير أقوى نظراً لما تفرضه الأبعاد الثقافية والاجتماعية والاقتصادية على المشتغلين بالصناعات الحرفية في حارة اليهود من التحاور أو التحدث أكثر من مرة يوميا وفي موضوعات شتى أسرية ومعيشية سواء بين الحرفيين أنفسهم أو بين الحرفيين - خاصة رب الحرفة - وبعض أهالي المجتمع المحلي . ونظراً لأن صاحب الحرفة في صناعة «دبل البخت» يعتبر الأب الروحي لمعظم الحرفيين فمن حين لآخر كنا نشاهد أنّه كثيراً ما يحدث أنْ يأتي زملاء من أنشطة حرفية مختلفة للتحدث معه حول همومهم العائلية ومشكلاتهم وهو يقدم إليهم النصح كما يحاول أن يخفف من معاناتهم ، وأحياناً يقدم لهم المشورة حول بعض المشكلات التي تواجههم في العمل . وقد يشترك بعض الحرفيين داخل الورشة في تلك المناقشات إلا أن الشيء الجدير بالاهتمام هنا أن التحدث مع أفراد المجتمع المحلي لا يسبب تعطل العمل . فالأسطى يتحدث مع زميله أو مع الزائر بينما يداه تعملان في روتينية ومهارة واضحة . وعندما تقوم الباحثة بتوجيه بعض الأسئلة لأحدهم ، فإنه يجيب بينما يستمر في أداء عمله دون توقف .

أيضاً أسفرت المعطيات الامبريقية عن تداخل واضح بين أوقات العمل وأوقات الفراغ أثناء ساعات العمل اليومي ، كما يتضح ذلك من الصورة رقم (٦ - ٣) حيث يدخن رب الحرفة «الشيشة البلدي» أثناء ساعات العمل .

وبسؤال الأسطي عما إذا كان لديه التزامات من جانب الزبائن بخصوص إنتاج كمية محددة من الدبل يوميا أو حتى خلال مدة محددة يجيب قائلاً :

«طبْعاً مَفيْش عَلينَا أيّ التزامات احْنا بنشتغل زي ما احْنا عَايزْين طُول ما فيه خَامَةْ احْنا بنشْتَغَل لأنّنا تْعَوّدْنَا على كدَه ومَقْدرْش أقْعُد أحكي مع النّاس وأســيب شغلي أمّال أجيب فلوس منينْ وازّاي ادفع (١٨ جنيه) بس أسبوعي للصبيان الثلاثة . فحبي للصنعة ولأكل عيشي والتزاماتي لازم اشْتَغَل وبعدين الواحد يزهق لما يُقْعُد طول النهار يشْتَغَل منْ غير ما يتْكَلم مع حَدْ . يعني إحْنا هنَا مُشْ زي المصانع أدّي العامل أجَازة أو انّ العامل يتمارض» .

ثانياً : صناعة موقد الكيروسين «وابور الجاز»

مقدمـــة :

لاتعتبر صناعة موقد الكيروسين (والذي يعرف عند العامة بـ «وابور الجاز» ، من الصناعات التقليدية التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ المصري . بل تعتبر من حيث النشأة وليدة تطورات فنية أعقبت الثورة الصناعية مثل استخدام مشتقات النفط في أغراض منزلية وخدمية عديدة منها الموقد البلدي الذي يعمل بالكيروسين .

من جهة أخرى ، رغم التطور التقني الحديث في مجال تصنيع الأفران والمواقد مثل أفران البوتاجاز والأفران الكهربائية «والميكروويف» ، وإشاعة استخدام تلك الأفران في المنازل والمصانع ، فإن الطلب على «وابور الجاز» لايزال قائماً في الوقت الراهن . وذلك نظراً لرخص أسعاره وانخفاض تكلفة استخدامه . حيث يزداد الإقبال على شراء «وابور الجاز» من قبل الأسر الفقيرة خاصة في المناطق الريفية وفي الأحياء الشعبية بالمدن الكبرى مثل مدينة القاهرة . ولعل ما يدعم تلك الفرضية اهتمام القطاع الرسمي إلى جانب القطاع غير الرسمي بإنتاج «وابور الجاز» بمواصفات مهنية تضمن السلامة والأمان لكل من يستخدمه . حيث توجد ثلاثة مصانع بعضها ينتمي للقطاع العام والبعض الآخر للقطاع الخاص ، هذا إلى جانب أنشطة القطاع غير الرسمي في مجال الإنتاج الذي يواجه منافسة كبيرة حالياً من قبل المصانع الثلاثة في الأسواق .

١ - حول نشأة حرفة تصنيع موقد الكيروسين

من أقوال الإخباريين والمشتغلين بالحرفة ، يتضح أن حارة اليهود قد احتضنت تلك الحرفة منذ الخمسينيات . حيث كان أسطوات الحرفة يعملون في ورش داخل الحارة. وانه يرجع إلى هؤلاء الأسطوات الفضل الأول في تعليم ونقل فنون الحرفة وأسرارها لباقى الحرفيين سواء داخل حارة اليهود أو خارجها . وفي هذا الصدد ، يذكر أحد الإخباريين :«إن السمكرية الصُنّاع لوابُور الجاز كانوا بيشْتَغَلُوا هنا في حارة اليهود . والبعض منهم بعد مَا تْعَلَّم من الأسطوات في الحارة ، فتح ورشة لُهْ في مكان تاني والصنايعية في حارة برجوان في الخُرُنْفِشْ كان تعليمها الصنعة في حارة اليهود» .

ومن خلال مقابلة أحد الأخوة الثلاثة المشتغلين بصناعة موقد الكيروسين في حارة اليهود ، نجد ما يؤكد مقولة الإخباري السابقة . إذ يقول الحرفي :«أول صنايعي تْعَلّمْت على يَدُهْ الصنعة كان اسمه عبده لؤلؤ في وَرْشْتُه في حارة اليهود وكان الأسطى عبده أقدم سمكري وابور جاز في الحارة . والله يرحمه علم صنايعية كتير اللي منهم موجود وبيشتغل في الحارة زي حالاتي واللي منهم فتح ورشة وبيشتغل في الخُرُنْفِشْ».

وعند سؤال الحرفي إن كان قد استمر في التدريب والعمل مع معلمه الأول استطرد قائلاً :

«لما اشتغلت عَنْد الأسطي عبده لؤلؤ كانت شُغْلتي المُناوَلَه والتنظيف لأن سني كان سبع سنين . وطبعاً كان أنا وغيري بِنتْعَلم بالتوجيه أحياناً وبالقسوة والضرب أحياناً لغاية ما شِرِبْت الصنعة . وفضلت مع الأسطي عبده ١٧ سنة من عام ١٩٥٧ وبعدين اشتغلت عند الأسطي محمد السيد في الحارة أيضاً حوالي سبع سنوات وأخيراً اشتغلت أنا واخواتي مع بعض في الصنعة وعندنا الورشة بتاعتنا في حارة اليهود» .

٢ - مورفولوجية الورشة

هي عبارة عن ورشة صغير لا تتعدى مساحتها اثنين ونصف متر مربع وتتوسط عطفة صغيرة تربط بين عطفة درب نصير وأيضاً شارع الجامع في حارة اليهود . وهذه

المساحة لاتكفي لوضع الأدوات اللازمة لعمليات الجلخ والخراطة ، كما لا تتسع لمرحلة تجميع «وابو الجاز» . ومن ثم تتم هذه المرحلة على قارعة الطريق في عطفة درب نصير والتي تبعد قليلاً عن موقع الورشة ، كما يتضح من الصورة رقم (٦ - ٥) .

ومن ثم يستخدم أرباب الحرفة بطريقة غير رسمية جانب من طريق العطفة كموقع للعمل . ويتجاور هذا الموقع أيكولوجياً مع مقهى بلدى ، يفد إليه الكثيرون من الحرفيين وبعض المشتغلين بالأنشطة التجارية في حارة اليهود . لقد أسهم هذا التجاور الأيكولوجي في إحداث قدر كبير من التفاعل الاجتماعي بين المشتغلين في صناعة موقد الكيروسين والمترددين على المقهى البلدي . حيث أسفرت المعطيات الامبريقية عن تداخل علاقات العمل مع العلاقات الاجتماعية بفعل هذا التجاور كما يتضح ذلك من الصورة رقم (٦ - ٦) . حيث يتحاور أحد أرباب حرفة صناعة الكيروسين مع سيدة من سكان حارة اليهود أثناء ساعات العمل اليومية .

٣ - خصائص العمالة الحرفية في صناعة موقد الكيروسين :

تضم العمالة الحرفية ثلاثة أشقاء يعملون جميعاً في تجميع الموقد وتسويقه . ولا تضم العمالة الحرفية عمالة مأجورة . هذا بالإضافة إلى استعانة أصحاب الحرفة بثلاثة من الأطفال للقيام بعمليات المناولة ونقل المواقد إلى الورش الفنية ومنها إلى الورشة للتخزين . هذا بالإضافة إلى قيامهم بواجبات هامشية أخرى سوف نعرض لها فيما بعد. وبالنسبة للحالة الزواجية للحرفيين الثلاثة فجميعهم متزوجون ويعولون . وفيما يختص بالحالة التعليمية فالثلاثة لايعرفون القراءة والكتابة بينما يحرصون على تعليم أبنائهم بإلحاقهم بالمدارس القريبة من محل إقامتهم .

٤ - الخامات والمواد الأولية المستخدمة

(١) قطع من ألواح النحاس المخلوط بسمك ١ مم ؛ (٢) البلف وهو القطعة الأساسية في موقد الكيروسين التي تستخدم ماكينات باهظة الثمن في إنتاجه ويحتاج إلى مهارة عالية في إنتاجه ؛ (٣) أسياخ من النحاس المخلوط يتم تشكيلها واستخدامها أرجلاً لموقد الكيروسين ؛ (٤) "طارة الوابور" وتوجد ورش متخصصة تقوم



صورة رقم (٦ - ٥)
حرفي يقوم بتجميع «وابور الجاز» ويتخذ من
عطفة درب نصير امتداداً لمكان العمل



صورة رقم (٦ - ٦)
دور المقهى البلدي في إحداث التفاعل الاجتماعي
بين أرباب حرفة موقد الكيروسين وسكان حارة اليهود

بإنتاجها ، في حارة اليهود ؛ (٥) خام الأزير المخلوط والذي يستخدم في عملية اللحام أثناء تجميع موقد الكيروسين .

ويقوم الحرفيون في صناعة موقد الكيروسن بتدبير احتياجاتهم من الخامات والمواد الأولية من بعض شركات ومصانع القطاع الرسمي . حيث يتم شراء ألواح النحاس المستديرة الشكل من الشركة العامة للمعادن . وتكون الخامة ذات سُمك معين ومن سبيكة نحاس مخلوط بنسب معينة أيضاً ، بحيث تطابق الخامة المواصفات القياسية التي توصى بها وزارة الصناعة في مصر .

ويعتمد الحرفيون أيضاً على بعض شركات القطاع الرسمي في تدبير المواد الأولية الأخرى وقطع الغيار الأساسية اللازمة لعملية تجميع موقد الكيروسين مثل البلف والكبّاس . نظراً لأن عملية إنتاج كل من البلف والكبّاس تقوم بها ماكينات باهظة الثمن لا طاقة للحرفيين بها . فضلاً عن أن متوسط المساحة للورش الحرفية محدود جداً لايتسع لتشغيل تلك الماكينات .

وانطلاقاً من الاعتماد الأساسي لصناعة موقد الكيروسين على القطاع الرسمي في تدبير الخامات والمواد الأولية الضرورية للإنتاج ، فإن الحرفيين من خلال مناقشتهم حول عملية التدبير يثيرون بعض المشكلات التي تواجههم في هذا الصدد . إذ يذكر أحد الأخوة الثلاثة أصحاب الحرفية :

«مشكلتنا كبيرة جداً مع الخامة ، يعنى احنا مسجلين في الغرفة التجارية العلامة التجارية بريموس ، العروسة ، وروبسون وبننتج بنفس المواصفات تبعاً للعلامات دي زي القطاع العام بالضبط وعلشان كده المفروض نأخذ حصتنا من خام النحاس زي غيرنا ولكن للأسف المصانع الكبيرة تاخذ الخامة النظيفة تخانة ١ مم حسب المواصفات ولكن احنا ما يعطوناش إلاّ تخانة ٧٥ر مم ودي طبعاً أقل في الجودة وثانياً لأنها تزود خطورة انفجار وابور الجاز لأي سبب . وكمان أسعار الخامة كل يوم بتزيد عن التاني وياريت احنا قادرين نتحصل على اللي احنا عاوزينه» .

٥ - الأدوات المستخدمة في صناعة موقد الكيروسين

يمكن تقسيم الأدوات المستخدمة في صناعة موقد الكيروسين إلى مجموعتين:

(أ) المجموعة الأولى تضم الآلات التالية والموجودة في الورش الفنية التي تقوم ببعض المراحل الأساسية لتصنيع الموقد :(١) مخرطة تجميع والتي تقوم بتشكيل الخامة لتأخذ شكل موقد الكيروسين بأحجام مختلفة ؛ (٢) ماكينة حجر تجليخ مع استخدام ما يُعرف فنياً «بفورش التلميع »وهو سطح دائري خشن يقوم بإزالة كل ما يعلق بالسطح الخارجي لخامة النحاس المخلوط واكسابها لمعاناً وبريقاً ؛ (٣) مثقاب تزجه صغيرة ويستخدم لعمل فتحات ذات أشكال وأقطار محددة في هيكل موقد الكيروسين قبل مرحلة التجميع لتثبيت القطع الأساسية مثل الرقبة والبلف وغطاء فتحة الملء للموقد؛ (٤)موقد مدفع «وابور مدفع» وهو نوع من موقد يعمل بالكيروسين يتم تعديله بحيث يعطى كماً كبيراً من اللهب . وهو الموقد ذاته الذي يستخدم في صناعة دبل البخت ؛ (٥) مكبس صغير يستخدم في تطبيع أحرف الأسطح عند تشكيل الموقد لضمان عدم التسرب للكيروسين أثناء التشغيل والاستخدام .

(ب) المجموعة الثانية من الأدوات ويستخدمها الحرفي أثناء عملية التجميع . وتضم : (١) كاوية لحام بلدي ؛ (٢) موقد مدفع ؛ (٣) طقم مفتاح مقاسات مختلفة.

٦ - مراحل انتاج موقد الكيروسين

تمر عملية إنتاج موقد الكيروسين بعدة مراحل تشغيل متعاقبة . حيث تقوم الورشة الفنية العاملة في حارة اليهود بالمراحل الأولى لعملية الإنتاج بدءاً من خامة النحاس التي يقوم أصحاب الحرفة بشرائها من الشركة العامة للمعادن وفقاً للمواصفات التي ذكرناها من قبل . والمراحل التالية في عملية إنتاج موقد الكيروسين وتتألف من عمليات التجميع والفحص فيقوم بها الحرفيون أنفسهم وليست الورشة الفنية .

(أ) المراحل الأولى لعملية الانتاج والتي تقوم بها الورشة الفنية

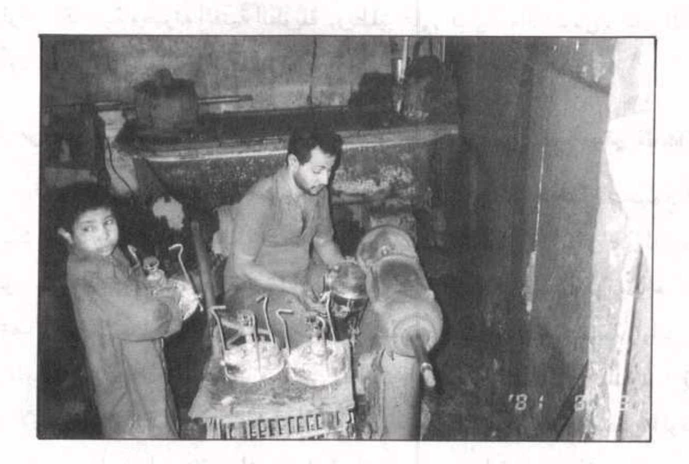
بعد أن يقوم الحرفي بإرسال خامة النحاس على شكل أسطح دائرية للورشة الفنية، تتم أولى مراحل عملية التشغيل وتعرف بين الحرفيين بعملية "التقريب" .

ويقصد بعملية «التقريب» التخلص من الأطوال الزائدة في خام النحاس والتوصل إلى الأبعاد والمساحة الكلية التي تطابق المواصفات النوعية لكل علامة من العلامات التجارية الشائعة في السوق المصري وهي بريموس ، العروسة ، ورويسون ، كما تتفاوت الأبعاد النهائية في عملية التقريب تبعاً للأحجام المطلوبة لمواقد الكيروسين من قبل أرباب الحرفة .

وبعد عملية «التقريب» ، تبدأ عملية «التقعير» للخام أي جعل قلب الخام المستديرة أكثر تقعراً من الجوانب . وتعرف تلك العملية بين الحرفيين بعملية "الصرة" . ويستخدم المكبس في عمل «الصرة» .وتتطلب تلك العملية مهارة عالية من الصانع الفني.

ويلي عملية «التقريب» ، عمليتان يطلق عليهما عمليتي «الجنب والتنعيم» . وتعني عملية «الجنب» : ثني أطراف خام النحاس بشكل دائري بحيث يسهل لحامها بقطعة أخرى دائرية من خام النحاس توضع رأسياً على أطراف «الصرة» وذلك بعمل خزان للكيروسين. وبعد ذلك تبدأ عملية «تنعيم» خام النحاس باستخدام جسم معدني خشن السطح يُعرف فنياً «بالفورش» . ويركب هذا الجسم المعدني الخشن على ماكينة حجر جلخ تعمل بمحرك كهربائي كما يتضح ذلك من الصورة رقم (٦ - ٧) . والغرض الأساسي من عملية التنعيم هو إزالة العوالق الزائدة فوق سطح الخامة ولاكساب الخامة بريقاً وأيضاً لإتاحة أسطح نظيفة وملائمة لعملية «اللحام »الجيد الذي لا يخلف عيوباً تؤدى إلى تسرب الكيروسين من خزان الموقد أثناء تشغيله .

وتنتهي المرحلة الأولي من مراحل الإنتاج بعمليتين ، إحداهما تُعرف (بالتقفيل شفه) والثانية عملية اللحام . وفي عملية (التقفيل شفة) يتم ثني الأطراف الملتقية لقطع الخامة النحاسية الرأسية مع قطعة الصرة ذات الوضع الأفقي وكذلك بين القطعة الرأسية الدائرية والقطعة النحاسية العلوية من الخزان والتي يعمل بها فتحات لتركيب ماكينة الموقد وفتحة الملء بالكيروسين .أيضا فإن عملية اللحام يتم خلالها القيام باللحام الجيد للشفة الدائرية التي تكونت من العملية السابقة وكذلك لحام ذلك الجزء العلوي ذى الفتحات . وبين كل عملية وأخرى يقوم الصانع بالتأكد من جودة اللحام بالاعتماد على



صورة رقم (٦ - ٧)
عامل في الورشة الفنية يقوم بتجليخ وتنعيم «وابور الجاز»



صورة رقم (٦ - ٨)
ثلاثة من الأطفال يقومون بعمليات تجميع مختلفة للماكينة

مهارته المكتسبة وخبرته الفنية الطويلة .ويطلق على عملية «التفتيش» على اللحام والتأكد من جودته بعملية «التعفيش» .

(ب) مراحل العملية الإنتاجية التي يقوم بها الحرفيون في موقع العمل

يقوم الحرفيون بعملية تجميع موقد الكيروسين . وتضم مرحلة التجميع أربع عمليات هي :(١) عملية تركيب أسطوانة رأسية تصل بين الخزان «الصرة» والماكينة . ويطلق على تلك الأسطوانة صغيرة الحجم "زور الموقد" ؛ (٢) عملية تركيب ماكينة الاشتعال فوق الأسطوانة الرأسية . ويطلق الحرفيون على الماكينة (عفشة الوابور) . ويتم تثبيتها يدوياً مع الاستعانة بإحدى أدوات الربط مثل (المفتاح البلدي) ؛ (٣) تثبت الأرجل النحاسية الثلاث بواسطة اللحام وذلك على المحيط الخارجي لصرة الموقد ؛ (٤) تركيب غطاء نحاس دائرى لتوجيه نيران الموقد وتجميعها في دائرة اشتعال محددة. ويعرف هذا الغطاء بين العامة "بالطربوش" ؛ (٥) تجميع ملحقات الكباس من وصلات معدنية وجلدية ثم تركيبه داخل التجويف المعد لذلك في خزان الموقد ؛ (٦) تركيب غطاء فتحة الملء لخزان الموقد ؛ (٧) تركيب صمام أمان الضغط الزائد في خزان الموقد وهو عبارة عن مسمار حلزوني الشكل له مقبض كبير مفلطح الشكل ؛ (٨) عملية الاختبار النهائية للموقد للتأكد من سلامته وعدم وجود أي تسرب من مواضع اللحامات؛ (٩) عملية التخزين للمنتج النهائي داخل الورشة الحرفية ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأطفال يشاركون في بعض عمليات التجميع البسيطة إلى جانب ما يقوم به الحرفي من عمليات أخرى كما يتضح ذلك من الصورة رقم (٦ - ٨) .

٧ - تقسيم العمل وتوزيع الأدوار

تعتبر الضغوط الاقتصادية والمنافسة التي يواجهها المنتج الحرفي في السوق المصري ، واعتماد الإنتاج الحرفي على القطاع الرسمي في تدبير احتياجاته من الخامات والمواد الأولية بالإضافة إلى تعدد مراحل العملية الإنتاجية ، عوامل ذات تأثير واضح على عمليتي توزيع الأدوار وتقسيم العمل في حرفة تصنيع موقد الكيروسين .

فاعتماد حرفة تصنيع موقد الكيروسين على القطاع الرسمي في تدبير الخامات وبعض المكونات الأساسية للموقد مثل الكبّاس والماكينة ، تؤثر بشكل كبير على كمية الإنتاج وانتظام العمل الحرفي . وللتغلب على المشكلات المتوقعة والتي قد تنجم عن العلاقة الاعتمادية ، يحاول الأخوة الثلاثة أن يقوموا بتوزيع أدوار العمل بينهم . ويتضح ذلك من خلال ما يذكره أكبر الأخوة سناً حول هذه المشكلة إذ يقول : «أنا واخواتي بنشْتَغَل مع بعض من عام ١٩٥٥ وطوال الفترة دي ولحد دلوقت بتواجهنا مشاكل الخامة . وأهم مشكلة ، الوقت الضايع للواحد منا علشان يروح وياخد حصته من النحاس ويَا عَالمْ بَقَهْ هَيَاخُدْها على طُول ولاَ يُروحْ كَامْ مِشْوار علشان يحْصَلَ عَلَى حصتُه . وعلشان كده أنا بقَسّم العمل بيني وبين إخواتي يعني واحد منّا يروح مرة والباقي بِشْتَغَلُوا في الورشة . وأحياناً واحد منا يروح يجيب الخامة والثاني يشيل البضاعة الجاهزة ويسافر بها البلاد في مصر . احنا هَنعْمِل إيه قُدَامْ ثلاث مصانع كبيرة بتنافس بضاعتنا » .

ويضيف الأخ الثاني معقباً على قول أخيه : «عندنا مشكلة كبيرة وهي أن القطاع العام يعطينا الخامة أقل في التخانة من المصانع الكبيرة يَعْني احْنا ناخد نحاس تَخَانَة (٧٥ر. مم) والمصانع تاخذ (١ مم) وطبعاً التخانة (١ مم) هي الأفضل والمتفق عليها من وزارة الصناعة . وطبعاً بنضطر بقه نبيع بضاعتنا أرخص شوية وندور لها على مشترى نُرُوْح له بنَفْسنَا » .

وفيما يختص بتعدد المراحل الإنتاجية وتأثيرها على عملية توزيع الأدوار ذكرنا أن العمليات التي تتطلب مهارة فنية عالية تتم في الورش الفنية بينما تقتصر عمليات التجميع واللحام والاختبارات على الحرفيين الثلاثة المشتغلين بصناعة موقد الكيروسين.

ومن ثم يمكن القول إنه باستثناء عمليات الخراطة وخطوات التشغيل التي تتم في ورش متخصصة ، تعتبر مستويات المهارة في مراحل التشغيل الثلاث المختلفة من المستوى البسيط ولا يوجد تقسيم عمل يقوم على التخصصية ، أما مخرطة الجمع لتشكيل موقد الكيروسين فإن مستوى المهارة للحرفي القائم بالخراطة يعتبر عالياً نسبياً إذا ما قيس بالمتوسط العام للمهارة في العمل اليدوي .

٨ - التنشئة المهنية وتنمية المهارة الذاتية في صناعة موقد الكيروسين

تظهر نتائج الدراسة من خلال المشاهدات الميدانية لما يقوم به الأطفال من أعمال وأنشطة في صناعة موقد الكيروسين وكذلك من خلال أقوال أرباب الحرفة ، إنه لايوجد نظام تدريب الصبية الذي كان سائداً في النظام الحرفي . ومن ثم لاتوجد برامج حالية لتنمية المهارة اليدوية للأطفال وتنشئتهم تنشئة مهنية تؤهلهم لفهم دقائق وأسرار الحرفة. وحالياً يقوم الأطفال في صناعة موقد الكيروسين بالأدوار والأنشطة التالية:(١) تخزين المنتج السلعي النهائي في جوالات توضع بجوار الأسطوات في الشارع بعد مرحلة التجميع؛(٢) إحضار ما تم لحامه وخرطه من المواقد من عطفة درب نصير إلى الورشة؛ (٣) القيام بعمليات تجميع «للبلف» وفتحة الملء بالكيروسين للموقد ؛ (٤) تلبية بعض الطلبات الشخصية العادية كإحضار الشاي أو خلافه من داخل حارة اليهود . كما أن عمالة الأطفال في هذه الصناعة . عمالة مؤقتة محدودة بالإجازة الصيفية وأحياناً خلال فترات التسرب اليومي من التعليم .

وبسؤال أحد الاسطوات القائم بتجميع "وابور الجاز" حول تعليم هؤلاء الأطفال . قال : «ماعَدْش زَيّ زمان ، كنا بننضرب علشان نتعلم وماكنش ورانا لا مدارس ولا غيرُه يعني أهالينا عاوزينا نِتْعلم الصنعة لكن الأولاد دُول علشان فُقَراء قوي أهاليهم بيبعتُوهم في الأجازات أو في أي يوم مايروحش فيه المدرسة . يعني دُولْ مشْ وشْ تَعْليم صَنْعَة ، اللهم إلا إذا أهَاليهم قالوا كدَه ، مع أن الصنعة حلوْه ويتْكَسِّبْ ، هو التعليم بيجيب ثمنه دلوقت ولامؤاخذه يعني في اللي بَقُولُه (علما بأنه أثناء التحاور معه مرّ علينا اثنين من أولاده علمتِ منه أنهما تلميذان في إحدى المدارس الإعدادية) ، يعني الصبي ده (وأشار على أحدهما) أبوه كان بيشتغل عندي أكثر من عشرين سنة وكان بيمسك فرشة يلمع بها الشغل وبعدين كبر في السن وقعد في البيت ولا مؤاخذه بقوا محتاجين فلوس» .

٩ - خصائص الحرفية في صناعة موقد الكيروسين

(أ) الاعتزاز بالعمل الحرفي والإحساس بالاستقلال الذاتي

تتضافر عدة مؤشرات من خلال اللقاءات مع الحرفيين الثلاثة وعلى فترات زمنية متباعدة لتؤكد الإحساس القوي لديهم بالفخر والاعتزاز بالحرفة التي يمارسونها بروح العائلة .كذلك توحدت إجاباتهم عن سؤال محدد تم طرحه على كل منهم يتعلق بعزوفهم عن الالتحاق بالمصانع الحديثة التي تختص بإنتاج مواقد الكيروسين وأسباب تمسكهم بالحرفة برغم ما يواجهونه من مشكلات . ونورد فيما يلي بعض المقتطفات من الإجابات والأقوال الدالة على افتخارهم القوي بالعمل الحرفي وأن تكون حريتهم الشخصية واستقلالهم الذاتي شرطاً أساسياً لممارسة نشاط العمل .

فعندما سألنا أحد الحرفيين الثلاثة عن اتجاهاته الخاصة نحو الالتحاق بعمل في أي من المصانع الحديثة التي تنتج موقد الكيروسين . وهل خطرت له مجرد فكرة من قبل في هذا الموضوع ؟ ابتسم قائلاً على الفور:

«هُوَّ فيه حَدْ بيْسِيبْ حِرْفِتُه اللّي حَبّها وفَنَي شَبَابُه فيها وحُرّ نفسه ؟ بعد كده يروح ويأخذ تعليمات من غيره ويؤدي أي عمل وخلاص؟ يعني مثلاً المصانع بتنتج كميات كبيرة من الوابور - لكن مُش زَيّنا من حيث المصنعية،يعني أهم حاجة في شُغْلِتْنَا الفن. إن الوابور ما يْنَفّسْ واللحامات تكون ممتازة يعني مثلاً لازم الواحد يقوم بعملية التعفْيش قبل لحام رقبة الوابور علشان أضمن أن اللحام كُوَيّس ومفيش أي تسرب يحْصَل . والصنعة على قد ما تخْدِميها تخْدِمكْ . يعني مش إنتاج كبير وخَلاص . بَسْ للأسف اللي مزَعّلنا إنْ أحياناً الخامة اللي بنحْتَاجْها ضروري تكون تخانة (١ مم) وللأسف الموجود دلوقت في السوق تخانة (٧٥ر٠ مم) وده خطر وممكن يسبب انفجار الوابور ودي عيبه كبيرة قوي في صنعتنا - وبعدين مَفيش أبداً أحسن من العمل الحر. وكل شيء بِأديكي وبْرَاحْتك في الشغل وحَسَب طَلَب الزبون نعْمل له اللي هُوَّ عَاوْزُه» .

وعندما طرحنا سؤالاً يتعلق باتجاهات الحرفي نحو السفر لدول عربية وممارسة نشاطه الحرفي الحالي بها أو ممارسة أي نشاط آخر بهدف جمع المال اللازم لزيادة رأس المال

المستثمر في ورشته الحالية ، جاءت الإجابة بالرفض القاطع دون تردد وبرر أسباب رفضه بارتباطه القوي بحرفته الحالية وارتباطه بأهل الحارة وأن عمله الحالي يحقق له كل الإشباعات .إذ يذكر أحدهم : «في شُغْلتنا دي اللي بسببْهَا بيْقَي مُشْ صَنَايْعي أصيْل لأنني باشْتِغلها من صُغْري ولما أسيبْها أحسّ إنني زَيّ السمك ولا مُؤاخذه لما يطلَعُوه من الميه . وليه أسافر واحُط نفسي تحت رَحْمة غيري يتحكم وينْهى ويأْمُر . أنا كده حر والحمد لله اللي دخلي من الحرفة أنا واخواتي يكفينا . وحتى لو ماكَنْش يكْفيني، ربّك مَابْيِنْسَاش حَدْ احْنَا هنَا في الحارة كُلْنا أهل.وكل الصنايعية ظروفهم واحْدَة وبنْشيل بَعْض . وبعدين الحرية في الشُغْل مَفيش أحسن منها ،أشتغل وأبطل شغل براحتي ومَاشْية مَسْتُورة والحمد لله . وعلى فكره كان ممكن لو حبيت اشتغل في أي مصنع هنا في مصر كنت اشتغلت وبعد الشغل آجي أشتغل في ورشتي مع اخْواتي . لكن برضه مشْ هَيْكُون فيه راحَهْ اشتغل حر نفسي أحْسَن ودَهْ أفْضَل حاجة في شُغْلتْنا » .

(ب) التكاملية فى أداء العمل

تتكامل الأدوار الإنتاجية في صناعة موقد الكيروسين على ثلاثة مستويات :

١ - على مستوى الأداء الحرفي في موقع العمل : تتداخل أوقات العمل فى أوقات الفراغ فلا توجد فواصل بينهما . كما يتضح ذلك من الصورة رقم (٦-٦). كذلك تتخلل الأنشطة الترويحية نشاطات العمل من تبادل الأحاديث في موضوعات لا تتعلق بالعمل مع زوار المقهى البلدي الملاصق لموقع العمل الحرفي ، كذلك تتخلل وقت العمل أنشطة خاصة مثل تناول الطعام والمشروبات الساخنة مثل الشاي والقهوة . أيضاً يمارس الحرفي بعض علاقاته الاجتماعية بينما يداه تعملان بمهارة واضحة في عملية تجميع موقد الكيروسين .

٢ - على مستوى علاقات العمل الخارجية مع الورش الفنية في حارة اليهود : أوضحنا فيما سبق ، أن عملية إنتاج موقد الكيروسين تتضمن عدة مراحل تتطلب كل مرحلة مستوي خاص من المهارة اليدوية . وأن المراحل الأولى والتي تتطلب مهارة فنية عالية نسبياً تقوم بها الورش الفنية في حارة اليهود .ومن ثم تنشأ

علاقات عمل دائمة بين الحرفيين في صناعة موقد الكيروسين وأصحاب الورش الفنية تقوم على أساس المصلحة . كما أن تلك العلاقات يقوي من دعائمها التجاور «الأيكولوجي» في العمل لفترات زمنية طويلة تقرب من نصف القرن . ولا تقتصر علاقات العمل مع الورش الفنية عند المراحل الأولى فقط للعملية الإنتاجية ، بل قد تظهر بعض المشكلات في عملية التجميع التي يقوم بها الحرفيون تتطلب أخذ مشورة الورش الفنية دون مقابل مادي . كما أن علاقة العمل بينهما لا تحددها عقود أو شروط ملزمة بل تعتمد على الاتفاق مشافهة بينهما مثلما يحدث بين الورش الفنية وباقي الصناعات الحرفية الأخرى في حارة اليهود مثل حرفة «دبل البخت» .

٣ - على مستوى الأدوار المتداخلة ، يقصد بالأدوار المتداخلة قيام الحرفي بنشاطات متعددة من تسويق وشراء الخامات وأيضاً نشاط الإنتاج اليومي لموقد الكيروسين ، فالحرفيون الثلاثة يتبادلون تلك الأدوار فيما بينهم دون التزامات محددة ويرجع إلى المنافسة العالية من المصانع الكبيرة الفضل الأول في تداخل أدوار العمل ، كذلك يرجع إلى اعتماد الحرفة على القطاع الرسمي في تدبير احتياجاتها من المواد الخام الأثر المضاعف في زيادة نوعية هذا التداخل .

ونورد فيما يلي فقرة من أقوال أحد الحرفيين التي تظهر مدى تأثر أدوار العمل بعوامل المنافسة العالية من المصانع الحديثة في سوق المنتج الحرفي .«طبعاً لما المصانع اللّي بتْعمل وابُور الجاز زَادْ عَدَدْها وأصبحوا ثلاثة أثّر علينا جداً وبعد ما كان التُجار بييجُوا لحَدْ عندنا في حارة اليهود ونْبيع لهم بالسعر اللي يعجبنا ، دُولَتْ إحْنا اللي بِنْسافر للاسْكَنْدرِيّه وطنطا والمنصورة علشان نبيع شغلنا يعني تَعَبْ وتَضْييع وقت لأنُه كان في إمْكَانّا زيادة الإنتاج ومُشْ عارف ليه الحكومه ما بتنظمش شُغلنا مع المصانع دي ويأخذوا الضرائب اللي هُمّ عايزينها » .

٤ - نمط المهارة وتنمية القدرة الذاتية في صناعة موقد الكيروسين : رغم تعدد مراحل العملية الإنتاجية وتفاوت المستويات المهارية المطلوبة لأداء كل مرحلة فإن مراحل تجميع موقد الكيروسين وإن كانت تتطلب مهارة عالية

نسبياً إذا ما قيس ذلك بمستوى المهارة في صناعة «دبل البخت» ، إلا أنها تعتمد على خبرة الحرفي ومهارته اليدوية . ومن ثم يمكن القول إن المهارة اليدوية لاتزال لها مكانتها العالية في النشاط الحرفي كسابق عهدها . كما لايزال الصانع الحرفي هو الوحدة المهنية لتنظيم العمل الحرفي .

ومن خلال المشاهدات الميدانية لتنظيم العمل وأسلوب الأداء نقول إن مختلف الأدوار تؤدى بشكل تكراري دون أي ابتكار أو تطوير سواء في أسلوب الأداء أو في الأدوات والآلات المستخدمة في مراحل عملية الإنتاج .

أيضاً تفتقد صناعة موقد الكيروسين لمصادر تنمية القدرة الذاتية ، سواء بالنسبة للأطفال أو للحرفيين أنفسهم . وعمالة الأطفال غير دائمة ودوافعها اقتصادية بحتة ، حيث تلجأ الأسر الفقيرة إلى استغلال أطفالها كمصادر دخل إضافية لمواجهة ظروفهم المعيشية .

ثالثاً : صناعة منتجات خان الخليلي (المشغولات النحاسية فقط)

نبذة تاريخية

برع صناع مصر في العصر الفاطمي في صناعة المعادن والتحف المعدنية ، فعُرفت الفسطاط بصناعة الحديد المستورد من أوربا ، وصقلية ، وشمال إفريقيا ، كما عُرفت تنيس بصناعة المقصات والسكاكين . أيضاً كان المصريون يصنعون المرائي المصنوعة من الصلب والمحلاة بالذهب والفضة والمحلى بعضها بالأحجار الكريمة . أيضاً راجت صناعة الذهب والفضة اللتين استخدمهما الصناع في صنع الحُليّ والسروج والسيوف واللجم وقلائد وأطواق لأعناق الخيل ، فضلاً عن تذهيب المصاحف[٢] .

---

(٢) تقي الدين بن ابي العباس المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، ص ٤٧٨ ، انظر أيضاً حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٥٤٤ .
ذكر المقريزي في معرض وصفه لخزائن السروج ، نقلاً عن ابن الطوير قوله «... خزانة السروج تحتوى على ما لا يحتوى عليه مملكة من الممالك وهي قاعة كبيرة بدورها مصطبة علوها =

بالإضافة لصناعات الذهب والفضة والصلب ، عرف عن الصناع المصريين إتقانهم لصناعات النحاس والبرونز .ونظراً لتأثر المصريين بالأسلوب الساساني فقد كانت الأباريق التي تصنع من النحاس على شكل حيوان أو طائر مثل التي كان يستخدمها القساوسة في غسل أيديهم قبل القداس . وكذلك استخدم المصريون النحاس في إنتاج أشكال مختلفة من الأطباق منها ماهو مكفت بالفضة أو بالذهب . كما تم استخدام النحاس في براعة في صنع بعض التماثيل والطيور مثل العقاب المزخرف بالحضر والمزين بشريط من الكتابة العربية التي تحمل عبارات الاطراء أو المدح لصاحب التحفة (٣).

ويتضح اهتمام الفاطميين بصناعات المعادن من حرصهم على توفير خامات النحاس والرصاص والبرونز والحديد والفولاذ في خزائن تُعرف بدار الوكالة كانت ضمن خزائن الدولة ، وعندما شرع بدر الجمالي في إقامة مرصد للكواكب في قلعة الكبش (حالياً) ، فقد عُنى بتدبير متطلبات هذا المرصد من دار الوكالة من نحاس ورصاص وحديد وفولاذ (٤).

ويرتبط بصناعات المعادن صناعة التكفيت . فقد عُرف عن المصريين في العصر الفاطمي حذقهم للتكفيت . وكان عدد من الحوانيت تعمل بالتكفيت بنوعيه البارز

= ذراعان ومجالها كذلك وعلى تلك المصطبة متكآت مخلصة الجانبين على كل متكأ ثلاثة سروج متطابقة وفوقه في الحائط وتد مدهون مضروب في الحائط قبل تبييضه وهو بارز بروزاً متكئاً عليه المركبات الحلى على لجم تلك السروج الثلاثة من الذهب خاصة أو الفضة خاصة أو الذهب والفضة وقلائدها وأطواقها لأعناق الخيل وهي لخاص الخليفة وأرباب الرتب ما يزيد على ألف سرج ... وأما الصاغة فإنها فيها منهم من المركبين والخرّازين عدداً جمّاً دائمين لا يفترون عن العمل ...» انظر : المقريزي ، مرجع سابق ، ص ٤١٨ .

(٣) حسن إبراهيم ، مرجع سابق ، ص ٥٦٣ .

(٤) ذكر المقريزي في حديثه حول إنشاء المرصد في قلعة الكبش ، أن بدر الجمالي بعد أن أعجب بتصميم المرصد لأحد المهندسين البارزين أصدر الأمر العالي إلى دار الوكالة من خزائن السلطان لاطلاق ... مائتي قنطار من النحاس التجر وثمانين قنطاراً من النحاس القضيب الأندلسي وأربعين قنطاراً من النحاس الأحمر ومن الرصاص ألف قنطار ومن الحطب ومن الحديد والفولاذ من الصناعة ما لعله يحتاج إليه ومن الأخشاب ومن النفقة مائة دينار على يد شاهر ينفق عليه ...» انظر : المقريزي ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

والمحفور في مكان يُعرف بسوق المكفتين بالقاهرة ويقصد بالتكفيت عملية تطعيم الأواني النحاسية بالذهب والفضة(٥) .

ومن بين صناعات خان الخليلي ، وقع الاختيار على صناعة المشغولات النحاسية ذات النقوش البارزة والمحفورة - والتي من بينها ما يُكَفَّتُ بالفضة أو بالألومنيوم أو منها ما لا يكفت - لتكون مجالاً لدراسة الخصائص الحرفية بين الثبات والتغير . ولتستكمل عينة الدراسة من الصناعات التقليدية في حارة اليهود المجال الثالث والأخير من الأنشطة الحرفية .

وتتضمن عينة الدراسة ثلاث ورش حرفية للمشغولات النحاسية تم اختيارها بطريقة عمدية وهي : ورشة خراطة المعادن ، ورشة النقش البارز للمشغولات النحاسية ، وأيضاً ورشة النقش المحفور للمشغولات النحاسية . ولقد تم اختيار الورش الصناعية الثلاث للاعتبارات التالية :

١ - لاتوجد سوى ورشة واحدة لخراطة المعادن وإنتاج المشغولات النحاسية المنقوشة بالحفر وبالبارز ، في حارة اليهود . وتعتبر هذه الورشة أكبر الورش الإنتاجية لهذا النوع من المشغولات من حيث المساحة وعدد العمال .

٢ - من خلال أقوال الإخباريين والملاحظة المباشرة أثناء الزيارات الاستطلاعية لحارة اليهود ، يتضح أن جميع الورش الحرفية في صناعة المشغولات النحاسية تعتمد اعتماداً أساسياً على ورشة خراطة المعادن في مراحل الإعداد الأولية لخام النحاس وتشكيله .

٣ - باستثناء المراحل الأولية لإعداد خامة النحاس في الورش الفنية ، نجد أن جميع الورش الحرفية تقوم إما بعمليات النقش البارز أو المحفور للمشغولات النحاسية أو بكليهما معاً ، مثل ورشة خراطة المعادن .

---

(٥) حسن إبراهيم ، مرجع سابق ، ص ٥٩٣ .

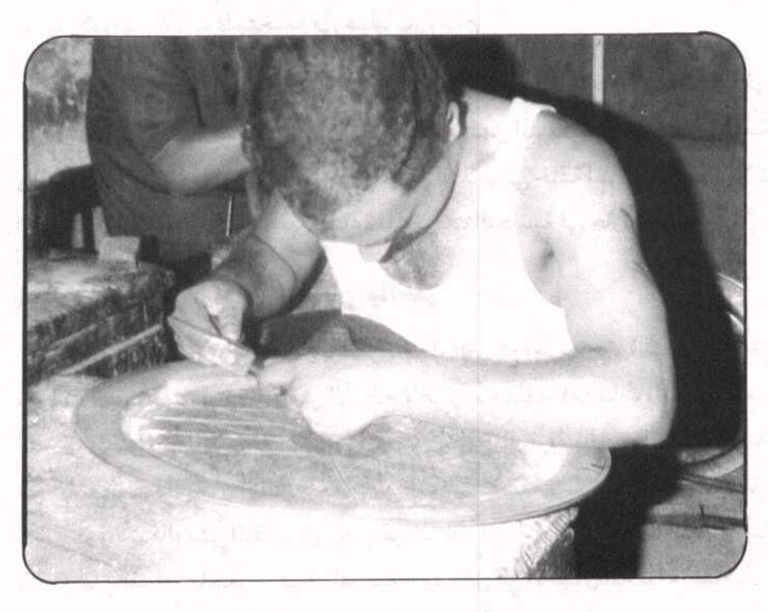
٤ - أن تتباين عينة الصناعات الحرفية من حيث حجم العمالة . مساحة الورشة نوعية الأدوات والآلات المستخدمة في عمليات الإنتاج .

ولكي نتحاشي مغبة الإطالة في مناقشة الخصائص الحرفية إذا ما عرضنا لها في كل ورشة على حدة ، فقد آثرنا أن نعرض في مستهل المناقشة للخصائص العامة والبيانات الأولية لكل ورشة . ثم نجمل الورش الثلاث في خاتمة المناقشة بتفصيلات الخصائص الحرفية التي تتصف بها صناعة المشغولات النحاسية في حارة اليهود .

١ - ورشة النقش على المعادن بالحفر

يقصد بالنقش على المعادن بالحفر ، قيام الصانع الحرفي - وباستخدام بعض الأدوات البسيطة - بزخرفة ونقش الأسطح لأطباق مختلفة المقاسات والمصنوعة من النحاس المخلوط بأسلوب الحفر . بمعنى أن تكون خطوط الزخرفة والرسومات غائرة قليلاً عن الأسطح . وقد يكون النقش بالحفر على أشكال مختلفة وعلى مشغولات مختلفة الأحجام والأشكال مثل النقش على أصيص نباتات الزينة . إلا أن معظم إنتاج ورشة النقش على المعادن بالحفر - قيد الدراسة - يتمثل في الأطباق المختلفة المقاسات والمصنوعة من النحاس المخلوط . وتوضح الصورة رقم (٦ - ٩) أحد الحرفيين بالورشة يقوم بالنقش على طبق نحاسي كبير الحجم .

وقد تتخلل عملية النقش عملية أخرى يتم خلالها ملء الرسومات الغائرة أو بعض منها بالفضة السائلة أو باستخدام الألومنيوم . ويطلق على تلك العملية التكفيت بالفضة أو التكفيت بالألومنيوم . ونظراً لارتفاع أسعار الفضة فإن التكفيت يتم حالياً بالألومنيوم ، ووفقاً للعرض والطلب . وحول عملية التكفيت يقول أحد الحرفيين بالورشة : «إحْنا بِنْقُوم بِنَقْش الأطباق بأشكالْ مختلفة وحَسَب طلب الزبون ممكن نطَعّمْها لُهْ بالفضة أو بالألومنيوم . وفي الحقيقة إحنا مَابْنِسْتَخْدِمشْ الفضة في التطعيم (التكفيت) إلا حسب الطلب لأن الفضة غالية» .



صورة رقم (٦ - ٩)
حرفي يقوم بالنقش بالحفر على صينية كبيرة الحجم
من النحاس الأحمر

(أ) مورفولوجية الورشة

تقع ورشة النقش على المعادن بالحفر في عطفة المارستان على يمين القادم من شارع المقاصيص وتحتل الورشة مساحة صغيرة جداً لاتتعدى مترين ونصف المتر المربع من الطابق الأرضي لمبني قديم متهالك لايزال يحمل أثاراً من فن العمارة الإسلامية . وحول نشأة الورشة وموقعها الحالي ، يقول رب الحرفة وصاحب العمل : «كل ما أعرفه عن تاريخ الورشة أنْ جَدي كان يعمل بالصنعة في نفس الورشة ووَالْدِي تعلم منه وورث المحل والعمل من بَعْدُه وأنا بدوري تْعلْمت الحرفة عنهما وكنت باشْتَغَل في الورشة دي وأنا عندي ست سنوات» .

وفيما يختص بالدور الذي يلعبه موقع ورشة النقش بالحفر على المعادن في احداث التفاعل الاجتماعي مع باقي الأنشطة الأخرى في حارة اليهود يمكن القول أن عدداً من العوامل تتضافر معاً لتقليل هذا التفاعل نسبياً إذا ما قورن بالتفاعل لورشتى «دبل البخت» و «موقد الكيروسين» .ومن أهم تلك العوامل : أولاً ،أن طبيعة عملية النقش تتطلب تركيز البصر والانتباه الشديد نظراً لدقة النقش وتقاطع الرسومات الزخرفية ؛ ثانياً ، أن موقع الورشة في عطفة المارستان حيث لاتوجد ورش مجاورة أو محال تجارية تزيد من فرص التفاعل بين روادها والحرفيين في ورشة حفر المعادن . ومن ثم تنحصر العلاقات الاجتماعية برغم قلتها مع بعض الحرفيين في ورشة خراطة المعادن والتي تقع في حارة المارستان قبالة ورشة النقش بالحفر على المعادن ؛ ثالثاً ، انخفاض عدد العمال الحرفيين وصغر مساحة الورشة .

(ب) العمالة الحرفية

تتألف العمالة الحرفية من ثلاثة حرفيين بالإضافة إلى رب الحرفة وصاحب العمل. وتربط الجميع صلة القرابة . هذا بالإضافة إلى طفل واحد يتعلم فنون الحرفة . ولا تتصف العمالة الحرفية بالأمية بل إن صاحب العمل يحظى بدرجة عالية من التعليم ويعمل منذ سنوات في إحدى الصحف المصرية . ومع ذلك فهو يتواجد بانتظام في الورشة بعد فترة العمل الرسمية في الصباح . كما قد يرتاد الورشة خلال الصباح على

فترات متقطعة وفقاً للإجازات التي يحصل عليها من عمله بالجريدة . وتتراوح أعمار الحرفيين في ورشة النقش على المعادن بالحفر بين ٢٥ عاماً و ٣٧ عاما فالجميع من فئة السن النشط للعمل ولايزيد متوسط عمر الحرفيين الثلاثة عن ٢٦ عاما . ويعتبر انخفاض متوسط عمر الحرفيين في ورشة النقش ، ظاهرة هامة تنفرد بها إذا ما قورنت بمتوسطات العمر في صناعتي «دبل البخت» وموقد الكيروسين .

الأدوات المستخدمة في النقش : شاكوش - أقلام من صلب الهواء - تزجه خشبية والأدوات المستخدمة موضحة في الصورة رقم (٦ - ٩) وباستخدام الحرفي لها في نقش أحد الصواني النحاسية .

المواد الأولية المستخدمة : مشغولات نحاسية من النحاس الأحمر المخلوط بأشكال مختلفة أكثريتها الأطباق وبعض «الغازات» التي تستخدم في تزيين المنازل .

(جـ) الخبرة والمهارة المكتسبة

من خلال الحوار مع الأسطى حول تاريخ ممارسته للحرفة وكيف تعلمها أجاب قائلاً: «لقد ورثت تلك الحرفة عن أبى وجدي وأعمل بالحرفة منذ كان عمرى ست سنوات وبرغم أننى أعمل حالياً بأخبار اليوم إلا أننى أمارس الحرفة في أيام الأجَازات وبعد انتهاء عملي في الجريدة لأن شُغْلتى في الواقع وَفَاء مني لوالدي وجدي والشغل الحر مَفِيْش أحسن منه . لكن الزمن تغير يعنى أنا دلْوقت متزوج وعندي ٣٧ سنة ولي ثلاثة أولاد كلهم في التعليم» .

وحول تعليم العمال الثلاثة فنون الحرفة يقول رب الحرفة : «لقد قمت بتعليمهم الصنعة وأصبحوا كُويسين جداً فيها دلْوقت علشان شُغلتى الحالية بأعْتمد عليهم في تخليص الشغل اللي بيجي من عند ورشة الخوانكي وعمل حاجات ثانية خاصة بنا نقوم ببيعها وفيه شغلاتات معينة محتاجة دقة أكثر ودي اللي أنا أقوم حسب طلب الزبائن خاصة الأجانب» .

(د) تقسيم العمل وتوزيع الأدوار

نظراً لأن عملية النقش بالحفر على المشغولات النحاسية ليست متعددة المراحل فإن التخصصية خلالها وتقسيم العمل يصلان إلى أدنى حد من البساطة وعدم التعقيد. وذلك رغم ما تتطلبه عملية النقش من مهارة يدوية عالية تعتمد على موهبة الصانع وقدرته الخلاقة ومدى تحليه بالصبر . فقد تستغرق عملية النقش ساعات كثيرة من العمل المتواصل والدقيق في آن واحد . ولذلك فقد لاحظت الباحثة قلة الأحاديث الجانبية بين الحرفيين إلا للضرورة أو عند تكليف الصبي بعمل ما . لأن طبيعة العمل تتطلب أيضاً التركيز وحيث تتبع الرسوم والزخارف أشكالاً دقيقة الصنع وذات خطوط متداخلة .

وتتصف طبيعة الأداء الحرفي مثل الحرف الأخرى التي تناولناها - بعدم الفصل بين وقت العمل ووقت الفراغ . رغم عدم وجود تخصصية في عملية النقش حيث يقوم الحرفيين بانتهاج أسلوب واحد في عملية النقش ولا يتميز أحدهم على الآخر من حيث التخصصية في أداء بعض مراحل العملية الإنتاجية - رغم هذا - فإن الحرفي خلال وقت الفراغ الذي يقتطعه لتناول الفطور أو لأي عذر آخر ضروري ، لا يكلف زميلاً له باستكمال ما قام به من عمل . بل يتولى كل حرفي مسئوليته الخاصة في نقش ما بين يديه من مشغولات نحاسية خام .

من جهة أخرى ، يذكر الحرفيون أن عملية التكفيت يمكنهم القيام بها كاملاً مع عملية النقش إلا أنه في بعض الحالات التي تتطلب التكفيت بالفضة وبأشكال ورسومات خاصة فإن مثل هذا العمل يوكل برمته لرب الحرفة حيث يتولى بنفسه القيام بها .

٢ - ورشة النقش البارز على المشغولات النحاسية

تقوم ورشة النقش البارز على المشغولات النحاسية بالنوع الثاني من النقش على المعادن باستخدام الطَرْق . ويصاحب عملية الطَرْق للمعدن أصواتاً قوية قد تصم الآذان . إلا أن الحرفيين قد ألفوا حياة العمل وتعايشوا مع الحرفة بشكل كامل . وكما أظهرت

المشاهدات الميدانية فإن الأصوات المصاحبة لعملية طَرْقْ المعادن تحول دون حدوث علاقات في مكان العمل إلا في حالات توقف الطَرْقْ فقط .

وتقوم الورشة بالنقش البارز لمختلف أحجام وأشكال المشغولات النحاسية الخام مثل أصيص نباتات الزينة الكبير الحجم المصنوع من النحاس الأحمر واللوحات النحاسية ذات النقش البارز .

وترتبط بعملية النقش البارز ، عملية التكفيت بالفضة أو بالألومنيوم مثلما يحدث في ورشة النقش بالحفر على المشغولات النحاسية . ويرتبط التكفيت بحاجة السوق وطلب العملاء .

(أ) مورفولوجية الورشة

تقع ورشة النقش البارز على المشغولات النحاسية داخل احدى الوكالات القديمة وفي الجهة المقابلة لعطفة المرستان . وتمثل الورشة مبنى قديم من دور واحد يمتد متصلاً على هيئة مستطيل تتخلله ممرات للدخول والخروج إلى شارع خان أبو طاقية . وداخل المبنى توجد ورش أخرى ومخازن لخام النحاس .

ومن الملاحظ أنه برغم التجاور الإيكولوجي بين ورشة النقش بالبارز على المعادن وعدد من الورش والمخازن ، إلا أن التفاعل بينهم يكاد ينعدم بسبب طبيعة العمل في حرفة النقش البارز . حيث يصاحب عملية طرق المعادن أثناء النقش البارد ضوضاء عالية يصعب معها حدوث علاقات بين الحرفيين أنفسهم داخل الورشة أو بينهم وبين باقي العاملين في الورش المجاورة .

وتحتل الورشة مساحة محدودة جداً من الأرض لا تتعدى ٣ م^{٢} . وتتكدس فيها كميات كبيرة وأصناف غير متجانسة من المشغولات النحاسية الخام وبعض الأدوات القديمة التالفة بالإضافة إلى أماكن ممارسة عملية النقش بالطرق حيث يجلس ثلاثة من الحرفيين وسط بيئة عمل لا تتصف بالنظام والترتيب .

(ب) العمالة الحرفيـة

تضم ورشة النقش البارز للمشغولات النحاسية ثلاثة من الحرفيين يصل متوسط أعمارهم ٢٥ عاماً . بالإضافة إلى اثنين من الأطفال تحت التدريب ، وتغلب الأمية على العمالة الحرفية . كما لاتوجد بين أفرداها صلات قربى .

(جـ) المواد الأولية المستخدمة

النحاس الأحمر المطروق . ولا يتم شراؤه إلا حسب الطلب .

(د) الأدوات المستخدمة

في النقش البـارز على النحـاس المطروق : (أ) قلم تطعـيم رأس (العـمليـة التكفيت) ؛ (٢) قلم نقش بارز مائل ؛ (٣) سندال ؛ (٤) شاكوش - دُقْمَاق خشب .

(هـ) تقسيم العمل وتوزيع الأدوار

ما قـيل حول تكامليـة الأدوار وتقسيم العمل في ورشة النقش بالحفر قـد يقال أيضاً على ورشة النقش البارز على المشغولات النحاسية . فتقسيم العمل من النوع البسيط لايقوم على التخصصية . كما أن في مقدور أي حرفي أن يقوم بالعمل الذي يقوم به زميله في الحرفة . إلا أن ذلك لا يحدث إلا في حالات التغيب عن العمل أو لأي عذر قهري آخر .

وبالنسبة لعمالة الأطفال ، فيقتصر دورهم على عمليات التنظيف والترتيب لموقع العمل والقيام بتجميع المنتجات في داخل الورشة . هذا بالإضافة إلى قيامهم بمساعدة الحرفي أثناء عملية الطرق .

(و) المهارة اليدوية والخبرة المهنية المكتسبة

يعتبر رب الحرفة هو صاحب الورشة . كما أنه أكبر الحرفيين سناً وأكثرهم خبرة ودراية بفنون الحرفة . ومن خلال المقابلة يتضح من أقواله أن اكتساب الخبرة وتعلم فنون الحرفة تعتمد على التوارث المهني والتدريب العملي . منذ الطفولة داخل الورشة تحت

رعاية ومباشرة أسطوات الحرفة . ومن بين ما يذكره رب الحرفة في هذا الصدد قوله : «في شُغْلتْنا الصنّايعي هُوّ كل حاجة : مهارتُه وخبْرتُه الطويلة وقُدْرتُه الإبداعية ، والصبر ، والتركيز . دي أهم العوامل في شُغلتنا أما الأدوات فهي بسيطة جداً عبارة عن أقلام نقش من صلب الهوا . والصنايعي طبعاً بيْحس بمكَانْتُه وقيمْتُه لأن الشغل بيعتمد عليه اعتماد كلي . حتى الأقلام اللي بيستعملها بِقْدر يعْرَفْ اللى بِصلّح للشُغْله واللى ما يَصلّحْش . ويقدر يقول بإحساسه وخبْرُته الخاصة إذا كان القلم محْتَاج تجليخ للسن بتَاعه أو مْش محْتَاج . وكَمَانْ بِقْدر يعْرَف نوعية الخامة اللي بينْ إيديه وهل ممكن تستحمل الحفر بالقلم أو بحْصَل شْرُوخ» .

كذلك من بين ما يذكره صاحب ورشة النقش البارز قوله : «الأدوات اللي بنشْتَغَل بيها بسيطة وموجودة في ورش كتيرة إلا الأقلام بتاعة النقش البارز لها شكل معين . لكن المهم في الصنايعي خِبْرتُه، هي كل حاجه . وبالنسبة لعملية التطعيم (يقصد التكفيت) بالفضة أو بالألومنيوم طبعاً حَصَل لها تطوير كبير يعني في الخمسينات كنا نستَخْدِم مادة البلاك (الزفت) علشان تثبيت النقش المطَعّم بالفضة وكنا نعرف زملاء المهنة من بقع البلاك على وجهه وملابسه . وبعد كده بدأنا نستَخْدِم قطع مسطحة من الخشب بدلاً من البلاك في عملية التثبيت وكمان بنستخدم أحياناً قرص معدني للضغط على النقش المطعم» .

٣ - ورشة خراطة المعادن

مقدمـــة

قد يبدو للوهلة الأولى أن ورشة خراطة المعادن هي التي تختص بخراطة مختلف أنواع المعادن . ومن ثم فإن نشاطها يقتصر على الخراطة فقط . وهذا في الواقع ليس صحيحاً على إطلاقه . فورشة خراطة المعازن - والتي تم اختيارها بطريقة عمدية ضمن عينة الدراسة الحالية - هي ورشة حرفية كبيرة من حيث المساحة وعدد العمال نسبياً ، تقوم بما تقوم به ورش النقش على المشغولات النحاسية إضافة إلى ما تقوم به من عمليات خراطة وتشكيل خام النحاس المخلوط ليتحول إلى مشغولات نحاسية خام قبل

عمليتي النقش والتكفيت . وأيضاً فإن ورشة خراطة المعادن - وفقاً لاجماع الرأي للإخباريين ولبعض الصنّاع الحرفيين - كانت المهد الذي احتضن غالبية الحرفيين في الحارة . حيث تولت الورشة تدريبهم وتعليمهم فنون حرفة النقش على المعادن وأسرارها. كذلك ترتبط ورشة خراطة المعادن بعلاقات عمل قوية مع الورش الحرفية الصغيرة العاملة في مجال النشاط ذاته . فهي تستعين بهم في القيام بعمليات النقش والتكفيت لكل ما يزيد عن طاقتها الإنتاجية . وفي المقابل تستعين الورش الحرفية الصغيرة بماكينات الخراطة التي تمتلكها ورشة خراطة المعادن في تشكيل الخام وبأحجام وأشكال مختلفة قبل قيامهم بعمليات النقش والتكفيت . وذلك نظرا للعجز المالي الذى لايمكن أصحاب الورش الصغيرة من شراء ماكينات خراطة غالية الثمن ،وكذلك لصغر مساحات تلك الورش وعدم قدرتها المكانية على استيعاب الماكينة .ومن بين ما يذكره الإخباريون وبعض أسطوات حرفة النقش على المعادن ، حول ورشة خراطة المعادن ودورها في تعليم الحرفة في حارة اليهود ، قولهم : «ورشة الخراطة مملوكة لعائلة الخوانكي وهي من أقدم العائلات التي احترفت الصنعة من نقش وتكفيت للمشغولات النحاسية . وإن معظم الحرفيين الأسطوات حالياً أصحاب الورش الحرفية في الحارة أو الذين يعملون بالأجر قد تعلموا الصنعة على يد على الخوانكي وأخيه عبد العزيز ، أما أبوهم الله يرحمه فكان يقيم في بيت القاضي وكان شُغْلته بيع النحاس وأواني المطبخ».

١ - مورفولوجية ورشة خراطة المعادن :

تقع ورشة خراطة المعادن في عطفة «المارستان» التي تقع ناحية اليمين للمتجه صوب "خان أبو طاقية" قادماً من شارع المقاصيص . كما تقع ورشة الخراطة داخل مبنى قديم يواجه ورشة نقش المعادن بالحفر .

يمكن القول أن موقع ورشة خراطة المعادن لم يحقق نفس القدر من نمط التفاعل الاجتماعي الذي يحدثه موقع ورشة «دبل البخت» . وذلك بالرغم من توافر كثير من الخصائص التي تميز ورشة خراطة المعادن عن غيرها من ورش منتجات خان الخليلي . فورشة الخراطة قد علّمت الكثير من الحرفيين في صناعة خان الخليلي من المشغولات

النحاسية . كما يلحق بالورشة معرض لبيع المنتجات الحرفية للورش الحرفية الأخرى إن أرادت ذلك . ولكن قد يرجع انحسار التفاعل الاجتماعي بين ورشة خراطة المعادن وباقي أفراد المجتمع المحلي إلى طبيعة تقسيم العمل داخل الورشة ، وللموقع الذي يبعد مسافة عدة أمتار عن باقي الورش الحرفية صغيرة الحجم والمتناثرة حولها والتي تعمل في مجال النشاط ذاته ، فضلاً عن الفارق في المستوى المادي بين أرباب الحرفة في ورشة خراطة المعادن وغيرهم من أرباب الحرف الأخرى . وإذا أضفنا إلى ذلك أن أصحاب ورشة الخراطة لا يشتغلون بالحرفة بل يتولون شؤون المعرض إلى جانب إشرافهم على أعمال الورشة ، يتضح عدم إفساح الوقت الكافي بينهم وبين باقي الحرفيين والمشتغلين في حارة اليهود للحوار .

كذلك يمكن القول أن نمط التفاعل الاجتماعي مع قلته يكاد ينحصر بشكل مباشر داخل مجال النشاط الحرفي ذاته أي بين ورشة خراطة المعادن وباقي الورش التي تنتج منتجات خان الخليلي من المشغولات النحاسية خاصة تلك الورش التي كان أربابها حالياً صبية منذ زمن قريب يتدربون في ورشة خراطة المعادن .

٢ - وصف مكان العمل

تقع ورشة الخراطة داخل مبنى قديم يضم إلى جانب الورشة ويلتصق بها معرض لمنتجات خان الخليلى يضم تشكيلة متنوعة من المشغولات النحاسية . وتتصل الورشة بالمعرض الذي يتولى إدارته صاحب الورشة بباب صغير يسمح بمرور العاملين كما يسمح بنقل المشغولات من وإلى المعرض . وتعتبر مساحة الورشة كبيرة الحجم نسبياً إذا ما قيست بمساحات الورش الحرفية الصغيرة التي ذكرناها توا. حيث تبلغ المساحة الإجمالية للورشة ما يربو على ثلاثين متراً مربعاً . وتنقسم الورشة إلى جزئين يفصلهما حائط ينتهى بفتحة تسمح بالمرور ونقل المشغولات بين الجزئين . ولا تتصف أرض الورشة بمنسوب واحد بل إن الجزء الأول والملاصق للمعرض يرتفع في منسوبه عن الجزء الثاني من الورشة بما قيمته ١٥ سنتيمترا تقريباً .

ويضم كل جزء من جزئي الورشة مخرطة معادن قديمة الطراز تستمد طاقتها الميكانيكية من محرك كهربائي بواسطة زوج من الأحزمة الجلدية العريضة (تعرف تلك الأحزمة بين الفنيين بالسيور) كما يتضح ذلك من الصورة رقم (٦ - ١٠) . هذا بالإضافة إلى احتواء كل جزء لبعض الآلات الأخرى مثل المثقاب وماكينة التجليخ (وتعرف بين الحرفيين بحجر الجلخ) تعمل بمحركات كهربائية ، وأيضاً مكابس يدوية صغيرة الحجم ،أيضاً توجد بعض الخامات والمشغولات النحاسية تحت التشغيل والإعداد وبعض الأدوات التي يستخدمها الحرفيون في مراحل الإنتاج . وتفتقر الورشة تماماً للتنسيق والترتيب وتلك ظاهرة عامة تتصف بها جميع الورش الحرفية في عينة الدراسة.

٣ - العمالة الحرفية

تضم ورشة خراطة المعادن أكبر عدد من الصنّاع الحرفيين إذا قيس هذا العدد بنظائره داخل الورش الحرفية التي تضمنتها عينة الدراسة . وتضم ورشة خراطة المعادن ثمانية صناع يتباينون فيما بينهم من حيث مستوى المهارة والتخصصية . هذا بالإضافة إلى ثلاثة أطفال تحت التدريب . وتوضح الصورة رقم (٦ - ١١) كيفية تعلم الطفل عن طريق الملاحظة فنون الحرفة .

وأسفرت المشاهدات الامبريقية عن الآتي :

(أ) تباين مجالات النشاط . حيث توجد أنشطة فنية ترتبط بتشغيل الآلات مثل المخرطة والمكبس . حيث تتطلب ممارسة الأنشطة الفنية مهارة يدوية عالية المستوى فضلاً عن دراية فنية مكتسبة عن طريق التعليم الرسمي وكذلك من خلال الممارسة والخبرة الطويلة المكتسبة في عمليات الخراطة .

(ب) تباين مستويات المهارة اليدوية . حيث يتقارب المستوى المهاري لكل من خراط المعادن والصانع الحرفي الذي يقوم بعمليتي النقش والتكفيت . من جهة أخرى ، نجد اختلافاً واضحاً بينهما من حيث الإبداعية والموهبة الذاتية ذات التأثير على أنشطة العمل الحرفية .



صورة رقم (٦ - ١٠)

مخرطة معادن كهربائية تعمل بالسيور الجلدية



صورة رقم (٦   ١١)

طفل يتعلم بالملاحظة من معلمه فنون الحرفة

(جـ) التخصصية الواضحة في أداء الأنشطة الحرفية ووضوح عملية تقسيم العمل دون تعقيد . فالعامل القائم بعمليات اللحام لايستطيع العمل بخراطة المعادن . وكذلك بالنسبة للحرفي القائم بالنقش على المعادن . كما أن مراحل عملية الإنتاج تتدرج في تعاقب واضح . فلا تسبق مرحلةٌ ما مرحلةً أخرى .

وفيما يتعلق بمتوسط العمر للعمال الحرفيين ،فيبلغ ٣٢ عاماً على وجه التقريب. ورغم التخصصية الواضحة وارتفاع مستويات المهارة اليدوية نسبياً قياساً بالصناعات الحرفية الأخرى ، فإن الأمية تغلب على العمال الحرفيين في ورشة خراطة المعادن . وتجدر الإشارة إلى أن العمال الحرفيين في ورشة خراطة المعادن لم تتضمن صاحب الورشة كما أنه لا يشاركهم العمل الحرفي مثلما يحدث في الحرف والصناعات التي تتضمنها عينة البحث .

٤ - الآلات والأدوات المستخدمة في عمليات الانتاج

(أ) الآلات : وتتألف من مخرطتين تعملان بمحرك كهربائي بالسيور الجلدية كما يتضح من الصورة رقم (٦ - ١٠) ؛ مثقابين ؛ تزجة ؛ مكبس .

(ب) الأدوات : وتتألف من :كاوية أزير ؛ سندال أشكال كما توضحها الصورة رقم (٦ - ١٢) ؛ شواكيش أوزان ومقاسات وأشكال مختلفة ؛ أقلام متنوعة لنقش المعادن ؛ دقاق خشب يستخدم في عملية الطَرْق و«استعدال» مستوى الأسطح أثناء مرحلة الإعداد الأولي للمشغولات النحاسية ؛ أسطوانات غاز البوتاجاز لعمليات اللحام بالأوكسوجين .

٥ - مراحل العملية الانتاجية

تمر العملية الإنتاجية في ورشة خراطة المعادن خلال أربع مراحل تتصف كل منها بالتخصصية الواضحة . وتتدرج المراحل الأربع التالية في تسلسل وتتابع يعتمد على تقسيم العمل :



صورة رقم (٦ - ١٢)
بعض الأشكال للسندال المستخدم في صناعة خان الخليلي

(أ) مرحلة خراطة المادة الخام من النحاس الأحمر لإكسابها الشكل الفني الملائم لنوع المنتج . فخراطة خام النحاس على هيئة إصيص للنباتات تختلف عن خراطة قطعة من خام النحاس الأحمر لتصبح مثلاً جرة ماء صغيرة الحجم . ويطلق على هذه المرحلة بين الحرفيين عملية «البلص» .

(ب) مرحلة النقش على المعدن : وتلى عملية «البلص» بالنسبة للمشغولات النحاسية البسيطة التي لا تتطلب لحامات والتي لا تتكون من أجزاء تتطلب التجميع واللحام معاً . ويتبع الحرفي في عملية النقش بنوعيه البارز وبالحفر نفس الأسلوب المتبع لكل حالة منهما في الورش الحرفية للنقش .

(جـ) مرحلة التجميع : خلال هذه المرحلة يقوم الحرفي - وعادة ما يكون أقل مهارة يدوية من صناع المرحلتين السابقتين - بتجميع مكونات المشغولات النحاسية حيث يتم تركيب الأجزاء بحيث تعطي في جملتها الشكل النهائي للمشغولات النحاسية. وتتطلب عملية التجميع مستوى بسيطاً من المهارة اليدوية .

(د) مرحلة اللحام بنوعيه للمشغولات النحاسية : بعد عملية التجميع ، يقوم صانع متخصص له مهارة يدوية ودراية فنية بلحام كل جزء بالجزء الذي يلتصق به وفقاً لعملية التجميع . ويجب أن تكون طريقة اللحام جيدة جداً حتى لا تترك عيوباً أو نتوءات بارزة في منطقة اللحام مما يشوه جمال المنتج الحرفي .

(هـ) مرحلة التجليخ للمشغولات النحاسية :وتعرف بعملية «التلميع» ويقوم بهذه المرحلة صانع له دراية جيدة بعملية التلميع حيث يتم استخدام سطح خشن من السلك على شكل قرص يركب على ماكينة التجليخ . وتتطلب عملية «التلميع» خبرة طويلة في التخلص من الزيادات العالقة بالهيكل الخارجي للمشغولات النحاسية وأن تصبح أسطح مناطق اللحام في هذا الهيكل على درجة عالية من نعومة الملمس .

وعلى الرغم من أن ورشة خراطة المعادن تقوم بأداء جميع المراحل الإنتاجية للمشغولات النحاسية بدءاً من عملية الخراطة وهي التي لم تتوفر في الورش الحرفية

الصغيرة الحجم والتي تعمل في النشاط ذاته ، إلا أن ورشة الخراطة تعتمد على إحدى الورش الفنية الموجودة في حارة اليهود وذلك خلال مرحلة الإعداد الأولي لخام النحاس . حيث يتم وضع خام النحاس في قوالب ذات أشكال مختلفة وفقاً للمواصفات الخاصة التي تطلبها ورشة خراطة المعادن . ويطلق على هذه العملية «التكبيس» ومن ثم ، نجد أن ورشة الخوانكي مثل الورش الأخرى الحرفية تستعين بالورش الفنية الموجودة في حارة اليهود .

٦ - الخصائص الحرفية في صناعة المشغولات النحاسية

(أ) تنمية المهارة الذاتية واتجاه الحرفي نحو تطوير طرق الإنتاج والآلات المستخدمة

يتضمن دليل العمل الميداني موضوعين أساسيين يرتبطان بتنمية مهارة العامل الحرفية. الموضوع الأول يختص بما يكتسبه الحرفي خلال السنوات الأخيرة من ممارسته للنشاط الحرفي تجاه تطوير أسلوب أدائه في العمل وأيضا تجاه تطوير الآلات المستخدمة في العملية الانتاجية .

فيما يتعلق بالموضوع الأول ، نتبين من خلال أقوال الحرفيين في ورشة خراطة المعادن ، أن الخراطين واللحامين يعتقدون أنهم قد اكتسبوا من المهارة اليدوية والتذوق الفني ما هو كاف تماماً لممارسة النشاط الحرفي على الوجه الأكمل خلال مراحل العملية الإنتاجية ، من جهة أخرى، يرى أحد الحرفيين من صناع النقش على المعادن أنه رغم ما اكتسبه من مهارة يدوية عالية ودراية فنية بالنقش وطبع الرسومات الهندسية مع أنه يجهل القراءة والكتابة ، فإنه يذكر أن ممارسة الحرفة لايزال فيها بعض الدقائق والأسرار التي لا يعرفها إلا القليلون من معلمي الحرفة وممن مارسوها لسنوات طويلة فيقول : «بقى لي أكثر من ١٥ سنة أشْتَغَل في النقش وكان كل فترة الأسطى صاحب الورشة يُشُوف شُغلي ويْعَلّمْني إزَاي أطعّم بالفضة لغاية ماعرفت الصنعة كويس وكمان الأقلام اللي بنستخدمها عرفت إمتى أسنها وإزاي تبقى كويسه ودلوقت الحمد لله أعمل كل حاجه بنفسي بقي الأسطى يمسك شغلانه واحنا كل واحد يأخد شُغْلانه وحَسَب الشغل

بنَاخد يُوميِّتْنَا . لكنْ فيه أحيانا حاجات في الخامة بتَاعة النحاس بيْكون الأسطى أحسن منّا في فَهْمَهَا وإزاي نعالج الخامه بتاعة الطبق أو الفازه ومع الوقت بنكسب الخبرة دي لأن الخامه المحليه مش مضمون جودتها من وقت للتاني خاصة في عملية الحفر بالأقلام المصنوعة من صلب الهوا » .

وفيما يتعلق بالتطور التقني واتجاه الحرفيين نحوه ، نذكر بداية أن صناعة نقش المشغولات النحاسية قد شهدت بعض التطورات التي تم إدخالها على الآلات المستخدمة وأيضاً على أسلوب تثبيت النقش البارز والمكفت على المشغولات . فقد ذكرنا من قبل - أنه تم استبدال مادة البلاك (الزفت) بقطعة مستوية من الخشب وقرص ضاغط لتثبيت النقش البارز والمكفت بالفضة أو الألومنيوم فوق أسطح المشغولات النحاسية .

أيضاً ، تشهد ورشة خراطة المعادن تحولات واضحة في عملية الطرق التي تستخدم لتسوية أسطح المشغولات النحاسية قبل عمل التجميع وكذلك في عملية النقش البارز . حيث تستخدم حالياً المخارط والمكابس التي تعمل بالطاقة الكهربائية بدلاً من القوة الفيزيقية للعمال .

من جهة أخرى ، إذا كانت العمالة الحرفية قد تعايشت مع المستوى التقني التقليدي للآلات المستخدمة في عملية الإنتاج في ورشة خراطة المعادن ، فإنها تعارض بشدة إدخال أي تطوير سواء على طريقة تشغيل تلك الآلات أو استبدالها بآلات أخرى أكثر حداثة وتطوير . ويعلق أحد الخراطين على تطوير المهارة مع تطوير المخارط لزيادة الإنتاج الحرفي قائلاً : «المخارط الحديثة عَلَشَان الإنتاج بكميات كبيرة بنفس المواصفات والحجم إنّما إحْنا بنْعمل أحجام مختلفة وأشكال كتيره وتمن المخرطة الحديثة غالي جداً وبَعْدين كَمَانْ فيه مشكلة تَأنيه إنّ المخارط الحديثة تسْتَخْدم خامه كُوَيِّسه من النحاس المستورد لكن لو استخدمنا النحاس بتَاعْنا تتْكسر وعلشان كده المخرطة القديمة أحسن للخامة بتَاعتْنَا وإنتاجها كويس بالنسبة لنا والواحد متعلم عليها كويس وباشتغل عليها أكثر من (٢٠) سنة» .

كذلك يمكن استنتاج الاتجاه السلبي للحرفيين تجاه التطوير بمختلف مصادره وأشكاله في الأداء الحرفي والعملية الإنتاجية ، مما يذكره بعضهم حول الأساليب المستحدثة في عملية الإنتاج التي يتم الاعتماد خلالها على الآلات الحديثة أكثر من المهارة اليدوية كما يتم استخدام بعض المواد الكيمائية في عملية النقش . ومن بين أقوالهم : « ... للأسف دلوَقْت فيه بعض الدخلاء على الصنعة بيسْتَخْدموا الزّنْكُوغْراف وبعض المواد الكيمـاوية في النقش على المعـادن . وطبعـاً دُولْ بيْهَدّدُوا حرْفِتْنَا لأنهم بِيْبِيعوا أرخص وبِيْنْتِجُوا أكثر لكن للأسف مش زَيّنَا اتْعَلِّمْناه على أصول» .

(ب) الاعتزاز بالحرفة والشعور بالاستقلال الذاتي في أداء العمل

تظهر نتائج الدراسة من خلال المقابلات وأقوال الحرفيين ، اعتزازهم القوي وافتخارهم الواضح بالنشاط الحرفي الذين يقومون به . وأن من دواعى اعتزازهم بالعمل الحرفي ما تحققه له بيئة هذا العمل من استقلالية وحرية ذاتية في الأداء الحرفي دون رقيب أو تحكم من رئيس أو صاحب عمل . وقد أعطت خاصية الاعتزاز بالحرفة المقرونة بالإحساس بالحرية فى أداء العمل مؤشرات إيجابية قوية على مستوى الورش الثلاث فى صناعة المشغولات النحاسية . فمثلاً . عندما سألت الباحثة صاحب ورشة النقش البارز عن تاريخ ممارسته الحرفة ومدى ارتباطه بها وإن كان يفكر فى هجر الحرفة إلى عمل آخر أجاب قائلاً :

« الأسْطى الكبير موجود حاليا في العراق يعمل هناك ، ولقد بدأت الحرفة وأنا عمري ٨ سنوات وبرغم الأصوات العالية التي تصاحب النقش البارز بحيث مَانقْدَرْش نكَلّم بعض ، إلا أننا طبعاً قَضينَا شبابنا فيها ونْحِبّهَا جداً ونعْتَزّ بها بس بعض الناس مِشْ بتْقَدّرْ .طبعاً الشُغْلانه دي محتاجه مُخْ وإيدين لأن النقش البارز شغلانه كلها فن . والرسم بيبقي على ذوق الحرفي هُوّ اللي بيعْطِى للشُغلانة زَيّ الطبق أو الفَازَه الشكل الفرعوني أو ينقش أسماء الله الحسنى أو أي زخرفة عربية من غير مايستخدم لا أقلام ولا مسطرة ، لأننا تعلمناها على إيد أسْطَوات كُبَارْ بعضهم مات الله يرحمه والبعض عايش زي الأسْطى محمد السيد اللي بيشْتَغَلْ دلوَقْتى في العراق وبرغم المشاكل في الصنعة دلوَقْتي إنّ الواحد منّا بيعْتِبرْها كل حياته بِقُوم وبِنَام وبِفكّر في حرفته» .

وأيضاً خلال سؤالي لأحد الخراطين في ورشة خراطة المعادن بوصفه أكبر الحرفيين سناً وخبرة ، هل لو أتاح لك صاحب الحرفة أن يدربك على البيع والتسويق ويكسبك الخبرة اللازمة فهل تقبل ذلك بحيث يكون دورك بين العمل على المخرطة والبيع أيضاً ، فأجاب قائلاً : «أنا ترَبِّيتْ في ورشة الخراطة وبأحب شُغْلتى وُمْش على استعداد أعْمِل عَمَلْ تَانِي ولا أتدرب على حاجة غير شُغلتي وبس ، الصنايعي لما يِشْتَغَل حَاجَه جَنْب شُغْلِتُه الأصلية مايبْقَاش مَبْسَوط وزَمَايْله يُقُولون عَلِيه دَهْ خلاص رَاحِتْ عليه وإِيدُهْ تِقْلِتْ في الشُّغل».

وبتوجيه نفس السؤال لصاحب حرفة النقش بالحفر على المعادن أجابني قائلاً : «البيع والشراء مش عيب بس أنا أفضل اشتغل بإيدي ولكن أنا مضطر أبيع وأشترى الخامة علشان العمال اللي عندي فاتحين بيوت والورشة بتاعتي وما أقدرش أجيب واحد يِبيع ويشترى لأن الحكاية دي عَاوزَة شَطَارة ومعرفة بتجار المعارض والمعاملة مع الزبائن وحتى لو كان الشخص المناسب موجود أجيب له أجرته منين ؟ طيِّب العُمّال بِيَاخْدُوا أجْرُهم بالأسبوع وحَسَبَ ظُروف الشُّغل وُهمّ رَاضْيِين إنما الأفَنْدِي اللي هَاجِيبُه دَهْ هَيُطْلُب كَامْ وعلشان كده أنا اللي باتفق وأبيع وأشترى الخامة رغم أنفي : لأني بأحب الصنعة واللي خَلاّني كمان أحبها زيادة أنى باشتغلها وفاء للأسطي بتاعي اللي علمني ووعدته أكمل فيها ودِي دُكّانتُه في الأصل وأجَرْتَهَا مِنْ الورَثَه الله يرحمه» .

كذلك عندما سألنا صاحب ورشة النقش بالحفر حول طبيعة عمله الحالي بالصحافة وهل يتيح له الدخل المناسب كما يحقق له إشباعاته الخاصة تجاه العمل مثل العمل الحرفي أجاب قائلاً : « بالرغم من أن الوظيفة أمان للمستقبل ومرتب آخر الشهر إنما الواحد بِيْلاقي نَفْسُه في الشُّغلانة دِيْ يَعْني شيء واتْعَوِّدْت عليه من صُغْر سِنّي وباشتغل بإيدي وفيه حَرْفَنَة ومَزَاجْ طبعاً مختلفة خالص عن شُغلي التّاني في الجريدة وبعدين الحمد لله دَخْلَها كُويس بس الظروف مُشْ مضمونة يعني لو فيه رعاية بالحرف دي من جانب الحكومة وبلاش الضرائب عَمّالْ عَلَىّ بَطّالْ كنت تْفرّغْت لها تماماً لأنني بأحبها جداً وحُرّ نَفْسي وأحِسْ وَأنا باشْتَغَل بالاستمتاع لأن إيدِيكِي وعَقْلِكْ في الشغلة

ولما يخلّصْ الطبق أو الفازَة وتْشُوفي الشُغْل اللي عَليها تِشْعُري بالسعادة خاصة لما أشوف التعبير على أوجه الزبائن» .

وحول الارتباط بالعمل الحرفي والاعتزاز بما يقوم به خراط المعادن فإنه يذكر أيضاً: «أنا باشْتَغَل في حَارة اليهود هنا من سنة ٥٧ وأصبح المكان كأنَهُ بيتي يعني تصوري يوم مَا بَاجَيش هنَا بَابْقَي حَاسِسْ أنني خسْرت حَاجَة وزَعْلان عليها ، طبعاً دَهْ لأننا زملاء هنا بنحب بعض وكل واحد في شغلته وبعدين طول حياتي باشْتَغَل خرَاط مَعَادن ومَا أعْرَفْش شُغْلانة غيرْهَا وما أحِبْش أسيب شُغْلتي دِيْ حتى لو كنت هاشتغلها في القطاع العام لأنني حُرّ نَفْسي وأعْمِل الشُغْلَة عَلَى ذُوقي لا صَاحِب الوَرْشَة بيتْدَخل في شُغْلي ولا غيرُه وطبعاً الشغلانة مقاساتها حسب رؤية الصنايعي مش زي المصانع كل حاجة لها مقاس ونظام وتْرُوحْ بِمِيعَاد وتيجي بميعاد لأ مَفيش عَنْدِنَا الكَلَام دَهْ» .

علاقات العمل والاعتزاز بالحرفة

تكشف أقوال الحرفيين عن تداخل واضح بين العلاقات الاجتماعية وعلاقات العمل خلال العمل اليومي في الورشة . فالعلاقات الاجتماعية وما يتمتع به الصانع من حرية واستقلالية في أداء النشاط الحرفي يولدان إحساساً عالياً بالرضاء عن العمل وازدياد تماسكه وانتمائيته للعمل . ومن خلال المقابلة مع أحد الخراطين في ورشة خراطة المعادن وسؤاله عن ارتباطه بأوقات العمل وعلاقته بصاحب الورشة ، يجيب قائلاً :

«احنا في الورشة مفيش دفتر لحضور العمال أو انصرافهم ولكن من إحساس العامل بالمسئولية وحبه للعمل هوه اللي بيخَلّيهْ مُلْتَزِمْ . والتزام الحرَفي عَنْدنَا شَرَفْ لازم يحَافظْ عليه وحبي للصنعة هُوَّه اللي مْخَلّيني دلوقتي هنا . يعني أنا ممكن اشتغل في حتة تانية وأكسب كتير لكن الناس اللي عشت معاهم والمتعة في شغلتي لما أخَلّص الشغلة وأعْطيها الشكل المناسب إمَّا أنهَا تْكُون كبِيرَة أو صُغَيَّرة أو متْوَسْطَة يعني مَفيْش تحديد وإنما حَسَب طلب السُوق والحمد لله مستورة وبأعلم أولادي عندي ثلاثة أولاد كلهم في التعليم واللي مش عاوز يتعلم هاجيبه يتعلم الصنعة لكن مش هَاجْبُر أي حَدْ على الشُغلانة بتَاعْتِي» .

وحول علاقته بصاحب ورشة الخراطة وباقي زملاء الحرفة ، قال : «كل اللي بيشتغلوا هنا من سنين طويلة يعني زي العيلة الواحدة وبأشاركهم في كل حاجة يعني نتْغَدّى مع بعض ونزور بعض ونجامل بعض في المناسبات المختلفة لأننا بنحب شغلتنا ومَلْنَاش غيرْها ومـا اعْتَقدْش إنّ الواحد يلاقي أحسن منْ كده في أي مكان تاني وصاحب الورشة فاهم الشغلة كويس وبيِعْطِى لكل واحد حَقُّه وسَايبْ كل واحد يشتغل لأنه عَارفُه وعَارفْ قُدرته والحمد الله على كده وإذا حصل أي شيء لاسمح الله وأحياناً بيحصل يَعْنِى مُمْكن خَامَةْ تتْلفْ مَعَانَا لأي سبب مِشْ مشكلة كلنا بنتْعَاون ونعوضها بالشغل الزيادة . وبعدين كلنا دلوقت في سن كويس وفاتحين بيوت وعندنا أولاد ويهمنا شغلتنا وعلى قد ما نخدمها تخدمنا وبنعتز بها جدا زي أولادنا بس الأولاد بقه عاوزين يبقوا أفندية وهَعَمْل إيه مْش فَاهْمِين الحياة لسه دَه شَرَف كبير لهُمُ إنُّهُمْ يشْتَغَلوا الشغلانة بتَاعْتِي» .

التكاملية في الأداء والموهبة الذاتية في الابداع والابتكار

كشفت المشاهدات الأمبيريقية أنه لايوجد تقسيم عمل أو تخصصية واضحة في الأدوار التي يقوم بها الحرفي في صناعةالنقش على النحاس (الحفر والبارز) ويمكن لأي حرفي أداء نفس الدور . أما في ورشة خراطة المعادن فإن تكامل الأدوار في عملية الإنتاج يبدو واضحاً ويعتمد على تقسيم عمل واضح فالخراط لايقوم بعمل اللحام والاثنان لا يستيطعان القيام بالنقش على المعادن والعمليات الثلاث مرتفعة المهارة وان تفاوتت في مستوياتها.ويمكن القول أن النقش أعلى نسبياً في المهارة من الخراطة والتي تزيد في مهارة أدائها عن اللحام . أما أقل الأدوار مهارة فهي مرحلة التجميع وإن كانت تحتاج إلى خبرة مكتسبة سابقة في أدائها . ولايمكن إتمام المنتج الحرفي إلا بتسلسل الأدوار في شكل متكامل يعتمد كل منها على الآخر بالنحو الذي ذكرناها بشأن تسلسل أدوار التشغيل .

وعلى مستوى العلاقات الخارجية قد نجد تكاملية عالية تقوم على تبادل المصلحة وعلاقات العمل ، وأيضاً على العلاقات الاجتماعية بفعل طول فترة المعايشة

بين الورشة والمجتمع المحلي لحارة اليهود . ففي مجال علاقات العمل ، يرتبط أصحاب الورش الحرفية الصغيرة بورشة خراطة المعادن من منظورين : أولهما ، أن الورشة عند صناع المشغولات النحاسية بمثابة المدرسة التي تعلموا منها قبل أن يصبحوا أصحاب ورش حرفية صغيرة؛ ثانيهما ، أنهم يعتمدون بعض الشيء في كسبهم على ما ترسله إليهم ورشة خراطة المعادن من مشغولات للقيام بنقشها وتكفيتها . ويجدر الإشارة هنا إلى موضوع هام يتعلق بارتباط العمل بين ورشة خراطة المعادن والورش الحرفية الصغيرة التي تعمل في مجال نقش المعادن . والموضوع الهام هو أن ارتباط أصحاب حرف النقش على المعادن مع ورشة الخراطة هو ارتباط غير مشروط أو تعاقدي شأنهم في ذلك شأن سائر الحرف الأخرى في حارة اليهود ، حيث يبدو واضحاً أهمية العلاقات الأولية بين المشتغلين بالحرف الصناعية والتجارية والأشغال الأخرى . وكذلك مع أهل الحارة ، تلك العلاقات التي توطدت من خلال فترة العمل لسنوات تقترب أو تتجاوز النصف قرن ، هذه السنوات الطويلة والتفاعل المستمر مع أبناء المجتمع المحلي، قد هيأ قاعدة الثقة المتبادلة في المعاملات وعلاقات العمل بحيث تحولت تلك القاعدة إلى معايير تحكم علاقات العمل ونظام للتعامل وتماثل تلك المعايير وما تقوم عليه من علاقات في مجتمع القرية التقليدية مع اختلاف بينهما . وهو أن المعايير في حارة اليهود تنظم علاقات قائمة على المصلحة العامة بين أصحاب الورش الحرفية .ومن ثم فلا عقود ولا صكوك مالية من أي نوع تحكم علاقات العمل بينهم . وتعتبر تلك الظاهرة من وجهة نظر الباحثة من الظواهر نادرة الحدوث في مدينة القاهرة والتي تتسم كسائر المناطق الحضرية بالتباين الثقافي ونمط العلاقات الثانوية . كذلك يمكن القول إن تلك المعايير التي أفرزها المحتوى الاجتماعي الاقتصادي لحارة اليهود قد أسهمت في تغلب الحرفيين على ندرة رأس المال لديهم ، وبالتالي أفسحت المجال رحباً لاستمرارية النشاط الاقتصادي لجميع الصناعات التقليدية في حارة اليهود .

الفصل السابع

الحرف والصناعات التقليدية في المغربلين

أولاً : صناعة السمكرة البلدي

ثانياً : صناعة الخيام

ثالثاً : صناعة الأحذية

الفصل السابع

الحرف والصناعات التقليدية في المغربلين

أولاً : صناعة السمكرة البلدي

مقدمـــة

وقع اختيار الدراسة الحالية على صناعة السمكرة البلدي في المغربلين وبعد زيارات ميدانية ولقاءات متكررة مع العديد من التجار والحرفيين العاملين بأنشطة متنوعة في المغربلين ، وذلك للاعتبارات التالية :

١ - أن صناعة السمكرة البلدي في المغربلين تناظر صناعة دبل البخت في حارة اليهود ، من منظور ارتباطهما باحتياجات السواد الأعظم من الأسر المصرية . فهما تتعاملان مباشرة مع الأسرة المصرية ولاتجد منتجاتهما منافسة قوية في السوق المصري .

٢ - أن صناعة السمكرة البلدي في المغربلين تناظر صناعة دبل البخت في حارة اليهود من حيث ارتباط كل منهما مباشرة بالثقافة المصرية المتوارثة فكلاهما تجد سوقاً رائجة لبيع المنتجات يتمثل في القاعدة العريضة من الأفراد والأسر المصرية الفقيرة والمتوسطة . وإن كانت سلع بعض المصانع الحديثة تنافس حالياً منتجات السمكرة البلدي مثل القُمْع المستخدم في تعبئة المواد السائلة . حيث تقوم مصانع البلاستيك بإنتاج القُمْع من البلاستيك بدلاً من استخدام معدن الصاج ؛ إلا أن الطلبات على منتجات الصاج لاتزال عالية خاصة بالنسبة لبعض المنتجات مثل المخارط المعدنية التي تستخدم في تقطيع الملوخية وكذلك ماسكة الفحم والتي تُعرف بين العامة بـ "الماشة" وأيضاً منقاش الكعك بأحجام مختلفة .

٣ - أن حرفة السمكرة البلدي تقتصر على ورشة واحدة ، يعمل فيها رب الحرفة بمفرده ، وهو لايعرف القراءة والكتابة ويبلغ من العمر ما يناهز ٥٨ عاما ومتزوج ويعول أسرة كبيرة الحجم ومسقط رأسه المغربلين .ونظراً لإقامته الطويلة في منطقة البحث فهو يعرف الجميع سواء في المغربلين أو حارة اليهود ، كما يعرفه الجميع ويلقبونه «بالملك» ولقد اختير كأحد الإخباريين لكل من حارة اليهود والمغربلين .

٤ - يخضع اختيار ورشة السمكرة البلدي في المغربلين للمعايير الأساسية التي افترضتها الباحثة كأساس يقوم عليها اختيار عينه الدراسة . فورشة السمكرة البلدي في المغربلين لاتوجد بها عمالة حرفية سوى صاحب الورشة فقط .

١ - تاريخ حرفة السمكرة البلدي في المغربلين :

وحول تاريخ حرفة السمكرة البلدي في المغربلين ، يقول صاحب الحرفة :

«صَنْعةْ السمكري البَلَدي معروفة من مئات السنين في المغْربلينْ وكان معاها صناعات ثانية كثيرة زَيّ صناعة القَبَاقيبْ الخشب ودلوَقْتِ مَعَدْش خَلاَص غيرْ واحدْ صَنَايْعي للقباقيب موجودْ في تَحْتِ الرّبْع وسنُّه كبير زَيّ حَالاَتي . ولكن أحوال الناس تْغَيّرتْ اللّي بَاعْ ورشته وبَقَتْ دلوَقْت مَحَلْ مِيني فاتُورَة واللي مَاتْ من زملائنا وابنُه حوّل الورشة بتاعته لمحل تجاري أو بيع أدوات كهربائية ،يَعْني دلوَقْت يَدُوْب عَدَدْ الورش الحِرَفيّة في المغربلين زَيّ مَاأنت شَايْفة يتْعَدُّوا عَلَى الصَّوَابع . وشارع المغربلين إسْمه جَهْ من الناس اللّي كانوا بيْغَرْبِلُوا الغَلّة زَمَانْ في الشارع دَهْ وبَعْد كدَه صُنّاع الخيام وكانوا كتير، وبالنسبة لشُغْلِتي ديْ أنا مَارستْهَا وكنت طفل عَنْدي ٥ سنوات وأنا مولود في المغربلين وطول عمري باشْتغل الشُغْلاَنَة دي بَسْ كنت الأول أعمل شُغْل تاني زَيّ مَخْرَطَة الملوخية ، شَرْشَرَة البَرْسيم، الصَفَايح الصّاج أحْجَام ، لكن دلوقت خَلاَص كل شُغلي في حاجات معينة زي مَنَاقيش الكَحْك ،قُمْع الجاز ، مَاشة الجُوزَة أو الشّيشَة البلدي ، وكمان باعْمِل البَلاَبل النّحَاس اللي بيستخدمها بتُوع الحرس الجمهوري وبيْحُطّوها على صدورهم أثناء التشريفة . وأنا الوحيد في مَصْر اللي بيعْمل البلابل دي» .

٢ - مورفولوجية الورشة

تقع ورشة السمكرة البلدي على يمين القادم من أول الغورية مروراً ببوابة المتولي فالخيمية ، وعلى مسافة ١٠٠ متر من بوابة المتولي . وتقع الورشة في الطابق الأرضي من مبنى قديم الطراز وتعتبر مساحة الورشة صغيرة جداً حيث لا تتعدي المترين ونصف المتر المربع تقريباً . وتضم الورشة بعض الأدوات البسيطة التي تستخدم في عملية السمكرة ، والتي يتضح بعض منها في الصورة رقم (٧-١) .هذا بالاضافة إلى احتواء

الورشة على بعض القطع غير متساوية الأبعاد من ألواح الصاج وبعض قطع الأثاث . أيضاً توجد منضدة خشبية تحمل بعض الأدوات والخامات بطريقة غير منظمة .برغم التحولات الواضحة في الأنشطة على امتداد الغورية وحتى بعد بوابة المتولي ، لاتزال ورشة السمكرة البلدي على حالتها القديمة وبموقعها الذي يمارس فيه رب الحرفة أعمال السمكرة لأكثر من (٥٠ عاماً) مضت . وبرغم صغر حجم الورشة فإن موقعها المتميز على أحد جانبي الشارع الرئيسي فضلاً عن عدم اتساع الشارع يسهمان في زيادة التفاعل الاجتماعي بين رب الحرفة وغيره من الممارسين لأنشطة تجارية وصناعية مجاورة أيكولوجياً للورشة أو مقابلة لها . أيضاً مما يزيد من كثافة التفاعل الاجتماعي بين السمكري البلدي وغيره من المشتغلين بأنشطة حرفية وغير حرفية أنه يعمل في حي المغربلين منذ نعومة أظفاره .

ولقد كان طوال الفترة التي يعيشها السمكري البلدي في المغربلين يرتبط بعلاقات اجتماعية وأسرية وعلاقات عمل مع الحرفيين أبناء من يشتغلون حالياً بالأنشطة التجارية غير حرفية داخل الحوانيت التي توارثوها من أبائهم . ولقد أفرز طول فترة التجاور الأيكولوجي للسمكري البلدي مع باقي المشتغلين بالأنشطة المختلفة في حي المغربلين نمطاً قوياً من التفاعل الاجتماعي حتى حظى السمكري البلدي بمكانه الأب الروحى مثلما يحظى بها رب حرفة «دبلة البخت» في حارة اليهود ، ويلقبونه «بالملك» كناية عن تقديرهم له والأخذ بمشورته في كثير من شؤون حياتهم الاجتماعية .

٣ - الخامات المستخدمة

قطع من ألواح الصاج المجلفن وبعض قطع من سبائك النحاس الأحمر ؛ الأزير المخلوط ؛ حامض الأيدروكلوريك المخفف.

٤ - الأدوات المستخدمة في الحرفة

(١) سندال أشكال ؛ (٢) شواكيش للطرق ؛ (٣) كاوية لحام ؛ (٤) فرش تلميع؛ (٥) بعض الأدوات اليدوية البسيطة مثل المبرد (أشكال ومقاسات مختلفة) ومقص حدادي .



صورة رقم (٧-١) عملية تنعيم أطراف شريحة الصاج بعد ثني الأطراف كما توضح الصورة بعض الأدوات المستخدمة في عملية السمكرة البلدي



صورة رقم (٧-٢) أقماع من الصاج تستخدم في الملء بالكيروسين

٥ - مراحل العملية الإنتاجية

تتفاوت مراحل العملية الإنتاجية من حيث العدد ومستوى المهارة .فصناعة بلابل النحاس تتطلب مهارة عالية وخبرة طويلة بأعمال السمكرة . كذلك تحتاج عملية تصنيع «قُمْع الصّاج» أنظر الصورة رقم(٧-٢) لمهارة عالية لكنها تقل نسبيا في المستوى عنها في صناعة بلابل النحاس . وتقل عدد مراحل إنتاج ماسكة الفحم «الماشة» إذا ما قورنت بمراحل إنتاج «القمع» فمثلاً تمر عملية إنتاج قمع الصاج بالمراحل الإنتاجية التالية :

(أ) مرحلة القص : في هذه المرحلة يقوم الحرفي باستخدام مقص يدوي من أجل قطع مساحة معينة من ألواح الصاج المجلفن تناسب حجم القمع .

(ب) مرحلة تشكيل الخام : وتضم مرحلتين فرعيتين هما تشكيل الجزء المخروطي من القمع باستخدام السندال والشاكوش وأيضاً مرحلة تشكيل المقبض وتتطلب مهارة عالية يؤكد عليها رب الحرفة فيقول :

« شُغْلتِي دي مَعَدْشْ حد بيشْتغلها ولاَ بِتْعَلّمْها للأسف لأنها شُغْلَة عَاوْزَة صَبْر جَامدْ ووَقْت عَلَشَان الواحد يتْقنْها كُوَيّس .يعنى أنا بَعْملْ قمْعْ صاج بِنْفَع للبسكويت . وقُمْع لتعبئة الجاز وطبعاً شكله يمكن يكون في نظرك بسيط لكنه بيَاخُدْ غَلَبة وشُغْل كتير بمزَاجْ يعنى مثلا شُوفِي يَدْ القُمْع دي والدّقة في تَنْي شفّة الصّاج وأَلْفُه ناعمْ ومَفْهُوش أيّ حَرْف حاد يجْرَح وازّاي أَلفُه وأعْطى له الشكل المناسب . وبَعْملْ برضُه مُنْقَاش الكَحْك والمَاشَة بتَاعْة الجُوزَة».

جـ) مرحلة اللحام : وخلالها يقوم الحرفي ، بلحام الأجزاء المكونة للقمع بعضها إلى بعض بحيث تعطى في النهاية شكل القمع . وتتطلب عملية اللحام مهارة تقل عن مستوى المهارة المطلوبة للمرحلة السابقة . ويقوم السمكري البلدي باختبار أسطح اللحام للتأكد من انتظام وجودة اللحام منعاً لحدوث أي تسرب للسوائل عند الاستخدام .

(د) «التشطيب» و «التنعيم» :ويتم في هذه المرحلة تأكد الصانع من عدم وجود أي نتوءات أو تشوهات في الشكل الهندسي للمنتج . وبعد ذلك يقوم

باستخدام حجر تجليخ صغير في تنعيم الأسطح التي تم لحامها . وتوضح الصورة رقم (٧-١) السمكري البلدي وهو يقوم بعملية تنعيم أطراف شريحة الصاج المقبض القمع بعد عملية الثني لها والتي تُعرف «بتقفيل شفه» .

٦ - خصائص الحرفية في حرفة السمكرة البلدي

(أ) الاعتزاز بالحرفة والرضا عن العمل :

يبدو واضحاً من خلال بعض المقتطفات التالية من خلال إجابات صاحب الحرفة على أسئلة ثلاثة وجهتها إليه الباحثة ، أنه يتمتع بدرجة عالية جداً من الرضاء عن العمل مع إحساسه بالفخر والاعتزاز بالحرفة ويبدو ذلك واضحاً وهو يتحدث في افتخار عن تفرده بين الحرفيين في مصر بعمل بلابل الحرس الجمهوري ومن بين ما يقوله :

« شُغْلتي ديْ رغم أنْ بعض الناس تظن أنْهـا بسـيطة ولكنهـا شُغْلانة محْتَاجة خبْرة وفهم وذوق ومع دَهْ كله محْتَاجة صبر جَامد ومَفيْش حد غيري حاليا في المغْربلين بيشْتَغَل شُغْلتى دي وبالنسبة لعمل البلابل مفيش غيري في مصر بحالها بيعمل بلابل النحاس اللي بيلبسها الحرس الجمهوري على صدورهم - وعمل بلابل النحاس بتحتاج خبرة كبيرة وذوق ومش ممكن أي حد يعملها إلا إذا كانت خبرته كويسة وكل ما يحتاجوا عدد منها بيجُو لي ويْطلْبُوه» .

ومن خلال حديثه حول ما أسماهم بالدخلاء على الحرفة ويعنى بهم خريجي المدارس الفنية ومراكز التدريب المهني ، يتضح مدى افتخاره بمهارته وحرفته . فمن بين انتقاداته لخريجي التعليم الفني يقول :

« الْوِلَدْ من دُولْ أهله يُوَدّوه مـدرسة فنيـة وَرَاْنَا هنّا في الدرب الأحمـر ويتْعَلّم السمكرة لكن للأسف الواحد منهم يتخرج من المدرسة ما يفهمش حاجة خالص في السمكرة يعنى تصدقي (يوجه حديثه للباحثه) إنّ الواحد منهم بييجي لي ومْعَاه الرسم من المدرس واللي هَيَاخُذْ عليه درجه ويْنجَح ويُطْلُب مني أعمل له الشُغْلَهْ دي ...ولْحَدْ دلْوَقْت مَفيش واحد من دُول يعْمل شُغْلي دَهْ بالطريقة بتَاعْتي لأن الصنعة محْتَاجة خبْرة وُحْب مش بس علشان شغلانة توكّلُه عيشْ والسلام يَعْني وَاحد زَيّ حَلاّتي اشتغلت في حرَفْ كتيـر ، صَحيح كلهـا سـمكرة لكن اتعلمت واتْقَلّبْت في الصنعـة عند خـواجـات

ومصريين» ، وشغلتي دي خلاص خدت عمري وادّتْني كتير والحمد لله مَسْتُورة وعَايْشين . واللي يشْتَغَل شُغلانتى دي يحبّها لأن فيها فن حتى العمال اللي هجروها واشتغلوا في حرَف تَانْية اشتغلوا برضه في السمكرة ولكن في حاجات تجيب لهم دخل زيادة زي عمل مخرطة الملوخية والشرشرة بتاعة البرسيم وغيرهم .. وكمان فيه بعض الصبيان اللي كبرُوا شوية ومَابْقُوش أسطوات دول راحوا المصانع واشتغلوا فيها واللي حصل في حرفتنا حصل في غيرها يعني لما تيجي تُشُوفي شارع المغربلين تلاقيه كُلّه محلات تصليح أجهزة كهربية أو محلات تجارية لكن اسمه ده أصلاً كان فيه ناس بتْغَرْبل الغلة مكانهم دلوقت فيه بتاع طرابيش ومحل كهربائي سرسيون لأن لما صاحبه مات الله يرحمه ابنه حول المحل إصْلاح راديو وتليفزيون حسب اللي ماشي اليومين دُولْ» .

(ب) الإبداع والقدرة على الابتكار عند السمكري البلدي

يتضح من خلال مناقشة مراحل الإنتاج وتنوع عملياته تبعاً لنوعية المنتج الحرفي في صناعة السمكرة البلدي ،أن القائم بالعملية الإنتاجية برغم ماهو عليه من أمية،فإن خبرته اليدوية المتنوعة والطويلة قد أكسبته قدرة فنية ترجع إلى ما تولد لديه من إحساس معرفي يجعله قادراً على أن يحكم على المنتج الحرفي وأن يتقن مراحل إنتاجه. فمن الخبرة الطويلة التى مارسها رب الحرفة في ممارسة أنشطة عديدة من السمكرة البلدي ، استطاع بما تولد لديه من حاسة فنية أن يقوم بتصنيع بلابل النحاس متساوية الحجم والشكل .كما يستطيع أن يفرق بين المنتج الجيد وغير الجيد بمجرد النظر وحاسة اللمس في بعض الأحيان . ففي عملية إنتاج القمع ، لابد من وجود نسب معينة بين المخروط الدائري الذي يمثل القاعدة والأنبوبة الأسطوانية الشكل المتصلة بأسفله بما يناسب في مجمله كمية السائل المتصرف عبر المخروط إلى الأنبوبة الأسطوانية.كما يجب أن يحافظ السمكري البلدي على النسب بين عرض المقبض وحجم المخروط وطول أنبوبة التصريف الرئيسية.حتى يكون المنتج في شكل هندسي يرضى الذوق العام للمستهلكين ولكن أين يتأتى ذلك للسمكري البلدي وهو أمي ولم تتوفر له خلفية علمية تؤهله للعمل الجيد كما لايستخدم قلماً أو مسطرة . لاشك أن مرد ذلك كله يرجع إلى المعرفة الفنية الكامنة التي اكتسبها الحرفي من معلمه ومن خلال فترة ممارسته الطويلة .

ومن ثم يمكن القول ،إن ما ذكره جورج ستورت في تقريره حول صناعة العجلات الخشبية نجده متمثلاً أيضاً في صناعة السمكرة البلدي.فالحرفي في صناعة العجلات كان يقوم بعمل تحدب معين في العجلة الخشبية ولكنه لايعرف السبب لذلك . لكنه قد علم بضرورة عمل هذا التحدب كما تعلمه من معلمه في الحرفة.كما ورد في التقرير أن عامل العجلات الخشبية،كان يستخدم العين وحاسة اللمس في حكمه على جودة العمل.

وفي حرفة السمكرة البلدي خاصة صناعة البلابل النحاسية ، يتضح أيضاً من أقوال رب الحرفة مدى اعتماده على العين واللمس والحس الفني في صناعة البلابل إذ يقول : «بالنسبة لتصنيع البلابل النحاس لازم كل بلْبلَة تكون زي زميلاتها في الشكل والحجم والنظافة للسطح بتاعها وطبعاً دي مسئولية وواجهة لعسكري التشريفة . وطبعاً أنا باشوفها بإيدي وألمسها وأعرف إذا كان فيه عيب في الخامة أو في مقاس الواحدة منهم» .

(جـ) تنمية القدرات الذاتية

من خلال المناقشات السابقة حول الخلفية المهنية لرب الحرفة وممارسته للعديد من أنشطة السمكرة البلدي خاصة خلال السنوات الأخيرة حيث صار ينتج البلابل النحاسية، يتضح أن الحرفي يسعى لتنمية قدراته الذاتية حيث صار يتفوق على أقرانه ممن يمارسون حرفة السمكرة البلدي .إذ يذكر أنه الوحيد الذي يقوم بتصنيع البلابل النحاسية من منطلق خبرته الطويلة وحبه لحرفته وإخلاصه في عمله إذ يقول :

«طبعاً لما بأقول إنني الوحيد اللي بَاصْنَع بلابل النحاس ، ده علشان حياتي كلها في الصنعة دي وتعلمت كل حاجة عنها على إيدين أُسْطَوَات كبار الله يرحمهم . وما وقفْتش بس عَنْد اللي تْعَلّمْتُه حَاولت لوَحْدي أعْمل حاجات شكلها مْدَوّر مقاسات واتعلمت طبعاً البرادة وازاي اطلّع الشغلة مفيهاش لا عالي ولا واطي . لازم من الجهد والعرق والواحد يشغل عقله وإيديه فَاهْمَة بتعمل إيه . وعلشان كده أعمل البلْبلَة زي أختها أحسن من شغل المكنات في نظري» .

وترتبط أيضا التنمية للقدرات الذاتية بأساليب التنشئة المهنية.فقد بدأ السمكري البلدي العمل في حرفة السمكرة البلدي وهو طفل صغير ولم ينقطع عنها قط طوال

حياته . ومن ثم تناول معلموه صقله وتعليمه فنون الحرفة حتى شب عليها ومعها . وإذ يذكر ذلك في معرض عرفانه بفضل معلمه عليه فيقول :

«طبعاً أنا تعلمت الصنعة وأنا صغير جداً ، طفل يعني ، وماكنتش بأتأخر يوم عن الورشة وإذا تأخرت كان الأسطى يعاقبني بالضرب واتعلمت كل حاجة من أُسْطَى لأُسْطَى وفهمت الصنعة مضبوط . والصنعة دي ممتازة ومحتاجة اللي يَخْلص لها وعاوزة صبر لكن جيل اليُومِيْن دُول مشْ عاوز يتعلمها وبيستخف بها » .

وحول عمالة الأطفال وعدم وجود بعض الأطفال في الورشة لمساعدته يقول : «مفيش عندي صبيان لأن الأولاد مش عاوزين يتعلموها وكمان الولد لما تيجي تعلمه وبعدين لما يغلط تيجي تمد إيدك عليه تلاقي أمه أو أبوه جم ويشتكوا وأخَدُوا الولد ومَنَعوه إنّه يرْجَع تَاني ومين من الأولاد اليومين دُول عنده صبر ودلْوَقت اللّي عَاوزْ يعَلّم ابنه صنعة يوديه مدرسة الصنايع علشان يتعلم السمكرة أو الحدادة وللأسف يطلع من المدرسة مايفْهَمش حاجة بس الإسْم صنايعي» .

ثانيا : صناعة الخيام

١ - نبذة تاريخية

تعتبر صناعة الخيام واحدة من صناعات النسيج التي كانت سائدة في العصر الفاطمي في مصر ، فكما أشرنا في الفصل الثاني ، تنوعت صناعات النسيج من حيث جودة ونوعية المنتجات القطنية والحريرية وغيرها . فكل ما يتم تصنيعه من أقمشة وملابس جاهزة تخص الخليفة الفاطمي كانت تصنع من النسيج الفاخر غالي الثمن من الحرير والأقطان المطرز بالجواهر النفيسة وخيوط الذهب . ولقد بلغت صناعة النسيج أوج عظمتها إبان العصر الفاطمي نظراً لاهتمام الخلفاء الفاطميين خاصة المعز لدين الله بالملابس غالية الثمن . وقد بلغ به حد الولع باقتناء تلك الملابس أنه كان يخصص لباساً جديداً يرتديه لكل مناسبة من المناسبات العديدة الدينية والقومية [١] ، والتي كثرت في مصر إبان العصر الفاطمي .

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ .

بالإضافة إلى المنتجات غالية الثمن المطرزة بالأحجار الكريمة للخليفة الفاطمي وأعوانه والأمراء ، كان يتم إنتاج منسوجات وملابس لكافة فئات الشعب المصري .حيث تنوعت المنتجات في صناعة النسيج ، فكانت الجلاليب والأقمصة والعمائم والأحزمة التي تصنع من أقمشة غالية الثمن وتزينها أشرطة مشغولة بالحرير [٢] ، كما كانت الستائر وأغطية الوسائد القطنية والكتانية مزدانة بالأساليب الزخرفية الساسانية والبيزنطية المستوحاه من الفن القبطي . وكان أهم ما يميز طرز الملابس في العصر الفاطمي ، ما تحتويه من رسومات وزخارف آدمية ورسوم حيوانية ونباتية .

وخلال العصر الفاطمي ، تعلم النساجون المصريون نسج بعض العباءات الطويلة بلحمه من الذهب أو الفضة ، أو بعمل خطوط متعددة الألوان على قطع من النسيج على شكل لوحات مختلفة المقاسات والأحجام وأيضاً على ملابس الخلفاء .ومن العباءات التي يتم تطريزها ما يمجد الخليفة الفاطمي ويشيد بذكره .أما ماكان يطرزاً من عباءات على ملابس الأمراء والاشراف بمثابة وثيقة تدل على مكانة من خلعت عليه من الأمراء من قبل الخليفة الفاطمي [٣] . ومن أمثلة تلك العباءات ، ما نراه مطرز على قطعة من الشاش محفوظة في متحف فكتوريا والبرت ونصها : «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله ، محمد رسول الله على ولي الله ... ... المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين» [٤] .

---

(٢) زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨١ .

(٣) يذكر بن خلدون في مقدمته :

«الطراز من أبهه الملك والسلطان ، ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أبوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسيم تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب إلحاماً وسدى بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصداً للتنويه بلابسها من السلطان ممن دونه أو التنويه بما يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته ... الخ» .

هذا الاقتباس ورد في زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، مرجع سابق ، هامش ، ص ١١٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

أيضاً من بين ما ورد في سجل الكتابات التاريخية العربية ، بعض العبارات المكتوبة باللغة العربية على بعض القطع القطنية التي ترجع إلى العصر الفاطمي في مصر . ومن تلك العبارات : «الملك لله» ، «نصر من الله» ، «العز من الله» ، «بسم الله الرحمن الرحيم الملك الحق» ، «ما شاء الله كان» ، «العز الدائم»(٥) ، وأيضاً عبارات التبرك مثل «العز الدائم والصبر والدولة لصاحبه»(٦) .

وحول نشأة صناعة الخيام في مصر ، فيصعب علينا تحديد تاريخ لنشأتها على وجه الدقة حيث لانجد بين أيدينا من مصادر علمية متاحة يمكن أن نستند عليها لهذا الغرض. إلا أن ما يمكن الجزم به ، أن صناعة الخيام مثل باقي صناعات النسيج قد بلغت أوج عظمتها وشهرتها إبان عصر الفاطميين في مصر . ودليلنا على ذلك أن الفاطميين أفردوا لصناعة الخيام خزائن خاصة كانت تعرف بخزائن الخيام . ويذكر المقريزي أن خزائن الخيام في قصر الخليفة الفاطمي كانت تحوى ما يصعب حصره من أعدال الخيم والمضارب والفازات والمسطحات وأعمدة الحبال الملبسة القطن والحرير والأوتاد وسائر ما تحتاج إليه الخيام من جميع آلاتها وعدتها المبطن جميعها بالديبقي المذهب والخسرواني المذهب(٧) .

أيضاً تنوعت وتباينت الخيام من حيث الجودة والتطريز والزخرفة والرسومات تبعاً لتباين أغراض استخدامها واختلاف درجات ووظائف المستخدمين للخيام . ومن بين ما أورده المقريزي حول أنواع الخيام التي تم حصرها في خزانة القصر قوله :

«وحدثني أبو الحسن عليّ بن الحسن الخيميّ قال أخرجنا في جملة ما أخرج من خزائن القصر أيام المارقين حين اشتدت المطالبة على السلطان فسطاطا كبيراً أكبر ما يكون يسمى المدورة الكبيرة يقوم على فرد عمود طوله خمسة وستون ذراعاً بالكبير ودائر فلكته عشرون ذراعاً وقطرها ستة

(٥) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ١١٨ .
(٧) تقي الدين ابن العباس أحمد بن علي المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، ص ٤١٨ .

أذرع وثلثا ذراع ودائره خمسمائة ذراع وعدّة قطع خرقة أربع وستون قطعة منها تحزم في عدل واحد يجمع بعضه إلى بعض بعرى وشراريب حتى ينصب يحمل خرقة وحباله وعدته على مائة جمل وفي صفريته المعمولة من الفضة ثلاثة قناطير مصرية يحملها من داخلها قضبان حديد من سائر نواحيها تمتلىء ماء من راوية جمل قد صوّر في رفرفة كل صورة حيوان في الأرض وكل عقد مليح وشكل ظريف وفيه باذهنج طوله ثلاثون ذراعاً في أعلاه كان أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن البازوري أمر بعمله أيام وزارته فعمله الصناع وعدّتهم مائة وخمسون صانعاً في مدة تسع سنين واشتملت النفقة عليه على ثلاثين ألف دينار ...»[٨].

من جهة أخرى ، برغم اشتغال الصناع المصريين بصناعة الخيام ، فقد نفهم من أقوال المقريزي حول «خزائن الخيم» فضلاً عن البيانات المتفرقة التي تحتويها كتب التاريخ ، ما يشير إلى وجود بعض الخيام ذات الطرز العربية مثل الخيام الكردواني والتي تولى عملها أحد الخيميين بمدينة حلب[٩].

وحول تاريخ نشأة صناعة الخيام يذكر أكبر الخياميين سناً وأكثرهم خبرة وممارسة في هذه الحرفة الأصيلة :

«كل ما أعرفه عن صناعة الخيام أنها بدأت في مصر على صناعة الخيام لمعيشة البدو من الخيش والصوف قبل عصر قايتباي والذي كان له الفضل في تطوير الحرفة عندما طلب من الخيامين نسج سرادق كبير لبرلمانه . وتم إدخال النقوش الإسلامية على الخيام» .

---

(٨) المصدر نفسه ، ص ٤١٩ .

(٩) أورد المقريزي من خلال وصفه لمحتويات «خزائن الخيم» بقصر الخليفة المعز لدين الله قوله :
«وأخرجنا من الخيام الكردواني شيئاً كثيراً وأخرجنا خيمة كبيرة مدوّره مليجة النقش والصنعة عدّتها قطع كثيرة طول عمودها خمسة وثلاثون ذراعاً فعلنا بجميعها مثل ما فعلنا بالأوّل وأخرج في جملتها الفسطاط الكبير المعروف بالمدوّرة الكبيرة المتولى عمله بحلب أبو الحسن عليّ ابن أحمد المعروف بابن الأيسر في سنى نيف وأربعين وأربعمائة المنفق على خرقة ونقشه وعمله وعدّته ثلاثون ألف دينار ...»
انظر : المقريزي ، المصدر نفسه ، ص ٤١٩ .

تعتبر صناعة الخيام في مصر من بين الحرف التقليدية التي تقوم على الجمع بين الأصالة المصرية والذوق الرفيع للصانع ، فهي حرفة تعتمد على ذوق الحرفي وموهبته في اختيار الألوان التي تضفى على الخيمة زخارف ترضى أذواق المشترين . وتتركز صناعة الخيام في مصر في أحد الشوارع الشهيرة المتميزة بطابعها الإسلامي والمعروف (بالخيمية) بعد (بوابة المتولي) . والذهاب إلى الخيمية يبدأ من منطقة الأزهر الشريف مروراً بالغورية ومنها إلى الخيمية .

وعندما تسير في شارع الغورية متجهاً إلى باب زويلة الذي يفضى إلى شارع ضيق مسقوف حيث حوانيت صناعة الخيام ، تلحظ اكتظاظ الشارع بالزائرين والمترددين لقضاء حوائجهم . ومن بين هؤلاء قد تجد الأدباء والشعراء والمثقفين وعامة الأفراد في منظومة غير متجانسة . وبعد أن كان شارع الخيمية يضم جميع ورش صناعة الخيام وكسوة أضرحة الأولياء ، تضاءل عدد العاملين بتلك الصناعة حيث لايتجاوز عددهم أربعين عاملاً يشتغلون في حوانيت ضيقة المساحة جداً . ولايتعدى عدد تلك الحوانيت أصابع اليد.وللوهلة الأولى،نجد الكثير من المشغولات القماشية التي أبدعتها يد صانع الخيام معلقة بأبواب الحوانيت شاهدة على موهبة الصانع ومدى براعته ومهارته التي تفصح عنها دقة الرسومات وتناسق الألوان في منظومة ينشرح لها الفؤاد وتسر منها الأعين .

ووفقاً للاستعمالات المختلفة للخيام سواء داخل المنازل أو خارجها . تتعدد أنواع الخيام التي يقوم الحرفي بتصنيعها ، فهناك خيام الكشافة والتي يتم تصنيها من قماش (القلع البلدي) المبطن بقماش (الدّمُور).وتستعمل في معسكرات الكشافة .وهذا النوع من الخيام لا يحتوى على زخارف أو نقوش سواء من الداخل أو الخارج . والنوع الثاني من الخيام هو ما يستخدمه العسكر والجند وهي ذات قبة مستديرة وتماثل في أشكالها خيام الكشافة بلا زخارف .وتستخدم كأماكن لإيواء ونوم الجند . وبالإضافة إلى النوعين السابقين ، توجد خيام الصحة وخيام الحجيج والخيام المزخرفة بألوان ونقوش يتم طلبها وفق مواصفات معينة من شركات السياحة والطيران والهيئات الأجنبية المختلفة .

٢ - مورفولوجية ورشة صناعة الخيام

من خلال تناولنا بالوصف للمغربلين بدءاً من أول شارع الغورية حتى الخيمية ، ذكرنا أن جميع ورش صناعة الخيام تقع متجاورة ومتقابلة في آن واحد في موقعها الكائن حالياً في منطقة الخيمية بعد بوابة المتولي بأمتار قليلة . وبرغم التجاور الايكولوجي لورش الخيمية ، إلا أن نمط التفاعل بينها يتصف بالضعف وقلة العلاقات الاجتماعية وندرة الحوار بين الصناع في تلك الورش .

وإذا أضفنا للتجاور الأيكولوجي خاصية أخرى هي طول فترة هذا التجاور لتوقعنا على الفور أن تكون فعالية نمط التفاعل بين الخيميين عالية جداً وتماثل على الأقل ما تكون عليه صناعة «دبل البخت» في حارة اليهود . وعلى النقيض توضح الشواهد الميدانية قلة العلاقات الاجتماعية بين الخيميين وانخفاض معدل التفاعل الاجتماعي بينهم .وانحسار التعاون بينهم في مجال العمل . كما سيتضح فيما بعد .

من جهة أخرى ، يمكن القول أن موقع ورشة صناعة الخيام يتيح لها سوقاً رائجاً لعرض وتسويق المنتجات الحرفية المتنوعة من لوحات متنوعة وملابس تقليدية مطرزة بالإضافة إلى منتجات أخرى ترضى مختلف أذواق المستهلكين . ومن ثم يستغل الخيمي الموقع المتميز للورشة على امتداد سوق الغورية في عمليتي الإنتاج والتسويق وعرض المنتجات الحرفية ومثيلاتها من إنتاج المصانع .

وفيما يختص بوصف مكان العمل ، فإنه يغلب على جميع حوانيت صناعة الخيام واللوحات الفرعونية والإسلامية ذات الزخرفة والنقوش اليدوية ، صغر المساحة حيث تتراوح تلك المساحة مابين حانوت تبلغ مساحته التقريبية مترين ونصف المتر المربع إلى حانوت تبلغ مساحته ثمانية أمتار مربعة . وتتوسط الحانوت «كنبة بلدي» كبيرة يجلس عليها الخيمي أثناء تأدية عمله . كما لوحظ أن مستوى الحانوت غائر عن مستوى الأرض بالنسبة لجميع الأبنية القديمة التي لم تخضع لأي تجديدات . وتتناثر قطع الأقمشة بشكل غير منتظم حول الخيمي مع ضيق مساحة الحانوت . ويقوم الصانع بعرض منتجاته على واجهة الحانوت بشكل لاتشعر عين الناظر إليها بالفتور أو الملل .

فالحرفي يعرض نماذج من لوحات تحمل رسومات بلدية وفرعونية وإسلامية مثل اللوحات القرآنية وفاتحة الكتاب بأشكال هندسية وزخرفية بالغة الروعة . وتعتبر الظروف الفيزيقية التي يعمل فيها الخيمية سيئة . حيث يعتبر باب الحانوت هو المصدر الوحيد للإضاءة والتهوية . كما يفتقر الحانوت إلى المرافق الصحية .

٣ - المواد الخام والأدوات المستخدمة عند الخيمية

تعتبر جميع المواد الخام التي تتطلبها صناعة الخيام وباقي المنتجات الحرفية الأخرى التي ذكرناها مواد بسيطة ورخيصة الثمن وجميعها محلية ومتوافرة في السوق المصري.ففي بادىء الأمر استخدم الخيمية الخيش والصوف في تصنيع خيام الإيواء للبدو ثم تطورت صناعة الخيام بعد ذلك فأصبحت تصنع من القطن والصوف . وحالياً يستخدم الحرفي قماش الدمور وبعض الأقمشة الأخرى الملونة في شكل قطع مستطيلة . بالإضافة إلى ذلك يستخدم الحرفي قطعاً من الطباشير ، زوجاً من المقصات وبكرات الخيط بألوانه المختلفة . أيضاً يستخدم الخيمي تراب الفحم والبودرة هذا فضلاً عن استخدامه واقياً معدنياً (الكوستبان) يضعه في مقدمة إبهامه ليفتدي به من وخز الإبرة أثناء التطريز والزخرفة بالقماش .

٤ - وصف العملية الإنتاجية ونوع المنتج الحرفي

إذا قلنا إن أهم خصائص الأداء الحرفي الصبر ، الذوق الفني والموهبة مع الخبرة اليدوية المكتسبة في أداء المنتج الحرفي ، نقول أيضاً في وصف العملية الإنتاجية إنها تتباين تبعاً لنوع المنتج . فلكل نوع طريقة أداء وأسلوب عمل معين . فالمنتجات الحرفية عند الخيمية متنوعة من حيث الكيف والذوق ومتفاوتة أيضاً من حيث الحجم ونوعية الخامات المستخدمة وفقاً لمتطلبات السوق وبما يتمشى والتحول الحادث في الذوق العام للمستهلك .

تعتبر الطبيعة والأقاصيص الشعبية والمزارات ودور العبادة والآثار الفرعونية والإسلامية مصادر الإلهام الأساسية عند الخيمية . فالخيمي قبل أن يشرع في إنتاج

لوحة قماشية عليها نقوش وزخارف إسلامية ، فإنه يذهب إلى المساجد القديمة المنتشرة في ربوع القاهرة عاصمة العواصم لينقل بفطرته وموهبته الكثير من الزخارف والنقوش من فوق المنابر وجدران المساجد ، ومن ثم تأتي لوحات الحرفي بأصالة الشرق وكأنها مرآة تعكس الحضارة الإسلامية .

فالخطوة الأولى في إنتاج السلعة هي محاكاة النقوش والرسوم الموجودة في المساجد القديمة . وفي هذا الصدد يذكر أكبر الخيمية خبرة وسناً :

« يقوم الخيمي بزيارات لبعض المساجد مثل مسجد محمد على ومسجد الرفاعي والشافعي وغيرهم لاختيار بعض الرسومات ونقلها إما بنفسه أو في حالة تعذر ذلك عليه يلجأ إلى بعض المتخصصين في الرسومات لنقلها بالرسم على ورق معد لذلك » .

الخطوة التالية ، تتم بقيام الخيمي بوضع الورقة التي تحمل تلك الرسوم والزخارف على قطعة القماش المراد تصنيعها . ثم يتم تثقيب النقوش باستخدام إبرة ويتم ذلك يدوياً . وبعد ذلك يقوم الخيمي برش بودرة سوداء مثل مسحوق الفحم، أو بودرة بيضاء تبعاً للون قطعة القماش .فعلى سبيل المثال تستخدم البودرة السوداء للقماش الأبيض . وأحياناً قد يقوم بتمرير قطعة من القطن أو القماش المبللة بالفحم المذاب في الجاز . وهذه الخطوة لا تتطلب مهارة عالية أو موهبة فطرية بل تعتمد أساساً على الخبرة المكتسبة . ويقوم الخيمي بتوضيح الرسومات باستخدام القلم الرصاص .

الخطوة الثانية في العملية الإنتاجية تتمثل في بدء الحرفي تطريز وزخرفة الشكل المحدد بالقلم الرصاص على قماش القلع . وتعتمد تلك الخطوة على ذوق الحرفي وموهبته الفطرية في اختيار منظومة منسقة من الألوان التي توحي بمضمون الرسومات وتلائم طبيعة الاستخدام كما تفصح عن ملامح الحقبة التاريخية التي تعبر عنها تلك الزخارف والرسومات . ويبدأ الخيمي في التطريز باستخدام وُصْلات من القماش الملون بألوان مختلفة وفقاً لرؤيته الذاتية كفنان . حيث يقوم الخيمي بقص قطع القماش الملونة لتغطية النسيج في تناسق من الألوان .ثم يستخدم الإبرة في حياكتها حتى ينتهى تماماً من عملية التطريز .

وتبدو موهبة الخيمي واضحة في تناسق الألوان للقطع القماشية حيث يقوم بالتوفيق بين الألوان المختلفة بحيث توحي في مظهرها للمشاهد بأبعاد متراكبة من التناغم الأخاذ للألوان بما يعطى العمق ويعبر عن مضمون الرسومات والتطريز . وعادة يتخذ الحرفي بعض الألوان الثابتة كخطوط أساسية للرسومات ، مثل اللون الأبيض مُع البني الداكن واللون الأسود . وذلك عند تطريز الخيام والقطع التي تستخدم للسرادقات بنقوشها العربية وزخرفتها الهندسية .

أما بالنسبة للمنتجات التي تحمل رسومات وزخارف فرعونية ، فيستخدم الخيمي في صناعتها الألوان غير الداكنة والمستوحاة من جدران المعابد والمقابر الفرعونية . مما يجعلها تلفت نظر الزائرين والراغبين في اقتناء المشغولات اليدوية ذات الزخارف الفرعونية .

ويجدر التنويه إلى أن عملية اختيار الرسومات تعقبها عملية اختيار الألوان التي يراها الخيمي مناسبة وذلك قبل أن يشرع في شراء الخامات المطلوبة لتنفيذ العملية الإنتاجية .

وقبل أن تتدهور صناعة الخيام كانت معظم الألوان المستخدمة في صناعْتها هي اللون الأصفر والأخضر والأحمر . ولاتزال صناعة الخيام تتم حاليا في مصر ولكن في حدود ضيقة ووفقاً لطلبات سابقة من بعض الدول العربية والأجنبية . أما باقي المصنوعات الأخرى ، فتْلقى رواجاً خاصة من السائحين وبعض الطبقات الاجتماعية في مصر .

ويمكن تقسيم الإنتاج الحرفي للخيمية إلى ثلاثة مصنفات أساسية تعكس ملامح التراث المصري والحضارات الإسلامية والفرعونية .

(أ) المنتجات الفرعونية

وهي منتجات مصنوعة من القماش وتستخدم كلوحات تزين الحوائط الداخلية للقصور والبيوت . وتحمل أشكالاً ورسومات فرعونية ذات ألوان زاهية وغير داكنة .

وتحمل اللوحات الفرعونية رسومات لعين حورس ، والرموز الهيروغلوفية ، وكليوباترا وغيرها من ملكات وفراعنة مصر . وتتصف الألوان المستخدمة في زخرفتها بالاتساق والتـوازن بما يحـقق تمتع العين بالمشـاهدة . وتوضح الصـورة رقم (٧-٣) نماذج من الرسومات الفرعونية

(ب) المنتجات الإسلامية

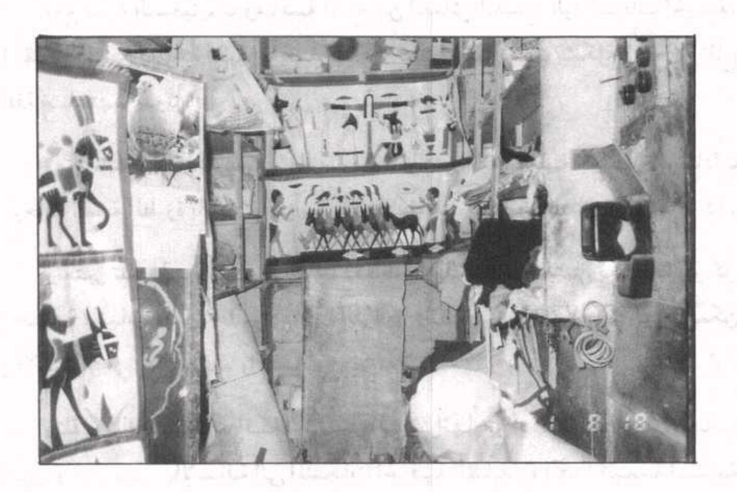
تأتي الخيام في مقدمة المصنوعات الحرفية والتي ظلت لقرون طويلة ترتبط بالفن الإسلامي .وبعد اندثار صناعة الخيام تقريباً تحول الخيميون إلى تصنيع منتجات جمالية ذات نقوش ورسومات إسلامية تستخدم كلوحات لتزين المنازل والدور المختلفة . ومن الأشكال الهندسية الشائعة الاستخدام في المنتجات الإسلامية،الشكل السداسي،النجوم، المربعات المتداخلة . وتتنوع الخيام وفق مجالات استعمالها وبالتالي وفق مستوى زخرفتها ورسوماتها إلى :

١ - الخيام ذات القبة المستديرة وتصنع من قماش «القلع البلدي» المبطن بقماش الدمور .

٢ - خيام الصحة وخيام الحجيج (المكادي) وأيضاً خيام السياح وشركات الطيران والهيئات الأجنبية . وتتفاوت في هذا المصنف درجات الزخرفة والنقوش وفقاً للمواصفات التي تحددها الجهات الطالبة حسب رغبة كل جهة .

٣ - خيام للخاصة والأغنياء . وتتصف تلك الخيام بارتفاع باهظ في أثمانها نظراً لما تتضمنه من زخارف ونقوش غاية في الإبداع . كما يتخلل عملية التطريز خطوطاً مطعمة بالذهب والفضة حسب رغبة الأغنياء سواء في مصر أو في الدول العربية الأخرى .

وإلى جانب صناعة الخيام ، برع المصريون منذ عصر المماليك في صناعة أقمشة السرادقات برسومات إسلامية بالغة الجمال والاتقان . وتتجسد تلك الزخارف والرسومات في أشكال عربية وهندسية بألوان وأشكال رائعة ومتعددة تعكس قيمة فنية عالية .



صورة رقم (٧ - ٣) نماذج من الرسومات الفرعونية



صورة رقم (٧ - ٤) نموذج من الرسومات الإسلامية

ومع بداية السبعينيات ومنافسة المنتج من القماش المطبوع آلياً لمنتجات الخيمية، بدأ تقلص كل من صناعة الخيام وأيضاً صناعة أقمشة السرادقات بشكل واضح لارتفاع تكلفة صناعتهما يدوياً.

ومن المنتجات المتنوعة ذات الرسومات والفنون الإسلامية أكياس الوسادات واللوحات الفنية المطرزة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية (انظر الصورة رقم ٧ - ٤).

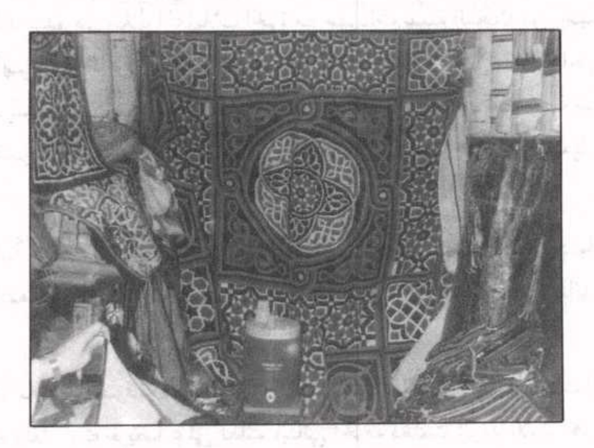
وتعتبر تلك المنتجات أحدث ما تقدمه حاليا يد الصانع الخيمي بعد انحسار كل من صناعة الخيام وأقمشة السرادقات «الترك» (أنظر صورة رقم ٧-٥) حتى يتمكن من الاستمرار في أداء حرفته واكتساب معيشته .

وتلقى تلك المنتجات إقبالاً كبيراً على شرائها من جانب السائحين الأجانب والعرب والمصريين . بالإضافة إلى المنتجات الحرفية السابقة ، اتجه الخيمية لصناعة الحقائب ذات النقوش الإسلامية والفرعونية بالإضافة إلى تصنيع كراسي البحر والشماسي والمنتجات الشعبية والجلباب(الحريمي والرجالي) المطرزة بأشكال وألوان زاهية.

٥ - العمالة الحرفية ومستوى التعليم والتوارث المهني

تعتبر العمالة الحرفية مصرية العنصر خالصة تعتمد على التوارث بشكل كامل وذلك بالنسبة لعينة البحث . كذلك لم تحظ معظم مفردات العينة بأي قسط من التعليم خاصة كبار السن من الخيميين .

• أيضاً اشتملت عينة البحث على حالتين فقط ممن يعملون في صناعة الخيام وهما طفلان تعلما الحرفة منذ نعومة أظفارهما ثم هجراها للتعليم وبعد وفاة والدهما بسنوات عادا للعمل مرة أخرى . ورغم ذلك ، فإن كبار السن من الخيميين يرمونهما بالدخلاء ونقص الخبرة الحرفية ، ومما يذكره أحد المبحوثين من كبار السن في هذا الصدد قوله : «دُول مُشْ خيمية أو صنايعية ، دُول مش عارْفِين يُقْعُدوا القَعْدَة الصَّحْ التي تعلمناها، دُول نسوا اللي أبوهم علمه لهم ولازم علشان يبقوا صنايعية يتعلموا الأول الجلوس الصحيح للعمل وبَعْدين جِيل الأيام دِيْ هَيْجيب صَبْر مِنِينْ علشان يِشْتَغَل شغلتنا دي»



صورة رقم (٧ - ٥) «الترك» الذي يستخدم في السرادقات



صورة رقم (٧ - ٦) طريقة الجلوس الصحيحة عند الخيمية
وشدة التركيز أثناء القيام بالعمل

كذلك يبدو من خلال المقابلات الحرة مع مفردات عينة البحث من الخيميين،أن التوارث المهني يعد ظاهرة جوهرية تتصف بها العمالة الحرفية في صناعة الخيام .ومما يذكر أحد المبحوثين حول تلك الظاهرة ، هو أن العمل في تلك الصناعة يقوم على التوارث عبر عدة قرون من الأجداد إلى الأحفاد واستمرار هذا التوارث إلى الوقت الراهن.

أيضاً من خلال أقوال المبحوثين وإجاباتهم عن الأسئلة الواردة في دليل العمل الميداني والمتعلقة بمدى توارث الحرفة يتضح إصرارهم على توريث الحرفة لأبنائهم فيذكر أحدهم :

« أنا تعلمت الحرفة من أبي وكنا نقوم بصناعة بعض المشغولات العربية والإسلامية ولقد كنت حريصاً على تعليم أبنائي الحرفة فعلمت الولد الأول وهوه موجود معايا حالياً في الدكان وابني الثاني « أسامه » فأنا بأعلمه الصنعة إلى جانب دراسته في المدرسة » .

وتكشف لنا أقوال المبحوثين ، كيف أن الخيمي حريص على ألا تنقرض الحرفة في أسرته . فبالإضافة إلى ما تناولناه من أقوال أحد الخيميين بإصراره على تعليم ولديه الحرفة ، نجد خيمياً آخر من كبار السن وهو يتكلم باعتزاز عن حرفته نشعر في حديثه بنبرة أسى واضحة لانصراف أولاده عن مساعدته في الحانوت فيقول :

«الحقيقة مفيش غيري بيشتغل في الدكان وسني كبر قرب السبعين وأولادي علمتهم الصنعة لكنهم بعدما تعلموا توظفوا في الحكومة وبينْكسففوا لو جُمْ اشتغلوا في ، الدكان خايفين ليْشُوفهُم زملاؤهم في الشغل ويحرجوهم . مع أن الصنعة دي معروفة ومشهورة ويتمنى أي حد يشتغلها وكان لها زمان ولحد السبعينات شأن كبير . وعموماً الأولاد بيساعدوني في البيت لو جت لنا طلبية كبيرة ومش هأقدر أعملها لوحدي وقليل قوي لما الأولاد ييجوا هنا الدكان» .

٦ - التفاعل الاجتماعي بين الخيميين

رغم التجاور الإيكولوجي لحوانيت الخيمية،فإن المشاهدات الإمبيريقية أسفرت عن ندرة في التفاعل الاجتماعي بينهم.وقد يرجع ذلك إلى طبيعة الحرفة ذاتها.حيث

يتطلب أداء العمل في صناعة الخيام شدة تركيز من الحرفي كما يتضح من الصورة رقم(٧-٥) وهذا بالإضافة إلى عاملين أساسيين أمكن ملاحظتهما كدافعين لضعف أواصر العلاقات الاجتماعية داخل هذه الفئة من الحرفيين . العامل الأول هو كبر السن مع صغر حجم العمالة الحرفية في مكان العمل الواحد . ففي أحد الحوانيت لانجد سوى خيمي واحد يعمل باللوحات القماشية المزخرفة ذات الرسوم العربية والفرعونية والإسلامية . حيث يجلس على أريكة خشبية قديمة . ويستخدم جهد عينيه في أشغال الإبرة .

والعامل الثاني الذي يرتبط بالعامل الأول هو تفاوت واضح في العمر بين الخيمية بالإضافة إلى وجود دخلاء في ممارسة الحرفة على حد قول كبار السن ذوي الخبرة من الخيمية. ويقصدون بالدخلاء ممن لم يسبق لهم الاستمرار في ممارسة الحرفة بالتوارث حيث يوجد بعض الخيميين من الشباب الذين حصلوا على مؤهلات علمية جامعية وهم أبناء لخيميين قدامى. فبعد انقضاء سنوات عدة جاء هؤلاء لممارسة الحرفة التي تعلموها وهم صغار على أيدي آبائهم . وبعد وفاة الآباء أغلقت حوانيتهم لفترة من الزمن ثم جاء هؤلاء الأبناء لممارسة الحرفة ولكن على حد قول أحد المبحوثين ينقصهم الخبرة وليس لديهم حنكة العمل .

ومن بين ما يذكره أحد كبار السن من الخيمية المبحوثين قوله :

«فيه بعض الدخلاء في الحرفة طبعاً دول شغلهم مش كويس وشباب اليومين دول مفيش عنده صبر وطبعاً بعد ما تعلموا جم علشان يشتغلوا شغلة أبوهم لكن نسوا كل حاجة بعد السنين دي يعني طريقة الجلوس بتاعتنا لازم لها شكل معين . لابد من ثني الرجل اليمين على(الكنبه) والقاعدة بالشكل ده تعلمتها في ست شهور وأنا طفل عندي سبع سنوات، وطبعاً وجود دخلاء خبرتهم قليلة جداً بتخلي انتاجهم مش كويس وده في وش الخيمية كلهم» .

٧ - خصائص الحرفية في صناعة الخيام

المهارة اليدوية عند الخيمية

تتطلب حرفة صناعة الخيام مهارة يدوية من نوع خاص تميزها عن باقي الحرف الأخرى التي تناولتها الدراسة الحالية . فلكي يكتسب الخيمي المهارة المطلوبة لإتقان

العمل الذي يؤديه يلزم أولاً أن يتصف بخصال ذاتية أهمها: أن يكون صبوراً لا يتعجل العمل . وكما ذكرت إن القطعة الواحدة من قماش السرادقات قد تستغرق من الخيمي ما يربو على ثلاثة أشهر . كما أن دقة الرسومات والزخارف وتداخلها يتطلب من الحرفي الدقة واليقظة وقوة الأبصار .وتلك الخصال لا تعد مطلباً أساسياً في باقي الحرف الأخرى التي تضمنتها الدراسة . ومن الخصال الشخصية أيضاً عدم استخدام اليد اليسرى في العمل . ونستطيع أن نستخلص تلك الخصال من بين أقوال المبحوثين التالية :

«صنعتنا دي لا يصلح لها الأشول – الذي يقدم يده اليسرى على اليد اليمني في العمل – ، المرأة ، والبربري –» يقصد بالبربري هنا نافذ الصبر وغير القادر على العمل المتواصل في نفس الشيء لعدة أشهر دون ملل.

أيضاً تشترط تقاليد الأداء الحرفي ، اكتساب الخيمي الطريقة الصحيحة للجلوس أثناء العمل . فالرجل اليمني يجب أن تثنى مع استخدام اليد اليمنى أثناء عملية التطريز والنقش والحياكة .كما يتضح من الصورة رقم (٧ – ٥) وتعتبر طريقة الجلوس مقياساً للخيمي الناجح والتي تميزه من الدخلاء في الحرفة أنظر الصور أرقام (٧-٧) و (٧-٨). ومما يذكره أكبر الخيميين سناً وخبرة حول وضع جلوس الحرفي أثناء العمل قوله :

«أنا أول مَا تْعَلّمْت الحرفة كان عمري ست سنوات . ووالدي علمني الحرفة. أول حاجة اتعلمتها إزّاي أقعد على الأرض أو على الكنبة البلدي وأرَبّعْ رجليه بحيث يكون فخذ رجلي اليمين قريب من الأرض. أما رجلي الشمال فمش مهم وضعها . ولقد تعلمت الطريقة دي في ست شهور» .

كذلك يرتبط مستوى المهارة اليدوية المكتسبة بالموهبة والتذوق الفني عند الصانع. ولا ترتهن المهارة اليدوية بمستوى تعليمي معين . بل يمتزج الذوق مع الخبرة المكتسبة بالتوارث المهني لتقدم نمطاً فريداً من المهارة اليدوية يخالف نمط المهارة السائد في باقي الحرف الأخرى التي تشملها تلك الدراسة ، من جهة أخرى ، تقترب المهارة اليدوية في صناعة الخيام من المهارة التي يتصف بها الفنون الإبداعية الأخرى من زخرفة ورسم وفنون شعبية أخرى .



صورة رقم (٧-٧) طريقة جلوس خاطئة عند الدخلاء على الخيمية



صورة رقم (٧-٨) طفل لا يتبع التقاليد الحرفية في طريقة الجلوس
أثناء تدريبة على العمل عند «الدخلاء على الحرفة»

وتتفاوت مستوى المهارة اليدوية خلال العملية الإنتاجية في صناعة الخيام ، وإن كانت ترقى في مجملها عن مستوى المهارة السائد في بعض الحرف الأخرى مثل صناعة دبل البخت . وتبلغ المهارة اليدوية في صناعة الخيام ذروتها في مرحلة اختيار الألوان وعمل الزخرفة وتثبيتها على القطع القماشية ، بينما تقل نسبياً خلال المراحل الأولى عند عمل «الأورنيك» أو التثقيب بالإبرة أثناء عملية نقل الرسومات واستخدام البودرة أو تراب الفحم .

(أ) الإبداع في صناعة الخيام

أوضحنا فيما سبق أن الخيمي وهو يقوم بصنع الخيام والقطع القطنية ذات الزخارف والنقوش المتنوعة ، إنما يحاكي ما جبلت عليه الحضارة المصرية من تفرد في الذوق العام وتنوع في مصادر الإلهام الفني التي لا تنضب . وعندما تحاكي فنون الحرفة مصادر إلهاماتها كان ضرورياً أن يكون النتاج إبداعاً وخلقاً . وهذا ما يمكن أن نصف به طبيعة الأداء للخيمية . فمن أصالة التاريخ المصري ينشأ الفن الخيمي . فتزداد في هذه الصناعة قيم الخلق والإبداع . فالموهبة الفطرية والبعد الثقافي لدي الشخصية المصرية الذي يقضى بالحرفي غير المتعلم لتذوق كل ما هو جميل من رسومات وزخارف فوق جدران المساجد والمعابد . ويختلط الذوق الفطري بالمهارة اليدوية المكتسبة لتولد إحساساً قوياً داخل الخيمي بالانتمائية والاعتزاز والإحساس بالفخر بصنعته . ويقف مدافعاً عنها ضد غوائل الانهيار والتدهور من ماكينات وهي تقلد صنعته وتصيب الفن الحرفي بالجمود وتفرض عليه قيداً يحول دون تقدمه وازدهاره . ورغم ذلك يصر الخيمي على موقفه بالتمسك بحرفته والتقيد بتقاليدها وأصول ممارستها .

وإذا كان التوارث المهني كظاهرة واضحة في صناعة الخيام دليلاً في الوقت ذاته على اعتزاز الخيمي بحرفته ، نجد أيضاً تحول الصناع لإنتاج سلع بديلة أمام تقلص صناعة الخيام والقطع اليدوية للسرادقات دليلاً جديداً يدعم ويؤكد ما يتصف به الخيمي من انتمائية واعتزاز بالحرفة .

(ب) الاستقلالية الذاتية والاعتزاز بالحرفة

أوضحنا في أثناء مناقشتنا السابقة أن الأمية تتفشى بصورة واضحة بين العاملين في صناعة الخيام . ورغم ذلك ، فإن إصرار الخيمي على ابتكار رسومات وزخارف متنوعة سواء من إلهاماته الخاصة أو من خلال محاكاته بالنقل من نقوش إسلامية وفرعونية ، تؤكد على استقلالية الخيمي في اختيار ما يراه بفطنته مناسباً لأذواق السوق . فلم يتحكم في اختياره صاحب عمل أو تاجر بالأسواق . بل يتولى الخيمي مباشرة الإنتاج والبيع . ومن ثم تصبح الوحدة الحرفية هنا بمثابة شركة واحدة للإنتاج والبيع دون قيود أو تحديدات من جهات أخرى . كذلك مما يكشف عن الانتمائية العالية لدى الخيمي نحو حرفته واعتزازه بها ، قول أحد المبحوثين وهو أيضاً من كبار السن وصاحب الحرفة :

«للأسف كان في الشارع دَهْ محلات كتيرة لصناعة الخيام ولكن بعض الورش ديْ تحولِتْ إلى مَحَال تجارية زي ما أنت شايفة وبعض الأفراد دخلوا في الحرفة على كبر - صحيح عندهم فكرة لكنها مش كفاية وطبعاً أي حاجة بيصنّعُوها بأعْتبرها في وِشّنَا كُلّنا. لأنه لما يعْمل لوْحة فرْعُونية ومُشْ بالمقاسات أو بالألوان الكويّسة طبعاً الزبون مش هَيِيجي لنا ثاني ويشترى من الجاهز لأنه بالمقاسات وأرخص في الثمن وعلشان كده الواحد بيْخَاف على صنعته ولازم تفضل كويسة في كل حاجة في الألوان والأذواق والأنواع الكثيرة من القماش المطرز والمزخرف» .

(جـ) تكاملية وقت العمل والفراغ

وصناعة الخيام - كأي حرفة أخرى في مصر - لا تفصل بين وقت العمل والفراغ فهما يتكاملان دون فصل واضح . كما أن نظام الإنتاج لايحدد بالساعة بل إن طبيعة العملية الإنتاجية قد تقتضي أوقاتاً طويلة تصل في بعض الأحيان إلى عدة أشهر لإنتاج سلعة معينة مثل قطع القماش الخاصة بالسرادقات.كذلك فإن صغر مساحة مكان العمل فضلاً عن أن العاملين غالبيتهم من الأقارب أو المعارف أو من لهم سنوات عمل طويلة مع الخيمي صاحب العمل ، قد لايجعل للفصل بين وقتي العمل والراحة معنى .

(د) استمرارية صناعة الخيام في ظل الضغوط المجتمعية

وحديثا - وبعد فترة السبعينيات بوجه خاص - وبعد تدخل الآلات في إنتاج قطع القماش المزخرف بنفس النقوش باستخدام الطباعة آلياً وبأسعار تقل كثيراً عن أسعار المنتج يدوياً ، بدأت صناعة الخيام في التقلص وتأثرت دخول الخيميين . ومن ثم انصرف البعض عن الحرفة وتحولت بعض الورش في مكانها القديم إلى محال تجارية . ويتضح تأثير المنافسة من جانب القطاع الرسمي للإنتاج للمنتج اليدوي من خلال ما يذكره أحد الخيمية في قوله :

«صناعة الخيام دي حرفة الأجداد وأصالة مصر وتراثها الإسلامي ولايمكن أن تنقرض وأنا حريص أعلّم أولادي الحرفة يَعْني أولادي الاثنين بِشْتَغلوها مَعَايَا ولكن للأسف غلوّ سعْر القماش وعمل لوحات مطبوعة بالماكينات بأسعار قليلة جداً أثّر بشكل واضح على بيع المنتجات بتَاعِتْنَا يعني مثلاً كانت قطعة القماش من «الترك»- يقصد بذلك القماش الذي يستخدم في أعمال الفراشة للمناسبات المختلفة في إقامة السرادقات- يصل ثمنها إلى حوالي (٦٠٠) جنيها مصرياً ويستغرق فترة تشغيلها من الصنايعي حوالي ثلاثة أشهر . أما القماش المطبوع بالماكينات فيصل ثمن القطعة بنفس المقاسات إلى حوالي مئة جنيها فالفرق كبير في السعر . ودهِ أهم شيء بيهدد حرفتنا» .

وحول المشكلات التي باتت تهدد صناعة الخيام بالانقراض يقول أحد الخيميين :

«في الحقيقة فيه مشكلات كثيرة بتواجه صناع الخيام ومن أهمها ارتفاع سعر المواد الخام برغم أنها مصرية الصنع لأننا بنلجأ لتاجر التجزأة في السوق ، ومفيش دعم لنا من الحكومة ، بالإضافة إلى أن بتُوع الضرائب بِفَرضُوا علينا ضرائب وحجتهم إن شغلتنا سياحية وبتْدر علينا فلوس كتيرة، وأيضاً منافسة المنتج الآلي لنا بأقل أسعار، كل ده جعلنا نعرض بعض المنتجات الآلية إلى جانب ما نقوم بإنتاجه إرضاء للذوق العام ودفاعاً عن حرفتنا وجودة مصنوعاتنا . ومهما حدث فالحرفة هتبقى ولكن ما أخشاه مع مرور الزمن أن تتلاشى تلك الحرفة وتفقد مصر فَنْ هامْ من فنون التراث المصري والمعبر عن أصالة مصر» .

ثالثاً : صناعة الأحذيـة

١ - نبـذة تاريخية

إن كل ما يمكن أن يقال حول صناعة الأحذية إنها نشاط يندرج ضمن باقي الأنشطة التي تعمل في مجال خياطة وتفصيل الجلود سواء المستخلصة من الحيوانات ، أو من الجلود الصناعية .ولقد عرفت مصر صناعة الأحذية منذ قرون مضت . وكان المصريون يستخدمون جلود الحيوانات - بعد دباغتها - في إنتاج العديد من المنتجات الجلدية مثل النعال ، المحازم ، المناطق وأيضاً سرج الفرس العربي ولجامه .

ترجع صناعات الجلود والأحذية إلى عصر مصر الفرعونية ، حيث كان المصريون يقومون بصناعة النعال في عصر الأسرة الثامنة عشر [١٠]. ولقد تطورت صناعات الجلود والأحذية في العصر القبطي ثم ازداد تطورها ورواجها إبان العصر الفاطمي في مصر . فقد ذكر المقريزي وغيره في معرض الحديث عن سياسة الحاكم بأمر الله التي كانت ترمي إلى وضع حد للفوضى الاجتماعية التي عمت البلاد ، أنه قيد حركة خروج النساء من البيوت . وذلك بأن أصدر أوامره إلى صانعي الأحذية بعدم صنع الأخفاف للنساء حتى يتعذر عليهن الخروج للشوارع [١١].

ولقد كان صناع الجلود في العصر الفاطمي يستخدمون جلود العجول في عمل سروج ولجام الخيل وفي تجليد الكتب وفي عمل خرائط الجلد والسيور والقسي . ولقد اشتهرت الفسطاط بصناعات الجلود خاصة السيور والقسي وأتقن المصريون الصناعة حتى فاقت منتجاتهم الجلدية مثيلاتها في بعض الدول العربية الأخرى مثل سوريا [١٢].

أيضاً ، انتظم المشتغلون بصناعة الأحذية في طائفة حرفية تقوم على مصالحهم وبيع منتجاتهم . وكانت الطائفة تعرف بطائفة الجزمجية في مصر . ويذكر على مبارك

(١٠) وزارة الشؤون الاجتماعية ، اللجنة القومية للمرأة ، بحث التكنولوجيا المستخدمة في الريف المصري . تاريخ النشر غير مبين ، القاهرة ، ص ٧٨ .

(١١) محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ، سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٩ ، ص ٩٢ .

(١٢) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، مرجع سابق ، ص ٥٩٠ .

طائفة الجزمجية - والتي بلغ عدد المشتغلين بها (٢٨٣) مشتغلاً - ضمن طوائف المحروسة التي بلغت مئة وثماني وتسعين طائفة(١٣) .

وبالمثل ، عرف العرب في شبه الجزيرة العربية صناعة الأحذية . وتؤكد بعض الدراسات التي أجريت على الصناعات الحرفية ، أن العرب المسلمين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد عرفوا صناعة الأحذية . ولقد استمرت ممارستهم لها بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

وحول مفهوم صناعة الأحذية ، نجد أن الزبيدي في «تاج العروس» يعرف صناعة الأحذية بـ «الخرازة» . وأن «المخرز» هو ما يخرز به الجلد . ومن ثم يطلق الزبيدي على الحرفي الذي يقوم الخرازه ، و «الخراز» أي صانع الحذاء(١٤) .

وحول نشأة صناعة الأحذية في المغربلين ، يذكر أحد الإخباريين أنها صناعة حديثة النشأة إذا ما قورنت بصناعات حرفية أخرى مثل الخيام ، الطربوش ، السمكرة البلدي . ويجدر التنويه إلى أن صناعة الأحذية التي تمارس نشاطها في المغربلين لاتستخدم جلود الحيوانات أو ما يعرف بالجلد الطبيعي ، بل تستخدم نوعاً من القماش متعدد الألوان في صناعة الحذاء والذي يعرف بـ «الاسبدريه» بين فئات الشعب المصري.

ولعل ما دفع الباحثة لاختيار صناعة الأحذية ضمن عينة البحث ، الاعتبارات التالية :

١ - أن موقع صناعة الأحذية بين باقي الصناعات الحرفية في المغربلين من حيث مساحة الورشة وحجم العمالة الحرفية ، يناظر إلى حد كبير موقع ورشة خراطة المعادن بالنسبة لباقي الصناعات الحرفية الأخرى في حارة اليهود .

---

(١٣) محمد عمارة (تحقيق) ، الأعمال الكاملة لعلي مبارك ، المجلد الثالث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢.

(١٤) عبد العزيز بن إبراهيم العمري ، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، مركز التراث الشعبي ، قطر ، الدوحة ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٣.

٢ - كشفت الزيارات الميدانية لورشة صناعة الأحذية وجود مؤثرات خارجية تتعلق بتسويق المنتج ، وتأثير الرأسمالية ، تؤثر بشكل واضح على اتجاهات الحرفيين نحو ما يقومون به من نشاط إنتاجي . حيث تنفرد صناعة الأحذية بتلك المؤثرات بين سائر الصناعات التقليدية التي تضمنتها عينة البحث .

٣ - التجمع الواضح لجميع الورش التي تعمل بصناعة الأحذية في مبنى واحد بل وفي طابق واحد .وهذه ظاهرة جديرة بالملاحظة والدراسة . كما نجد في هذا التجمع ما قد يماثل ما عليه ورشة خراطة المعادن في ارتباطها بالورش الحرفية الأخرى التي تعمل في النشاط الواحد وفي حيز محدود المساحة من خان أبو طاقية . ويتضح من خلال الزيارات الميدانية أن تجمع ورش صناعة الأحذية تضم ثلاث ورش صغيرة إلى جانب الورشة الكبيرة التي تقوم بمفردها بعملية الإنتاج الكامل للحذاء الشعبي (الاسبدريه).

٢ - وصف موقع العمل ومورفولوجية ورش صناعة الأحذية

يمكن الوصول إلى المبني الذي يضم ورش صناعة الأحذية عبر منعطف ضيق يفضي إلى حارة أشبه بالممر الضيق تسمى حارة خالد بن الوليد . وتقع الحارة إلى يمين المتجه من ناحية الغورية صوب بوابة المتولي ، وقبل البوابة بأمتار قليلة . ويتكون المبني من طابقين أولهما أرضي رطب ، ولايضم الطابق الأرضي أي شواغل تجارية أو سكنية . ويتصل الطابق الأرضي بالطابق العلوي بواسطة سلم خشبي متهالك ومتعدد الدرجات . وتتواجد جميع الورش الحرفية لصناعة الأحذية في الطابق العلوي . وتتألف الورشة من ثلاث ورش صغيرة المساحة بالإضافة إلى ورشة كبيرة المساحة نسبياً تقوم بعملية التصنيع الكامل للحذاء .

يمكن القول إن متوسط المساحة للورشة الصغيرة لايتعدى (٥ر٢ م^{٢}) وتضم مساحة الورشة ماكينة حياكة للجلد قديمة الطراز . وتمثل الماكينة معظم رأس المال المستثمر في النشاط الحرفي . وتضم كل ورشة صغيرة من الورش الثلاثة التي تعمل في نشاط صناعة الأحذية، عاملاً حرفياً أو عاملين على الأكثر .

ولا تقوم الورش الصغيرة بعملية الإنتاج الكامل للحذاء . بل تقوم بقص وحياكة «الفوندي» . ويقصد بالفوندي لدى الصناع الحرفيين الوجه العلوي للحذاء .ويتم الإنتاج بكميات كبيرة تعتمد على حجم الطلبية التي يحددها التاجر . فصاحب الحرفة لايقوم ببيع المنتج كما أنه يلتزم غالباً بإنتاج كل ما يطلبه أحد تجار الأحذية . وفي أغلب الأحيان يقوم التاجر بشراء المادة الخام ويقوم بتسليمها لصاحب الورشة الذي يقوم بدوره بتصنيعها مقابل مبلغ من المال يتم الاتفاق عليه ، وبعد الانتهاء من تصنيع «الفوندي» يقوم التاجر باستلامه من الورشة ليقوم بتسليمه مرة ثانية لورش أخرى بعيدة عن شارع المغربلين . حيث تقوم تلك الورش باستكمال تصنيع الحذاء كاملاً .

تبلغ المساحة التقريبية لورشة التصنيع الكامل للحذاء حوالي خمسين متراً مربعاً وتقع إلى جانب الورش الثلاث في الطابق العلوي من المبني . وتضم الورشة أربع ماكينات لحياكة الجلد والمشمعات القماشية ذات الألوان التي تستخدم في تصميم الفوندي كما توجد بالورشة منضدتان خشبيتان يستخدمها الحرفي في عمليات القص والتصميم .

على النقيض من مواقع ورش الخيمية والسمكرة البلدي على جانبي الشارع الرئيسي في المغربلين ، فإن ورش صناعة الأحذية تقع في الطابق العلوي من مبنى يقع في عطفة ضيقة ولذلك يكاد ينعدم التفاعل الاجتماعي بين المشتغلين في هذه الورش وغيرهم من التجار والحرفيين في المغربلين .وعلى مستوى العلاقة بين المشتغلين بورش صناعة الأحذية يقل معدل التفاعل الاجتماعي بينهم برغم التجاور الأيكولوجي لهذه الورش ، وتفسيرنا لانخفاض التفاعل الاجتماعي قد يرجع إلى طبيعة العملية الإنتاجية ذاتها وما تتطلبه من شدة تركيز في بعض مراحلها . كما أن مناخ العمل في صناعة الأحذية لايتصف بالتجانس بين أفرادها من حيث الخبرة والسن .

٣ - العمالة الحرفية

تضم ورشة صناعة الأحذية ثمانية حرفيين من بينهم رب الحرفة وهو صاحب الورشة في الوقت ذاته . هذا بالإضافة إلى اثنين من الأطفال تحت التدريب . ومن ثم فإن

عمالة الأطفال في الورشة ليست مؤقتة.ويبلغ متوسط العمر للعمالة الحرفية ٢٨ عاماً تقريباً . وجميع العمال الحرفيين يجهلون القراءة والكتابة . ولا تربط بينهم صلات القربى . وإن كانت تغلب على بعضهم صلات الجيرة .

٤ - المواد الخام التي تستخدم في صناعة الأحذية

(١) قماش مضلع سميك نسبياً ،يتصف بألوان متعددة ، ويستخدم هذا القماش «للفوندي»؛(٢) نعال من الألياف الصناعية (البلاستيك) متعددة الأشكال والمقاسات . ويتم شراء النعال من القطاع الرسمي مثل مصانع البلاستيك المصرية ؛ (٣) غراء من نوع خاص يستخدم في عمليات لصق ولحام أجزاء الحذاء أثناء مراحل الإنتاج ؛ (٤) خيط قطني له مواصفات خاصة ؛ (٥) شمع خام .

٥ - تدبير المواد الخام وعلاقة الورشة بتجار الأحذية

تنفرد صناعة الأحذية عن باقي الصناعات الأخرى التي تشملها عينة البحث من حيث علاقتها بالسوق وتدبير المواد الأولية . وما يحدث مع الورش الحرفية الصغيرة في صناعة الفوندي ، يحدث أيضاً في الصناعة الكاملة للحذاء ولكن بشكل أكثر فعالية . فصاحب الورشة وهو معلم له خبرة طويلة في صناعة الأحذية الجلدية لايمتلك رأس المال الكافي لشراء الخامات الضرورية لتصنيع الحذاء . ومن ثم فإنه يعتمد في معظم الأحيان على تجار بيع الأحذية من الرأسماليين . حيث يقوم التاجر بشراء المواد الخام للورشة والتي تقوم بدورها باستخدامها في تصنع الأحذية .

٦ - مراحل العملية الإنتاجية للأحذية (الاسبدريه)

تمر عملية إنتاج الحذاء بمراحل أساسية تتطلب كل مرحلة منها مهارة خاصة وتقوم عملية الإنتاج الحرفي على تقسيم العمل بحيث أن كل حرفي يمارس دوراً محدداً ولا يستطيع أن يقوم بعمل زميله أو أداء أي مرحلة من المراحل الأخرى التي تمر بها عملية تصنيع الحذاء . وتتألف عملية الإنتاج من المراحل المتعاقبة التالية :

(أ) **تفصيل الحذاء** : ويقوم بها عامل ماهر له خبرة طويلة في استخدام مقص التفصيل . ويطلق على هذا الحرفي «التفصيلجي» وهو لقب يرجع تاريخ تداوله بين الحرفيين إلى عصر الطوائف الحرفية في مصر . وبسؤال التفصيلجي عن كيفية اكتسابه لخبرة التفصيل والقص قال «إنه تعلمها منذ أكثر من ١٥ سنة على يد أسطى حرفي كبير» .

(ب) **الفوندي** : ويقصد به الجزء العلوي للحذاء أو بالتعبير العامي (وش الحذاء) ويقوم بهذا العمل حرفي له مهارة معينة وتلك العملية تماثل التي تقوم بها الورش الثلاث الأخرى الموجودة في نفس المبني .

(جـ) **المكنجي** : وهي عملية استخدام ماكينة خياطة الجلد في تجميع الحذاء وخياطته وهي عملية لاتقل مهارة عن العمليتين السابقتين .

(د) **تشطيب الحذاء** : وهي المرحلة الأساسية الرابعة والأخيرة في مراحل إنتاج الحذاء وتحتاج إلى مهارة يدوية أقل نسبياً من مستويات المهارة للمراحل الثلاث السابقة .

ويقوم صاحب الورشة بالاتفاق مع التاجر على قيمة تصنيع الحذاء . وبعد انتهاء مرحلة الإنتاج يقوم رب الحرفة بتسليم المنتجات إلى التاجر الذي يقوم بدوره ببيع الأحذية في الأسواق الشعبية المعروفة في القاهرة مثل سوق الفحّامين . كما يذكر ذلك رب الحرفة من خلال المقابلات معه . وقد تبدو العلاقة بين التاجر وورشة تصنيع الأحذية بسيطة إلى هذا الحد ولكن واقع تلك العلاقة له سلبيات كثيرة على العائد المادي للورشة وكذلك على اتجاهات الحرفيين نحو ما يقومون به من عمل داخل الورشة .

ويمكن القول أن علاقات الورشة الحرفية بالتاجر على هذا النحو ، تشابه إلى حد كبير ما كان يحدث للحرفيين في ظل نظام الوسطاء الذي عرفته مصر وأوربا من قبل . حيث يبدو واضحاً تأثير الرأسمالية وما تفرضه من احتكارات على كل من نشاط ودخل الحرفيين . كما يتضح ذلك من خلال تناولنا فيما بعد للخصائص الحرفية في صناعة الأحذية .

٧ - تقسيم العمل وتوزيع الأدوار

نظراً لتعدد مراحل العملية الإنتاجية وتباين مستويات المهارة بين مرحلة إنتاجية وأخرى، يمكن القول أن العملية تتصف بالتخصصية وتقسيم العمل .فالعملية الإنتاجية تتضمن أنشطة متنوعة يصعب قيام حرفي بمفرده بجميع تلك الأنشطة . فالحرفي الذي يقوم بالقص وتصميم الفوندي لايستطيع العمل على الماكينة وحياكة الحذاء . فلكل مرحلة إنتاجية تخصص معين وتتطلب خبرة نوعية للقيام بأعباء تلك المرحلة . كذلك تتكامل المراحل الإنتاجية فيما بينها . حيث يجب أن تعتمد كل مرحلة على المرحلة التي تسبقها وهكذا . ومن ثم يمكن القول بوجود نوع من التماثل في العملية الإنتاجية مع وجود اختلاف في نوع النشاط الحرفي بين ورشة خراطة المعادن في حارة اليهود وورشة صناعة الأحذية في حي المغربلين .

٨ - خصائص الحرفية في صناعة الأحذية

(أ) الرضا عن العمل والاعتزاز بالحرفة

إذا كانت نتائج الدراسة الحالية قد كشفت عن العلاقة الطردية بين الرضاء عن العمل والاعتزاز بالحرفة بين الحرفيين في عينة الصناعات التي تمت دراستها في حارة اليهود والمغربلين ، فإن تلك العلاقة تأخذ بُعداً جديداً في صناعة الأحذية بفعل تدخل الاحتكار والرأسمالية في النشاط الإنتاجي وعمليات البيع للمنتج الحرفي . وكما يتضح من الأقوال التالية لبعض الصناع في ورشة الأحذية ، يتضح أن الحرفي يعتز ويفتخر بمهارته اليدوية وحرفته التي تعلمها وتنشأ على معاييرها ووقف على أسرارها ودقائقها. ومن جهة أخرى يشعر الحرفي بعدم الرضا تجاه ما يقوم به من العمل الحالي الذي اضطر إليه تحت وطأة الاحتكار والرأسمالية وتدخلهم السافر في العملية الإنتاجية وتسويق المنتج وأيضاً تحت إلحاح نفقات المعيشة وضيق ذات اليد . ويتضح فيما يلي إحساس الحرفيين بعدم رضائهم عن الدور الإنتاجي الذي يقوم به كل منهم :

«طبعاً الشغل مش هُوَّه وبأحس أنني أغِشْ الزبون فِعلاً لما أفَصّلْ لُه جوز جزمة وثمنه في السوق من خمسة إلى ستة جنيهات وأنا عارف إنه هَيتلّف بعد شهرين ثلاثة

لأن الخامة مش هيَّه والتجار بيجيبوا أرخص حاجة علشان نفصلها لهم عاوزين يكسبوا وخلاص . وطبعاً دي مش شغلتى أنا شغلتى تفصيلجي جزم جلد تعلمتها أباً عن جد وعلى أيد صنايعيـة كُبَارْ لكن على رأي المثل «إيه اللّى رَمَاكْ على المُرْ قـال اللي أمَرّ مِنُّه» .

ويقول صاحب الحرفة أيضاً :

«طبعاً هي قلة الفلوس في أيدينا وغلوْ ثمن الجلد هي السبب في اللي بيحصل دلوقت . أنا عندي صنايعية متعلمين الصنعة كويس قوي ولكن للأسف كل واحد بَالعْ في بطْنُه هَمّه وسَاكتْ الواحد منّا مُشْ لاقي نفَسْهُ في الصنعة لأن الشُغلانة دي مفيهاش فن ومكسب زي الجوز الجلد يعني أنا عندي سبع صنايعية واثنين صبيان محتاجين منى أجور كل أسبوع ده غير استهلاك الكهرباء والإيجار والميّه وعلشان كده أنا بأقْبَل إن التاجر يأخذ بأقل من سعر التكلفة وأحياناً يشترى منى الجوز بجنيه ونصف يعني جشع مفيش بعد كده ويأخذه يوزعه على تجار التجزئة في سوق الفحامين بسعر أكبر وبعد كده يوصل للزبون زي حضرتك بستّه جنيه».

من جهة أخرى يتضح من المقتطفات التالية لعدد من الحرفيين ، اعتزازهم بحرفتهم ومهارتهم الذاتية . إذ يقول أحدهم :

«طبعاً زي مَا زْمَيَلي بيقُول مين يقدر بعد ما قْضلْت ١٥ سنة حُرْ نَفْسي وبأحب شُغلتي،وخبرتي هي رأس مالي وهي اللي بتخلّي لي وَضْع كويس في السوق وأي ورشة لو أروح لها تأخذني ، لكن المصانع هابقى إيه فيها مثلاً واحد زي أي واحد داخل في الصنعة جديد ، الماكينة هي كل حاجة لكن برضه شغلتنا برغم عيوبها أفضل عندي ألف مرة من العمل في المصانع» .

هذا الاتجاه الإيجابي نحو الاعتزاز بالحرفة والمهارة اليدوية المكتسبة في صناعة الأحذية يقل كثيراً عند الحرفيين في الورش الثلاث الأخري والموجودة في نفس الطابق العلوي للمبني . وقد يرجع السبب في ذلك - من خلال ملاحظاتي وحواري معهم - إلى قلة عدد سنوات الخبرة في صناعة الأحذية لأن متوسط أعمار جميع الحرفيين في

الورش الثلاث لاتتعدى (٢٢) سنة ، هذا بالإضافة إلى أن قيامهم بإنتاج «الفوندي» ونعني به «الجزء العلوي من الحذاء» وبكميات محدودة يومياً من قبل التاجر ، لا يقوى من الشعور بالاعتزاز بالحرفة بنفس القدر الذي نراه في الورشة الكبيرة ، حيث يتم الإنتاج الكامل للحذاء .

(ب) علاقات العمل والاستقلالية الذاتية في أداء العمل الحرفي

توضح إجابات الحرفيين في صناعة الأحذية إحساسهم بالحرية الشخصية وبالاستقلالية الذاتية في أداء دورهم الحرفي في مكان العمل . وما يدعم أيضاً من هذا الإحساس ، أن صاحب الحرفة لا يتواجد بالورشة بشكل منتظم طوال فترة العمل نظراً لارتباطه بإحضار المواد الأولية وحل مشكلات العمل مع التجار . ولكن ذلك لايعنى احترام الحرفي لأوقات العمل الرسمية ، فهذا مبدأ والتزام .وفي هذا الصدد ، يقول رب الحرفة :

«إحْنَا غير المصانع ،الصّنَايْعية بيشْتَغَلُوا معايا من زمان وكل واحد منهم عَارِفْ شُغْلته وعارف كمان حجم الإنتاج اليومي وإيهْ مُشْكِلةْ كل واحد منهم ، وأي واحد عَنْدُه عُذْر يقول لي قبلها وممكن أقوم بعمله يعني كلنا زي العيلة وعارفين ظروف بعض وبِنْشيل بعض في الظروف الصعبة . لأن شغلتنا فيها مشاغل كثيرة مع التجار والخامة تجدينى معظم الوقت مش موجود لكن ضامن أن كل واحد بيقوم بشُغْله كويس وكمان فيه واحد بيحل محلي وهو أكبرهم سناً ويَقَى لُه مدة أطْوَل منهم بيشتغل عندي وأي مشكلة بيْحِلْها مَعَاهُم» .

ويتضح الارتباط القوي بين الحرفي وحرفته من إجابات بعض الصنّاع في ورشة صناعة الأحذية عند سؤالهم عن أسباب عدم التحاقهم بالعمل في المصانع الحديثة لصناعة الأحذية . ومن بين الإجابات المتماثلة يقول أحدهم :

«في الحقيقة الواحد عوّد نَفْسُه على طَرِيقَةْ في شغلته يعني مَفِيْش حَدْ يأمر أو يُشْخط فينَا وبعدين المصانع عاوزة واسطة وبعيدَةَ عَنْ هنَا يعنى هَيُعْطُوني كَامْ وهَاصْرِفْ كَامْ في المواصلات والأكل في الشغل.دي المرتبات كلها تعبانة وكمان ماأقدرش

أشتغل على ماكينة للإنتاج بالجملة الواحد يزهق اما الشغلة دي برغم أنها مش بتشبع اللي جوه الواحد منا إنما في رأيي أحسن من غيرها » .

يمكن أن نخلص من الأقوال السابقة للحرفيين في صناعة الأحذية إلى أنهم أقل إحساساً بالرضاء عن عملهم قياساً بباقي الحرفيين في الصناعات التقليدية التي تتضمنها عينة البحث . حيث تؤثر الرأسمالية والاحتكار ممثلة في تجار الأحذية على انخفاض إحساس الحرفيين بالرضاء عن العمل . فالحرفي لكي يعتز بعمله ينبغي أن يقدم كل ما لديه من إبداع وخبرة في هذا العمل ومن ثم يكون الإحساس بالرضاء عن عمله عالياً . من جهة أخرى ، ففي صناعة الأحذية حيث يلزم التجار الحرفيين بإنتاج نوعية معينة من الأحذية وباستخدام خامة معينة أيضاً . وقد عبر الحرفيون عن رفضهم لكل من الخامة والمنتج لإحساسهم بأن ذلك يشركه في غش المستهلك الأمر الذي لم يُرَبّوا مهنياً عليه . والمعايير الحرفية التي نُشئُوا عليها تخالف ذلك الأسلوب من الإنتاج والتعامل مع جمهور المستهلكين .

وإضافة إلى انخفاض الإحساس بالرضاء عن العمل بين الحرفيين ، فإنهم يشعرون أيضاً بعدم إتاحة الفرصة أمامهم لاستثمار طاقتهم وإظهار إبداعهم الكامن لديهم . فطبيعة العملية الإنتاجية ومستويات الأداء في إنتاج نوعية رديئة من الأحذية ، يجعلهم لايقدمون كل ما لديهم من مهارة ، بل يقدمون منها القدر اليسير . وهذا بدوره يشعرهم بعدم الرضا عن العمل . ومن ثم يمكن القول أنه تحت وطأة احتكار التجار الرأسماليين وتدخلهم في صناعة الأحذية يحدث نوع من الاحتجاب للمهارة اليدوية . فالحرفي لا يقدم - مكرهاً - كل ما لديه من إبداع ومهارة .

ولعل تلك العوامل المحدثة لانخفاض الإحساس بالرضاء عن العمل بين الحرفيين وفي الوقت ذاته اعتزاز الحرفي بحرفته التي يلم بأسرارها وفنونها ، كانت دافعاً،وفي الوقت ذاته تعتبر تفسيراً للدينامية العالية التي يتصف بها نمط العلاقات في مجال العمل . حيث تكثر الأحاديث الجانبية والتحدث في موضوعات عامة تتعلق بالأبناء والبنات وحياتهم الاجتماعية.ويتبادلون فيما بينهم النكات ويطلقون الضحكات أحيانا .

ويعبر أحد الحرفيين من خلال حديثه عن العلاقات بين الزملاء في مكان العمل ، مايمكن أن يدعم زعمنا السابق في تفسير دينامية العلاقات . فمن بين ما قاله :

«هَنعْمِلْ إيه بَسْ . مَفِيْش رحمة عند التجار . هم اللي عاوْزِينُه لازم نعْمِلُه مُجْبرين . وطبعاً لما الصنايعي يِتْكَلِّف بعمل مُعين مش مُوافق عليه ومابِيْشَبّعْش اللي جُوّاه حسب أصول الصنعة ، يبقى مَزَاجُه مُشْ كُويس ونفسيته تعبانة وبعدين إحنا حرفيين وبنْحب صنعتنا وعَنْدنَا أولاد وبيوت ومصاريف كثيرة يبقى نعمل إيه ؟ نسيب شغلتنا ؟ مش ممكن، وعلشان كده بنحاول نروّح عن نفسنا شويه وننسى همومنا اللي السبب فيها التجار الله يسامحهم» .

(جـ) تنمية المهارة الذاتية والتنشئة المهنية

يتضح من بيانات دليل العمل الميداني أن صناع الأحذية تتراوح مدد خبراتهم من ١٣ سنة حتى ٢٢ سنة . وبالنسبة لصاحب الورشة فيذكر أن خبرته في صناعة الأحذية حوالي ٣٠ عاماً . وحول تنمية المهارة الذاتية للعامل الحرفي فلم تظهر الأقوال ما يشير إلى تنمية مهارتهم المكتسبة طوال فترة عملهم الحالي في صناعة الأحذية المصنوعة من القماش والبلاستيك . وبسؤال صاحب الحرفة ، لترتيب الحرفيين في الورشة وفقاً لمستوى المهارة اليدوية الذاتية لدى كل منهم ، أجاب قائلاً :

«إن التَفْصيلْجِي هو أعْلَى الحرفيين مهارة لأن القص مهم جداً ولكن أقلهم حرفي القالب والتجميع . وبالنسبة للمَكَنْجِي الذي يقوم باستخدام الماكينة في حياكة الحذاء يتقارب في مهارته من التفصيلجي وفي كل المراحل التي يمر بها إنتاج الحذاء تتكامل كل تلك المهارات نحو إنتاج السلعة حسب مواصفات السوق التي يحددها التجار» .

وبسؤال أحد الحرفيين عن كيفية تعلمه لحرفة صناعة الأحذية أجاب قائلاً :

«أنا تعلمت الصنعة من صُغْر سنى يعني كان عَنْدي ٦ سنوات تقريباً وأبُويَا أخَدْني لورشة صنايعي جزَمْ وقال له يعَلِّمْنى الصنعة ومن يومْها كان الأسطى ساعات بالضرب يعلمني حاجة في حاجة . يعنى أول حاجة كنت أساعد الأسطى في عملية

تشميع الخيط اللي بنستخدمه في خياطة الجزمة وبعد كده كُنت ألاحظه وهو بيْحُطْ الجزمة في القالب ويْثَبِّتْها الأوّل بمسامير شيشة صغيرة علشان تاخذ شكل القدم ويشد على القالب الوش الجلد اللي احنا بنْسَميه الفُونْدي . يعنى كل شيء اتعلمته في أكثر من عشر سنوات . وبعد كده سِبْت الأسطى بتاعي في كلوت بك واشتغلت عند أسطى ثاني لكن صنايعى بَقَهْ وفضِلْتْ برضه أتعلم أصول الشغل على الماكينة لغاية ما بقيت مَكَانجْي أعرف كل شيء عن شغلتى كويس ودلوقت باشتغل أكثر من سبع سنين مع الأسطى هنا في الورشة . لكن بصراحة الشغل مش هُوَّه والخامة سيئة لكن هنعمل إيه طلب التجار ومش مهم الزبون عندهم، المهم المكسب وخَلاَصْ» .

وفيما يتعلق بتعليم الأطفال فنون الحرفة وأسرارها وكيفية تنشئتهم مهنياً يقول رب الحرفة :

«زي ما الصنايعية بيْقُولوا لحضْرتك ، الصنْعة مَفيَهاشْ الفَنّ اللّي تْعَلمُوه على أصوله . يعنى محْتَاجة مهاره أقل من المهارة اللي عند واحد زي حالاتي بِكْتِير . وطبعاً الأطفال دول حظهم مُشْ كُويس لأنهم هيتعلموا بسرعة ولكن للأسف مش هيقدر أي واحد منهم يبقى عنده الحس والذوق والفن في صناعة الأحذية الجلد زي ما كل الحرفيين اللي عنده . فيه فرق بين التعليم على أصول والتعليم اللي ظروف السوق متحكمة فيه» .

نخلص من الأقوال السابقة إلى أن بعض الخصائص الحرفية، في صناعة الأحذية ، قد أصابها الكثير من التغير . وأن من أهم مظاهر هذا التغير احتجاب المهارة اليدوية للصناع تحت وطأة الضغوط الاقتصادية واحتكار التجار الرأسماليين وسيطرتهم على سوق بيع السلعة خاصة في الأسواق الشعبية مثل سوق الفحامين .

وعندما نقارن ما حدث من احتجاب المهارة في صناعة الأحذية بنظيره في صناعة دبل البخت نجد هناك فرقاً جوهرياً وراء حدوث هذا الاحتجاب . ففي صناعة الأحذية لم يستطع الصانع أن يستخدم كل ما اكتسبه من خبرة ومهارة يدوية فيما يقوم به من عمل حرفي وهو مكره على ذلك للأسباب التي سبق وتناولها . أما في صناعة دبل

البخت ، فبعد أن كان الصناع يعملون في صناعة الخلاخيل والقُرْط والخاتم بأشكاله المختلفة وذلك في الخمسينيات فقد قبلوا تحت وطأة عدم توفر رأس المال لديهم أن يحولوا نشاطهم طواعية نحو صناعة دبل البخت والتي تتطلب مهارة يدوية تقل كثيراً عما اكتسبوه طوال فترة عملهم الطويلة في صناعة حلى النساء .

الفصل الثامن

مناقشة نتائج البحث

أولاً : اعتمادية الصناعات التقليدية على القطاع الرسمي

ثانياً : الصناعات التقليدية تحت وطأة الرأسمالية

ثالثاً : تعايش الصناعات التقليدية مع منتجات القطاع الرسمي المثيلة

رابعاً : المجتمع المحلي واستمرارية الصناعات التقليدية

خامساً : الخصائص الحرفية للصناعات التقليدية بين الثبات والتغير

سادساً : مظاهر الثبات والتغير في الأخلاقيات الحرفية قياساً بالتي كانت سائدة في ظل نظام الطوائف الحرفية .

سابعاً : المستقبل المهني للحرفيين وفرضية تودارو

ثامناً : التجاور الإيكولوجي للصناعات والفروق النوعية بينها .

تاسعاً : مناقشة نقدية لنمط الخصائص الحرفية عند ميلز في ضوء المعطيات الامبيريقية



الفصل الثامن

مناقشة نتائج البحث

مقدمة

حاولنا في معرض دراستنا الميدانية لعينة عمدية من الصناعات التقليدية أن نتناول بالوصف والتحليل ما تتضمنه بيئة العمل الحرفي من مكونات أساسية ؛ وذلك من منظور شامل يقوم على فرضية العلاقات المتبادلة بين كل من بيئة العمل والمجتمع المحلي الذي تتعايش معه الصناعات التقليدية . والهدف من وراء ذلك هو محاولة إيجاد تفسيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية لواقع ما تتصف به الصناعات التقليدية من ثبات وتغير وذلك من منظور خصائصها البنائية . وفي الوقت ذاته الحرص على مناقشة وتحليل تلك التفسيرات في ضوء ما يتضمنه الإطار النظري للدراسة الحالية من توجهات نظرية واستخلاصات بحثية تتعلق بالخصائص الحرفية والأخلاقيات الحرفية .

وجدير بالذكر أننا لا نبغى من وراء هذه النتائج تعميمها لحاجتها لمزيد من الدراسات المستقبلية بل يجدر الإشارة إلى أن نتائج هذا البحث مرتبطة فقط بالعينة البحثية من الصناعات . نظراً لمحدودية حجم العينة وأسلوب اختيارها .

ولما كانت دراسة ملامح التغير والثبات للصناعات التقليدية ، تستوجب ضرورة مناقشة العوامل المحدثة لهذا التغير وذلك بنوعيها الخارجية والداخلية لبيئة العمل الحرفي ، فإن المناقشة التالية لنتائج الدراسة الحالية سوف تركز على المحاور التالية :

أولاً : اعتمادية الصناعات التقليدية على القطاع الرسمي

ثانيا : الصناعات التقليدية تحت وطأة الرأسمالية

ثالثاً : تعايش الصناعات التقليدية مع منتجات القطاع الرسمي المثيلة

رابعاً : المجتمع المحلي واستمرارية الصناعات التقليدية

خامساً : الخصائص الحرفية للصناعات التقليدية بين الثبات والتغير

سادساً : مظاهر الثبات والتغير في الأخلاقيات الحرفية التي كانت سائدة في ظل نظام الطوائف الحرفية .

سابعاً : المستقبل المهني للحرفيين وفرضية تودارو

ثامناً : التجاور الإيكولوجي للصناعات والفروق النوعية بينها .

تاسعاً : مناقشة نقدية لنمط الخصائص الحرفية عند ميلز في ضوء المعطيات الامبيريقية

أولاً : اعتمادية الصناعات التقليدية على القطاع الرسمي

تكشف نتائج الدراسة عن بعض العوامل المجتمعية التي يؤثر بها المجتمع الكبير على البنية الاجتماعية وخصائصها النوعية للصناعات التقليدية التي تتضمنها عينة البحث . وأن لتلك العوامل مؤثرات تتفاوت في القوة سواء على مستوى البنية الاجتماعية للصناعات التقليدية ككل . وبقدر ما تعتمد الصناعة التقليدية على التنظيمات الرسمية للمجتمع بقدر ما يزداد قوة تأثير العوامل الخارجية على البنية الاجتماعية للصناعة التقليدية وخصائصها النوعية . ولتفهم ذلك ، من الأحرى بنا أن نبدأ بتصنيف عينة الدراسة من الصناعات التقليدية وفقاً للنشاط الاقتصادي وحجم العمالة وتدبير المواد الأولية اللازمة لعمليات الإنتاج الحرفي . من خلال بيانات الدراسة الميدانية ، يمكن تصنيف الصناعات التقليدية في عينة البحث تبعاً لاعتمادها على القطاع الرسمي في تدبير المواد الأولية اللازمة للإنتاج الحرفي ، إلى مجموعتين : الأولى تضم الحرف والصناعات التقليدية التي تعتمد على القطاع الرسمي في سد احتياجاتها من المواد الخام . وتضم تلك المجموعة صناعة منتجات خان الخليلي من المشغولات النحاسية ، صناعة موقد الكيروسين وصناعة الأحذية . أما المجموعة الثانية فتشتمل على الصناعات التي لاتعتمد بشكل فعّال على القطع الرسمي في تغطية متطلباتها من المواد الأولية وتضم تلك المجموعة صناعة دبل البخت ، صناعة الخيام ، صناعة منتجات السمكرة البلدي ، وفي هذا القسم سوف نقصر مناقشتنا فقط على المجموعة الأولى .

تكشف نتائج الدراسة أن خصائص البنية الاجتماعية لصناعات هذه المجموعة لم تتأثر بعامل الاعتمادية على القطاع الرسمي في تدبير المواد الأولية . فصناعة «دبل

البخت» تعتمد على بائعى الخردة وبعض المصانع في شراء ما يلزمها من أسلاك نحاسية تالفة يتم استخلاصها من معدات وأجهزة كهربائية غير صالحة مثل المولدات والمحركات والمحولات الكهربائية . بالمثل ،نجد أن صناعة الخيام تعتمد على كثير من مصادر إنتاج النسيج الخاصة والرسمية . حيث تحتاج صناعة اللوحات المزخرفة بالخيوط وقطع القماش ذات الصبغات متعددة الألوان إلى نسيج الكتان وبعض قطع النسيج القطني والتي لا يحتكرها القطاع الرسمي . وفي صناعة منتجات السمكرة البلدي ، يتم الاعتماد على بعض قطع من ألواح الصاج المجلفن والذي يباع في كثير من المحال التجارية المنتشرة في مدينة القاهرة . ويكون تعامل الورشة مع تلك المحال وليس بشكل مباشر مع القطاع الرسمي .

ومن ثم يمكن القول أن المجموعة الأولى من الصناعات التقليدية لا تتأثر بالمشكلات والقيود والتي عادة ما تصاحب عملية تدبير المواد الأولية اللازمة للإنتاج الحرفي . من جهة أخرى ، نجد أن بيانات الدراسة الميدانية تظهر بوضوح التأثير القوي لعامل الاعتمادية على القطاع الرسمي في تدبير المواد الأولية على كل من تكاملية الأدوار والإحساس بالرضاء عن المنتج الحرفي من قبل الصنّاع . كما يتحكم هذا العامل في مستوى التقنية المستخدم في عملية التصنيع . ويتفاوت تأثير عامل الاعتمادية من صناعة إلى أخرى ، كما يتضح ذلك مما يلي :

١ - صناعة موقد الكيروسين

تؤثر الاعتمادية الكلية من جانب الحرفة على ما يوفره القطاع الرسمي من خامات مثل الكباس ، البلف ، الماكينة على حجم النشاط الحرفي وكمية الإنتاج . ولما كانت عملية تدبير تلك الأجزاء لا تتصف بالثبات والاستقرار بسبب خصائص السوق المصري.وفي الوقت ذاته قلة رأس المال الخاص الذي يمكن للحرفي استغلاله في الاحتفاظ باحتياطي يكفيه فترة طويلة من الزمن ، يؤثر ذلك كله على عملية استقرار العملية الإنتاجية والتي تعتبر إحدى خصائص العملية الإنتاجية الحرفية . كذلك يؤثر عدم ثبات عملية تدبير المواد الأولية على نمط تكاملية الأدوار وتقسيم العمل في صناعة

موقد الكيروسين .حيث لايتم الاستفادة الكاملة بطاقة العمالة الحرفية في العملية الإنتاجية .إذ تحتم على تلك العمالة أن تقسم أدوار الإنتاج الحرفي وأنشطة شراء وتدبير المواد الأولية فيما بينهم بما يحقق قدراً من استقرار العملية الإنتاجية واستمرار النشاط الحرفي دون فترات توقف اضطراري ، كما يرتبط بتلك التحولات في الدور الحرفي ، إحساس الصانع بعدم الرضاء عما يقوم به من أنشطة لم يتعودها أو يتربى عليها خلال مرحلة تنشئته الحرفية . فشخصية الحرفي لا تتوا م إلا مع النشاط الحرفي الذي يعتز به والذي بات من وجهة نظر الحرفي جزءاً مكملاً لشخصيته . فالحرفي لم يسبق له أن قام بعمليات البيع والشراء . وقد كشفت نتائج الدراسة عن رفض غالبية الحرفيين القيام بأي نشاط إقتصادي من شأنه أن يباعد بينه وبين ممارسته للنشاط الحرفي.

وكشفت نتائج الدراسة في صناعة موقد الكيروسين تأثير عامل الاعتمادية على القطاع الرسمي في تدير المواد الأولية على انخفاض الإحساس بالرضا عن العمل عند الحرفيين . حيث يرجع ذلك إلى عدم حصول الحرفيين على حصتهم المقررة لهم رسمياً من النحاس بالسمك المسموح به والذي يضمن السلامة والأمان عند استخدام موقد الكيروسين . ومن ثم فإن انخفاض الرضاء عن العمل بين صناع موقد الكيروسين يرجع لإحساسهم بعدم الإنصاف في حصولهم على المواد الأولية .

٢ - صناعة منتجات خان الخليلي من المشغولات النحاسية

تعتمد صناعة المشغولات النحاسية على إنتاج القطاع الرسمي - مثل شركة النحاس المصرية - من النحاس الأحمر كمادة أولية للمنتجات الحرفية متعددة الأشكال والنقوش . إلا أن نتائج الدراسة لم تظهر لنا تأثيراً ملحوظاً لعامل الاعتمادية على القطاع الرسمي في تدبير المواد الأولية على تكاملية الأدوار أو على إحساس العاملين بالرضاء عن المنتج الحرفي كما يحدث في صناعة موقد الكيروسين . ويمكن أن نستخلص تفسيرين لذلك أولهما أن ورشة خراطة المعادن ذات رأس مال كبير وأن صاحب الورشة لايجد صعوبة في تدبير ما يلزم العملية الانتاجية من خامات . وهنا تبرز أهمية توفير رأس المال الكافي للتغلب على مشكلات عدم الاستقرار في العملية الانتاجية وانخفاض

الرضاء عن العمل والتي صاحبت عامل الاعتمادية في صناعة موقد الكيروسين . ففي حالة ورشة خراطة المعادن ، يمكن توفير احتياطيات كافية لشهور طويلة من المواد الأولية اللازمة للإنتاج . والتفسير الثاني أن نوعية النحاس التي ينتجها القطاع الرسمي تلائم تماماً المستوى التقني للآلات المستخدمة في ورشة خراطة المعادن مثل المخرطة . وكما يتضح من نتائج الدراسة الخاصة بورشة الخراطة ،أن المخرطة من الطراز القديم الذي يتلائم سرعته مع نوعية خام النحاس الأحمر الذي ينتجه القطاع الرسمي .

من جهة أخرى ، يمكن أن نستخلص من نتائج الدراسة حول خراطة المعادن في صناعة منتجات خان الخليلي ، انخفاض مستوى التقنية المستخدمة واقعياً في عمليات الإنتاج ، وأن أمكان تطويره يلقى معارضة شديدة خاصة من المشتغلين بخراطة المعادن. وهذا الاتجاه المعارض وإن كان يدعم تفسيراتنا التي ناقشناها تواً ، فإنه يظهر مدى تأثير نوعية المواد الأولية على تقييد فرص الارتفاع بالمستوى التقني في عمليات الخراطة بشراء مخارط أكثر حداثة وسرعة . وجاء التفسير لذلك من المبحوثين أنفسهم حينما ذكروا أن المخارط الحديثة تتطلب خام نحاس ذات مواصفات لا تتوافر حالياً في السوق المصري . ويقصدون بذلك الخامة التي تناسب طبيعة ونوعية المنتج الحرفي وإمكان النقش بالحفر أو بالطرق البارز عليها . ومن ثم تقيد نوعية الخامة من المستوى التقني ومحاولة الارتفاع به .

٣ - صناعة الأحذية

تعتمد صناعة الأحذية على القطاع الرسمي في تدبير ما يلزم العملية الإنتاجية من مواد أولية مثل النعل البلاستيك . وكما تكشف نتائج الدراسة على حرفة تصنيع الأحذية ، أن التجار الرأسماليين هم الذين يقومون بعملية شراء المواد الأولية كما أنهم يتدخلون في تحديد حجم المنتج الحرفي ونوعيته . ومن ثم يمكن القول إن عامل تدبير المواد الأولية من القطاع الرسمي له تأثير مزدوج على خصائص الحرفية في صناعة الأحذية . حيث ينخفض إحساس الصناع الحرفيين بالرضاء عما يقومون به من عمل بسبب رداءة المواد الأولية التي يلزمهم التجار باستخدامها في إنتاج الأحذية . وثانيا إحساس الحرفيين بانتقاص واضح لحريتهم الشخصية واستقلاليتهم الذاتية في أداء

العمل الحرفي . فورشة صناعة الأحذية بالرغم من أن ملكيتها وإدارتها والأدوات التي تحتويها لا تؤول إلى تجار الأحذية ، فإن هؤلاء التجار يحددون حجم الإنتاج ونوعيته من خلال كميات المواد الأولية التي يوفرونها للورشة الحرفية .

نخلص من المناقشة ، إلى أن اعتماد الصناعات التقليدية على القطاع الرسمي في تدبير احتياجاتها من المواد الأولية ، يتفاوت من حيث مدى تأثيره الإيجابي على الخصائص الحرفية لبعض الصناعات التقليدية . فالصناعات التقليدية التي تضمها المجموعة الأولى، قد تأثرت خصائصها البنائية بدرجات متفاوتة. حيث كانت صناعة الأحذية أكثر الصناعات تأثراً بعامل الاعتمادية . ثم يقل هذا التأثير نسبياً على بعض خصائص صناعة موقد الكيروسين . من جهة أخرى لم تتأثر ورشة خراطة المعادن بهذا العامل حيث كانت المؤشرات الدالة على التأثير سلبية .

ثانياً : الصناعات التقليدية تحت وطأة الرأسمالية

ويجدر الإشارة هنا إلى أهمية دور رأس المال الحرفي في إحداث الاستقرار والانتظام في مجال النشاط الحرفي . فرغم من أن ورشة صناعة الأحذية وورشة خراطة المعادن يمثلان أكبر الورش من حيث المساحة وعدد العمال ضمن عينة البحث فإن الفارق بينهما كبير من حيث الاستقرار وانتظام العمل الحرفي وإحساس العاملين بالرضا عن العمل . فندرة رأس المال الخاص في صناعة الأحذية . تفضي إلى وقوع الورشة بعمالتها ونشاطها الإنتاجي رهن مؤثر خارجي يتمثل في احتكار تجار الأحذية . من جهة أخرى، نجد أن ورشة خراطة المعادن يكون صاحب الحرفة هو في الوقت ذاته تاجر المشغولات النحاسية .

وبالإضافة إلى التحولات الواضحة في خصائص الحرفية لصناعة الأحذية ، نجد من نتائج الدراسة الميدانية ،ما يشير إلى ظاهرة احتجاب المهارة . حيث أن مراحل إنتاج الحذاء بنوعيته الرديئة التي يحددها تجار الأحذية ، لا تتيح للحرفي استغلال كل مهاراته اليدوية وطاقاته الإبداعية التي اكتسبها طوال فترة اشتغاله بصناعة الأحذية الجلدية . ولما كانت المهارة اليدوية المكتسبة تمثل جزءاً من شخصية الحرفي ومصدراً من

مصادر إحساسه بالاعتزاز والافتخار بحرفته ، فتحت وطأة الرأسمالية ، يشعر الحرفي بعدم الرضاء الناجم عن حجب مهارته كرهاً وليس طواعية .

وعندما نقارن بين نتائج الدراسة الميدانية التي أجراها انكسون على الحرفيين في مجزر اللحوم بنتائج الدراسة الحالية حول ظاهرة الاحتجاب المهاري سوف نجد اختلافاً واضحاً بين مصادر تلك الظاهرة وأسبابها . فالاحتجاب المهاري كما يذكره إنكسون يعنى انخفاض مستوى المهارة المطلوب لأداء عملية معينة عما يمتلكه الحرفي من مهارة يدوية مكتسبة وذلك بفعل استخدام الآلة والميكنة في عملية إعداد اللحوم . من جهة أخرى ، نجد أن الاحتجاب المهاري الذي أسفرت عنه نتائج الدراسة الحالية يرجع إلى فعل مؤثر خارجي يتمثل في احتكار التجار الرأسماليين من الدخلاء على العمل الحرفي .

ثالثاً : تعايش الصناعات التقليدية مع المنتجات المثيلة من القطاع الرسمي :

يتضح من العوامل المجتمعية الأخرى والتي تؤثر على الخصائص الحرفية ، ما تلاقيه الصناعات الحرفية من منافسة في السوق المصري . فكما تكشف نتائج الدراسة الميدانية أن دخول النشاط الصناعي للقطاع الرسمي مجال المنافسة بالإنتاج الكمي رخيص الثمن قياساً بأسعار المنتج المثيل للصناعات الحرفية ، يؤدى إلى تدهور لبعض الأنشطة الحرفية ، فضلاً عن تباعد بعض خصائص هذه الصناعات عن نموذجها المثالي .

وتبعاً لمعطيات البحث من بيانات حول ما تواجهه الصناعات الحرفية من منافسة لمنتجاتها في السوق المصري من منتجات القطاع الرسمي . نستخلص من أقوال الحرفيين في صناعات المجموعة الأولى ، أن عامل المنافسة يؤثر بشكل متفاوت من حيث القوة على الصناعات التى تتأثر بالمنافسة (صناعة الخيام ، صناعة موقد الكيروسين ، وصناعة الأحذية ، أن عامل المنافسة يؤثر بشكل متفاوت من حيث القوة على تلك الصناعات . فيؤثر بدرجة كبيرة على تكاملية الأدوار والرضاء عن العمل في صناعة موقد الكيروسين . ثم تأتى صناعة الخيام في المرتبة الثانية من حيث درجة تأثرها بعامل

المنافسة حيث يقل الشعور بالرضاء عن العمل . وتحتل صناعة الأحذية المرتبة الثالثة من حيث تأثر خصائصها الحرفية بهذا العامل .

ورغم هذه المنافسة فإن الصناعات التقليدية تتعايش مع المنتجات المثيلة ويقدم الحرفيون بدائل للتكيف ، مثال ذلك قيام الحرفي في صناعة «موقد الكيروسين» بدور مزدوج يتمثل في إنتاجية المنتج وتسويقه في ربوع البلاد ، وأيضاً عرض الخيمي لمنتجات القطاع الرسمي بجانب منتجاته اليدوية كما سيتضح من المناقشة التالية :

١- صناعة موقد الكيروسين

يؤثر عامل المنافسة على نمط تكاملية أدوار العمل . فنظراً لوجود مصانع ثلاثة تعمل في حقل صناعة موقد الكيروسين وتقدم إنتاجاً عالي الجودة نظراً لحصولها على المادة الخام ذات المواصفات الجيدة ، تتحدد أدوار العمل في حرفة موقد الكيروسين بحيث تتداخل أنشطة بيع المنتج مع الأنشطة الحرفية . حيث يتناوب أصحاب الحرفة فيما بينهم لتسويق مواقد الكيروسين في ربوع البلاد . وينجم عن ذلك :

(أ) عدم استغلال الطاقة الحرفية للعمالة في عملية التصنيع لموقد الكيروسين . وكما توضح بيانات الدراسة الميدانية ، فإن ذلك يؤدى إلى إحساس الحرفي بعدم الرضا عما يقوم به من عمل تجاري لم يتعوده .

(ب) بيع المنتج الحرفي بأسعار تقل عن الأسعار المعلنة من قبل القطاع الرسمي لموقد الكيروسين . وذلك حتى يضمن الحرفي بيع جميع منتجاته وبالتالي إمكان دوران رأس المال الخاص المحدود أكثر من مرة شهرياً . وتدل بيانات الدراسة الميدانية أن العمالة الحرفية تشعر بعدم الرضاء أيضاً عن العمل من جراء لجوئهم اضطراراً لخفض أسعار المنتج الحرفي مع قدرتهم المهارية العالية التي يستخدمونها في العملية الإنتاجية مع ثقتهم في أن ما ينتجونه هو الأفضل رغم ما يواجهونه من مشكلات خاصة بالمواد الأولية التي عرضنا لها .

(جـ) تكلفة الانتقالات بين المدن والمحافظات لترويج السلعة وبيعها وما يصاحب ذلك من عدم استقرار الحرفي في موقع العمل . بالإضافة إلى عوامل اجتماعية أخرى

تتعلق بالحراك الديموجرافي وعلاقته بالأسرة ومتطلبات أفرادها طول فترة تجواله لبيع المنتج الحرفي .

نخلص من ذلك ، أن عامل المنافسة يحدث تغيراً واضحاً في خاصية تكامل الأدوار كما يحدث تغيراً مماثلاً في الرضاء عن العمل .

٢- صناعة الخيام

تظهر نتائج الدراسة الميدانية ، أن صناعة الخيام قد تدهورت كثيراً حيث لم يعد إنتاج الخيام مشاعاً كسابق عهده بل يعتمد على بعض الطلبيات الخاصة من أفراد الطبقة الثرية سواء في مصر أو في بلدان عربية خارج مصر . وكشفت لنا أقوال كبار السن من الخيمية أن سبب تدهور صناعة الخيام المنافسة العالية من قبل القطاع الرسمي الذي يستخدم وسائل التقنية الحديثة في إنتاج الخيام المتنوعة . ومن ثم تعتبر صناعة الخيام هي الوحيدة بين عينة الصناعات التقليدية التي أصابها التدهور الواضح من جراء المنافسة العالية من قبل إنتاج القطاع الرسمي في مصر. ومن ثم تحول الخيمية من صناعة الخيام إلى صناعة لوحات قماشية يتم تطريزها وزخرفتها بخطوط وقطع مختلفة الألوان من القماش بحيث تعطى في مجملها لوحة تحكى حضارة مصر وما يتصف به المجتمع المصري من ثقافات . وهذا المجال من النشاط الحرفي لايجد له منافسة من قبل القطاع الرسمي .

من جهة أخرى تواجه صناعة الخيام منافسة في إنتاج القطع المستخدمة في إقامة السرادقات والتي يطلق عليها (الترك) . حيث تتولى مصانع القطاع الرسمي استخدام الآلة في إنتاج قطع متعددة الألوان والنقوش وبأسعار تقل كثيراً عن تكلفة الإنتاج الحرفي للقطعة الواحدة . ولقد كان من أثر تلك المنافسة أن لجأ أرباب صناعة الخيام إلى شراء بعض منتجات القطاع الرسمي لعرضها إلى جانب منتجاتهم الحرفية في موقع الورشة . وقد صاحب ذلك تحولات واضحة في بعض خصائص الحرفية وفي قيمة رأس المال المستثمر في الإنتاج الحرفي . فالخيمي يعرض منتجات القطاع الرسمي وهو رافض لذلك إلا أنها محاولة لجذب العملاء . ويصاحب ذلك إحساس الخيمي بعدم الرضاء لما يحدث من تدهور في المنتج الحرفي وللتغير في أذواق الغلبة الغالبة من المستهلكين .

٣ - صناعة الأحذية

على الرغم من تعود الورش الخاصة ومصانع القطاع الرسمي التي تقوم بإنتاج الأحذية على مختلف أشكالها وأنواعها . ومن ثم ارتفاع حدة المنافسة في السوق التي تواجهها صناعة الأحذية ، فإن نتائج الدراسة الميدانية تدل على عدم وجود أي تأثير لعامل المنافسة سواء على كمية الانتاج الحرفي أو على خصائص الحرفة في تلك الصناعة. وتفسير ذلك يرجع إلى أن البيع ليس من اختصاص الورشة الحرفية . بل يتولى هذا الدور تجار بيع الأحذية وهم من خارج العمالة الحرفية ، كما لاينتمون إلى النشاط الحرفي كأصحاب ورش أو أسطوات .

رابعاً : المجتمع المحلي واستمرارية الصناعات التقليدية

من المنظور الأيكولوجي ، تكشف نتائج البحث الأمبيريقي عن بعض العوامل التي تؤثر على خصائص الحرفية في الصناعات التقليدية . ومن بين تلك العوامل ما يلي : (١) التباعد الفيزيقي بين مواقع عمل الصناعات التقليدية والأنشطة الفنية المساعدة ودرجة التكاملية بينهما؛ (٢) طول فترة المعايشة للصناعات التقليدية مع كل من الورش المساعدة والمجتمع المحلي . وسوف نتناول فيما يلي بالتحليل والمناقشة تلك العوامل في ضوء المعطيات الأمبيريقية في كل مجتمع من مجتمعي البحث على حده .

١ - حارة اليهود

يمكن أن نستخلص من أقوال المبحوثين في الصناعات التقليدية العاملة في حارة اليهود أن تلك الصناعات قد تعايشت منذ قرابة نصف قرن مع المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي شهدتها الحارة منذ أن ارتحل اليهود عنها بعد عام ١٩٥٢ ، ولقد حل الحرفيون المصريون محل اليهود في الأنشطة الحرفية التي مارسوها معهم قبل مغادرتهم للبلاد ، وكان ذلك كفيلاً لتحقيق قدر كبير من الترابط في علاقات العمل . ومصداقية هذا الاستنتاج إنما ترجع إلى التجانس الاقتصادي للحرفيين المشتغلين في الصناعات التقليدية باستثناء ورشة خراطة المعادن .

ومما ساعد أيضاً على تقوية علاقات العمل بين الحرفيين في الورش المساعدة والحرفية طول فترة العمل في الحارة أو ما قد نسميه علاقات الجيرة في محيط العمل . وكما يتضح من أقوال كبار السن من الحرفيين في الحارة ، نجد أن الحرفيين أصحاب الورش الحرفية في الوقت الراهن كانوا من قبل صبية تعلموا الحرفة على أيدي الأسطوات كبار السن حالياً . ومن ثم يمتزج الإحساس بالولاء والاعتراف بالفضل مع علاقات الجيرة في العمل لتفرز شكلاً من أشكال العلاقات الأولية في مجال العمل .

وإضافة إلى الخصائص السابقة التي تفرزها المعايشة بين الصناعات التقليدية وخصائص مجتمع حارة اليهود ، نجد أن الحارة من الناحية الفيزيقية وبرغم تعدد دروبها وأزقتها تعتبر صغيرة المساحة نسبياً . وفي الوقت ذاته تكتظ تلك المساحة بكثافة كبيرة من الأنشطة الحرفية والتجارية وغيرها . ومن ثم تعتبر الفواصل أو المسافات الفيزيقية بين الأنشطة الحرفية قصيرة للغاية لا تتطلب سوى دقائق معدودة سيراً على الأقدام . وتسهم تلك الخاصية الأيكولوجية في تكثيف العلاقات المباشرة بين الحرفيين مما يدعم أيضاً من علاقات العمل المتبادلة بينهم .

وكما تكشف نتائج الدراسة الميدانية ، أن تداعيات تلك الخصائص النوعية لحارة اليهود في علاقتها بالصناعات التقليدية ، قد تمثلت في التغلب على بعض المشكلات والتي قد تهدد بعض تلك الصناعات بالانقراض كما تقلل من حدة التغير في الخصائص الحرفية وتلك المشكلات هي :

(١) رأس المال الخاص

أوضحنا فيما سبق ، أن قلة رأس المال الخاص في صناعة الأحذية كانت أهم الأسباب التي تدفع بالورشة الحرفية بكامل عمالتها الحرفية في براثن الرأسماليين وتجار الأحذية . بينما نجد الخصائص النوعية لحارة اليهود قد هيأت مناخ العمل الملائم للتغلب على مشكلة قلة رأس المال الخاص . حيث يتم تبادل المنفعة بين الورش الحرفية والورش الفنية تحت رعاية الخصائص المجتمعية التي تكفل لها الاستقرار والثبات إلى حد ما ولقد صار العرف هو القانون المنظم لعلاقات العمل . فالأجور وتكلفة المنتج الحرفي

خاصة التي تتطلبها إحدى مراحل الإنتاج في الورش الفنية يرتبطان بالبيع والتسويق للمنتج الحرفي . فالتعاون بين الورش المختلفة في حارة اليهود والعلاقات الاجتماعية تدخل شريكاً ضمنياً في رأس المال الخاص كما تتيح له الفرصة الكافية للاستثمار في النشاط الحرفي مرة أخرى .

وعن انخفاض تأثير تهديد مشكلة قلة رأس المال الخاص لبعض الصناعات التقليدية بالانهيار وانقطاع النشاط الحرفي تتناقص فرص إحداث تحولات واضحة لبعض الخصائص الحرفية مثل الاحتجاب المهاري ، وتشتت في تكاملية الأدوار ، وانخفاض الرضاء عن العمل .

(٢) مشكلة التسويق ووقت العمل الضائع

أظهرت نتائج البحث ، أن الحرفيين لايميلون إلى ممارسة الأنشطة التجارية من بيع وشراء إلا في ظروف قهرية مثل المنافسة العالية للمنتج الحرفي في الأسواق المصرية وقد ضربنا لذلك مثلاً بموقد الكيروسين . أيضا لما كانت العمالة الحرفية صغيرة جداً من حيث الحجم ولا تتصف بالبطالة المقنعة أو بالعمالة الزائدة، فمع قلة رأس المال الخاص المستثمر في النشاط الحرفي،يصبح الاستغلال الأمثل لتلك العمالة في هذا النشاط هدفاً أساسياً. ومن ثم فإن أي نشاط غير حرفي من شأنه أن يشتت من جهد تلك العمالة مثل عمليات التسويق ، يصبح أمراً غير مرغوب فيه من قبل العامل أو صاحب العمل . كما لا يعتبر مفيداً فيما يتعلق باستثمار رأس المال المحدود . حيث يقل معدل الوقت الفعلي المبذول في الإنتاج الحرفي .

وفي حارة اليهود ، يقل تأثير مشكلة الوقت الضائع سواء في عملية تسويق المنتج أو في عمليات توصيل وإحضار المنتج الحرفي خلال مراحل إنتاجية بين الورش الفنية وموقع العمل الحرفي . ويرجع انخفاض وقت العمل الضائع داخل الصناعات التقليدية نظراً للخصائص التالية والتي تتصف بها حارة اليهود :

١ - تعتبر حارة اليهود ذاتها سوقاً رائجاً للسلع الحرفية بما في ذلك موقد الكيروسين على الرغم من قيام صناع الموقد بتسويقه في أنحاء متفرقة من مصر .

٢ - ان الموقع الجغرافي لحارة اليهود يهيىء للصناعات التقليدية بها ، سوقاً أكبر من الحارة ذاتها . حيث تفضى الحارة إلى شارع الصاغة من جهة . كما تضم حارة اليهود سوق خان الخليلي وما يحيط به من أسواق أخرى قريبة مثل الجمالية والباطنية والمغربلين وامتداد شارع الأزهر .

كذلك تهيىء حارة اليهود للصناعات التقليدية بها فرصة كبيرة لاستغلال وقت العمل الحرفي بشكل كامل تقريباً . فكما تظهر البيانات الأولية للصناعات التقليدية خاصة فيما يتعلق بالعمليات الإنتاجية ، ان تلك الصناعات تعتمد اعتماداً أساسياً على ورش فنية خارجية لأداء بعض المراحل الإنتاجية . ولما كانت حارة اليهود تحتضن تلك الورش ، والتي تقع على مسافات قصيرة جداً من الورش الحرفية ، فإن ذلك يقلل من الوقت الضائع في توصيل وإحضار المنتج الحرفي قبل وبعد الانتهاء من إعداده في الورش الفنية .

نخلص من التحليل والمناقشة إلى أن المشكلة الثانية ترتبط بمشكلة قلة رأس المال الخاص ، ومن ثم فإن التغلب عليها ، يقلل أيضاً من قدرة تداعياتها على إحداث تحولات واضحة في الخصائص الحرفية للصناعات التقليدية في حارة اليهود .

ويجدر أن نعقب هنا على المجتمع المحلي لحارة اليهود . إذ يمكن القول إن تجمع عدد من الصناعات الحرفية مع الورش الفنية المساعدة داخل مجتمع محلي محدود المساحة فيزيقياً ، وحيث يجتمع أصحاب وحرفيو تلك الورش على هدف واحد هو محاولة الاستمرار في ممارسة النشاط الحرفي بأسلوب المؤازرة والتعاون غير المشروط بعقود . كل ذلك قد يدفعنا للقول بأن حارة اليهود تعتبر مجتمعاً محلياً يمتلك كل مقومات المجتمع الحرفي أو المدينة الحرفية إن صح هذا التعبير مجازاً .

٢ - المغربلين

على النقيض من حارة اليهود نجد أن المغربلين يفتقر إلى الكثير من خصائص المجتمع المحلي التي تتعلق بمعايشة الصناعات التقليدية وتوفير مناخ ملائم للعلاقات الأولية ذات الدور الفعّال في التغلب على المشكلات التي تهدد تلك الصناعات بالتدهور والانهيار .ففي المغربلين يلعب التباعد الأيكولوجي بين مواقع الصناعات التقليدية دوراً هاماً في ضعف تأثير العلاقات الأولية على علاقات العمل . وعلى سبيل المثال لانجد كثيراً من الحرفيين في صناعة الخيام أو الطربوش يعرفون بالتحديد موقع ورشة صناعة الأحذية في المغربلين . أضف إلى ذلك ما أسفرت عنه بيانات الزيارات الميدانية لمواقع العمل لكل من صناعة الخيام وصناعة الأحذية .فبالرغم من تجمع ورش صناعة الخيام في مكان واحد حيث تتجاور وتتلاصق الورش دون أي فواصل فيزيقية ، إلا أن العلاقات الأولية بين الحرفيين تكاد تكون معدومة أو نادرة الحدوث . ولعل ذلك قد يرجع إلى حاجة عملية تطريز اللوحات القماشية إلى قدر كبير من التركيز . ولكن إذا سلمنا افتراضاً بهذا التفسير في حالة صناعة الخيام ، فلانجد تفسيرات كامنة لتكرار الظاهرة ذاتها بين الحرفيين في صناعة الأحذية . فعلى الرغم من تواجد جميع ورش صناعة الأحذية في طابق واحد من طوابق مبنى قديم الطراز ،بحيث تتاخم كل ورشة منها الورشة المجاورة ، يندر أن تجد حواراً أو حديثاً بين الحرفيين . في حين تقتصر الأحاديث بين الحرفيين داخل الورشة الواحدة فقط . وهذه ظاهرة تتطلب دراسات متعمقة للتعرف على أسباب انخفاض ديناميية العلاقات الأولية بين الحرفيين العاملين في النشاط الحرفي الواحد. وان كان لنا بعض التفسيرات التي نسوقها حول هذه الظاهرة . فمن الملاحظ في صناعة الخيام ، التفاوت الكبير في أعمار المشتغلين بالحرفة . حيث نجد أن كبار السن من أرباب الحرفة إما أنهم يعملون بمفردهم داخل الورشة أو بمساعدة أحد أبنائهم . وهذه الفئة من الخيمية تحرص على التوارث المهني للحرفة والتمسك الكامل بمعاييرها وأصول أدائها الصحيحة.من جهة أخرى،نجد آخرين يشتغلون بصناعة الخيام ولكن أعمارهم تقل كثيراً عن أعمار أرباب الحرف. وتضم تلك الفئة بعض دخلاء الحرفة . ولا نعنى بدخلاء الحرفة من هم لا صلة لهم بممارسة الحرفة من قبل ولكن أولئك الذين تعلموا الحرفة منذ

الصغر ثم هجروها لسنوات طويلة بسبب التعليم أو لأي أسباب أخرى ثم عادوا إلى ورش آبائهم ليمارسوا النشاط الحرفي مرة أخرى . وهؤلاء الحرفيون قد أغفلوا كثيراً من أصوليات العمل الحرفي . ومن ثم لا تقوم بين جماعة الحرفيين في صناعة الخيام خاصية التعايش والألفة التي تحققها طول فترة ممارسة العمل الحرفي لجماعة من الحرفيين في موقع محدد .

مما سبق نخلص إلى أن مجتمع المغربلين يفتقد إلى الكثير من خصائص حارة اليهود ذات التأثير الإيجابي على كل من مزاولة النشاط الحرفي وتقليل مدى التحولات في الخصائص الحرفية . من جهة أخرى ، يتفق مجتمعا الدراسة من حيث أهمية الموقع الجغرافي لهما . فالمغربلين يعتبر سوقاً كبيراً لترويج السلع الحرفية كما يقع بالقرب من حارة اليهود ومن ثم فإنه يحظى بنفس خاصية التسويق وما لها من دور إيجابي على استمرارية النشاط الحرفي .

خامساً : الخصائص الحرفية للصناعات التقليدية بين الثبات والتغير

من خلال التباينات بين الصناعات التقليدية من حيث العمليات الإنتاجية وتنوع المنتج الحرفي ، ومستوى الأدوات والآلات ومستويات المهارة اليدوية والقدرة على الإبداع والابتكار يمكن لنا أن نتوصل إلى تفسيرات لتأرجح الخصائص الحرفية بين الثبات والتغير من تنظيم حرفي إلى آخر . كما يمكن أيضاً أن نستخلص أهم العوامل الداخلية التي تؤثر على خصائص الحرفية من خلال عقد المقارنات بين تنظيمات العمل الحرفي - قيد الدراسة - وفقاً للتباينات التي أشرنا إليها .

١ - تنوع المنتج الحرفي وعلاقته بالتنمية الذاتية

من حيث التنوع في المنتج الحرفي ، تضم عينة الصناعات التقليدية مجموعتين: تشتمل المجموعة الأولي على الصناعات التي تنتج نوعاً واحداً من المنتجات الحرفية (صناعة دبل البخت ، صناعة مواقد الكيروسين ، وصناعة الأحذية) ؛ بينما تضم المجموعة الثانية الصناعات ذات الأنشطة الحرفية المتنوعة (صناعة الخيام ، صناعة منتجات خان الخليلي ، وصناعة منتجات السمكرة البلدي) .ونجد أن صناعات المجموعة

الأولى لاتتصف بالمهارة اليدوية العالية . كما أن المهارة اليدوية المطلوبة للعملية الإنتاجية تختلف من حيث المستوى بين الصناعات الثلاث . كذلك تظهر بيانات الدراسة الميدانية أن القدرة على الإبداع والابتكار في ممارسة النشاط الحرفي لصناعات تلك المجموعة تعتبر محدودة جداً إذا ما قورنت بمثيلتها في صناعات المجموعة الثانية . وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن الأدوات المستخدمة في العملية الإنتاجية ، لم يطرأ عليها أي تطوير تقني ملموس على مستوى العينة الكلية للصناعات التقليدية ؛ يمكن القول أن صناعات المجموعة الأولى تفتقر إلى خاصية التنمية الذاتية . وبرغم أن النشاط الحرفي يعتمد اعتماداً كلياً على مهارة العامل اليدوية وخبرته الحرفية الطويلة فإن روتينية الأداء الحرفي في إنتاج سلعة متكررة لا يتطلب إبداعية أو إضافة أفكار جديدة على نوعية المنتج .

من جهة أخرى ، نجد أن الصناعات التقليدية التي تضمها المجموعة الثانية تتصف بتنوع منتجاتها الحرفية من حيث الذوق الفني والرسومات وأعمال الزخرفة والنقش . كما تتنوع تلك المنتجات من حيث الكم العددي وحجم المنتج الواحد . كذلك تكشف لنا نتائج الدراسة أن الصناعات التقليدية الثلاث تتفاوت فيما بينها من حيث نوعية المنتج ومدى الحاجة الإبداعية والإحساس الفني.ونفترض هنا أنه كلما كانت حاجة العملية الإنتاجية متزايدة للإبداعية والابتكار والتذوق الجمالي كلما اتصفت الصناعة بتنمية القدرات الذاتية للحرفيين . فمثلاً في صناعة الخيام ، تتنوع أحجام المنتجات الحرفية بدءاً من الخيام فالقطع القماشية المزخرفة المستخدمة في السرادقات ثم اللوحات متعددة الأشكال والرسومات والألوان بمقاسات وأطوال مختلفة . وتعتبر صناعة الخيام أولى صناعات عينة البحث اتصافاً بالإبداعية والابتكار وتنمية القدرات الذاتية . فالزخارف والرسومات التي يستخدمها الخيميون ليست ثابتة أو متكررة .كما أن اختيار الألوان المنسجمة فيما بينها لتصنيع لوحة إسلامية أو فرعونية قد تجعلنا نصنف صناعة الخيام بين النشاط الحرفي الصناعي ونشاط الفنون التي يغلب عليها الإبداع والتذوق الجمالي .

بالمثل ، نجد أن صناعة منتجات خان الخليلي من المشغولات النحاسية تكاد تقترب من حيث الإبداعية والابتكار لصناعة الخيام . إلا أن الاختلاف الواضح بينهما - من وجهة نظري - أن صناعة منتجات خان الخليلي تكون أقرب للصناعات التقليدية بمفهومها الكامل أكثر من نزوعها للأنشطة الفنية مثل صناعة الخيام . وكما توضح بيانات الدراسة الميدانية ، تعتمد العملية الإنتاجية في صناعة المشغولات النحاسية على عمليات صناعية متنوعة مثل الخراطة وطرق المعادن . وكلها عمليات تتطلب مستويات مهارية متباينة ، كما أنها تتطلب إبداعية وابتكار وقدرات ذاتية تقل كثيراً عما تتطلبه عمليات النقش البارز أو بالحفر للمعادن وعمل الرسومات والزخارف والنقوش المكفتة بالفضة أو بالألومنيوم .

وفي المرتبة الثالثة من المجموعة الثانية للصناعات ، يمكن ترتيب صناعة منتجات السمكرة البلدي . حيث يتنوع المنتج الحرفي إلا أن مطالب المنتج الحرفي من الإبداعية والابتكار لدى الصانع يقل كثيراً إلى المستوى الأدنى منها . حتى يمكن القول أن تنمية القدرات الذاتية في صناعة السمكرة البلدي تكاد تنعدم وتماثل إلى حد كبير ما تكون عليه صناعات المجموعة الأولى من تنمية للقدرات الذاتية .

٢ - نوعية العملية الانتاجية وتكاملية الأدوار الحرفية

تتباين الصناعات التقليدية فيما بينها من حيث تعدد مراحل العملية الإنتاجية ودرجة اعتمادها على التخصصية المهنية . فعندما نقارن بين البيانات المتعلقة بالعملية الإنتاجية على مستوى كل صناعة حرفية في عينة البحث ، نخلص إلى فرضية هامة تشير إلى علاقة تعدد مراحل العملية الإنتاجية بكل من التخصصية المهنية والتكاملية بين الأدوار الحرفية خلال تلك العملية . وإنه كلما زادت مراحل العملية الإنتاجية ازدادت الحاجة للتخصصية المهنية ، كما يحدث في التنظيمات الرسمية الحديثة .وكما هو الحال في صناعتي الأحذية ومنتجات خان الخليلي (ورشة خراطة المعادن) .

من خلال مناقشتنا السابقة للصناعات،ذكرنا أن تلك الصناعات تتصف بتكاملية في الأدوار المهنية ، وذكرناأن تكاملية الأدوار تشتمل على كل الأدوار الحرفية الداخلية

وارتباطها بالأدوار الفنية التي تقوم بها ورش خارجية في المجتمع المحلي . كذلك ذكرنا أن تكاملية الأدوار الحرفية تضم مختلف الأدوار الحرفية الداخلية خلال العملية الإنتاجية من حيث ترتيب مراحل التشغيل واعتماد كل مرحلة على التي تسبقها في تلك العملية .

من جهة أخرى ، يمكن القول إنه بالرغم من اتصاف الصناعات التقليدية بتكاملية الأدوار الحرفية فإنها تختلف من صناعة إلى أخرى سواء على المستوى الداخلي للورشة أو على المستوى الخارجي في علاقة الورشة بالمجمتع المحلي .

نخلص من تحليل ومناقشة النتائج العامة السابقة للدراسة إلى الاستخلاصات التالية :

١ - أن الخصائص الحرفية للصناعات التقليدية تتأرجح بين الثبات والتغير .وإن كان معظم تلك الخصائص يتصف بالثبات . وتلك الخصائص هي : (أ) الاعتزاز بالحرفة؛ (ب) المهارة اليدوية وأن الفرد هو الوحدة المهنية الأساسية لتنظيم الحرفة ؛ (جـ) التداخل بين أوقات العمل والفراغ خلال أداء العمل اليومي ؛ (د) الاستقلال الذاتي في أداء العمل الحرفي . أما الخصائص الحرفية التي تتصف بالتغير فهي على النحو التالي:(أ) تكاملية الأدوار ؛ (ب) تنمية القدرات الذاتية ؛ (جـ) التوارث المهني .

٢ - توجد بعض العوامل التي تهدد بعض الصناعات التقليدية بالانهيار مثل المنافسة العالية التي يواجهها المنتج الحرفي وتدهور خاصية التوارث المهني بين المشتغلين في الصناعات التقليدبة كما هو الحال في صناعتي موقد الكيروسين والخيام .

٣ - انخفاض ملحوظ في العمالة الدائمة للأطفال في بعض الحرف مما يهدد - في المستقبل القريب - النشاط الحرفي بالتدهور والتحول الكبير المتوقع في خصائص الحرفية كما هو الحال في صناعتي دبل البخت وموقد الكيروسين .

٤ - ظاهرة الاحتجاب المهاري في إحدى الصناعات التقليدية تحت وطأة تغلغل التجار الرأسماليين في النشاط الحرفي وفرض هيمنتهم عليه مثال ذلك صناعة الأحذية .

سادساً : مظاهر الثبات والتغير في الأخلاقيات والمعايير الحرفية قياساً على التي كانت سائدة في ظل الطوائف الحرفية

تكشف نتائج الدراسة الميدانية عن اضمحلال عدد من المعايير والأخلاقيات الحرفية الأصيلة ، بينما تظل معايير وأخلاقيات على حالها في ممارسة النشاط الحرفي مثلما كانت عليه في نظام الطوائف الحرفية . وفيما يلي مظاهر الثبات والتغير في تلك الأخلاقيات في ضوء معطيات الدراسة الامبيريقية والتي عرضنا لها تفصيلاً في الفصلين السادس والسابع .

١ - مظاهر الثبات في أخلاقيات ومعايير العمل الحرفي

لاتزال الصناعات التقليدية تحتفظ ببعض الأخلاقيات الحرفية الأصيلة مثل :

(أ) الالتزام بتقاليد الحرفة في أداء العمل مثال ذلك أسلوب التكفيت في صناعة منتجات خان الخليلي . وأن الأساليب المستحدثة في أداء العملية الإنتاجية لايزال يقابل بالرفض والمقاومة من قبل أرباب الحرف . وبالمثل التزام الخيمية لاسيما القدامى منهم بطريقة الجلوس الصحيحة في عرفهم . واستنكارهم لطريقة جلوس الدخلاء على الحرفة أثناء تأديتهم للعمل .

(ب) لايزال التوارث المهني خاصية مستمرة في صناعتى الخيام ومنتجات خان الخليلي ودبل البخت .

(جـ) توقير الصغير للكبير والامتثال لأوامره . ولهذه الخاصية شقان هما أن الأطفال الذين يتعلمون فنون الحرفة وينتظمون في التدريب بالممارسة العملية في موقع العمل يتصفون بالطاعة والامتثال لتعليمات وتوجيهات معلمهم من الصناع الحرفيين . في هذه الحالة يمكن القول إن الطاعة والامتثال من جانب الأطفال من متطلبات التدريب كما أنهما شرطان لاكتساب خصائص العمل الحرفي ، مثال ذلك الأطفال الذين يعملون في ورشة خراطة المعادن وفي بعض ورش النقش البارز على المشغولات النحاسية .

أما الشق الثاني من خاصية الطاعة والامتثال من جانب الطفل أو الصبي لكل أوامر وتعليمات الصانع الحرفي فقد ترجع إلى دافع الحاجة المادية بالنسبة للأطفال المشتغلين بعضاً من الوقت في الورش الحرفية . وهذا الصنف من الصبية لا يتواجد في الورشة الحرفية من أجل التعلم واكتساب المهارة الحرفية بل لمساعدة أسرته مادياً بما يتقاضاه في نهاية كل أسبوع من رب الحرفة . مثال ذلك الأطفال المشتغلون في ورشة صناعة «دبل البخت» .

(د) استمرار العمل بالنشاط الحرفي بغض النظر عن التقدم في السن ودون لجوء أصحاب الحرف للاستغناء عن الحرفيين من كبار السن أو من ذوي العاهات المستديمة . فلاتزال معايير الطائفة إزاء أفرادها تحكم طبيعة النشاط الحرفي في هذا الجانب . وليس من أخلاقيات أرباب الحرف الاستغناء أو مجرد التفريط في أحد الحرفيين لكبر السن أو لإصابته بعاهة مستديمة طالما يكون هذا الحرفي قادراً على العمل .كما هو الحال في ورشة «دبل البخت» .

(هـ) الإلتزام والتقيد بمواعيد العمل اليومية بدافع حب العمل وليس إتباعاً للوائح وقوانين تحدد تلك المواعيد وتضع ضوابط لها . وفي هذه الصدد تظهر نتائج الدراسة الميدانية نمط التعاون الكبير بين الحرفيين المشتغلين في موقع العمل ، وكيف أنهم يعملون بروح الفريق وكأنهم جميعاً ملاك الورشة الحرفية . كذلك لم يذكر الحرفيين حالة واحدة للتمارض أو رفض العمل الحرفي حدثت خلال السنوات الطويلة من زملائهم في العمل .

(و) المشاركة بروح الفريق في جميع المناسبات الاجتماعية السارة وغير السارة من حياة الحرفيين أعضاء جماعة العمل في الورشة الحرفية . ففي حالات زواج البنات والأولاد يشارك زملاء الحرفة بالمساعدة المادية والحضور والقيام بكل ما تتطلبه كل مناسبة من واجبات على زميل الحرفة أو الصديق .

(ز) الالتزام الأدبي والمعتمد على انتمائية الحرفي لعمله ، بأداء الدور الفني المطلوب بالصورة المرجوه كماً وكيفاً دون أن يكون هذا الالتزام تحت إشراف مباشر أو أن

يكون تحت طائلة لوائح منظمة للإنتاج ، كما يحدث في القطاع الرسمي ويستثنى من ذلك حديثي العهد في صناعة الخيام .

(ح) لايزال الحرفي يمثل الوحدة المهنية الرئيسية في العمل الحرفي .

(ط) لاتزال المعرفة الحرفية والتي لاتعتمد على أجهزة قياس وآلات دقيقة ، تحكم العملية الإنتاجية في الأنشطة الحرفية المختلفة .

٢ - مظاهر التغير في أخلاقيات ومعايير العمل الحرفي

مما لاشك حوله ، أن الأخلاقيات والمعايير الأصيلة للحرفة قد أصابها قدر غير يسير من التغير بفعل عوامل اقتصادية واجتماعية . وكما تكشف نتائج الدراسة الميدانية كانت سياسة مجانية التعليم من العوامل الهامة المحدثة لهذا التغير . كما تعتبر العوامل الاقتصادية مؤثراً إيجابياً أيضاً على أخلاقيات الحرفيين والمعايير التي تحكم العمل الحرفي . ومن أهم مظاهر التغير في الأخلاقيات والمعايير الحرفية ، التي كشفت عنها نتائج الدراسة الحالية ما يلي :

(أ) تلاشى دور رب الحرفة في الدفاع عن وحماية مصالح الحرفيين العاملين تحت إمرته وهذه الخاصية سائدة في جميع الحرف والصناعات قيد الدراسة .

(ب) تقلص دور رب الحرفة في السيطرة على الحرفيين ، فلاتوجد القوانين الملزمة للحرفي بالعمل في ورشة معينة أو ممارسة نشاط حرفي محدد . وأن الخروج عن فلك النشاط الحرفي يعتبر عصياناً على رب الحرفة يقابله عقوبات متنوعة كما كان يحدث مثلاً في نظام الطوائف الحرفية .

وأعتقد أن السبب الرئيسي في تدهور سلطة رب الحرفة هو غياب الحماية الحكومية الحالية ومساندتها لأرباب الحرف مثلما كان يحدث مع أرباب الطوائف .

(جـ) لم تعد توجد معايير تحدد جودة المنتج الحرفي سواء من قبل ممثلى الحكومة أو من قبل أرباب الحرف أنفسهم . يستثنى من ذلك صناعة «مواقد الكيروسين» حيث يخضع المنتج الحرفي لرقابة فنية من إدارة الصناعة من حيث

المواصفات الفنية للخام وجودة المنتج . وذلك نظراً للأخطار الجسيمة التي تنجم عن أي خطأ في عمليتي اللحام والتجميع .

وعلى صعيد آخر ، ففي صناعة الخيام لم تعد الورشة تخصص فقط لإنتاج الخيام واللوحات المطرزة ، بل تحولت إلى ما تشبه صالة عرض المنتجات . وهذا التحول الواضح في وظيفة الورشة الحرفية يشير إلى محاولة جذب المشترين من خلال تنوع أسعار المعروضات المتماثلة . ومن ثم تفقد حرفة صناعة الخيام معياراً أخلاقياً هاماً من معايير الطوائف - فكما ذكرنا آنفاً في الفصل الثالث - أن نظام الطوائف كان يحرم على الحرفيين محاولة جذب المشترين ورفض أي وسيلة يقوم بها الحرفي في هذا الصدد .

(د) اضمحلال عملية تدريب الصبية في الصناعات التقليدية الحالية بعد أن كانت من أهم عمليات نظام الطوائف في ضمان واستمرارية الإمداد بالعمالة الحرفية .

(هـ) انخفاض الشعور بروح الجماعة بين المشتغلين في النشاط الحرفي الواحد حيث أصبحت الفردية هي الموجهة للسلوك الحرفي . ويظهر هذا الاتجاه السلبي جلياً في صناعة الخيام ، حيث يتضح من المشاهدات الامبيريقية وجود بعض التوترات في العلاقة بين كل من قدامي الحرفيين وحديثي العهد بالحرفة . بينما تفتر العلاقات الاجتماعية بين قدامي الحرفيين برغم التجاور الأيكولوجي لهم .

سابعاً : المستقبل المهني للحرفيين وفرضية تودارو

قبل أن نناقش نتائج الدراسة الراهنة التي تتعلق بالمستقبل المهني للحرفيين والفروق النوعية في التطلعات المستقبلية بين كل من قدامى الحرفيين والأجيال الشابة منهم ، نرى ضرورة أن نوضح الآتي وقبل اختبار فرضية تودارو .

١ - أن حجم العينة البحثية في الدراسة الراهنة صغيراً إلى الدرجة التي لانستطيع أن نصل معها إلى تعميم للنتائج فيما يختص بفرضية تودارو .

٢ - أن ما تهتم به الدراسة الحالية هو اختبار جزئية من فرضية تودارو والتي تركز على العلاقة بين الهجرة من الريف إلى الحضر والعمل المؤقت للمهاجرين في القطاع غير الرسمي .

تناقض نتائج البحث الراهن فرضية تودارو حيث يتضح :

١ - بالنسبة للأصول الريفية الحضرية لعينة البحث من الحرفيين ، تذهب فرضية تودارو إلى أن غالبية المشتغلين في القطاع غير الرسمي بالحضر من المهاجرين من المناطق الريفية . وعلى النقيض ،فإن البيانات الأولية للحرفيين في عينة البحث الراهن، توضح أن جميعهم من أصول حضرية ،ولم تسجل الدراسة حالة واحدة ذات أصل ريفي .

٢ - بالنسبة لاستقرار واستمرارية اشتغال الحرفيين في القطاع غير الرسمي ، فبينما يرى تودارو أن المهاجرين إلى الحضر يشتغلون لفترة مؤقتة في هذا القطاع قبل التحاقهم بالقطاع الرسمي . توضح نتائج الدراسة الراهنة استقرار واستمرارية المستقبل الحرفي لجميع مفردات عينة البحث باستثناء «الدخلاء» على الحرفة في صناعة الخيام .

من جهة أخرى ، تتفق نتائج الدراسة الحالية مع نتائج الدراسة التي أجريت على بائعات الأغذية المتجولات في سبع دول من بينها مصر . حيث رفضت البائعات ترك عملهن الحالي والعمل في القطاع الرسمي نظراً لطول فترة اشتغالهن بهذا العمل .

ثامناً : التجاور الإيكولوجي للصناعات التقليدية والفروق النوعية بينها :

استخلاصاً من نتائج البحث الميداني والتي نوقشت في الفصلين السادس والسابع، يمكن القول بوجود علاقة قوية بين التجاور الإيكولوجي للصناعات ونمط التفاعل الاجتماعي بين المشتغلين بهذه الصناعات . كما أن نمط التفاعل وكثافته ليس متماثلاً بمجتمعي البحث .

ففي مجتمع حارة اليهود ، يسبب التجاور الإيكولوجي للصناعات تنامياً في معدل التفاعل الاجتماعي وتقوية أواصر التعاون بين الحرفيين أنفسهم وبينهم وبين المشتغلين في الورش الفنية المساعدة والموجودة بحارة اليهود .

من جهة أخرى ، نقول إن مجتمع الحرفيين في المغربلين يتصف بالتشتت الإيكولوجي من المنظور الشامل لجميع الصناعات التقليدية ومواقعها الحالية وفق نوع

النشاط الحرفي . حيث لم تكشف نتائج الدراسة عن وجود علاقات متبادلة سواء في مجال العمل أو خارجه بين المشتغلين بالحرف والصناعات المختلفة .

وعلى مستوى الحرفة الواحدة ، مثل حرفتي صناعة الخيام وصناعة الأحذية حيث يكون التجاور الإيكولوجي واضحاً ، فإن نمط التفاعل الاجتماعي يقل في ديناميته كثيراً عن النمط السائد في حارة اليهود . وحول عوامل ضعف نمط التفاعل الاجتماعي بين الحرفيين في النشاط الواحد في المغربلين برغم التجاور الإيكولوجي أسفرت نتائج البحث عما يلي :

١ - بالنسبة للمشتغلين في صناعة الأحذية .

(أ) إن معظم المشتغلين في هذه الصناعة تضمهم ورشة واحدة تخضع لاحتكار التجار الرأسماليين في تحديد حجم المنتج ونوعيته أشبه بنظام «المقطوعية في الإنتاج» وهذا النمط الإنتاجي لا يتيح أوقاتاً كثيرة للتفاعل بين المشتغلين وغيرهم ممن يعملون في الورش المجاورة .

(ب) انخفاض عدد سنوات خبرة ممارسة العمل الحرفي نظراً لصغر أعمال معظم المشتغلين بصناعة الأحذية .

(جـ) وجود اختلاف واضح في طبيعة العملية الإنتاجية ورأس المال بين الورش في صناعة الأحذية ، فبالنسبة لورشة صناعة الحذاء الكامل بوصفها الأكبر من حيث المساحة ورأس المال المستثمر وعدد العمال يقتصر دورها على النشاط الإنتاجي فقط . وأن عملية التصنيع الكامل للحذاء يتطلب تقسيم عمل مرحلي يتصف بالتخصصية بحيث تعتمد كل مرحلة إنتاجية على التي تسبقها وهكذا . ومن ثم ينخفض معدل التفاعل الاجتماعي بين المشتغلين داخل الورشة .

أما بالنسبة لباقي ورش صناعة الأحذية ، فنظراً لانخفاض رأس المال ، فإن القائمين بالعمل الإنتاجي يقومون أيضاً بالتسويق ومع قلة عدد المشتغلين في تلك الورش نجد أن التفاعل الاجتماعي بينهم محدوداً كما يكون محدوداً أكثر بينهم وبين المشتغلين في ورشة صناعة الحذاء الكامل للعوامل التي أوردناها .

(د) على النقيض من جماعة الخيمية ، فإن جماعة صناعة الأحذية تضم أفراداً تجمعوا في مكان واحد ولكنهم تدربوا في مواقع عمل شتى ولا تربطهم صلات قربى أو توارث مهني .

٢ - بالنسبة للمشتغلين في صناعة الخيام

برغم التجاور الإيكولوجي المتميز لورش صناعة الخيام حيث تتجاور وتتقابل في مساحة مكانية محدودة ، فإن معدل التفاعل الاجتماعي بين جماعة الحرفيين منخفض نسبياً إذا ما قورن بمثيله بين الحرفيين في مجتمع حارة اليهود ، وذلك في اعتقادنا للعوامل التالية :

(أ) على مستوى الورشة الحرفية ، يعتبر نمط التفاعل الاجتماعي بين الحرفيين عالياً نسبياً إذا ما قيس بنظيره بين الحرفيين في ورشة صناعة الحذاء الكامل . وقد يرجع سبب ذلك إلى أن العلاقة الأبوية والتوارث المهني يحكمان علاقات العمل بين الحرفيين في ورشة صناعة الخيام .

(ب) على مستوى الخيميين ، يقل نمط التفاعل الاجتماعي بينهم لعدة أسباب من أهمها :

١ - عدم التجانس بين الخيميين من حيث خبرة العمل ومعايير ممارسة العمل الحرفي . فمجتمع الخيميين يضم القدامى من كبار السن ومن تتلمذوا في الحرفة على أيديهم في جانب ، وعلى الجانب الآخر يضم المجتمع بعض الحرفيين الجدد والذين يطلق عليهم كبار الحرفيين «دخلاء المهنة» . وهؤلاء الجدد لايلتزمون بالمعايير التقليدية في أداء العملية الإنتاجية مثل اتباع الطريقة التقليدية للجلوس أثناء أداء العمل . وهذا التصرف يعتبر مرفوضاً من قبل فئة كبار السن ومن معهم من الخيميين . ومن ثم يكاد ينعدم التفاعل الاجتماعي بين الفئتين .

٢ - إن طبيعة أداء العمل الحرفي تتطلب تركيزاً ذهنياً من الخيمي بالإضافة لاستعماله لليدين وحاستي البصر والتذوق الفني.ومن ثم تقل فرص التفاعل الاجتماعي أثناء العمل سواء على مستوى الورشة أو على المستوى العام لمجتمع الخيمية .

٣ - ازدواجية وظيفة الورشة الحرفية ، فبالإضافة إلى كونها موقعاً للعمل الإنتاجي ، أصبحت معرضاً للمنتجات الحرفية ومثيلاتها غير الحرفية ، وهذا بدوره قد قلل من فرص التفاعل الاجتماعي بين الحرفيين على مستوى جميع الورش بفعل عامل المنافسة بينها في تسويق المنتجات وجذب الزبائن .

وبرغم ما أضفاه التجاور الإيكولوجي للحرف والصناعات في حارة اليهود من وجود بعض أوجه التماثل بينها متمثلة في التزام المشتغلين بتلك الصناعات بأخلاقيات ومعايير الحرفة ، فضلاً عن وجود أواصر التعاون والتضامن العضوي فيما بينهم . إلا أن المعطيات الامبيريقية كشفت عن وجود بعض الفروق النوعية بين تلك الصناعات الموجودة في حارة اليهود . تتمثل تلك الفروق في أنماط توزيع المنتج النهائي وأيضاً في الشرائح الاجتماعية للمستهلكين لهذا المنتج وفي حجم رأس المال المستثمر في كل صناعة على حده . وفيما يلي مناقشة لهذه الفروق النوعية :

١ - بالنسبة لمنتجات خان الخليلي شاهدنا وجود إمكانات عرض السلع المنتجة حيث يلاصق ورشة خراطة المعادن معرض لمنتجات خان الخليلي بالإضافة إلى سوق خان الخليلي المتاخم لحارة اليهود . في حين نجد أن اختلاف أنماط التوزيع للمنتج النهائي بالنسبة لصناعتي موقد الكيروسين وصناعة «دبل البخت» . ففيما يتعلق بتسويق مواقد الكيروسين ، فإن حارة اليهود لا تتيح السوق الكافي لتوزيع المنتج إلا بالقدر اليسير . ومن ثم يعتبر تسويق المنتج من بين مجموعة الأدوار الرئيسية للحرفي والتي يجب أن يقوم بها . لذلك نرى أن أرباب الحرفة يتبادلون القيام بالتجوال في المدن والقرى لعرض بضاعتهم وتسويقها وعدم الاعتماد على سوق مجتمع اليهود وما يجاوره من أسواق كبيرة .

كذلك بالنسبة لصناعة «دبل البخت» ، فتعتمد في تسويق المنتج على عدد محدود من التجار الذين يقومون بشرائه جملة من رب الحرفة ثم يتولون بدورهم بيعها في الأسواق وأثناء الاحتفالات الشعبية في الريف والحضر .

٢ - تتباين الصناعات التقليدية في حارة اليهود فيما بينها من حيث المستويات الاجتماعية والاقتصادية لشرائح المستهلكين للمنتج الحرفي . فمنتجات خان الخليلي تجد مكانتها وتحظى بقبول وإقبال عليها محلياً وعالمياً . وعادة ما يكون المستهلكون من فئات الأثرياء والمثقفين وهواة التحف من سكان الحضر . كما تتباين عرقياتهم وأجناسهم . حيث يقبل على منتجات خان الخليلي الوافدون على مصر من كل حدب وصوب . من جهة أخرى يتركز غالبية شريحة المستهلكين «لموقد الكيروسين» و «دبل البخت» في الطبقات الاجتماعية المحلية الوسطى والدنيا .

٣ - تتباين الصناعات التقليدية في حارة اليهود فيما بينها من حيث حجم رأس المال المستثمر وأسعار المنتجات الحرفية . فعلى مستوى صناعة المشغولات النحاسية (منتجات خان الخليلي) تتفاوت الورش الحرفية المشتغلة بالنشاط ذاته من حيث حجم رأس المال المستثمر . حيث تحتل ورشة خراطة المعادن المرتبة الأولى في رأس المال المستثمر، بالنسبة لجميع ورش المعادن المنتجة للمشغولات النحاسية في حارة اليهود وأيضاً باقي الصناعات الأخرى في عينة البحث .

أيضاً توجد فروق نوعية بين الصناعات المتجاورة أيكولوجياً وذلك في أسعار المنتجات الحرفية . فأسعار منتجات خان الخليلي باهظة جداً إذا ما قورنت بأسعار المنتجات الحرفية في كل من صناعتي «موقد الكيروسين» و «دبل البخت» . فبينما تتراوح أسعار المشغولات النحاسية وفقاً للحجم والتكفيت والزخرفة بين مئات وألوف الجنيهات ، فإن أسعار «مواقد الكيروسين» وفق حجمها لا تتعدى جنيهات معدودة . في حين يصل سعر «دبلة البخت» إلى قروش معدودة .

إضافة إلي ما سبق توجد فروق نوعية تتعلق بمستويات المهارة اليدوية وتقسيم العمل والتخصصية وحجم العمالة ومساحة الورشة وقد سبق تناول كل الفروق لكل صناعة على حدة في متن الفصل السادس من الدراسة .

أما بالنسبة لمجتمع المغربلين فقد كشفت نتائج البحث الامبيريقي عن وجود فروق نوعية على مستوى الحرفة الواحدة المتجاورة إيكولوجيا ، وأيضاً على مستوى الصناعات والحرف المختلفة .

فعلى مستوى الحرفة الواحدة ، توجد فروق نوعية بين صناع الخيام تتمثل في الخروج على الأسلوب التقليدي المتبع في ممارسة الحرفة مثل طريقة الجلوس أثناء تأدية العمل الحرفي ؛ بين «الدخلاء» على الحرفة .

هناك أيضاً فروق بين ورش صناعة الخيام من حيث رأس المال المستغل في العملية الإنتاجية حيث توجد بعض ورش الخيام التي تقتصر معروضاتها على منتجات الحرفي من صنع يده فقط . وعلى قدر ما يتوفر لديه من رأس المال لشراء المواد الخام اللازمة للإنتاج . بينما نجد بعض ورش الخيمية تعرض بعض المنتجات غير اليدوية إلى جانب ما يقومون بإنتاجه حرفياً ومن ثم تتعدد وتتنوع المعروضات داخل الورشة الحرفية من حيث الجودة ومصدر الصنع والكمية . تتباين أيضاً ورش صناعة الأحذية فيما بينها من حيث نوعية المادة الخام المستخدمة في صناعة الحذاء ومراحل إنتاجه ، حيث توجد ورشة لصناعة الحذاء الكامل بينما تتخصص باقي الورش في صناعة الجزء العلوي من الحذاء «الفوندى» .

وعلى مستوى عينة البحث من الحرف والصناعات في المغربلين ، توجد فروق نوعية بين كل صناعة وأخرى من حيث عدد العمال ، التوارث المهني ، وأنماط توزيع المنتج . حيث تتصف ورشة صناعة الحذاء الكامل بزيادة حجم العمالة قياساً بعدد المشتغلين في الحرف والصناعات الأخرى . أيضاً تقوم صناعة الخيام أساساً على التوارث المهني ، بينما يكاد ينعدم هذا التوارث في صناعة الأحذية . وتتباين الصناعات فيما بينها من حيث وظيفة الورشة الحرفية ، فبينما تقتصر هذه الوظيفة على الإنتاج فقط في صناعة الأحذية ، نجد أن ورش الخيمية تقوم بوظيفتين : أولهما إنتاج السلعة ، وثانيهما عرض السلعة للبيع .

وأيضاً توجد تمايزات طبقية لشرائح المستهلكين للسلع المنتجة في المغربلين . فبنيما تقبل الفئات الاجتماعية العليا والوسطى على شراء منتجات الخيمية ، تستهلك الفئات الاجتماعية الوسطى والدنيا الأحذية القماشية الرخيصة وأيضاً بعض منتجات السمكرة البلدي .

تاسعاً : مناقشة نقدية لنمط الخصائص الحرفية عند س. رايت ميلز في ضوء المعطيات الإمبيريقية

كشفت نتائج البحث الإمبيريقي عن بعض القضايا المنهجية والتي تتعلق بنمط ميلز للخصائص الحرفية في مجال التطبيق . ومن أهم تلك القضايا ما يلي :

١ - غموض المفهومات لبعض الخصائص الحرفية عند ميلز من تلك الخصائص ، تكاملية الأدوار ، تنمية القدرة الذاتية . حيث لايوجد تعريف محدد لتكاملية الأدوار خاصة في ارتباطها وعلاقاتها بتعدد المراحل الإنتاجية وبالمستوى المهاري وكذلك من خلال علاقات التنظيم الحرفي بالبيئة الخارجية . بالمثل نجد تنمية المهارات الذاتية لاتقوم على مفهوم محدد وواضح . فالتنمية من خلال تعريفها عملية تحول من حالة إلى أخرى بفعل مؤثر خارجي . وهذا المؤثر في التنظيم الحرفي متعدد الجوانب والمصادر . فهل التنمية الذاتية يقصد بها تنمية القدرات الإبداعية أو القدرات المهارية باللمس مثل المهارة اليدوية أو لكليهما معا ؟أم هل تنمية القدرات الذاتية تعنى تطوير الأداء الفردي من خلال التدريب المنظم أو المتبع سابقاً في نظام الطوائف مثل تدريب الصبية ؟

٢ - من خلال دراسة مكونات نمط الخصائص الحرفية عن س. رايت ميلز يمكن أن نلحظ إغفال المؤثرات البيئية على كل خاصية وذلك يعنى أن هذا النمط قد تناول تنظيم الحرفة كنسق مغلق Closed System حيث أغفل علاقته بالبيئة الخارجية .

٣ - إن المقولات الست المتضمنة في النموذج المثالي للحرفية عند ميلز في حاجة إلى دراسات مستقبلية متعمقة ، لاسيما المقولة السادسة والتي تشير إلى أن أسلوب الممارسة الحرفية اليومية يعكس نمط الحياة الاجتماعية للحرفي وأسلوب معيشته .



المراجـــع



أولاً : مراجع باللغة العربية

١ - **أحمد سليم سعيدان** ، مقدمة لتاريخ الفكر العربي في الإسلام ، عالم المعرفة ، العدد ١٣١ ، الكويت ، نوفمبر ١٩٨٨ .

٢ - **إسماعيل محمد هاشم** ، محاضرات في التطور الاقتصادي ، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٣ - **الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء (جمهورية مصر العربية)** ، التعداد العام للسكان والإسكان ، ١٩٧٦ ، النتائج التفصيلية ، اجمالي الجمهورية ، سبتمبر ١٩٧٨ .

٤ - ———— ، تعداد الانتاج الصناعي ، الجزء الأول ، (٩ مشتغلين فأقل ، قطاع خاص) ، أبريل ١٩٧١ .

٥ - ———— ، التعداد العام للسكان عام ١٩٦٠.

٦ - ———— ، تعداد المنشآت عام ١٩٦٠.

٧ - ———— ، تعداد المنشآت عام ١٩٦٤.

٨ - ———— ، تعداد المنشآت عام ١٩٧٢.

٩ - ———— ، احصاء الانتاج الصناعي عام ١٩٤٧.

١٠- ———— ، تعداد الانتاج الصناعي عام ١٩٦٧.

١١ - **أ. س. ف.سيذورامان** ، القطاع الشعبي في مدن البلدان النامية : التشغيل والفقر والبيئة ، ترجمة محمد شريف الطرح ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٨٦ .

١٢ - **أميرة عبد اللطيف مشهور** ، الصناعات البيئية وعلاقاتها بالتنمية الاقتصادية مع التطبيق على مصر (رسالة ماجستير غير منشورة) ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٧٦ .

١٣ - **إميل فهمي حنا شنودة** ، تاريخ التعليم الصناعي حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٤ - **آلان منتجوي ، التصنيع في الدول النامية** ، ترجمة وتقديم وتعليق السيد الحسيني ، الطبعة الثانية ، دار قطري بن الفجاءة ، ١٩٨٦ .

١٥ - **تقي الدين بن أبى العباس المقريزي** ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، تاريخ النشر غير مبين .

١٦ - ج. بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، ترجمة وتقديم عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمي الجمال ، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٦ .

١٧ - **جهاز الصناعات الحرفية والتعاون الانتاجي** ، إدارة الاحصاء والمتابعة ، حصر الحرفيين ، القاهرة ، ديسمبر ١٩٧٤ .

١٨ - **جورج فريدمان ، بيارنافيل وجان رينيه تريالتون** ، رسالة في سوسيولوجيا العمل ، الجزء الأول ، ترجمة بولاند عمانوئيل ، من منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٥ .

١٩ - **حسن إبراهيم حسن** ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ .

٢٠ - **حسن الساعاتي**، علم الاجتماع الصناعي، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦.

٢١ - **رمزي زكي** ، التاريخ النقدي للتخلف : دراسة في أثر نظام النقد الدولي على التكون التاريخي للتخلف بدول العالم الثالث ، عالم المعرفة ، العدد ١١٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، اكتوبر ، ١٩٨٧.

٢٢ - **زكي محمد حسن** ، كنوز الفاطميين ، دار الرائد العربي، بيروت ،١٩٨١ .

٢٣ - **عادل محيى الدين الألوسي** ، الرأي العام في القرن الثالث الهجري ١٩٨ - ٢٩٥هـ ، ٨١٣ - ٩٠٧ م، دار الشئون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٧ .

٢٤ - **عاصم الدسوقي** ، دراسات في التاريخ الاقتصادي ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٨١ .

٢٥ - **عبد الباسط حسن** ، علم الاجتماع الصناعي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢٦ - **عبد العزيز العمري** ، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، مركز التراث الشعبي ، الدوحة ، قطر ، ١٩٨٥ .

٢٧ - **عبد العزيز عجمية ومحمد محروس إسماعيل** ، التطور الاقتصادي في أوروبا والعالم العربي ، الدار الجامعية ، بيروت ، ١٩٨٨ .

٢٨ - **على باشا مبارك** ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، الطبعة الأولى ، الجزء الأول ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، القاهرة .

٢٩ - **على محمود إسلام الفار** ، علم الاجتماع الصناعي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٣٠ - **قاسم عبده قاسم** ، ماهية الحروب الصليبية ، عالم المعرفة العدد ١٤٩ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مايو ١٩٩٠ .

٣١ - **محمد أحمد محمد** ، مظاهر الحضارة في مصر العليا في عصر سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية ، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٧.

٣٢ - **محمد الجوهري وعلياء شكري** ، علم الاجتماع الريفي والحضري ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .

٣٣ - **محمد جمال الدين سرور** ، الدولة الفاطمية في مصر : سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٣٤ - **محمد عمارة** ، (دراسة وتحقيق) الأعمال الكاملة لعلي مبارك ، المجلد الثالث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨١ .

٣٥ - **محمد فهيم** ، تاريخ الحركة النقابية وتشريعات العمل بالاقليم المصري ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٦٩١ .

٣٦ - **محمود عبد الحميد أحمد** ، الهجرات العربية القديمة من شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام إلى مصر ، الطبعة الأولى ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٨ .

٣٧ - **وزارة الشئون الاجتماعية** ، اللجنة القومية للمرأة ، بحث التكنولوجيا المستخدمة في الريف المصري ، تاريخ النشر غير مبين .

ثانياً : مراجع باللغة الإنجليزية

1. **Anderson; Nels;** Dimensions of Work: The Sociology of Work Culture, David Mckay Company, INC., New York, 1964.

2. **Azumi; K. and J. Hage;** Organizational Systems: A Text Reader in the Sociology of Organization, D.H. Health and Co., London, 1972.

3. **Baer; Gabrial;** Egyptian Guilds in Modern Times, Oriented Society, Jerusalim, 1964.

4. **Barbour; K.M.;** The Growth, Location and Structure of Industry In Egypt, Praeger, New York, 1972.

5. **Blauner; Robert;** Alienation and Freedon, University of Chicago press, chicago, 1964.

6. **Bryce; Murray;** Industrial Development, A Guide for Accelerating Economic Growth, Mc Graw-Hill Book Co. INC., New York, 1960.

7. **Bursten; M. et al.,** Candian Work Values: Findings of A Work Ethic Survey and A Job Satisfaction Survey, Department of Manpower and Immigration: Stratigic Planning and Research, Montreal, 1978.

8. **Cairo Demogaphic Centre;** Demographic Aspects of Manpower in Arab Countries, Series No. 3, Cairo's S.O.P. Press, 1972.

9. **Caplow; Theodore;** The Sociology of Work, Mc Graw Hill Book Company, New York, 1954.

10. **Crouchley; A.;** The Egyptian Development of Modern Egypt, Longman Green and Co., New York, 1938.

11. **Crowley; Daniel; J.** "Crafts" In International Encyclopedia of the Social Sciences Vol. 3, The Macmillan Company and The Free Press, New York, 1968, pp. 430 - 434.

12. **Curran; James and Roger; Burrows;** "Ethnographic Approaches to the Study of the Small Business owner" in Ken O'neill et al., (Eds.), Small Business Development: Some Current Issues, Aveburg Hong Kong, 1987. pp. 3 - 19.

13. **Goss; David M.;** "Social Harmony and Small Firm: A Reappraisal" The Sociological Review 36, February 1988, pp. 114 - 132.

14. **Hackenberg, Robert A.**"New Patterns of Urbanization in Southeast Asia: An Assessment" Population and Development Review 6, No. 3 September, 1980, pp. 391 - 419.

15. **Hall,Richard.** Dimensions of Work, Sage Publications Beverly Hills, London, 1986.

16. .... , Occupations and The Social Structure, Prentice Hall INC. New Jersey, 1975.

17. **Harper, Malcolm,** Small Business in The Third World, John Wiley and Sons, New York, 1984.

18. **Heilbroner, Robert L.** "The Economic Revolution" in Lauri Perman (Ed.), Work in Modern Society: A Sociology Reader, Kendull, Hung Publishing Company, Dubuque, Iowa, 1986. pp. 7 - 19.

19. **Hofman, Michael,** "The Informal Sector in an Intermediate City, A Case in Egypt" Economic Development and Cultural Change 34 January, 1986, pp. 263 - 272.

20. **Ibrahim, Barbra,** Social Change and the Industrial Experience: Women as Production Workers in Urban Egypt (Unpublished ph. D. Dissertation) Indiana university, October, 1980.

21. **Inkson, K.** "The Craft Ideal and Integration of Work: A Study of Potters", Human Relations 40, No. 3, 1987.

22. **Jackson, M. R.,** The Formation of Craft Labor Markets, A cademic Press, INC. New York, 1984.

23. **Kranzberg, Melvin and Joseph Gies,** "The Industrial Revolution: Birth of the Factory: in Lauri Perman (Ed.) Work in Modern Society: A Sociology Reader, Kendall, Hunt Publishing Company Dubuque, Iowa, 1986, pp. 40 - 46.

24. **Krause, E. A.,** The Sociology of Occupations, Little Brown and Company, Boston, 1971.

25. **Mabro, Robert and Samir Radwan,** The Industrialization of Egypt 1939 - 1973: Policy and Performance, Clarendon Press, Oxford, 1976.

26. **Macarov, David,** Worker Productivity: Myth and Reality, Sage Publications, London, 1982.

27. **Marglin, Stephen A.,** "Losing Touch: The Cultural Conditions of Worker Accommodation and Resistance" Version 3.1, Preparted for Frederique A. Marglin and Stephen A. Marglin (Eds.), Dominating Knowledge,

Clarenddon Press, Oxford, 1989.

28. **Mariano, San Nicolo,** "Guilds in Antiqiuty: Ancient Mesopotania and Pharaonic Egypt" in Encyclopedia of the Social Sciences Vol. 7, 11th edition, 1954.

29. **Mckee, David L.,** Growth, Development and the Service Economy in the Third World, Praeger, New York, 1988.

30. **Mills, C. Wright,** White Collar, Oxford University Press, New York, 1951.

31. **Mitchell, Duncan,** A Dictionary of Sociology, Routledge and Kegan Paul, London, 1968.

32. **Moore, W. and G. Rosenbluem,** Thge Professions: Roles and Rules, Russell Sage Foundations, New York, 1970.

33. **Mott, Paul E.,** "Industrialization" in Lauri Perman (Ed.), Work in Modern Society: A Sociology Reader, Kendall/Hung Dubuque, Iown, 1986, pp. 20 - 27.

34. **O'toole, James, (Ed.),** Work and The Quality of Life: Resource Papers for Work in America, The MIT Press, Massachusetts, 1974.

35. **Papola, T. S.** Urban Informal Sector in A Developing Economy. Vikas Publishing House PUT LTD, New Delhi, 1981.

36. **Perlmutter, Amos,** "Egypt and The Myth of The New Middle Class: A Comparative Analysis"., Comparative Studies in Society and History 10, 1967, pp. 46 - 65.

37. **Pirenne, Henri,** "Guidls, Eurepean" in Encyclopedia of the Social Sciences Vol. 7, The Macmillan Company New York, 1936. pp. 208 - 214.

38. **Pradhan, Rajesh K.,** "On Helping Small Enterprises in Developing Countries" World Development, 17 No. 1, 1989, pp. 157 - 159.

39. **Ritzer, George and Davied Walczak, Working:** Conflict and Change, 3rd Edition, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, New Jersey, 1986.

40. **Schneider, Eugene V.,** Industrial Sociology: The Social Relations of Industry and the Community 2nd Edition, MC Graw-Hill, New York, 1971.

41. **Sharma, S. V. et al.,** Small Entrepreneurial Development in Some Asian Countries, Light and Life Publishers, New Delhi, 1979, pp. 12 - 13.

42. **Silver, Marc L.** "The Structure of Craft Work: The Construction Industry" in Phyllis L. Stewart and M. G. Cantor (Eds.), Varieties of Work, Sage publications London, 1982, pp. 235 - 252.

43. **Sreeramurty, Kudamala,** Urban Labour in Informal Sector: A Case Study of Visukhapatnom City, B. R. Publishing Corporation Delhi, 1986.

44. **Staley, Eugene and Richard M. Mors,** Modern Small Industry for Developing Countries, Mc Graw-Hill Book Company: New York, 1965.

45. **Stinchcombe, Arthur L.,** "Bureaucratic and Craft Administration of Production: A Comparative Study,", Administrative Science Quarterly 4 September, 1959, pp. 168 - 187.

46. **Strauss, George,** "Is There a Blue - Collar Revolt Against Work" in James O'toole (Ed.), Work and The Quality of Life: Resource papers for Work in America, The MIT Press, London, 1974, pp. 40 - 69.

47. **Tausky, Curt,** Work and Society: An Introduction to Industrial Sociology, F. E. Peacock Publishers, INC. Illinois, 1984.

48. **Theodorson, George and Achilles Theodorson,** A Modern Dictionary of Sociology, Barnes and Noble Books A Division of Harper and Row Publishers, New York, 1969.

49. **Tinkerm Iren,** "Street Food: Testing Assumptions About Informal Sector Activity By Women and Men, Current Sociology 35(3), 1987, pp. i - 110.

50. **Vepa, Ram K.,** Small Industry in The Seventies, Vikas Publications, Delhi, 1971.

51. **Watson, Tony J.,** Sociology, Work and Industry, Routledge and Kegan Paul, London, 1980

الملاحق



ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي
عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

النشاط الاقتصادي		عدد المنشأة	عدد الصبية والمتدربين	عدد المشتغلين		
				أصحاب العمل	عاملين	جملة
(١) صناعة الغزل والنسيج						
١ - نسيج القطن (يدوي)	ح	١٨٤٥	٨٥٠	٢٠٥١	١٣١٥	٣٣٦١
	ر	٢٤٦١	١٠٦٨	٢٧٧١	٣٣٤	٤١٠٥
		٤٣٠٦	١٩١٨	٤٨٢٢	٢٦٤٩	٧٤٧١
٢ - نسج الحرير الطبيعي والصناعي والنايلون	ح	٦٢٧	٨٢	٦٦٩	٣٥٠	١٠١٩
	ر	٥٩٠	٣٩	٥٦٣	٢١٥	٧٧٨
		١٢١٧	١٢١	١٢٣٢	٥٦٥	١٧٩٧
٣ - غزل الصوف	ح	١٨	١٧	٢١	٣٧	٥٨
	ر	٢	–	٢	–	٢
		٢٠	١٧	٢٣	٣٧	٦٠
٤ - غزل الصوف (يدوي)	ح	١٤٩	٦١	٥٩	١٧	٦٠
	ر	٧٥١	٢٥	٧٧٤	٧٧	٨٥١
	م	٩٠٠	٨٦	٩٣٣	٩٤	١٠٢٧
٥ - عزل ونسج الألياف النباتية الأخرى (يدوي)	ح	٨٤	٣٨	١٠٤	٤٧	١٥١
	ر	٢٧٩	٦٣٦	٢٨٧	٢١٣	٥٠٠
	م	٣٦٣	٦٧٤	٣٩١	٢٦٠	٦٥١
٦ - صباغة الخيوط والمنسوجات	ح	١١٠	٦٧	١١٨	٢١٤	٣٣٢
	ر	٧	٢	٨	٣	١١
	م	١١٧	٦٩	١٢٦	١٢٧	٣٤٣
٧ - طبع المنسوجات	ح	٦	١٢	٤	٢٧	٣١
	ر	–	–	–	–	–
	م	٦	١٢	٤	٢٧	٣١
٨ - التطريز	ح	٦٢٧	٤٥٨	٧٩٧	٤٧٣	١٢٧٠
	ر	٧	٢	٩	–	٩
	م	٦٣٤	٤٦٠	٨٠٦	٤٧٣	١٢٧٩

(تابع) ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

النشاط الاقتصادي		عدد المنشأة	عدد الصبية والمتدربين	عدد المشتغلين		
				أصحاب العمل	عاملين	جملة
٩ - صناعة المنتجات المصنوعة من الأقمشة	ح	٤٥	١٤	٥٨	٤٣	١٠١
عدا الملابس مثل صناعة الخيام المفروشات	ر	١٥٦	-	١٦٣	-	١٦٣
المنزلية فوط ومفارش المائدة	م	٢٠١	١٤	٢٢١	٤٣	٢٦٤
١٠ - صناعة منتجات التريكو	ح	٢٨٩	٤٢٥	٣٣٢	٨٢٩	١٦١
وشغل الإبرة	ر	٩٠	٢٤	٩٢	٣٩	١٣١
	م	٣٧٩	٤٤٩	٤٢٤	٨٦٨	١٢٩٢
١١ - صناعة السجاد	ح	٣٢٣	٦٣٣	٣٦٩	١٧٥	٥٤٤
	ر	٢٤١	٤٤٢	٢٦٦	٨٧	٣٥٣
	م	٥٦٤	١٠٧٥	٦٣٥	٢٦٢	٨٩٧
١٢ - صناعة الكليم	ح	٧٨٨	٤٨١	٨٥٢	١٨٥	١٠٣٧
	ر	١٥٣	١٤٠	١٦٨	٢٦	١٩٤
	م	٩٤١	٦٢١	١٠٢٠	٢١١	١٢٣١
١٣ - صناعة المشايات والدواسات والبزال	ح	٥	-	٥	-	٥
	ر	٥٠	٧٥	٩٥	-	٩٥
	م	٥٥	٧٥	١٠٠	-	١٠٠
١٤ - صناعة الكليم من قصاصات الأقمشة	ح	٤٢٩	٥٦	٤٥٧	٥٠	٥٠٧
	ر	٣٦	٤	٣٩	٦	٤٥
	م	٤٦٥	٠٦٠	٤٩٦	٥٦	٥٥٢
١٥ - أنشطة أخرى لصناعة السجاد	ح	١	٢	١	١	٢
والكليم	ر	٤	٢٢	٣	٥	٨
	م	٥	٢٤	٤	٦	١٠
١٦ - صناعة الحصر من السمار	ح	٨٠٧	٤١٠	٨٧٦	٢١٥	١٠٩١
	ر	١٧٨٢	٨٧٤	١٩٦٨	١٦٤	٢١٣٢
	م	٢٥٨٩	١٢٨٤	٢٨٤٤	٣٧٩	٣٢٢٣

(تابع) ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

النشاط الاقتصادي		عدد المنشأة	عدد الصبية والمتدربين	عدد المشتغلين		
				أصحاب العمل	عاملين	جملة
١٧ - صناعة الأكباب وسدد الغاب	ح	٥	٣٧	٤	١	٥
	ر	٣	٢	٣	-	٣
	م	٨	٣٩	٧	١	٨
١٨ - أنشطة أخرى لصناعة الحصر	ح	-	-	-	-	-
	ر	١	-	١	-	١
	م	١	-	١	-	١
(٢) صناعة وتفصيل الملبوسات الجاهزة عدا الجمعية						
١٩ - صناعة القبعات وهياكلها وأغطية الرأس	ح	٥٠	١٣	٥٦	٢٠	٧٦
	ر	٣١	-	٣١	٣	٣٤
	م	٨١	١٣	٨٧	٢٣	١١٠
٢٠ - صناعة القفازات	ح	١	-	١	-	١
	ر	-	-	-	-	-
	م	١	-	١	-	١
٢١ - صناعة أحزمة الملابس	ح	٨	٤٨	٩	٤	١٣
	ر	-	-	-	-	-
	م	٨	٤٨	٩	٤	١٣
(١٣) صناعة الجلود والمنتجات من الجلد وبدائله والفراء والأحذية						
٢٢ - صناعة الحقائب من الجلد وبدائله عدا حقائب اليد للسيدات	ح	١٥٥	٧٢	٢١٠	٩٨	٣٠٨
	ر	-	-	-	-	-
	م	١٥٥	٧٢	٢١٠	٩٨	٣٠٨

(تابع) ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

النشاط الاقتصادي		عدد المنشأة	عدد الصبية والمتدربين	عدد المشتغلين أصحاب العمل	عاملين	جملة
٢٣ - صناعة حقائب اليد للسيدات	ح	١٩١	١٣٢	٢٤٧	٢٣١	٤٧٨
من الجلد وبدائله	ر	-	-	-	-	-
	م	١٩١	١٣٢	٢٤٧	٢٣١	٤٧٨
٢٤ - صناعة المحافظ والأكياس	ح	٣٦	٤٢	٤٧	٧٣	١٢٠
من الجلد وبدائله	ر	١	-	١	-	١
	م	٣٧	٤٢	٤٨	٧٣	١٢١
٢٥ - صناعة منتجات خان الخليلي	ح	٣٣	١٤	٣٥	٤٦	٨١
من الجلد	ر	-	-	-	-	-
	م	٣٣	١٤	٣٥	٤٦	٨١
٢٦ - صناعة السروج الجلدية	ح	٩٧	١٥	١٠٤	٢١	١٢٥
ومستلزماتها	ر	١١	١	١١	١	١٢
	م	١٠٨	١٦	١١٥	٢٢	١٣٧
٢٧ - صناعة الأحذية الجلدية	ح	٤٨٢٦	٢٠٧٧	٥٧٦٥	٢٦٣٣	٨٣٩٨
	ر	١٨٠٣	٢٥١	١٨٥٨	١١٩	١٩٧٧
	م	٦٦٢٩	٢٣٢٨	٧٦٢٣	٢٧٥٢	١٠٣٧٥
٢٨ - صناعة الشباشب والصنادل الجلدية	ح	٨٨	٤٢	١١١	٣٨	١٤٩
	ر	١٦	١	١٦	١	١٧
	م	١٠٤	٤٣	١٢٧	٣٦	١٦٦
٢٩ - صناعة البُلغ والمراكب الجلدية	ح	٥٣	٦	٦١	١٢	٧٣
	ر	٦٢	٦	٦٢	٢٥	٨٧
	م	١١٥	١٢	١٢٣	٣٧	١٦٠
٣٠ - صناعة وجه الحذاء من الجلد	ح	٧٥٣	٢٤٧	٩١١	٢١٨	١١٩٦
(الفوندي)	ر	١٣	-	١٣	١	١٤
	ك	٧٦٦	٢٤٧	٩٢٤	٢١٩	١١٤٣

(تابع) ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

النشاط الاقتصادي		عدد المنشأة	عدد الصبية والمتدربين	عدد المشتغلين		
				أصحاب العمل	عاملين	جملة
٣١ - أنشطة أخرى لصناعة الأحذية عدا	ح	٣٢	١٣	٤٧	١٥	٦٢
المصنوعة من المطاط أو البلاستيك	ر	-	-	-	-	-
أو الخشب	م	٣٢	١٣	٤٧	١٥	٦٢
(٤) صناعة الخشب والمنتجات الخشبية والفلينية عدا الأثاث						
٣٢ - نجارة الأرابيسك	ح	٣٢	١٥	٣٩	١٣	٥٢
	ر	١٦	-	١٦	-	١٦
	م	٤٨	١٥	٥٥	١٣	٦٨
٣٣ - صناعة البراميل الخشبية	ح	١٣	-	١٥	٣	١٨
	ر	١	-	١	-	١
	م	١٤	-	١٦	٣	١٩
٣٤ - صناعة الصناديق والأوعية	ح	٥٠	١٥	٧٣	٢١	٩٤
من الخشب	ر	-	-	-	-	-
	م	٥-	١٥	٧٣	٢١	٩٤
٣٥ - صناعة الأوعية من الجريد	ح	٦٤٤	١٢٧	٧١٦	١٠٤	٨٢٠
(الأقفاص)	ر	٦٩١	٦٢١	٧١٩	٢٥٧	٩٧٦
	م	١٣٣٥	٧٤٨	١٤٣٥	٣٦١	١٧١٦
٣٦ - صناعة الأوعية والسلال من الغاب	ح	٧٥	٦	٨١	١٢	٩٣
والصفصاف والخوص وعيدان الحناء	ر	٧٠٢	٧	٧٤٠	٢١	٧٦١
(المقاطف)	م	٧٧٧	١٣	٨٢١	٣٣	٨٥٤
٣٧ - صناعة السلع الصغيرة من الخيزران	ح	١٣	٣	١٤	٣	١٧
والجريد والغاب وعيدان الحناء (مثل	ر	٢٠	-	٢٠	-	٢٠
المنافض وأغلفة الزجاجات)	م	٣٣	٣	٣٤	٣	٣٧

(تابع) ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

النشاط الاقتصادي		عدد المنشأة	عدد الصبية والمتدربين	عدد المشتغلين: أصحاب العمل	عاملين	جملة
٣٨ - صناعة قوالب الأحذية من الخشب	ح	١٨	١٢	٢٦	٢٠	٤٦
	ر	-	-	-	-	-
	م	١٨	١٢	٢٦	٢٠	٤٦
٣٩ - صناعة منتجات الحفر على الخشب	ح	١٢	٤	١٣	٢	١٥
	ر	-	-	-	-	-
	م	١٢	٤	١٣	١٢	١٥
٤٠ - صناعة منتجات خشب وفلين	ح	٨٠٠	٢٤٤	٩٣٩	٢٧٦	١٢١٥
لم تصنف في مكان آخر	ر	٣٨٧	٢٩	٤١٠	٢٠	٤٣٠
	م	١١٨٧	٢٧٣	١٣٤٩	٢١٦	١٦٤٥
(٥) صناعة الأثاث والتركيبات عدا المعدنية						
٤١ - صناعة الأثاث من الخيرزان والجريد	ح	٨٦	٤٥٩٥	١٠٦٥٤	٣٥٧٧	١٤٢٣١
وما شابه	ر	١٨	٥١٩	١٦٢٠	٢٩١	١٩١١
	م	١٠٤	٥١١٤	١٢٢٧٤	٣٨٦٨	١٦١٤٢
٤٢ - صناعة منابر المساجد للتنظيف	ح	٢٧٣١	٧٣٦	٢٩٦٠	٤٩٩	٣٤٥٩
والدهان	ر	١٥٠	٦٣	١٥٩	٢٧	١٨٦
	م	٢٨٨١	٧٩٩	٣١١٩	٥٢٦	٣٦٤٥
(٦) صناعة منتجات الخزف والصيني والفخار						
٤٣ - صناعة المنتجات الفنية والزينة	ح	٣	٢٢	٧	٥	١٢
من الخزف والصيني	ر	١	-	٥	-	٥
	م	٤	٢٢	١٢	٥	١٧

(تابع) ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

النشاط الاقتصادي		عدد المنشأة	عدد الصبية والمتدربين	عدد المشتغلين		
				أصحاب العمل	عاملين	جملة
٤٤ - صناعة منتجات الفواخير مثل	ح	١٧٩	١٣٤	٢٥٦	١١٦	٣٧٢
القلل والأزيار وأصص الزرع	ر	٤٢٦	٢٨٧	٤٩١	٣٨	٥٢٩
	م	٦٠٥	٤٢١	٧٤٧	١٥٤	٩٠١
٤٥ - صناعة التماثيل من الأحجار	ح	٣٣	٣	٤٠	١٢	٥٢
والرخام (منتجات خان الخليلى)	ر	-	-	-	-	-
	م	٣٣	٣	٤٠	١٢	٥٢
٤٦ - صناعة منتجات خامات تعدينية	ح	٩٩	٨٥	١٤٣	١٥٥	٢٩٨
غير معدنية لم تصنف في مكان	ر	٤	١	٤	٨	١٢
آخر (الطوب - المنتجات الفخارية	م	١٠٣	٨٦	١٤٧	١٦٣	٣١٠
للبناء والتشييد ، الجير ، المصيص)						
(٧) صناعات تحويلية أخرى						
٤٧ - صناعة المصوغات من الذهب	ح	٢٢٥	٦٤	٣١٥	١١٧	٤٣٢
	ر	١٤	-	١٦	-	١٦
	م	٢٣٩	٦٤	٣٣١	١١٧	٤٤٨
٤٨ - صناعة المصنوعات من الفضة	ح	٦٨	١٣	٩٥	٢١	١١٦
والمعادن الثمينة الأخرى	ر	١٤	١	١٥	-	١٥
	م	٨٢	١٤	١١٠	٢١	١٣١
٤٩ - صناعة المصنوعات المطلية بالذهب	ح	٢٢	٢١	٢٧	١٣	٤٠
(القشرة)	ر	-	-	-	-	-
	م	٢٢	٢١	٢٧	١٣	٤٠
٥٠ - صناعة النياشين والميداليات	ح	٤	١	٤	٢	٦
والشارات من المعادن الثمينة	ر	-	-	-	-	-
أو المطلية بها	م	٨٥	٢٩	١٠٢	٣٤	١٣٦

(تابع) ملحق رقم (١)

توزيع الحرفيين حسب النشاط الاقتصادي عام ١٩٧٤ (ريف وحضر)

النشاط الاقتصادي		عدد المنشأة	عدد الصبية والمتدربين	عدد المشتغلين		
				أصحاب العمل	عاملين	جملة
٥١ - أنشطة أخرى لصناعة المجوهرات والأصناف المماثلة (المجوهرات الثمينة الفضيات أدوات المائدة ، الطلاء بالمعادن الثمينة) .	ح	٨٥	٢٩	١٠٢	٣٤	١٣٦
	ر	٣	-	٣	-	٣
	م	٨٨	٢٩	١٠٥	٣٤	١٣٩
٥٢ - صناعة المكانس (فرش الأرضية)	ح	١٦٧	٨٠	١٨٨	٧٠	٢٥٨
	ر	١٦	٥	١٦	١٥	٣١
	م	١٨٣	٨٥	٢٠٤	٨٥	٢٨٩
٥٣ - صناعة الأعلام والشارات والبطاقات	ح	١	-	١	-	١
	ر	-	-	-	-	-
	م	١	-	١	-	١
٥٤ - صناعة الغرابيل والمناخل	ح	٥٢	٧	٦٢	١٤	٧٦
	ر	١٩	٣	٢٢	-	١٢
	م	٧١	١٠	٨٤	١٤	٩٨
٥٥ - الحفر على الخشب والعظم وسن الفيل تطعيم الخشب بالصدف والأرجوليت) الحفر على النحاس والمعادن الأخرى منتجات خان الخليلي	ح	٢٦٧	٢١٢	٣٤٢	١٩٥	٥٣٧
	ر	-	-	-	-	-
	م	٢٦٧	٢١٢	٣٤٢	١٩٥	٥٣٧

المصدر : جهاز الصناعات الحرفية والتعاون الإنتاجي ، إدارة الإحصاء والمتابعة ، حصر الحرفيين (ديسمبر ١٩٧٤) .

ملحق رقم (٢)

بطاقات الاخباريين



بطاقة الاخبارى رقم (١)
(حارة اليهود)

الاسم واللقب : ---

اسم الشهرة : --

الســن : ٧٣ سنة

الديانة : مسلم

محل الميلاد : مدينة طنطا

المستوى التعليمي : أمـي

الحالة الاجتماعية : متزوج وعنده أولاد وبنات متزوجين

المهنة الأساسية : رب حرفة بحارة اليهود ويمارس النشاط الحرفي حتى وقت إعداد الدراسة

محل الإقامة الحالي : يعيش مع أسرته في أحد أحياء القاهرة .

فترة الاقامة بحارة اليهود : مارس حرفته في حارة اليهود أكثر من ٥٥ عاماً متصلة ، منها ٣٣ سنة قضاها في ممارسة الحرفة مع اليهود ، يعتبر أكبر الحرفيين سناً ، تربطه بسكان الحارة علاقات طيبة فالجميع يأتون إليه للتحية والتحاور معه في شتى الموضوعات أو لأخذ المشورة. كما يكن له الجميع كل الاحترام بسبب كبر سنه وعلاقاته الطيبة معهم .

بطاقة الاخبارى رقم (٢)
(المغربلين وحارة اليهود)

الاسم واللقب : --

اسم الشهرة : --

الســن : ٥٨ سنة

الديانة : مسلم

محل الميلاد : المغربلين – القاهرة

المستوى التعليمي : أمـي

الحالة الاجتماعية : متزوج ويعول أسرة كبيرة الحجم .

المهنة الأساسية : رب حرفة بالمغربلين .

محل الإقامة الحالي : المغربلين .

فترة الاقامة بمجتمع البحث : ولد في المغربلين وعاش فيها طوال حياته ولايزال يعمل بمفرده في ورشته الخاصة كرب حرفة .

يتمتع بين التجار والحرفيين العاملين في المغربلين وحارة اليهود بروح المودة والاحترام .

بطاقة الاخبارى رقم (٣)
(حارة اليهود)

الاسم واللقب : --

اسم الشهرة : --

السن : ٦٥ سنة

الديانة : مسلم

محل الميلاد : القاهرة

المستوى التعليمي : أمي

الحالة الاجتماعية : متزوج ويعول أسرة كبيرة وله أبناء وبنات في التعليم الجامعي .

المهنة الأساسية : تاجر بحارة اليهود .

محل الإقامة الحالي : مدينة القاهرة .

فترة الاقامة بمجتمع البحث : أكثر من ٣٥ سنة .

تربطه علاقات بجميع الحرفيين في مختلف الأنشطة الحرفية نتيجة للتجاور الإيكولوجي وطول فترة اقامته بالحارة ، وأيضاً اشتغاله بالتجارة في حانوته الكائن بحارة اليهود ، حيث يتردد عليه معظم سكان الحارة .



ملحق رقم (٣)

دليل العمل الميداني



تعليمات لاستخدام الدليل

مقدمة : تعتمد عملية جمع البيانات الكيفية حول الحرف والصناعات التقليدية بين الثبات والتغير على قدرة الباحث على دقة الملاحظة وتدوين ما يلاحظه بعناية . وأيضاً على كيفية إدارة الحوار حول الموضوع المطلوب جمع بيانات عنه . وفيما يلي التعليمات التي يرجى من الباحث اتباعها عند استخدامه لهذا الدليل :

١ - تخصص صفحة مستقلة لكل سؤال بحيث يوضع رقم السؤال أو تكتب صيغة السؤال في أعلى الصفحة ثم يدون الباحث تحت السؤال الإجابة وردود المبحوثين . ثم يدون ملاحظاته الخاصة وتفسيراته للمواقف التي شاهدها .

٢ - يدون الباحث كل ما يذكره المبحوث أثناء المقابلة بالتفصيل مهما كان مألوفاً أو بسيطاً من وجهة نظر الباحث .

٣ - لايستخدم الدليل في يد الباحث أثناء إجراء المقابلة .

٤ - تحتاج الإجابة على أسئلة الدليل عدة زيارات للورشة في مواعيد مختلفة خلال الأسبوع. حتى يتاح للباحث رصد أكبر كم من البيانات الكيفية التي تهم البحث.

٥ - بعض أسئلة أو موضوعات الدليل لاتحتاج توجيهها للمبحوث وإنما يكفى للإجابة عليها ملاحظات الباحث .

٦ - روعى في صياغة أسئلة وموضوعات الدليل المرونة بحيث يتاح لمستخدم هذا الدليل أن يضيف أو يحذف ما يراه مناسباً ومتمشياً مع أهداف الدراسة .

دليل العمل الميداني
الحرف والصناعات التقليدية
بين الثبات والتغير

أولاً : بيانات أولية عن النشاط الحرفي والورشة :

١ - مجتمع البحث .

٢ - مسمى النشاط الحرفي .

٣ - نبذة تاريخية عن ممارسة النشاط الحرفي في مجتمع البحث .

٤ - وصف تفصيلي لموقع الورشة داخل مجتمع البحث وهل تقع على الطريق الرئيسى داخل مجتمع البحث أم تقع بعيداً عن هذا الطريق ؟

٥ - مساحة الورشة بالتقريب .

٦ - وصف مفصل عن المبنى الذى يضم الورشة .

٧ - المحتويات الداخلية للورشة (آلات ، معدات ، مواد خام ... إلخ) .

٨ - ملاحظة مدى ملائمة مساحة الورشة لأداء جميع مراحل العملية الإنتاجية ،وهل يتم أداء جميع المراحل داخل الورشة أم يتم بعضها خارج الورشة ، توضح بالتفصيل .

٩ - وصف الوظائف التي تؤديها الورشة فهل هي وظائف إنتاجية فقط للسلع الحرفية أم أنها إنتاجية وتجارية أم أنها تستخدم لعرض سلع إنتاجية غير حرفية إلى جانب المنتج الحرفي ؟

١٠ - الدور الذى يلعبه موقع الورشة في إحداث التفاعل الاجتماعي مع المشتغلين في ورش متجاورة إيكولوجياً وأيضاً مع سكان المجتمع المحلي .

١١ - وصف تفصيلى للظروف الطبيعية داخل الورشة من حيث التهوية ، مستويات النظافة والترتيب داخل الورشة ، مستويات الإضاءة ، الضوضاء المصاحب لأداء بعض العمليات الإنتاجية بسبب الأدوات المستخدمة في الإنتاج وتأثير درجة

الضوضاء على التفاعل الاجتماعي بين أعضاء الجماعة الحرفية داخل موقع العمل.

١٢ - ملكية الورشة والنشاط الحرفي وهل هي ملكية فردية خاصة لرب الحرفة أم أنها ملكية جماعية خاصة بالمشتغلين بالنشاط الحرفي ، أم أن ملكية المشروع الحرفي لغير الحرفيين ؟

١٣ - علاقة النشاط الحرفي بالمجتمع المحلي من حيث تدبير العمالة الحرفية ، مدى إعتمادية العملية الإنتاجية على أنشطة مساعدة متاحة في المجتمع المحلي ، التجاور الإيكولوجي لأنشطة حرفية وتجارية تحقق تكاملية النشاط الحرفي ، وعلاقة النشاط الحرفي بالقطاع الرسمي (توضح أشكال هذه العلاقة) .

ثانياً : العملية الإنتاجية والمنتج الحرفي

١٤ - عدد مراحل العملية الإنتاجية .

١٥ - التخصصية وتقسيم العمل وتوزيع الأدوار داخل العملية الإنتاجية وأشكال الاتصالات المختلفة التي تتم بين فريق العمل الحرفي . وهل يخصص دور حرفي محدد لكل حرفي أم يمكن للحرفي القيام بأي دور في العملية الإنتاجية . ومدى مشاركة رب الحرفة في القيام بدور إنتاجي في العملية الإنتاجية .

١٦ - عدد مراحل العملية الإنتاجية التي تقوم بها الورش الفنية الخارجية .

١٧ - وصف مفصل لأداء كل مرحلة إنتاجية من حيث استخدام الأدوات ، أو الآلات ، أو الاعتماد الكامل على المهارة اليدوية فقط أو استخدام الاثنين معاً .

١٨ - خصائص العملية الإنتاجية من حيث هل الإنتاج بالقطعة أم الإنتاج باليومية. أيضاً هل تقوم العملية الإنتاجية على إنتاج منتج حرفي واحد أم إنتاج منتجات متعددة ؟

١٩ - عدد ساعات العمل اليومي ومواعيد العمل .

٢٠ - نوع وجودة المواد الخام وطريقة الحصول عليها وأماكن تواجدها .

٢١ - الضوضاء المصاحبة للعملية الإنتاجية .

٢٢ - المستوى التقني للأدوات والآلات المستخدمة في العملية الإنتاجية ، فهل تستخدم العملية الإنتاجية أدوات يدوية بسيطة أم أدوات متطورة مثل المولدات الكهربائية بدلاً من استخدام الجهد العضلي أم تستخدم ماكينات تدار بمحركات كهربائية .

ثالثاً : العمالة الحرفية بالورشة

(أ) أرباب الحرف

٢٣ - الخصائص الديموجرافية لأرباب الحرف .وتشتمل على (السن ،الحالة الإجتماعية، الحالة التعليمية ، محل الاقامة الحالي والموطن الأصلي ومحل الميلاد) .

٢٤ - عدد المشتغلين من الأبناء بحرفه الوالد .

٢٥ - عدد المشتغلين من الأبناء بحرف أخرى غير حرفة الوالد .

٢٦ - المستوى التعليمي للأبناء .

٢٧ - تطلعات رب الحرفة في تحديد مهن الأبناء ومدى رغبته الملحة في توريث الأبناء حرفته .

٢٨ - طول فترة ممارسة النشاط الحرفي الحالي .

٢٩ - التحول من نشاط حرفي سابق إلى النشاط الحرفي الحالي (يذكر) .

٣٠ - كيف تم تنشئته مهنياً ومن تولى تعليمه وتدريبه والمدة التي استغرقتها فترة التدريب .

٣١ - فترة عمله وإقامته المستمرة في مجتمع البحث .

(ب) الصناع الحرفيون

٣٣ - عدد العمال الحرفيين في الورشة .

٣٤ - الخصائص الديموجرافية للصناع وتشتمل على السن ، الحالة التعليمية ، الحالة الاجتماعية ، عدد سنوات ممارسة الحرفة .

٣٥ - كيف تدرب الصانع على الحرفة ومن هو معلمه .

٣٦ - درجة القرابة لرب الحرفة .

٣٧ - عدد سنوات ممارسة العمل الحرفي في مجتمع البحث .

٣٨ - الألقاب المهنية المتداولة بين الصناع أنفسهم أو بينهم وبين رب الحرفة ، مع توضيح دلالاتها السوسيولوجية .

(جـ) عمالة الأطفال

٣٩ - عدد الأطفال تحت التدريب بالورشة ومتوسط أعمارهم ومستواهم التعليمي ، ومحل اقامتهم .

٤٠ - عدد الأطفال الذين يعملون بصفة مؤقتة (مثل تلاميذ المدارس والمتسربين من التعليم) .

٤١ - درجة قرابة الطفل لرب الحرفة وللحرفيين العاملين في الورشة .

٤٢ - الأدوار التي يقوم بها الأطفال خلال ساعات العمل اليومية داخل الورشة الحرفية وخارجها .

رابعاً : واقع الخصائص الحرفية

٤٣ - مدى اعتزاز الحرفي بحرفته وفخره بها مع توضيح مؤشرات هذا الاعتزاز والفخر؟

٤٤ - إلى أي مدى تتيح الحرفة تنمية مهارات المشتغل بها من وجهة نظره ؟

٤٥ - تنظيم أوقات العمل وأوقات الفراغ أثناء ساعات العمل ومستوى التداخل بينهما في موقع العمل .

٤٦ - مصادر تنمية القدرات الذاتية للحرفي .

٤٧ - أساليب التنشئة المهنية داخل الورشة .

٤٨ - التوارث المهني داخل الحرفة الصناعية والتحولات التي تطرأ عليه ومصادر هذه التحولات .

٤٩ - استقلالية الحرفي ذاتياً في أدائه للعمل .
٥٠ - مؤشرات التكامل بين الأدوار المتداخلة داخل النشاط الحرفي والعوامل المؤثرة على تلك المؤشرات على مستويات التعامل الداخلية والخارجية .

خامساً : أخلاقيات العمل الحرفي

٥١ - ملاحظة السلوك الاجتماعي داخل الورشة والمواقف الاجتماعية أثناء ساعات العمل اليومي لتوضيح مدى استمرارية بعض القيم التقليدية كموجهة لسلوك الحرفيين سواء في تعاملهم مع زملائهم أو تعاملهم اليومي مع رب الحرفة أو في معاملة الأطفال تحت التدريب . وتم تحديد القيم التالية :
(أ) احترام الصغير الكبير .
(ب) الطاعة والامتثال لأوامر رب الحرفة .
(جـ) التعاون بين أعضاء الجماعة الحرفية داخل الورشة وأيضاً مدى تعاونهم مع زملاء الحرفة الذين يعملون في ورش متجاورة إيكولوجياً .
(د) الإلتزام بتقاليد الحرفة أثناء أداء العمل .
٥٢ - طرق جذب المستهلكين للاقبال على شراء المنتج الحرفي .
٥٣ - المعايير المنظمة لعملية التنشئة المهنية للأجيال الحرفية والتحولات التي طرأت على تلك المعايير .
٥٤ - أساليب الثواب والعقاب للطفل (الصبي) أثناء فترة تدريبه .
٥٥ - مدى ثبات الألقاب المهنية المستخدمة في نظام الطوائف الحرفية (الأسطى ، الصنايعي ، الصبي) .
٥٦ - مدى قبول أو مقاومة الحرفيين لأي تطور تقني في أسلوب الأداء أو نوع المنتج .

سادساً : استمرارية العمل في القطاع الحرفي

٥٧ - درجة رضاء الحرفيين عن عملهم في القطاع الحرفي وهل يمثل لهم هذا العمل مستقبلاً مهنياً .

٥٨ - دوران العمل ومدى رغبة الحرفيين في ترك عملهم الحالي والبحث عن فرص عمل بديلة سواء في القطاع الرسمي أو في الدول العربية النفطية

٥٩ - مدى رغبة الحرفي في الاستمرارية في العمل تحت وطأة الرأسمالية التجارية .

٦٠ - المشكلات التي تواجه رب الحرفة سواء في الحصول على المواد الخام أو تسويق المنتج أو عمالة الأطفال ، وعلاقة ذلك باستمراريته في ممارسة النشاط الحرفي .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٩٩١/٩٨٤٥ م
I.S.B.N
977 - 05 - 1077 - 8

مكتب النسر للطباعة
٣٢ (أ) ميدان ابن الحكم
ص . ب ٨١ حلمية الزيتون – القاهرة
ت : ٢٤٢٠٩٧١